سلسلة
التراث السلفي
- ١ -

دقائق التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية

جمع وتقديم وتحقيق
دكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ الثقافة الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - ص ب ٤٦٢٠
بيروت - ص ب ١١٣/٥٢٨١

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

مَا يَصْنَعُ أَعْـدَائي بي ...؟

أَنَا جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي

أَينَمَا رحْتُ فَهِيَ مَعِي

إِنْ حَبَسُونِي فَحَبْسِي خَلْوَة

وَإِنْ أَخْرَجُونِي مِنْ بَلَدِي فَخُرُوجي سِيَاحَة

وَإِنْ قَتَلُونِي فَقَتْلِي شَهَادَةٌ فِي سَبيل ٱللّٰهِ

«إِنَّ فِي صَدْرِي كِتَابُ الله وَسُنَّة رَسُوله»

الإِمَام ابن تيميّة

الرُّمُوز وَالإشَارات المُسْتَعْمَلَة في التَّحقِيق

د : ويرمز بها إلى نسخة تيمور .

ك : ويرمز بها إلى نسخة (الكواكب الدراري) :

س : ويرمز بها إلى طبعة السعوديه .

[ ] رمز للزيادة من المحقق .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . إنـه من يهدِه الله فلا مضل له . ومن يضلل الله فلا هادي له، ونصلي ونسلّم على خير خلقه وخاتم رُسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله ودعا الى سُنته الى يوم الدين .

وبعد . . .

أقدم إلى القارىء الكريم الطبعة الثانية من تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن كثر إقبال الطالبين له والمُشتغلين به درساً وتمحيصاً . وبدأت ثمار الطبعة الأولى تؤتي أكلها في شحذ همم المثقفين وخاصة المهتمين منهم بالتراث السلفي ـ نحو الإقبال عليه والأخذ منه بما يتناسب مع حاجة العصر ومقتضياته ، فكراً وعملاً .

ولقد أشرت في مقدمة الطبعة الأولى إلى أن شيخ الاسلام ابن تيمية لم يكتب تفسيراً كاملاً للقرآن كما فعل الطبري وابن كثير وغيرهما . وإنما كانت لـه نظراتـه في قضايا مجتمعه بمشاكلها الثقافية والاجتماعية والدينية وحاول أن يجد لهذه المشكلات حلولاً ناجحة على ضوء من الكتاب والسنّة . فكان تفسيره للقرآن مرآة لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه وهي كثيرة ومتنوعة . لذلك قد يجد القارىء الكريم بين ثنايا هذا التفسير ما لم يجده في التفاسير الأخرى ، وخاصة التي تعنى بالأسلوب ، وإعجازه ، أو بالإعراب وبيانه . ومما يدعو الى العجب أن معظم ما كتبه شيخ الاسلام حول تفسير القرآن تم له وهو حبيس سجنه الظالم . سواء في مصر ، أو في الإسكندرية ، أو في قلعة دمشق . فكان معظم وقته في سجنه يشغله بتدبر معاني القرآن وتفسيره .

ولقد دعاني إلى الإسراع بإخراج الطبعة الثانية لهذا التفسير أسباب كثيرة ، من أهمها أن الطبعة الأولى منه ظهرت منقوصة بسبب خطأ وقع من المطبعة التي تولت طباعته في المرة الأولى . فظهر منه أربعة أجزاء فقط انتهت إلى تفسير سورة المجادلة . وكان من المفروض أن تنتهي الى

نهاية تفسير المعوذتين . ولكن بسبب هذا الخطأ لم يظهر الجزء الخامس الذي شمل تفسير ابن تيمية من أول سورة المجادلة إلى نهاية المعوذتين . وهذا ما تداركناه في هذه الطبعة . وبذلك يظهر التفسير كاملاً في شكله الجديد (من الفاتحة الى المعوذتين) ، ولأول مرة بين يدي القارىء حرصاً منّا على إكمال الفائدة ، وإبراز آراء ابن تيمية في كثير من القضايا المتعلقة بحياة الناس والتي تستمد أصولها من الكتاب والسنّة .

ومن المفيد أن أنبّه هنا إلى أن عنوان هذا التفسير (دقائق التفسير) ليس من وضع ابن تيمية وليس من بين مؤلفاته على كثرتها كتاب يحمل هذا العنوان . وإنما كان ذلك إختياراً مني وليس وضعاً من ابن تيمية . فبعد أن إكتمل لدي تفسيراً كاملاً للشيخ جمعاً وترتيباً وتحقيقاً رأيت ان إختيار (دقائق التفسير) اكثر مناسبة من غيره لمطابقته للحال . ذلك أن ابن تيمية لم يقف أمام كل آية ليفسرها ؛ لأنه كان يرى أن في القرآن ما هو بيّن بنفسه ، ولو أراد أحد أن يفسره لأعماه على السامع . وفي القرآن ما هو دقيق على بعض الأفهام والعقول، وحاجة الناس في كل عصر الى بيان هذا النوع الدقيق أشد وأكثر . من هنا كان تفسير ابن تيمية عبارة عن بيان لدقائق المعاني القرآنية التي عزّ مطلبها على الكثيرين . ولذلك نجده في كثير من الآيات يصرّح بهذه العبارة : هذه آيات أشكل معناها حتى لا تجد عند الناس إلا ما هو خطأ في فهمها . وهذه العبارة تتردد كثيراً في تفسيره . ولذلك فقد آثرت إطلاق هذا الاسم (دقائق التفسير) على كثير مما كان يتردد في ذهني آنذاك .

ويعتبر هذا التفسير حلقة في سلسلة بدأناها منذ عشر سنوات . وهي سلسلة التراث السلفي . وهي تنقسم الى قسمين :

القسم الأول : نعنى فيه بتحقيق النصوص السلفية ونشرها .

القسم الثاني : ونعنى فيه بالبحوث والدراسات التي توضح معالم منهج السلف في قضايا الأصول والفروع . وكان اهتمامنا في هذه السلسلة موجهاً إلى البحث عن النصوص التي تربط المسلم المعاصر بأصول دينه النقية البعيدة عن مثارات الخلاف التي فرقت كلمة المسلمين وجعلتهم لقمة سائغة المذاق في فم الأعداء . كما عنينا في سلسلة البحوث والدراسات ، بإبراز الجوانب التي تعتبر محل اتفاق بين جماهير العلماء وأقطاب المذاهب ، لنحبك ركيزة لبناء وحدة فكرية نحرص عليها ونقدمها للمسلم المعاصر لتربطه بأصول دينه (الكتاب والسنّة) داعين له بترك مسائل الخلاف والتعصب للمذهب والهوى ، وليكن رائده في نظرته البحث عن الحق إنصافاً لدينه وللمسلمين . ولقد صدر عن هذه السلسلة إلى الآن .

من القسم الأول (المخطوطات) :

١ ـ دقائق التفسير (ستة أجزاء) .

٢ ـ كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله .
٣ ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كما طبع من القسم الثاني (بحوث ودراسات) :

١ ـ الامام ابن تيمية وقضية التأويل (ثلاث طبعات) .
٢ ـ أسس اليقين عند المدرسة السلفية .

ونحن نرحب بكل جهد مخلص، ورأي صادق في معاونتنا بالنهوض بهذه المهمة الضخمة التي نود من خلالها بعث وحدة فكرية تجمع المسلمين على كلمةِ سواء .

وإني لأتوجه بالشكر الصادق للأخ الفاضل محمد أديب كاتبه مدير مؤسسة علوم القرآن لاهتمامه بهذه القضية وحرصه الشديد على أن يتولى طبعها بنفسه مساهمة منه في حمل هذه الأمانة فجزاه الله خير الجزاء .

وفي النهاية أتضرع إلى الله تعالى أن يقبل مني عملي هذا . وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحقق به النفع والخير للمسلمين ، وأن يعيننا على إكمال ما بدأنا إنه نعم المعين .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنّا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله إلى يوم الدين .

لقد طالت معايشتي لتراث ابن تيمية ، بفكره الواضح وعقليته الفذة ، دارساً وباحثاً في آرائه واجتهاداته في شتى نواحي الثقافة الإسلامية أصولها وفروعها ، ووجدت في تراث هذا الرجل مثالاً فريداً في نضج التفكير ، ووضوح الرؤ ية ، وبُعد النظر ، وسعة المعرفة التي لا يملك قارئه إزاءها إلا العجب والدهشة ، فلقد منَّ الله على هذا الرجل بسعة في العلم وبسطة في رحابة الصدر لمجادلة خصومه لم تؤت لمفكر مثله ، شهد بذلك أعداؤ ه قبل أصدقائه .

وبعد طول الصحبة لابن تيمية والوقوف على سر عظمته وخلود فكره ، وددت كثيراً لو أنه ترك لنا ضمن تراثه ـ وهو كثير ـ تفسيراً للقرآن الكريم ، ولست وحدي منفرداً بهذه الرغبة ، فإن من يقرأ تراث الرجل ويعرف هذه العاطفة الدينية الملتهبة التي يتمتع بها في كل جزئية من مؤلفاته ، وينبض بها كل رأي من آرائه ، لا يجد مفراً من التساؤ ل : ألم يكتب هذا الرجل تفسيراً للقرآن . ؟

ولقد ترجم لابن تيمية كثيرون ، وكل من ترجم له لم يفته أن يشير إلى علو قدره في التفسير وعلومه ، فالذهبي في معجمه يشير إلى أن ابن تيمية « . . قد شرّع في تفسير القرآن فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراستين أو أكثر ، وبقي يفسر سورة نوح عدة سنين أيام الجُمَعِ بالمسجد » .

وفي موضع آخر يحدّثنا بأنه « . . . قد برع في التفسير ، وغاص في دقيق معانيه بطبعٍ سيّال ، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميّال ، وإستنبط منه أشياء لم يسبق إليها » [1] .

وفي الترجمة المطولة التي أفردها الذهبي لابن تيمية في كتابه الكبير « التاريخ الكبير » [2] قال عنه : وأما التفسير فمسلّم إليه ، وله من إستحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة ، وإذا رآه المقرىء تحير فيه ، ولفرط إمامته في التفسير وعظم إطّلاعه ، يبيّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث ، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير . . نحواً من أربعة كراريس أو أزيد » .

أما أبو الفتح اليعمري فقد قال عنه « . . . إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته . . » .

والذي يقرأ هذه النصوص يجد الرغبة قوية لديه في الوقوف على تفسير ابن تيمية لا سيما إذا كانت لديه معرفة سابقة بابن تيمية وبتراثه ، وبالمفتاح الحقيقي لشخصيته العلمية ، لكن سرعان ما تتحول هذه الرغبة إلى سراب عندما يحدّثنا أحد أصفياء الشيخ المقربين إليه وهو أبو عبد الله بن رشيق إذ يخبرنا بأنه سأل ابن تيمية أن يكتب تفسيراً للقرآن . فأجابه ابن تيمية قائلا : إن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه ، وفيه ما قد بينه المفسرون ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ، ويفسّر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها [3] . . .

فهذا النص من ابن تيمية يوضح لنا أنه لم يضع تفسيراً كاملاً للقرآن وإنما اهتم ببعض الآيات التي أشكلت على غيره من المفسرين ، والتي لم يجد لها تفسيراً يروي ظمأه وتعطشه نحو ما فيها من معانٍ سامية ودقيقة غابت عن كثير من العلماء .

يتحدث ابن تيمية في مقام آخر عن نهمه بالتفسير وعلومه فيقول « ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وابراهيم علمني » [4] ، ويكتب إلى تلمذة ابن رشيق فيبين له مدى ما فتح الله عليه به من معاني القرآن وهو في سجنه فيقول : « قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان أكثر العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن » .

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لأبي الفرج الحنبلي ٢/٣٨٨ .

(٢) طبع الجزء الأول منه بتحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة سنة ١٩٧٥ طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ٢٧ .

(٤) العقود الدرية ص ٢٩ .

هذه النصوص حين يتأملها الباحث يجدها تشير الى حقيقتين مهمتين في موقف ابن تيمية من تفسير القرآن :

الحقيقة الأولى : أن هذا الرجل قد شغل نفسه بتفسير القرآن وفهم وإفهام معانيه ، وإستنباط الدقيق من المعاني من أحكامه في مسائل الأصول والفروع . وأنه قد بهر عقول معاصريه في ذلك الشأن .

الحقيقة الثانية : أنه لا يوجد بين أيدينا نص صريح يشير إلى أن ابن تيمية قد وضع تفسيراً كاملاً للقرآن على نمط غيره من المفسرين ، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ابن تيمية نفسه لم يُشِر في أي من كتبه إلى أنه قد وضع تفسيراً للقرآن كعادته المطّردة في الإشارة إلى كتبه المختلفة وإحالته القارىء إليها من حين لآخر . وإذا أضفنا إلى ذلك ما كتبه ابن تيمية إلى تلميذه ابن رشيق من أن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه فلا يحتاج إلى تفسير تحقق لدينا أنه لم يضع تفسيراً كاملاً للقرآن على منوال ابن كثير والطبري وغيرهما ، وإنما شغل الرجل نفسه بما رآه مشكلاً أمام نظر العلماء ، وإذا صح لنا ذلك فكيف نفسّر أقوال الذهبي واليعمري وغيرهما مما يفيد أنه فسّر القرآن وأنه ظل يفسّر سورة نوح عدة سنين . . ؟ وكيف نفسّر قول ابن تيمية بأنه ربما قرأ حول الآية الواحدة نحو مائة تفسير . . ؟

الأمر في ذلك يحتاج إلى مزيد من التأمل في حياة الرجل اليومية وسلوكه مع معاصريه ، فإن حياة ابن تيمية كانت سلسلة من الكفاح المستمر ضد مخالفيه من أهل الكلام والفلسفة والتصوف والمشتغلين بالسياسة واتباعهم . والفترة التي جلس فيها للفتيا كانت عقب وفاة أبيه ، وهي نفس الفترة التي أخبر عنها الذهبي بأن ابن تيمية ظل يفسر سورة نوح عدة سنين بالجامع ، ومما ينبغي أن يعلم أن الرجل كان يشغل درسه بتفسير القرآن إلقاءً ومشافهةً وليس تسجيلاً وكتابةً . وهذه الفترة كانت في سن مبكرة من حياة ابن تيمية ، فإذا علمنا أنه ولد سنة ٦٦١ هـ ، وأنه جلس للفتيا وله من العمر إحدى وعشرون سنة كانت هذه الفترة تبدأ من حوالي سنة ٦٨٢ هـ وبعدها ، وحياة ابن تيمية لم تظل هادئة ولم تطل فترة جلوسه للإفتاء وإنما أبعد عنها بمرسوم سلطاني قرىء في المساجد والطرقات بمنع الشيخ من الجلوس في المسجد والإفتاء،وكان ذلك عام ٦٨٠ هـ ، ومن هذه الفترة دخلت حياة ابن تيمية في سلسلة طويلة من الصراعات العنيفة مع خصومه ولم تترك له هذه الصراعات وقتاً هادئاً يخلو فيه إلى نفسه ليكتب فيه تفسيراً نمطياً للقرآن مع رغبته الشديدة في ذلك ، ولم يكن أمام الرجل من فرصة يغتنمها لتحقيق رغبته في تفسير القرآن . إلا وقت خلوته مع ربه في غياهب السجون وفي ظلمة المعتقلات .

وتفسير القرآن ليس عملاً عادياً في نظر ابن تيمية ، بل يحتاج إلى حظ وافر من الصفاء الروحي ، والشفافية الملهمة ، التي تصل الإنسان بربه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، ولعل في هذا سراً

لاستحضار العجيب لكل الآيات والأحاديث التي كان يحشدها ابن تيمية حول الموضوع الواحد مؤيداً أو مبطلاً ومعارضاً له . ولذلك فقد كان الشيخ يعتبر سجنه خلوة مع الله ، وناهيك برجل يقطع صلته بالخلق ليمدها مع الخالق . ولقد أشار ابن تيمية إلى ذلك بقوله : قد فتح الله علي في السجن في هذه المرة من معاني القرآن بأشياء كان أكثر العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن ، ولو بذل لي ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. يقول ابن رشيق [1] : وأرسل لنا الشيخ مع هذه الرسالة شيئاً يسيراً مما كتبه في الحبس ، وبقي لديه شيء كثير في سلة الحكم عند الحكام ، حيث أمر السلطان بإخراج كل ما كان عنده من كتب وأوراق وأقلام ومنع من الكتابة إلى أن فاضت روحه الطاهرة ، وأخذ الحكام ما كان عنده من أوراق وكتب بلغت ستين مجلداً وأربع عشرة رزمة .

وتسلسل الأحداث في حياة ابن تيمية يجعلنا نقول بأن مجموعة الأوراق التي بلغت أربع عشرة رزمة والمجموعة اليسيرة التي أرسلها إلى ابن رشيق ، منهما معاً يتشكل أمامنا ما قام به ابن تيمية بصدد تفسير القرآن . وإذا أضفنا إلى ذلك تفسيره المستقل لسورة الإخلاص والنور والمعوذتين نكون بذلك قد وضعنا أمام القارىء التفسير الكامل الذي كتبه ابن تيمية للقرآن .

وبهذا التحليل يمكن لنا أن نفسّر كلام الذهبي واليعمري بأنه كان منصرفاً إلى تلك الفترة التي جلس فيها الشيخ مفتياً ومفسراً بالمسجد . ولم يكن يسجل شيئاً من ذلك بل كان يلقي درسه بالمسجد مشافهةً لا كتابة كعادة المفتين بالمساجد . وربما كان بعض الحاضرين يسجل شيئاً من ذلك إلا أن هذا لم يكن عادة مطردة للحاضرين . بدليل أن ما جمع من إنتاج تلك الفترة كان أشبه بالآيات المختارة من السورة ؛ فكان كل واحد يسجل ما يروق له وما يعنى هو به . بخلاف السور التي عني بها ابن تيمية نفسه ووقف نفسه على تفسيرها مثل سورة الاخلاص ، والعلق ، فكان يغلب عليها طابع التنظيم والترتيب في تناول الآيات .

وشاءت إرادة الله تعالى أن يقوم ابن عروة الحنبلي (أحد تلامذة ابن تيمية) بجمع تفسير الشيخ في كتابه الموسوعي (الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري) الذي يزيد حجمه على الثمانين جزءاً ، يوجد من هذه المجموعة ستة أجزاء بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٥ تفسير ، ويشتمل الجزء السادس منها على جزء كبير من تفسير ابن تيمية .

ويتضح أمام القارىء الآن مدى صعوبة الحصول على تفسير كامل لابن تيمية ، إذ لم تشتمل هذه المجموعة السابقة إلا على بعض سور القرآن وما زال البعض الآخر مفتقداً .

ويتضح أمام القارىء مدى الصعوبة التي يلقاها الباحث حين يريد جمع وتصنيف تفسير

---

(١) هو عبد الله بن رشيق المغربي ناسخ من أهل دمشق ، قال ابن كثير : «كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية توفي سنة (٧٤٩ هـ - ١٣٤٩ م) .

كامل لابن تيمية ، فلقد قمت بصدد ذلك بإستقراء تراثه المطبوع منه والمخطوط ، وجمعت منه تفسيره للآيات المتفرقة المبثوثة في كتبه المختلفة ، ووضعت كل آية في ترتيبها الطبيعي من سورتها ، وعثرت خلال فترة البحث هذه على تفسيره لسورة الفاتحة مبثوثاً في إحدى المجاميع الخطية بدار الكتب المصرية أيضاً . هذا بالاضافة إلى أنه قد كتب تفسيراً منفرداً لكل من سورة النور ، والصمد ، والمعوذتين . ثم نشرت المملكة العربية السعودية أخيراً مجموع فتاوى ابن تيمية في ستة وثلاثين مجلداً إشتملت هي الأخرى على قسط كبير من التفسير .

وبعثوري على كل هذه المصنفات المتفرقة استطعت أن أشكّل منها تفسيراً شبه كامل للقرآن باعتبار سوره كلها وليس باعتبار آياته ، حيث إن الرجل كان مؤمناً بأن هناك من الآيات ما لا يحتاج إلى تفسير ومنها ما إذا حاولت تفسيره أعميته على القارىء . ويبدأ هذا التفسير من أول سورة الفاتحة وينتهي بالمعوذتين مروراً بجميع سور القرآن غالباً .

وهناك بعض الملاحظات التي أود أن ألفت إليها نظر الباحثين في تراث ابن تيمية ـ خاصة ـ إذا كان بحثهم يتعلق بموقف ابن تيمية من القرآن وعلومه .

الملاحظة الأولى :

إن ابن عروة الحنبلي صاحب (مجموعة الكواكب الدراري) قد وضع تفسيراً للقرآن ضمن هذه المجموعة المُشار إليها سابقاً بدأت من الجزء التاسع منها . وشغلت حوالي أربعة مجلدات . وجاء تسجيله لتفسير ابن تيمية متداخلاً مع تفسير ابن مرعي الحنبلي من هذه المجموعة . والذي درس ابن تيمية وعرف روحه في الكتابة ، والحوار ، والجدل ، وطريقته في إيراد النصوص للإستدلال بها لا يجد صعوبة في تلمُّس منهج ابن تيمية وروحه في كثير من تفسير ابن مرعي المبثوث في مجموعة الكواكب الدراري ، مما يدعو الى التساؤ ل : هل كتب ابن مرعي هذا التفسير المنسوب إليه كله ؟. أم أنه كتب البعض وأضاف إلى نفسه بعض ما كتبه ابن تيمية في كثير من ذلك أم إن صاحب مجموعة الكواكب الدراري قد إختلط عليه الأمر ؟. هذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة ألفت النظر إليها . غير أني أشك الشك كله في نسبة كثير من هذا لتفسير إلى ابن مرعي وخاصة تفسير سورة الأحزاب ، وسبأ ؛ فإن روح ابن تيمية تكاد تسري بين سطور هذا الجزء من التفسير . ولا يتسع المقام هنا لعرض النصوص ومقارنتها ليتبين لنا ما نريد ، لكن ذلك لا يعفينا من لفت نظر الدارسين إلى هذه المشكلة .

الملاحظة الثانية :

وتتعلق بمنهج ابن تيمية في التفسير ، فإن الرجل لم يتناول آيات السورة الواحدة بنفس

الترتيب الموجود في المصحف ، ولم يعن نفسه بمشكلات الإعراب والبيان ولا بمشكلات اللغة عموماً إلا إذا عرضت له تأكيداً لمعنى ، أو ترجيحاً لدلالة معينة للكلمة على دلالة أخرى قد تراد منها ، وإنما صرف وكده إلى البحث عن حلول ناجحة تلمسها في القرآن لمشكلات عصره وقضايا مجتمعه التي عاشها واكتوى المجتمع الاسلامي بنارها ، فكان يعرض للآية خلال بحثه عن حل للمشكلة المعينة فتجده حين يعرض لمشكلة ما يجمع كل الآيات التي تتعلق بها في القرآن ، ثم يورد ما شاء من الأحاديث الموضحة والشارحة ، ثم يأتي بنصوص السلف من الصحابة والتابعين ، فيجمع في علاجه للمشكلة الواحدة بين نصوص الكتاب والسنّة وأقوال السلف ، وكان تفسيره بذلك أقرب ما يكون إلى التفسير الموضوعي للقرآن إن لم يكن هو كذلك .

وسوف يتأكد للقارىء صدق هذه الملاحظة فيما بعد .

منهج التحقيق :

لقد فرضت ظروف هذا العمل منهجاً معيناً في إخراجه بصورة علمية أدعو الله أن يرعاني فيها بتوفيقه وسداده . ذلك أن النسخ التي تحت يدي من هذا التفسير كانت كل واحدة منها ـ سواء في ذلك المطبوع والمخطوط ـ تبدأ حيث تنتهي الأخرى ، ولم يتوافر لدي نسختان على تفسير سورة واحدة إلا في القليل . غير أن هذه النسخ مجتمعة تشكل التفسير الكامل لابن تيمية .

ولقد قمت بالخطوات التالية لإخراج هذا التفسير :

١ ـ تتبع تراث ابن تيمية وجمع تفسيره للآيات المختلفة المبثوثة في كتبه ووضعها في مكانها من سورتها مشيراً بالهامش إلى مصدرها وقد كلفتني هذه الخطوة جهداً ووقتاً احتسبهما عند الله تعالى .

وكان لها فضل تزويد هذا العمل بالكثير من التفاسير المتفرقة ، ولولا هذه الخطوة لما أصبحت هذه الآيات ـ على كثرتها ـ ضمن تفسير ابن تيمية . ولبدا التفسير بدونها ناقصاً نقصاً شديداً ، وإذا علم القارىء أن هذه هي المرة الأولى التي يطبع فيها تفسير ابن تيمية كاملاً ومستقلاً أدرك ما لهذه الخطوة من أهمية قصوى في إخراج هذا العمل في شكله الكامل .

٢ ـ المقابلة بين النسخ إذا توافرت على موضع واحد واختيار القراءة التي نراها موافقة لروح ابن تيمية مع الإشارة بالهامش إلى ما في النسخ الأخرى .

٣ ـ ظهر في طبعة السعودية لبعض أجزاء التفسير نقص في بعض المواضع وخطأ في قراءة النص في مواضع أخرى وهي كثيرة فأكملت النقص في ذلك من النسخ المقابلة مشيراً إلى كل ذلك في موضعه .

٤ ـ ترجمة الأعلام الواردة حسب أهميتها في السياق والموقف .

٥ ـ تخريج الآيات مع الإشارة إلى رقم الآية واسم السورة . وكذلك الأحاديث الواردة مشيراً إلى موضعها من الكتب الصحيحة .

٦ ـ تصحيح بعض الكلمات لغوياً مع الإشارة بالهامش إلى ما في المخطوط .

٧ ـ إضافة بعض الكلمات التي كان لا بد منها لتوضيح الجملة وحاجة السياق إليها مع وضعها بين معقوفتين [ ] إشارة إلى أنها ليست بالنص .

ولقد رأيت إكمالاً للفائدة المرجوة أن يشتمل الجزء الأول من هذا التفسير على بعض المقدمات التي كتبها ابن تيمية توضيحاً لمنهجه في فهم القرآن وتفسيره فأوردت ضمن هذا الجزء المقدمات التالية :

١ ـ مقدمة في التفسير .
٢ ـ مقدمة في الفرق بين التفسير والتأويل (المسمّاة برسالة الإكليل) .
٣ ـ مقدمة في شرح حديث : أنزل القرآن على سبعة أحرف .
٤ ـ مقدمة في رأي ابن تيمية في ترجمة القرآن .
٥ ـ مقدمة في كون القرآن آية صدق الرسول في دعوى الرسالة .

وكل هذه المقدمات كما يرى القارىء أمور لا بد منها لتوضيح منهج ابن تيمية واتجاهه في التفسير .

وفي أثناء ذلك كان لا بد من وضع بعض العناوين المناسبة للموقف توجيهاً للقارىء إلى الفكرة التي يدور حولها الحديث وتنظيماً للعمل مع وضع هذه العناوين بين معقوفتين ، أو قوسين تنبيهاً إلى أنها زائدة من المحقق للتوضيح .

وَصفُ المَخطُوطَات

مخطوطة « ك » :

وهي عبارة عن الجزء السادس من مجموعة الكواكب الدراري برقم ٦٤٥ دار الكتب المصرية جمع وتأليف الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

وهي مجموعة كبيرة من الآثار السلفية لابن حنبل وابن تيمية وغيرهما من علماء السلف جمعها وأضاف إليها ابن عروة الحنبلي ، ويوجد من هذه المجموعة ستة أجزاء بدار الكتب المصرية غير منتظمة في ترتيب الأجزاء ، وبقية أجزائها بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

ويقع الجزء السادس في ١٨٥ ورقة قطع كبير ، عدد أسطر الصفحة يتراوح بين ٢٨ - ٣٠ سطراً ، ويشتمل السطر على ١٣ - ١٥ كلمة وكتبت النسخة بخط نسخ غير واضح في كثير من المواضع بسبب عوامل الزمَن ، وهوامش المخطوطة خالية غالباً من التعليقات ، وفي بعض الصفحات يوجد بعض المقابلات والسماعات التي تدل على نسبة النسخة إلى مؤلفها وجامعها وهو ابن عروة الحنبلي . كما يوجد في بعض الأماكن ما يدل على ناسخ المخطوطة بذكر اسمه ولقبه .

وكتب على الورقة الأولى إلى جهة اليمين من أعلى بقلم كوبيا أحمر رقم ٦ وكتب في منتصف الصفحة إلى أسفل ما يلي :

> فيه تفسير سورة سبح وكلام الشيخ عليها مبسوطاً وتمام التفسير إلى آخر القرآن وكلام ابن القيم على كثير من السورة والشيخ لسورة إقرأ ولم يكن والكافرون والمعوذتان وغير ذلك من أقسام القرآن .

وفوق ذلك قليلاً إلى جهة اليسار كتب بقلم كوبيا وبشكل مائل من أسفل إلى أعلى ما يلي :

في أثناء سورة الغاشية مسائل فقهية للشيخ .

وكتب تحت ذلك بحبر أخضر عبارة :

كلام الشيخ في تفسير ﴿ ان علينا للهدى ﴾ في ٣ ورقات ،

وتحت ذلك بقليل كتب بنفس الخط :

في سورة التكاثر بيان الفرق بين علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين للشيخ . هـ ثم كتب إلى أسفل بحبر أسمر : سر التكرار في الكافرون للنفي .

وفي الصفحة التالية كتب ما يلي في منتصف الصفحة : وقف شيخنا الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركات منه .

وفي ظهر هذه الصفحة يبدأ التفسير بسورة الأعلى .

والأجزاء الستة الموجودة في دار الكتب من مجموعة الكواكب الدراري تشتمل - فيما تشتمل - على تفسير ابن مرعي للقرآن ، وهو تفسير سلفي على منهج المحدّثين ، ويشتمل أيضاً على بعض الرسائل لابن تيمية متداخلة في تفسيره ضمن محتويات الجزء السادس من هذه المجموعة . بحيث تحتاج الى مزيد من النظر للتفرقة بينها وبين تفسير ابن مرعي .

وقد اشتملت هذه المجموعة على تفسير بعض السور القصيرة من تفسير ابن تيمية . مثل « سورة الأعلى ، الشمس ، الليل ، العلق ، البينة ، الكافرون » وكتب في آخر سورة البينة ص **١٢٢** ظ وبخط مخالف العبارة الآتية :

آخر كلام شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .

وصف المخطوط (د) :

هذه النسخة عبارة عن رسالة ضمن مجموعة رسائل خطية لابن تيمية ولغيره موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٤ مجاميع تيمور ، تبدأ هذه الرسالة من الصفحة رقم (**٢٩ - ٨٤**) من المجموعة .

كتب في الصفحة الأولى منها (**٢٩**) عنوان الرسالة بخط نسخ كبير ، وفي وسط الصفحة « قاعدة جامعة في توحيد الله عزّ وجلّ وإخلاص العمل والوجه له » ، ثم كتب تحتها بحبر أحمر عبارة :

الحمد لله وحده

وكتب تحتها بخط صغير ما يلي :

« تصنيف شيخ الإسلام علم الأعلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه » .

ثم كتب تحتها بخط مخالف وإلى جهة اليسار ما يلي :

المانوية هم الثنوية القائلة بأصلين قديمين وهما النور والظلمة ، والمجوس القائلون بخالقين .

ويوجد في أسفل الصفحة إلى جهة اليسار ما يلي :

« لو فرض اثنان فلا يخلوان إما قادران على الاستبداد ، أو أحدهما ، أو التعاون ، فالأول يوجب الإستغناء عنه ، والثاني يوجب عجز أحدهما ، والثالث عجزهما ، وكله محال لمنافاته الآلهية ولزوم العجز لزوال القدرة عن مقدوره وأصل دلالتها مع لو كان فيهما .

وإلى جهة اليمين توجد عبارة :

طالع في هذا أبو صالح .

الشجري الشافعي .

رضي الله عنه .

وفي أسفل الصفحة كتب ما يلي :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما	يا عالماً بدبيب النمل في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم	قد قام وفدك حول البيت وانتبهوا

وأنت يا حي يا قيوم لم تنم .

وفي ركن الصفحة العلوى إلى جهة اليسار كتب عبارة : نصر بن محمد بن عثمان البرهمي ، وفي مقابلتها إلى المنتصف توجد كلمة « يعمرية » .

وتحتها كتب عبارة « من مجاميع محمد بن طولون » .

والمخطوط كتب بخطه نسخ واضح إلا في بعض الكلمات القليلة ؛ ويوجد في هوامش بعض الصفحات تعليقات بخط الناسخ كما في صفحات ٦١ ، ٦٣ ، مسطرة الصفحة ١٧ سطراً ، في كل سطر من ٧ ـ ٩ كلمات تقريباً ، ومساحة الصفحة ١٢ × ١٨ سم ، وتشغل الكتابة منها مساحة ٩ × ١٥ سم .

- ١ -

الإمام ابن تيمية
سيرة وتاريخ

(آ) **نشأته :**

هو الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني . ولد بحرّان في يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ، الموافق ٢٢ يناير ١٢٦٣ م . هاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام ٦٦٧ هـ الموافق ١٢٦٨ م [١] .

وفي دمشق استقر المقام به وبأسرته وهو ما زال غلاماً يافعاً في باكورة الصبا . نشأ محباً للعلم والعلماء ، لا يلوي على شيء غير الاشتغال بالعلم ، وكان والده عالماً مقدماً في الحديث مما جعل ابن تيمية شغوفاً بالإشتغال بالحديث ورجاله ، ولما نزل دمشق ذاع فضله واشتهر أمره ، وكانت له حلقات للدرس بمسجد دمشق . وتولى مشيخة الحديث بدار السكرية التي كان مقيماً بها والتي كانت أولى مدارس العلم التي احتضنت ابن تيمية وهو ما زال في سن الصبا [٢] .

حفظ القرآن الكريم وهو ما زال في سن الصبا ثم اتجه إلى تحصيل العلوم في الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام . سمع كثيراً من الفقهاء والمحدثين وقرأ عليهم وأخذ عنهم وناظرهم جميعاً وهو ما زال في حداثة سنه ، وانبهر بذكائه أهل دمشق لقوة حافظته وسرعة إدراكه . قال عنه الذهبي : كان يحضر المدارس والمحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار . ويأتي بما يتحير منه أعيان

---

(١) ابن عبد الهادي ، العقود الدرية ، ط أنصار السنة المحمدية .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣/٣٠٨ .

البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت [١] . وأثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاث مائة مجلد [٢] .

يقول الذهبي في معجمه : جلس ابن تيمية مكان والده بالجامع أيام الجُمَع لتفسير القرآن العظيم ، وشرع من أول القرآن . فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر ، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجُمَع .

ولقد غاص ابن تيمية في دقيق معاني القرآن بطبع سيال ونظر ثاقب وعمد إلى مواطن الإشكال فأزال ما فيها من غموض ، وأستنبط من معاني القرآن أموراً لم يسبق إليها في ذلك . وبلغ شأواً كبيراً في حفظ الحديث باسانيده ، والفقه وأصوله . وبرع في معرفة المذاهب واختلاف الفقهاء وفتاوى الصحابة والتابعين مع شدة استحضاره لرأي الصحابي أو التابعي وقت إقامة الدليل بشكل يبهر القارىء .

وكان إذا أفتى لم يلتزم بمذهب معين بل يفتي بما يقوم عنده دليله ، فنصر طريقة السلف وانتصر لها من المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، ورد على هؤلاء جميعاً ، وبيّن خطأهم في كثير من المسائل ، ونصر السنة بأوضح برهان وأقوى دليل . يقول كمال الدين بن الزملكاني :

كان إذا سئل ابن تيمية عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أن الرجل لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء إذا جالسوه استفادوا منه في مذاهبهم ، ولا يعرف أن الرجل ناظر أحد فانقطع عنه ، ولا تكلم في علم من العلوم إلا برع فيه . كان فارغاً عن شهوات الدنيا ، لا لذة له في غير طلب العلم ونشره والعمل به .

وكان علمه بالحديث ورجاله وعلومه لا يجاريه فيه أحد من أهل زمانه ، حتى قال فيه معاصروه : كل حديث لم يحفظه ابن تيمية فليس بصحيح . وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث والعالي منه والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه وأسانيده ، كان مرجع علماء عصره في عزو الحديث إلى الكتب الستة والمسند ، يقول عماد الدين الواسطي : كان ابن تيمية أصدق أهل زمانه عقداً وأصحهم علماً ، وأعلاهم في الحق انتصاراً له ، وأسخاهم كفاً ، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ ، ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع الحق .

وكانت دمشق في عصر ابن تيمية مهد العلماء من أمثال النووي وابن دقيق العيد والمزي

---

(١) العقود الدرية ، ص ٤ .

(٢) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١٤٧٦/٤ ط : حيدر آباد ١٩٥٨ م .

وابن جماعة ، وكانوا جميعاً يتوافرون على دراسة الحديث وأسانيدها لبيان الضعيف منها والحسن وغير ذلك من علومه . وكان بجوار مدارس الحديث مدارس الفقه والكلام التي جذبت إليها ابن تيمية وصرف إليها كثيراً من وقته وجهده ناقداً وشارحاً مفصلاً .

ومن أبرز الحركات التي ظهرت في عصر ابن تيمية ما كان بين الحنابلة والأشاعرة من منازلات ومناظرات ؛ فلقد لجأ الحنابلة في دراستهم للعقائد إلى المنهج الذي سلكوه في دراسة الفقه والمسائل الفرعية ، فكانوا يستخرجون العقائد من النصوص كما يستخرجون منها الأحكام الفرعية ، لأن الدين قد أتى بصريح ما يحتاج إليه الناس في كلا الأمرين ، بينما سلك الأشاعرة وغيرهم في ذلك مسلك الفلاسفة والمعتزلة حيث كانوا يستدلون على أصول العقائد بالأدلة العقلية والبرهان المنطقي . وفي دائرة الخلاف بين منهج الأشاعرة والحنابلة في أصول العقائد كانت مواقف ابن تيمية ومنازلاته . وكانت محنه وأيامه . فلقد أراد الرجل أن يعود بدراسة العقائد الإسلامية إلى مصدرها الأول خالية مما علق بها من فلسفات جدلية وآراء تقليدية في الوقت الذي انتصرت فيه الدولة لخصوم ابن تيمية من رجال الفقه وعلماء الكلام ، ومن هنا كانت حياة ابن تيمية سلسلة متصلة الحلقات مع الفقهاء والمتكلمين والصوفية ورجال الدولة ، فما كان يخرج من محنة إلا ليزج به في أتون أخرى . ولقد ذكر ابن كثير في تاريخه كثيراً مما وقع له من ذلك (١) .

ولن أحاول الخوض في تفاصيل ذلك ، فلقد كتب فيه الكثير ، ووضع كثير من الكتب في ترجمة ابن تيمية وحياته ومناقبه ، ومناظراته ومحنه ، ولكن يعنيني هنا أن أعرض بالحديث لجانبين هامين من حياة ابن تيمية أرى أنهما كانا أكبر عاملين في توجيه حياته وسبباً في كثرة ما حل به .

(ب) الأول ـ شجاعته في الحق :

لقد حرص ابن تيمية على سلامة المجتمع الذي فتح عليه عينيه فوجده صريعاً بين أعدائه من الخارج والداخل ، فهناك على حدود البلاد الإسلامية تقف جيوش التتار الذين أخذوا يهددون الدولة الإسلامية وحضارتها بزحفهم المتكرر على البلاد . ولا شك أن ابن تيمية ما زال يتردد في ذهنه بين الحين والآخر ما حل به وبأسرته من أثر غارات التتار على البلاد ، وما لاقته من مشقة وعناء حينما هاجرت إلى دمشق من جور التتار . ومن هنا لم يدخر جهداً في محاربة هذا العدو الذي جثم على صدور البلاد ، فأخذ يحرض المسلمين على ضرورة محاربته وتطهير البلاد منه (٢) .

ويحدثنا التاريخ عن كثير من مواقف ابن تيمية ضد غارات التتار وتحريضه المسلمين على القتال ، فلقد تقدم الصفوف في واقعة قشحب سنة ٧٠٢ هـ وأفتى الجنود بضرورة الفطر في

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٤ حوادث سنة ٧٠٥ ـ ٨٢٨ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١٤ حوادث ٧٠٥ ـ ٨٢٨ .

رمضان حتى يقووا على ملاقاة الأعداء ، وأفطر هو أمامهم ، وكان يبيت لياليه على الأسوار حارساً أميناً على أمن بلاده .

ولما عرف عنه الشجاعة والجرأة ، كان يقصده الناس عند المهمات ويلجؤون إليه عند الشدائد . فعندما هاجم التتار بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ ، وأصبحوا على مشارف دمشق ، اجتمع الناس بابن تيمية وطلبوا إليه أن يذهب على رأس وفد كسفير لهم لمخاطبة ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق ، ولما دخل على (قازان) ملك التتار كلّمه كلاماً أثار دهشة الحاضرين لجرأته وشجاعته ، حتى أن قازان نفسه تعجب منه وتساءل : من يكون هذا الشيخ ؟ إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه . ولا أوقع من حديثه في قلبي . ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه [١] .

ومما قاله لملك التتار في ذلك : « أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت » وكان في كلامه هذا خير عظيم حيث أخذ عهداً من قازان بعدم دخول البلاد .

وفي يوم مرج الصفر في هذه السنة وقد أوشك اليأس أن يتسرب إلى قلوب الناس من أثر التتار ، فلقد ارتفعت الأسعار وكثر العبث في البلاد وأراد التتار أن يستولوا على قلعة دمشق . فكتب قبجق إلى النائب بالقلعة أن يسلمها لهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور ، ولكن ما إن تسرب الخبر إلى ابن تيمية حتى نهض إلى النائب وكتب إليه « لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمها لهم إن استطعت » . فنزل أرجواش على أمر ابن تيمية وأرسل إلى قبجق يقول له « لن اسلمها لكم وبها عين تطرف » ، فكانت القلعة بذلك حصناً حصيناً للمسلمين من أعدائهم .

وفي سنة ٧٠٠ هـ شاع بين الناس أن التتار على مشارف دمشق لمهاجمتها ، فأخذ الناس يتركون البلاد نهباً للأعداء وطلباً للنجاة من جيوش التتار ، ففزع ابن تيمية إلى سلاطين مصر وحكامها يطلب منهم النصرة ومساعدة البلاد وأخذ يهدد سلطان مصر قائلاً : « إن كنتم أعرضتم عن البلاد وحمايتها أقمنا لها من يحميها ويستغلها في زمن الأمن . . ولو قدر أنكم لستم حكام البلاد ولا ملوكها ثم استنصركم على عدوه لوجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكام البلاد وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنها »[٢] .

وأكثر ما يكون ابن تيمية شجاعة عندما تواجهه المصائب والمحن ، ففي سنة ٧٠٧ هـ صدر مرسوم السلطان بحبس ابن تيمية لنيله من الصوفية وكلامه في شأنهم ، وطلب من القضاة

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة . ابن تيمية طبعة دار الفكر العربي ١٩٥٢ م ص ٣٧ ، وانظر تاريخ ابن الوردي ٢٨٧/٢

(٢) البداية والنهاية ١٥/١٤ .

والفقهاء الإفتاء في شأنه بالحبس ، ولكن لم يجد الفقهاء للشريعة مأخذاً عند الرجل حتى يفتوا في أمره بالحبس ، وتحير أمرهم في ذلك ، ولما وجد ابن تيمية الحيرة بادية على وجوههم تقدم بنفسه إلى الحبس قائلاً : « أنا أمضي في الحبس بنفسي وأتبع ما فيه مصلحة المسلمين » (١) .

(ج) الثاني : محاربة البدع والمبتدعين :

لم تكن شجاعة ابن تيمية قاصرة على الجانب الوطني من حياته ، فإن حبه لدينه وتمسكه به قد أخذ عليه تفكيره فأخذ يعمل على تنقيته مما علق به من الشوائب وما دخل فيه من البدع والمنكرات التي استفحل أمرها ، واستشرى خطرها على المجتمع .

ولقد أخذ هذا الجانب من حياته شطراً كبيراً من وقته وجهده ، وتسبب في إلحاق كثير من المحن والاتهامات به ، لأنه اعتبر ظهور البدع والمنكرات في البلاد الإسلامية مرضاً اجتماعياً حرص على سلامة المجتمع منه ، لأن انتشار الخرافات والبدع في مجتمع ما نذير فنائه ومقدمة انهياره وكسر شوكته في أعين أعدائه .

وطالما وقف ابن تيمية من مجتمعه موقف الطبيب الماهر بمأتى المرض وكيفية علاجه ، ولكن العلة قد استفحلت والداء قد استشرى ، فالبدع أصبحت عرفاً والمنكر عادة ، ومن العسير على المصلح تغيير العرف واستئصال العادة .

لهذا فقد بدا ابن تيمية في أعين مجتمعه وكأنه خارج عن العرف متمرد على العادة ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المحن والابتلاءات ، ومن المواقف الصعبة التي كان سلاحه فيها السنان حيناً واللسان أحياناً . وكانت طبيعة الرجل الشجاعة وراء كل مواقفه ، فلم يعبأ بذي سلطان فيتملقه ، أو ذي جاه فيواريه ، لأنه كان يملك من الحجج أقواها ، ومن الأسلحة أحدها .

ومن هنا فقد ناصب العداء لكل ذي بدعة على اختلاف مشاربها ، فتعرض بالنقد والتمحيص لمذاهب الفلاسفة والباطنية والشيعة والصوفية والقرامطة والإسماعيلية ، وكشف أستار هؤلاء وأولئك ، وانتصر للحق ولدينه منهم جميعاً .

ولقد اشتدت عداوة ابن تيمية للمتصوفة والباطنية ، وحرص على تخليص مجتمعه من خرافاتهم التي ملكوا بها عقول السذج من الناس ، معلناً لهم أنه لا يوجد طريق إلى الله غير طريق محمد ﷺ ، وليس هناك من هدى سوى هدى القرآن .

وقد اجتمع به الصوفية في حضرة السلطان ليكف عنهم ويترك لهم أحوالهم ، ثم أرادوا أن

---

(١) المرجع السابق ١٤/١٣٥ وما بعدها .

يظهروا أمامه نوعاً من حيلهم ودجلهم ، فقال لهم ابن تيمية : « أنه لا يسع أحد الخروج عن الشريعة بقول ولا بفعل ، وأن من أراد أن يدخل النار منهم فليغسل جسده في الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل النار ، ولو دخل النار لا يلتفت إليه ، لأن هذا نوع من الدجل » . ولما أعياهم الحديث معه انصرفوا قائلين للسلطان : نحن لا تتفق أحوالنا إلا عند التتار ولا تتفق أمام الشريعة (١) .

ومع شجاعة ابن تيمية في الحق فقد كان حليماً حيث يكون الحلم عزاً يشرّف صاحبه ، عفواً حيث يكون العفو من شيم العلماء ، فقد استحثه قلاوون على ان يستصدر فتوى بقتل العلماء الذين تكرر منهم الإفتاء بحبسه ، وكان الفقهاء والقضاة قد ناصروا أعداءه عليه ، فأراد أن يستغل الموقف ويستفتي ابن تيمية في قتلهم ، ولكن حلم الرجل وعفوه قد منعاه من ذلك ، وأبت عليه نفسه الشجاعة أن يقتنصها فرصة لقتل العلماء . فقد قال للسلطان : من آذاني فهو في حل مني . ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنت إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم » (٢) .

د ـ محنته ووفاته :

جرت الطبيعة البشرية على أن كل من علا نجمه واشتهر فضله كثر حساده وكثر الناقمون عليه . وما أكثر حساد ابن تيمية وما أكثر الناقمين عليه ، فإن لسان الرجل وقلمه لم يجعلا له من صديق ، لأنه لم يدار أحداً ولم يعرف النفاق إلى قلبه سبيلا .

وكان خصوم ابن تيمية هم قضاته من الفقهاء ، الذين كبر عليهم مخالفته لهم في فتاواهم وآرائهم . وفي أول محنة له عام ٧٠٥ هـ جيء به إلى مصر تنفيذاً لمرسوم السلطان بحبسه ، ولما حضر ابن تيمية أمام القضاة والفقهاء حاول أن يدافع عن نفسه فلم يمكنوه ، وادعى عليه ابن مخلوف بأنه يقول :

« أن الله فوق العرش حقيقة ، وأنه يتكلم بحرف وصوت » . فقال له ابن تيمية : من الذي سيقضي فيّ ؟ فقال ابن مخلوف : أنا .

فقال ابن تيمية : وكيف تقضي فيّ وأنت خصمي ؟

فغضب ابن مخلوف وأودعه السجن . وكان ذلك في يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٧٠٥ هـ ، وفي ليلة العيد نقل من حبسه إلى مكان آخر بالجب . وظل ابن تيمية حبيس هذا الجب عاماً كاملاً . وفي ليلة عيد الفطر من العام التالي سنة ٧٠٦ هـ ذهب بعض علماء مصر إلى نائب

---

(١) العقود الدرية ، ص ١٩٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٥٤ حوادث ٧٠٥ هـ .

الخليفة (سيف الدين سلار) وتكلموا معه في اخراج ابن تيمية من سجنه ، واشترط بعض الحاضرين ان يرجع الشيخ عن بعض معتقداته . ثم أرسلوا إليه ليحدثوه في ذلك ، فامتنع من الحضور أمامهم وتكررت الرسل إليه ست مرات لكي يحضر أمامهم ولكنه لم يلتفت إليهم وانقطع أملهم في الحضور ، فانصرفوا من عنده .

وفي يوم الجمعة ١٤ من صفر سنة ٧٠٧ هـ ذهب قاضي القضاة ابن جماعة إلى ابن تيمية واجتمع به (في دار الأوحدي) بالقلعة ، وتحدث معه بشأن خروجه من السجن ، ولكن ابن تيمية رفض الخروج من سجنه إلا برفع القيود والشروط التي اشترطوها معه ، وفي يوم ٢٣ ربيع أول سنة ٧٠٧ هـ حضر إليه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بنفسه واجتمع به في سجنه وأقسم عليه بالخروج من السجن وهو حر فيما يقول ويعتقد . . ولم يخرج ابن تيمية إلا بعد رفع القيود وإلغاء الشروط التي وضعوها من أجله . وخرج مع الأمير وبات ليلتها بدار الأمير سلار وحضر إليه وفود العلماء والفقهاء وأمر (سلار) بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه .

وفي شوال ٧٠٧ هـ شكى الصوفية منه أموراً إلى الدولة . وادعى ابن عطاء عليه أموراً لم يثبت منها شيء . غير ان الدولة فوّضت أمر ابن تيمية إلى الفقهاء ليروا فيه رأيهم حول ما يدعيه الصوفية ، فبعض الفقهاء قال: ليس على ابن تيمية شيء فيما قال .

ورأى ابن جماعة أن ذلك فيه سوء أدب .

ثم خيرته الدولة بين أمور : أن يسير إلى الاسكندرية أو إلى دمشق بشروط . وإما أن يودع السجن . ففضل ابن تيمية حياة السجن على البقاء خارجه مكمم الأفواه . ولكن بعض أصفياء الشيخ ألحوا عليه طلباً في السفر إلى دمشق ، فأجابهم إلى ما طلبوا تطييباً لخاطرهم .

وفي ٢٨ شوال ركب البريد إلى دمشق . ولم تمض عليه إلا ليلة واحدة ، وفي الغد أرسلوا خلفه بريداً آخر فردوه إلى مصر ثانية . فحضر عند ابن جماعة وكان عنده جمع من الفقهاء . فقال بعضهم أن الدولة لا ترضى إلا بحبس ابن تيمية ، وطلب ابن جماعة من القاضي المالكي أن يحكم بحبس الشيخ فامتنع القاضي وقال : ما ثبت ضده شيء ، فكيف أحكم عليه بالحبس ؟

فطلب من نور الدين الزواوي (قاضي المالكية) فتوقف القاضي أيضاً .

ولما رأى ابن تيمية حيرة العلماء بادية على الوجوه في شأن حبسه ، تقدم هو إلى السجن بنفسه قائلاً : أنا أمضي الى السجن بنفسي واتبع ما فيه المصلحة .

فقال القاضي : يجب أن يكون الشيخ في مكان يصلح لمثله .

فقيل له : إن الدولة لا ترضى إلا بمسمى الحبس . وأرسل الشيخ إلى الحبس . وكان كل ذلك بإشارة من نصر الدين المنبجي ، وظل الشيخ في سجنه يستفتيه الناس ويكتب لهم بما يجير

العقول من المسائل التي عجز غيره عن الإفتاء فيها .

ثم خرج الشيخ من سجنه . وأرسل إلى الاسكندرية وأقام بها فترة رأى خلالها الكثير من ألوان الاضطهاد والإرهاب الفكري ووشى به الصوفية لدى السلطان ، وحاولوا اغتياله والتخلص منه . غير ان الله قد قيض له ولغيره من حفظة كتابه من دافع عنه وخلصه منهم . ولكنهم نجحوا في إيداعه السجن مرة أخرى بالإسكندرية وسجن معه تلامذته والمنتمون إلى فكره ، وظل الاضطهاد يلاحقه داخل السجن إلى ان تولى السلطان محمد بن قلاوون ، فكان أول ما حرص عليه أن يخرج ابن تيمية من سجنه ، فطلبه من الاسكندرية يوم عيد الفطر عام ٧٠٩ هـ فجاء الشيخ معززا مكرماً . ودخل على السلطان في ٨ شوال . واجتمع به السلطان وحاول أن يصلح بينه وبين الفقهاء الذين أفتوا بسجنه .

وكان هذا أول عهد ابن تيمية بحياة السجون التي طاب له المقام فيها عن حياة يجبر المرء فيها على النفاق أو السكوت على الباطل ، وهذا نموذج من محاكمة الشيخ ومواقف الفقهاء والقضاة منه . واستمرت حياة ابن تيمية على هذا النحو . فما كان يخرج من سجن الا ليودع في غيره ، وما كانت تنتهي محاكمة إلا لتبدأ أخرى ، وكأن القضاة والفقهاء يتقربون إلى السلطان بالحكم على ابن تيمية والإفتاء ضده . ولم يضجر ابن تيمية من كل ما نزل به ، ولم ييأس من نشر دعوته في تصحيح المفاهيم الإسلامية في قلوب الناس . وكان يطمئن أصحابه بقوله : ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحت فهي معي . إن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن أخرجوني من بلدي فخروجي سياحة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله ، إن في صدري كتاب الله وسنّة رسوله .

وكان آخر ما وقع للشيخ ما جرى سنة ٧٢٦ هـ بسبب بعض آرائه .

ففي يوم الجمعة ١٠ شعبان سنة ٧٢٦ هـ قرىء بجامع دمشق مرسوم سلطاني يمنع الشيخ من الإفتاء واعتقاله . وحضر إليه ابن الخطيري بدمشق وأخبره بأمر السلطان ، فقال ابن تيمية : وأنا كنت منتظراً لذلك وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة ، ودخل الشيخ إلى باب القلعة معتقلاً . وفي يوم الأربعاء منتصف الشهر المذكور أمر قاضي القضاة باعتقال أصحاب ابن تيمية وتلامذته وغدر جماعة منهم ونودي بهم في الأسواق والطرقات تشهيراً بهم وتنكيلاً فيهم .

وظل ابن تيمية في سجنه سنتين وأشهراً . وقد أفتى بحبسه هذه المرة طائفة من أهل الأهواء على رأسهم القاضي المالكي الاخنائي .

وسبب سجنه في هذه المرة أنه أراد أن يصحح عقائد المسلمين في مسألة الزيارة وشد الرحال إلى المساجد وقبور الأولياء . فدبر اعداؤه الحيلة في فتواه وحرفوا كلمه وألفاظه وشنّعوا عليه بما لم

يقل به . وهذا أمر غير بعيد ولا مستبعد ، فإن هـذه الحيلة هي وسيلة السلطة في كل عصر ، تتخلص بها ممن تريد من العلماء العاقلين الذين لم ينافقوا ولم يركنوا الى وسيلة الرياء او المداهنة طلباً للنجاة ، مع ان ابن تيمية لم يمنع زيارة القبور ، ولم يقل بذلك ولم يمنع زيارة قبر الرسول ، وفتاواه في ذلك موجودة لمن أراد وإنما الذي منعه من ذلك هو شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة التي ذكرها الرسول في حديثه « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الخ .

ويملك من الأدلة على ذلك ما يفحم خصومه . . ولكن ما كان يرضى هؤلاء إلا حبس الرجل وإسكات لسانه وقلمه .

وفي يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ من الكتب والأوراق والدواة والقلم ، ومنع من الكتب والمطالعة ، وحملت كتبه في مستهل رجب الى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة ، وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة رابطة كراريس ، فنظر إليها الفقهاء والقضاة وتوزعوها فيما بينهم .

ولما منع عن ابن تيمية الزاد الروحي الذي كان أنيسه في سجنه اشتدت به علته ، وازداد به الضيق من تلك المعاملة السيئة . غير ان تلك الحال لم تدم طويلاً ، اذ فاضت روحه الطاهرة الى بارئها وكان ذلك ليلة الاثنين . لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ ، ومات الرجل في سجنه كما يقضي عظماء الرجال من أصحاب العقائد الثابتة والإيمان الراسخ الذي يجعل من صاحبه غصة في حلوق أعدائه فلا يتنفسون الا في غيبته ، ولا ينعمون بالحياة الا بعد رحيله .

وقد كانت جنازة الشيخ مثلاً واضحاً لقول أحمد بن حنبل : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم شهود الجنائز .

فقد شهد جنازة ابن تيمية من الخلائق ما لا يحصره عد ، يقول ابن البرزاني لقد اجتمع أهل دمشق لجنازة الشيخ اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر وديوان حاضر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته ، وانتهوا إليها . ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : مع أن الرجل قد مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان وكثير من الفقهاء والصوفية يذكرون عنه للناس أموراً منفرة لأهل الأديان . فهذا كلامهم فيه وهذه جنازته .

وهذه الجنائز هي الحد بين أهل البدعة وأهل السنة .

والتاريخ لا يغيب عنه شيء مما يدور في أيامه ولياليه ، فإن ابن تيمية قد قيل فيه الكثير مما يعاب عليه . كما قيل ويقال على غيره من أصحاب العقائد ، غير أن ذاكرة التاريخ لا تنسى شيئاً فهذا تراث ابن تيمية وهذه آراؤه . مأدبة شهية لمن سلمت منه النوايا وصدقت العزيمة . وما حدث لابن تيمية قد حدث ويحدث لغيره ، لكثير من اصحاب المواقف التي قد تغير وجه

التاريخ ، وما شنع به البعض على ابن تيمية قد يشنع به على غيره ، ولكن الزبد سوف يذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . وهذه سنة الله في خلقه .

فما جرى بالأمس قد يجري اليوم . وقد يجري مثله للكثيرين غداً . وعلى المرء ان يعي دروس التاريخ ليكون للدعاة فيها عبرة .

رحم الله ابن تيمية ، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء

- ٢ -

مَنهجُ ابن تيميّة في الإلهيّات

الذات - الصفات

لا شك أن البحث في قضية الألوهية بجوانبها الثلاثة (الذات ـ الصفات ـ الأفعال) من أصعب الأمور وأكثرها احتياجاً إلى اختيار الألفاظ الدقيقة المعبّرة عن المعاني المرادة نصاً لا تأويلاً . ذلك أن قضية الألوهية ذاتها من القضايا الشائكة التي قد يكثر فيها الزلل ويسهل الخطأ ما لم يكن هناك حرص مسبق على اختيار الألفاظ ، ولو كانت هذه القضية كغيرها من القضايا المحسوسة التي قد يعبر عنها المرء بما يراه من ألفاظ مناسبة لما شاهده منها ومن أحوالها ، لكان الأمر سهلاً ميسوراً ، فما أسهل على الباحث أن يعبّر عن الأمور المحسوسة له بالالفاظ المناسبة لأحوالها المعبّرة عن صفاتها سواء بالاشتقاق أو بالدلالة المباشرة ، اما بالنسبة لقضية الألوهية فإنه يختلف تماماً عن هذه القضايا الحسية ، ذلك أن البحث في قضية الألوهية يتعلق بأمور غيبية لا يمكن التعبير عنها إلا بالألفاظ المناسبة المعبّرة عن أحوالها وصفاتها ، ونحن لم نشاهد هذه الأمور الغيبية حتى نطلق عليها الألفاظ التي قد نراها أكثر مناسبة من غيرها أو قد نراها أكثر دلالة على المعنى المراد . وهذا هو سر الخطورة الكامنة في بحث قضايا الألوهية عموماً ، ومن هنا تأتي صعوبة اختيار الألفاظ ، ولشدة حرصنا على توضيح موقف ابن تيمية من هذه القضية من جانب ولصعوبة الخوض فيها من جانب آخر رأيت من الأفضل الالتجاء الى نصوص القرآن والسنة في تصويرها لقضايا الألوهية ، وفي نفس الوقت سوف أركز على نصوص السلف في تصويرهم هم لهذه القضية حتى نكون أمناء في التعبير عما نريد .

ولقد احتلت قضية الألوهية أهم جوانب البحوث الفلسفية في جميع الفلسفات القديمة والحديثة معاً ، ذلك أنها ـ كانت ولا زالت ـ أهم مشكلة واجهت العقل البشري في مراحل تطوره وفي مختلف المجتمعات والأجيال ، كما أنها احتلت في الوقت نفسه جزءاً هاماً من تراث الأديان السماوية (اليهودية ـ المسحية ـ الإسلام) ومن هنا اختلفت الحلول وتباينت التصورات العقلية

لهذه القضية من فلسفة الى أخرى ، وإذا كان هناك ـ ولا شك ـ وحدة متماسكة بين النصوص الدينية الصحيحة في الأديان الثلاثة حول هذه القضية وتصويرها ، إلا أن الاختلاف بدا عميقاً وواضحاً بفعل الشراح والمفسرين بين تصوير النصوص وتصور المتأولين لها ، فمالت نصوص وشروح اليهودية إلى التجسيم وبالغت في ذلك ، بينما مالت نصوص المسيحية الى التجريد حتى صار إلهها غير معقول فاخترعت له فكرة (الثالوث) حتى يقدر البشر على تصوره ، بينما وقف الإسلام وسطاً بين هؤلاء وأولئك فنزه الله عن تجسيد اليهودية وعن تجريد المسيحية معاً واخبر عن ذلك بأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١) .

ونجد في الإسلام أن القرآن يمثل همزة الوصل بين السماء والأرض ، وبين تصوير المعاني الغيبية وتصور المسلمين لها ، وبين الإخبار عن الذات الإلهية ، وما يجب لها من صفات الكمال وحكمة الأفعال ، وإيمان المسلمين بها وإذعانهم لها .

ولذلك فقد خص القرآن هذه القضية بكثير من النصوص التي تدل على المعنى المراد مباشرة وبدون تأويل ولا تحريف لمعناها .

فهناك آيات تتحدث عن الذات الإلهية وتصويرها للمسلم تصويراً مناسباً لمقدار تعقّل الإنسان لها وتصوره لكمالها .

وهناك آيات تتحدث عن الصفات الإلهية وما يجب لله من صفات الكمال التي ينبغي أن ينزه فيها عن مشابهة المخلوقين او مشاركتهم .

وهناك آيات أخرى تتحدث عن مظاهر الحكمة الواضحة في أفعاله والتي تلفت نظر المسلم ليستنبط منها الدلالة على حكمة الصانع في كل ما يفعل .

حديث القرآن عن الذات :

فإذا استقرأنا آيات القرآن التي تحدثت عن الذات الإلهية نجدها تخبر بأن ﴿ الله أحدٌ ، الله الصمدُ ، لَمْ يَلِدْ ، ولم يُولَدْ ، ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحدٌ ﴾ (٢) وبأنه تعالى ﴿ ليسَ كَمِثْلهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾ (٣) ﴿ وَلَهُ المَثَلُ الأَعلىٰ في السَّمَوَاتِ والأَرضِ ﴾ (٤) ، ﴿ هلْ تعلمُ لهُ

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

(٢) سورة الاخلاص .

(٣) سورة الشورى الآية ١١ .

(٤) سورة الروم الآية ٢٧ .

سمياً ﴾ (١) ، ﴿ ولله الأسماءُ الحسنى فادعُوهُ بِهَا ﴾ (٢) .

ففي هذه الآيات تجد القرآن يحرص على نفي قانون الوالدية ، والمولودية والمماثلة . والمكافأة ، فهو سبحانه لم يلد ، لم يولد وليس كمثله شيء ، ولا سمي له ، ولا كفواً له .

كما حرص أيضاً على إثبات أن له المثل الأعلى في السموات والأرض ، وأن له الأسماء الحسنى .

ولم تتعرض هذه الآيات لبيان كيفية الرب سبحانه ولم يوضح لنا ما كنه ذاته وما حقيقتها . بل نجد في القرآن ما يفهم منه ان السؤال عن كنه هذه الذات أو عن حقيقتها غير مرغوب فيه ، فحين سأل فرعون نبي الله موسى قائلاً : ﴿ ومَا رَبُّ العَالَمينَ ﴾ قال له موسى ﴿ رَبُّ السَّموَاتِ والأرْضِ ومَا بَينهُمَا ﴾ وصيغة السؤال « بما » تعنى السؤال عن الكنه والحقيقة فإذا قيل مثلاً : ما الإنسان بمعنى ما حده وما كنهه . فيقال في الجواب : إنه حيوان ناطق ، فيؤخذ في بيان كنه الإنسان وتوضيح حقيقته أمران :

الأمر الأول : اعتبار الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان وهو الحيوان .

الأمر الثاني : اعتبار صفة يختص بها الانسان دون سائر أنواع الجنس الذي ينتمي اليه وهي صفة الناطقية : وبدون هذين الأمرين لا يكون هناك بيان لحقيقة الإنسان ولا كنهه ، وإنما صح بيان حقيقة الإنسان هنا لأن له جنساً ينتمي إليه وهو الحيوان ، والأمر بالنسبة لله يختلف تماماً ، فهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ، ليس كمثله شيء ، فكيف يكون له جنس ينتمي إليه حتى يصح أن يقال ﴿ مَا رَبُّ العالمينَ ﴾ (٣) ورسل الله هم أعلم الخلق بالله وبصفاته ، ولقد أدرك نبي الله موسى ما في سؤال فرعون من لبس وخطأ ، فاعرض عن الإجابة عن السؤال المطلوب وأخذ يوضح لفرعون صفات الرب بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ، ولم يستطع موسى أن يبيّن له كيف هو ، أو ما كنه الرب ، وإنما عدل عن جواب ما هو إلى التعريف به بذكر صفاته المحسوسة للخلق ليستطيع أن يترقى المرء من المحسوس إلى تعقل الموصوف بهذه الصفات . أما كيف هو؛ أماكنه ذاته، أما حقيقتها، فلا يعلم ذلك إلا هو،ومن هنا نستطيع القول بأن كل آية وردت في القرآن الكريم تتحدث عن الذات الإلهية كان هدفها إثبات وجود الرب وإثبات ذاته وليس إثبات كيف هذه الذات ولا بيان حقيقتها او كنهها.

وإذا تساءلنا عن السبب الذي من أجله حرص القرآن على إثبات وجود الذات دون بيان

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥ .

(٢) سورة الاعراف الآية ١٨٠ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٣ .

كيف هذه الذات او بيان حقيقتها نجد القرآن نفسه قد أجاب صراحة على هذا السؤال بقوله تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً ﴾ (١) وعدم إحاطة العقل علماً به سبحانه راجع إلى قصور العقل وحدود إمكانه لتقبل المعرفة ، ذلك ان المعرفة العقلية قد تكون تصديقية وقد تكون تصورية ، فالمعرفة التصديقية هي تلك التي يستطيع العقل أن يتحقق من صدقها بالتجربة والمشاهدة ، مثال ذلك ، إذا اردنا أن نتحقق من صدق القضية القائلة بأن الماء يتركب من ايدروجين وأوكسجين بنسبة ٢ : ١ فإن ذلك يكون سهلاً إذا أخذنا العناصر المكونة للماء وأجرينا عليها التجربة لتثبت أن هذه القضية صادقة أو كاذبة .

أما المعرفة التصورية فلا تصبح يقيناً ما لم نتحقق من صدقها بالتجربة ، وإنما تظل هكذا خيالاً عقلياً ما لم يثبت الواقع صدقها ، كتصور العقل لما يمكن أن يحدث في المستقبل ، وكتصوره أيضاً للأمور الميتافيزيقية ، فإن معرفة العقل للهيئة المخصوصة التي قد يكون عليها المستقبل ، وتصور الهيئة التي تكون عليها الأمور الغيبية يعتبر من هذا النوع فنحن لم نر ما أخبرت عنه الشرائع من أمور البعث والحساب ، ولم نشاهد كيفية مأكل أهل الجنة وإنما كانت معرفتنا بها عن طريق الإخبار عنها بالآيات والأحاديث .

وما دام الانسان لم يشاهد هذه الأمور ولم يحس بها فلا يجوز عقلاً أن يجزم فيها برأي قاطع يعتمد فيه على مجرد التصور العقلي لما يمكن أن يكون ، وإنما ينبغي أن يلجأ إلى النصوص التي تخبر عن هذه الأحوال وعن كيفيتها ، لأن المطلوب في الإيمان بهذه الأمور هو الاعتقاد الجازم اليقيني ، ولا يكفي فيه مجرد التصور العقلي .

ومن المعروف أن العقول تتعامل مع الأمور المحسوسة على سبيل التحقق والتيقن ، أما مع الأمور التجريدية فتتعامل فيها العقول على سبيل التصور والتخيل ، من هنا كانت حاجة العقل إلى الدليل القاطع في الأمور الغيبية التي لا تخضع لتجربته الحسية ، والدليل هنا ليس إلا النص الصحيح من كتاب أو سنّة .

ومن ناحية اخرى فإن العقل البشري قد يدرك نفسه ، ويدرك ما دونه من أشياء هذا العالم ، ولكنه يعجز عن إدراك حقيقة ما فوقه من الموجودات ، كالملائكة مثلاً ، وكمعرفة الذات الإلهية على سبيل الحقيقة ، فإن معرفته بهذه الموجودات تظل قاصرة على مجرد التصور والتخيل ما لم يلجأ الى دليل يقيني من كتاب أو سنّة فيؤمن به ويعتقد صدقه .

ويبدو أن السلف كانوا أكثر فطنة وذكاء من المتأخرين ، لأنهم قد أدركوا هذه الحقيقة ، فعرفوا للعقل حدوده التي ينبغي الا يتجاوزها ، وأطلقوا له العنان في المعرفة الحسية المرتبطة بحياة

---

(١) سورة طه الاية ١١٠ .

الناس وشؤونهم اليومية فأثبت العقل فيها جدارته وكفاءته ، فأنتج لنا علم أصول الفقه والأحكام الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة ، وإلى جانب ذلك فقد برز دور العقل في كثير من أنواع المعرفة الإنسانية المرتبطة بالواقع ، فكان لهم دورهم البارز في علوم النحو والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب .

أما فيما يتصل بالأمور الغيبية فكان موقفهم العقلي منها يدل على أنهم كانوا أكثر احتراماً للعقل وأكثر خبرة بطاقته وحدوده ، فاعتصموا بالنص الصادق الذي جاء على لسان الرسول الصادق مخبراً عن الغيبيات وأحوالها ، فآمنوا باثبات ما أخبر به النص وصدقوا بوجوده ، ولم يتعرضوا للبحث في كيفيته لأن ذلك مما يعز على العقل الوصول إليه .

فلم يتخيلوا بعقولهم كيفيات محددة لما أخبرت عنه الآيات من الأمور الغيبية ، ولم يقولوا بتصورات عقلية مجردة لكيفية الذات الإلهية ، ولا كيفية الملائكة او العرش ، ولم يكن ذلك إهمالاً منهم للنظر العقلي كما يقول بعض الباحثين ، وإنما كان اعترافاً منهم بأن العقل وسيلة محدودة من وسائل المعرفة فلا يدرك غير الأمور المحسوسة على سبيل التيقن ، ويدرك الأمور الغيبية على سبيل التصور فقط وليس التيقن ، كما أن العقل ليس الوسيلة الوحيدة بل هناك وسائل اخرى للمعرفة ، والوسيلة اليقينية لمعرفة الأمور الغيبية على سبيل التيقن هي النص الصحيح وليس العقل منفرداً .

ولقد عبر السلف عن موقفهم هذا بعبارات تدل على صدق الإيمان القائم على الاعتقاد بصحة النص ، واحترام العقل معاً ، وتدل عباراتهم في ذلك على ذكاء وفطنة بحقيقة الموقف وبوسيلة الإدراك المناسبة له .

فلقد روى عنه ﷺ : « تفَكَّروا في آلَاءِ الله وَلَا تُفكِّروا في ذاتِه » ذلك ان التفكير في الآلاء والنعم يمكن للعقل أن يستنبط منها عظمة الصانع وحكمته وما يليق به من صفات الكمال والجلال ، فيعرفه حق معرفته ، والآلاء مبثوثة في أجزاءِ الكونِ من السماء الى الأرضِ ، وحث القرآن على التفكر فيها في كثير من الآيات مثل ﴿ قلْ انظرُوا ماذَا في السَّمواتِ والأَرضِ ﴾ (١) ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأَرضِ واختلافِ اللّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ ﴾ (٢) الخ .

ولم نجد في القرآن آية واحدة تطلب من المؤمن ان يتفكر أو ينظر في « ذات الله » أو يبحث عن كيفيته ، ولقد شبّه الرسول التأمل في ذات الله بالتأمل في جرم الشمس ، فكلما ازداد الإنسان نظراً إلى جرم الشمس ازداد بصره غشاوة وكذلك كلما إزداد الإنسان تأملاً في ذات الله إزداد حيرة .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٠

ومن هنا لفت الرسول نظرنا إلى التأمل في الآلاء والمخلوقين وصرف نظرنا عن التأمل في ذات الخالق .

وقال أبو بكر رضي الله عنه « العجز عن درك الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك » وقال أيضاً « سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته » .

كما روي عن علي بن أبي طالب في نهج البلاغة قوله إنه سبحانه « لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحيط به السواتر ، الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده ، وباشتباههم على ألا شبه له ، . . تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة ، وتشهد له المرائي لا بمحاصرة ، ولم تحط به الأوهام » (١) ، فهذه النصوص في جملتها تدل على أن موقف السلف من البحث في هذه القضية كان معتصماً بما ورد في القرآن عنها ، فآمنوا بالله رباً خالقاً واصرفوا أنفسهم عن البحث في كيفية هذا الرب أو حقيقته وكفاهم في ذلك أن يؤمنوا بأنه تعالى ليس كمثله شيء ، وأنه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ ﴾ وأنه لا سمي له ، وله الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى في كل كمال . فليس لك ان تتصور الكيفية التي يكون عليها لأنك لا تعرف كيفية أحواله ، وليس هناك شبه ما بينك وبينه ، بل ﴿ ليسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ (٢) من هنا كان الكيف عنه مرفوع فلا يقال كيف يأتي ولا كيف يسمع . . بل آمن السلف بما ورد به القرآن في ذلك بدون تأويل ولا تحريف ، ولم يتساءلوا هل استواؤه على العرش بملامسة أو من غير ملامسة ، وإذا نزل إلى سماء الدنيا هل يخلو منه العرش أم لا ، وحين يأتي يوم القيامة هل يكون ذلك بنقلة أو بغير نقلة لأن كل هذه الأمور لم يتعرض لها القرآن في حديثه عن الذات وصفاتها ، بل كان منهجه في ذكر الصفة هو إثبات الوجود لها وليس إثبات الكيف ، لأن إثبات الصفات فرع عن إثبات الذات يحتذى فيها حذوه ، يقول ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » موضحاً موقف السلف من هذه القضية :

انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف والأئمة على التسليم المطلق خاصاً بما جاء في الكتاب والسنّة عن الذات الآلهية وصفاتها ولم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال « بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية » كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا . ولم يبدوا لشيء منها أبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها . ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها . بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإجلال والتعظيم (٣) ولم

(١) نهج البلاغة ١/٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) سورة الشورى الآية ١١ .

(٣) أعلام الموقعين عن رسول رب العالمين لابن القيم الجوزيه ١/٤٩ ط الثانية سنة ١٩٥٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

نشهد لديهم هذا الجدل العقيم في أمور العقائد الذي وجدناه فيما بعد لدى متكلمي الإسلام من معتزلة وأشاعرة . ومن ثم لم تكن مسألة الصفات الآلهية موضع خلاف أو نزاع لدى كبار الأئمة من أمثال مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي والثوري وغيرهم . ولم نقرأ عن النبي ﷺ أو عن أحد من صحابته أنه توقف أمام آية من آيات الكتاب العزيز أو وصف من أوصاف الباري تعالى الواردة في الكتاب والسنّة ليستخرج من هذه الآية أو تلك مذهباً معيناً في فهم العقيدة كما حاول المتكلمون بعده . وبعد ان تفرقوا وتحزبوا ولم يثر عليه السلام جدلاً أو نقاشاً حول آية من الآيات التي تتحدث عن أفعال العباد كما أثاره حولها القدرية والجبرية . ولم ير عليه السلام نوعاً من التضاد أو التناقض بين آيات النوعين حاول أن يرفعه كما صنعت بعض الفرق الإسلامية فيما بعد .

وعندما يتحدث القرآن بقوله ﴿ يدُ الله فوقَ أيدِيهِمْ ﴾ أو عن استوائه على عرشه أو عن قبضته للأرض بيمينه وعن مجيئة يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، أو عن اتيانه في ظلل من الغمام . لم يقصد الرسول من كل ذلك إلى نوع من التشبيه أو التجسيم كما صنع المجسمة والمشبهة . كما لم يشأ الرسول أن يتخذ من قوله تعالى ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ مذهباً في الحلول او الاتحاد كما فعل المتصوفة . بل كان يدرك تماماً ما في هذه الآية الكريمة من معنى قوة الثقة بالخالق وتأييده لعبده المؤمن بما يملأ قلبه بالإيمان واليقين .

وإذا تحدث القرآن عن عظمة الله سبحانه ومباينته لسائر خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله في آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ وَيَبقىٰ وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والإكرام﴾ و ﴿ ليسَ كَمثلِه شَيءٌ﴾ و ﴿ هل تعلمُ له سمِّياً﴾و﴿ لَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ لم يحاول الرسول أن يحمل هذه الآيات او غيرها على إرادة مذهب معين في التنزيه كما فعلت المعتزلة ، لأن الغرض من مثل هذا القول إقناع الناس بأحقيته وحده سبحانه بالربوبية والألوهية ، وعلى هذا النحو كان موقف الصحابة والتابعين حيث كانت قوة الإيمان راسخة في القلوب ومهيمنة على النفوس ، ثم أخذت حرارة الإيمان تضعف في القلوب شيئاً فشيئاً . وكلما ضعفت قوة الإحسان بالإيمان برزت وتعددت نواحي الاختلاف ودواعي الفرقة .

ويقول المقريزي في كتابه العظيم « الخطط » مؤرخاً لهذه الحركة الفكرية « إن القرآن الكريم تضمن أوصافاً لله تعالى . فلم تثر التساؤ ل عند واحد من العرب عامة قرويهم وبدويهم . ولم يستفسروا عن شيء بصددها كما كانوا يفعلون في شأن الزكاة والصيام والحج وما اليه . ولم يرد في دواوين الحديث وأثار السلف أن صحابياً سأل الرسول عن صفات الله . أو اعتبرها صفات ذات أوصفات فعل . وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله من علم وقدرة وحياة وإرادة وسمع وبصر وكلام ، والمشتغلون بدراسة علم الكلام يعلمون تماماً أن مشكلة الصفات

الإلهية احتلت مكان الصدارة والأولية في تراث المتكلمين لأن منها نشأ البحث حول مشكلة التنزيه والتشبيه ، ومنها نشأ البحث في القضاء والقدر ، والعدل الالهي ، وعلاقة الله بالإنسان ، وخلق القرآن فهي تمثل روح علم الكلام ولبابه ..

ويقول ابن الماجشون فيما رواه أبو عبد الله بن بطة في كتابه العظيم « الابانة » مصوراً موقف السلف من قضية الألوهية ذاتاً وصفاتٍ : .. إنما أمرو بالنظر والتفكير فيما خلق بالتقدير ، وإنما يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان ، فاما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل ، وليس له مثل ، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو . وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ولا يموت به ولا يبلى .. إعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي حيث انتهى به، ولا تجاوز ما قد حد لك ، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر ، فما بسطت عليه المعرفة ، وسكنت إليه الأفئدة ، وذكر أصله في الكتاب والسنة ، وتوترات عليه الأمة ، فلا تخافن في ذكره وصفته .. ولا تخافن لما وصف لك من ذلك قدساً ـ وما انكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك في الحديث عن نبيك فلا تتكلفن علمه بعقلك ، ولا تصفه بلسانك واسكت عنه كما سكت عنه الرب ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكارك ما وصف منها .

وواضح في موقف السلف من هذه الصفات أنهم لم يقولوا أن هذه الصفات تشبه صفات المخلوقين بل نزهوا الله ـ ذاتاً وصفات ـ عن المشابهة وفي نفس الوقت لم ينفوا الصفات بدعوى أنها تقتضي التشبيه أو التجسيم ، فكان منهجهم إثبات الصفة لله ولكن بلا تشبيه ، وتنزيه الله عن المماثلة ولكن بلا تعطيل .

ولما قرأ المتأخرون أقوال السلف حول قضية الذات والصفات وعرفوا أنهم قد التزموا النص واعتصموا به خيل لبعض الباحثين أن عصر السلف قد انقضى دون أن يتحدث واحد منهم عن هذه القضية ، وقالوا أن السلف كان مذهبهم هو السكوت والتفويض لأنهم لم يشتغلوا بالبحث في هذه القضية لانشغالهم بأمور الجهاد ونشر الدعوة ، ولأنهم من جانب آخر لم تكن لديهم الدرية العقلية اللازمة لبحث هذه الأمور .

وهذا القول فيه اجحاف ومغالطة وجهل بموقف السلف ، وهنا شبهة لا بد من بيانها :

فإن للمتأخرين من علماء الكلام قد اعتبروا أن آيات القرآن التي تتحدث عن الصفات الإلهية من المتشابه الذي كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه وفوّضوا علمه إلى الله ، ولذلك شاع في كتبهم أن مذهب السلف هو الكف والتفويض ، وهذا القول ليس صحيحاً على اطلاقه ، ذلك أن السلف لم يقل واحد منهم أن آيات الصفات متشابهة لا يعلم معناها إلا الله . ولم ينقل إلينا عن واحد أن قوله تعالى ، وهو الغفور الودود من المتشابه الذي لا يعلمه إلا هو ، او أن معناها يشتبه بمعنى آية أخرى ، بل معنى آيات الصفات قد تكلم فيه السلف وأدلى كل منهم

بقوله . ولهذا لم يكفوا أنفسهم عن البحث في معنى الاية لأن القرآن نزل بلغة العرب وبألفاظهم والذي كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه هو تحديد كيفية الصفة التي تحدثت عنها الآيـة ، ولذلك يجب التنبيه إلى الفرق بين الموقعين .

(ب) حديث القرآن عن الصفات :

وإذا انتقلنا الى بحث موقفهم من الصفات الإلهية فسوف تجد انهم قد طبقوا نفس المنهج الذي سلكوه في موقفهم من قضية الذات على موقفهم من الصفات الإلهية ، فأثبتوا وجود الصفة التي ورد بها القرآن وآمنوا بها ولم يبحثوا عن كيفية الصفة ولا عن كنهها .

وإذا استقرأنا آيـات القرآن الكـريم التي تتحدث عن الصفـات الإلهية لم تجـد آية واحـدة فصلت القول في كيفية هذه الصفة بالنسبة لله ، وإنما وصف الله نفسه بها دون بيان لكيفية النسبة بين الصفة وموصوفها ، فالله تعالى وصف نفسه بأنه سميع عليم ، على كل شيء قدير ، عزيـز حكيم ، يخلق ما يشاء يحيي ويميت ، يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً ، الرحمن عـلى العرش استوى .

وصف نفسه بأن المؤمنين سوف يرونه يوم القيامة : وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة .

وأخبرت الأحاديث النبوية بأنه تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا . . الخ . الحديث وإذا تأملنا هذه الصفات في جملتها نجد أن منها صفات قد أطلق عليها المتكلمون اليها صفات المعاني ، أو صفات الذات مثل : العلم الحياة ، المسمع والبصر القدرة والإرادة ، الكلام .

قواعد المنهج السلفي في الصفات
كما يراها ابن تيمية

لا بد قبل الانتهاء من هذه المقدمة أن نشير في إيجاز ألى أهم القواعد التي استنبطها ابن تيمية وأشار إليها في العديد من كتبه باعتبار أنها تشكل ركائز لمنهـج محدد المعـالم سار عليـه السلف في موقفهم من الصفات الإلهية . واهتمام ابن تيمية بهذه القضية يرجع إلى أن هذه المشكلة ذاتها هي لب علم الكلام ـ كما سبق ـ ومحور الخلاف بين علمائه وحين يستنبط ابن تيمية هذه القواعد ويشير إليها فإنـه يقصد بـذلك أن يقـول لهؤلاء المختلفين هـذا هو منهـج السلف المستنبط من الكتاب والسنة . فلينظر كل منكم أن يضع قدمه من الصواب والخطأ .

١ ـ إثبات الوجود ونفي العلم بالكيف :

أيقن السلف أنه لا سبيل لنا إلى اليقين في المطالب الإلهية إلا اذا تلقيناها من جهة السمع .

وخاصة فيما يتعلق بمعرفة الذات الإلهية وصفاتها . فإن معرفة هذه الأمور على سبيل الكنه والحقيقة أمر فوق مستوى العقل البشري ، والله تعالى قد حجب جميع خلقه عن معرفة ما هو ، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفة ما إنيته أو كيفيته، لأنه سبحانه أجل من أن يدرك أو يحاط به علماً . إذ ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فنفى عن نفسه الأشباه والأمثال . ومنع من الاستدلال عليه بالمثلية . ثم فتح لهم أبواب معرفة من هو . ليتعرفوا بذلك على معبودهم . ونصب ذلك على الدليل الواضح وهو آياته وآثار صفاته من الخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر وغير ذلك من آياته في كونه [١] لذلك كان مطلوب السمع هو إثبات وجوده تعالى وليس إثبات كيفه .

٢ ـ القول في الصفات تابع للقول في الذات :

وإذا كانت معرفة الله على سبيل الكنه والحقيقة لا سبيل إليها فيجب أن تكون صفاته كذلك . لأن القول في الصفة كالقول في الموصوف يحتذى فيه حذوه . فإذا كانت ذاته لا علم لنا بحقيقتها فصفاته كذلك لا سبيل لنا إلى معرفتها على سبيل الكنه والحقيقة . والقرآن جرى في حديثه عن وجود الله على أن المقصود هو إثبات وجوده تعالى لا إثبات كيفيته . وإذا كانت كل صفة تتبع موصوفها فيكون الكلام في الصفات مقصوداً به إثبات وجود الصفة وليس إثبات كيفها [٢] . وهذا القول يجب طرده في الحديث عن الصفات عموماً ولا فرق في ذلك بين صفة وأخرى .

وإذا كانت ذاته لا تماثل الذوات فكذلك صفاته لا تماثل الصفات [٣] لأنه سبحانه لا تضرب له الأمثال بخلقه لا في ذاته ولا في صفاته .

٣ ـ الكتاب والسنة مصدر الإثبات والنفي :

بعد هذه المقدمات التي تعتبر أسساً لمذهب السلف في الصفات ، نرى أن القول في الصفات نفياً وإثباتاً يجب أن يتلقى من السمع . ودلالة القرآن على ذلك نوعان :

الأول : دلالته من جهة تلقيه عن المخبر به الصادق في كل ما أخبر به عن ربه . فما أخبر به الرسول نفياً أو إثباتاً فهو حق لأنه ما ينطق عن الهوى .

الثاني : من جهة دلالة القرآن بضرب الأمثال المتضمنة للأدلة العقلية الدالة على المطلوب . والأدلة العقلية التي تنبهنا اليها هذه الأمثلة تكون شرعية وعقلية معاً . أما شرعيتها فلأن الشارع قد نبهنا إليها . وأما عقليتها فلأنها تعلم بالعقل الصريح الواضح . ولا يقال حينئذ أنها لم تعلم

---

(١) العقل والنقل : ٤/١٢٧ ، مجموع الفتاوى : ٥ : ٣٠ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٥/٩٥ .

(٣) الرسالة التدمرية : ٢٦ ، العقيدة الحموية : ٤٧ .

إلا بمجرد خبر الصادق لأن الله إذا أخبر بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولاً عليه بخبر الصادق من جهة ، ومن جهة أخرى صار مدلولاً عليه بالأدلة العقلية التي نبه الشارع عليها ، وكلتا الجهتين داخل في دلالة القرآن التي تسمى شرعية (١) .

٤ ـ الأخذ بقياس الأولى في الإثبات والنفي :

والقرآن في عامة موارد الصفات على إثبات ما يستحقه الله تعالى من صفات الكمال . وليس في آية واحدة منها على النفي . بل عامة النصوص جاءت في ذلك على الإثبات . لكنه إثبات بلا تمثيل له بخلقه ؛ لأنه سبحانه لا كفواً له ولا سمى له ، وليس كمثله شيء . فهو سبحانه سميع بصير ، حي مريد يجيء يوم القيامة وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا (٢) .

ووصف الله بالكمال لا بد فيه من اعتبارين :
الأول : أن يكون هذا الكمال ممكناً في نفسه وليس ممتنعاً .

الثاني : ألا يكون مشوباً بنقص بوجه من الوجوه . وأن غيره لا يساويه في شيء من ذلك في مثل قوله ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (٣) .

فقياس الأولى هو طريق إثبات الكمال لله . فما كان كمالاً لغيره فهو أحق به منه لأنه له المثل الأعلى في كل كمال لا نقص فيه .

والكمال والنقص هما قطب الرحى في موقف السلف من الصفات نفياً وإثباتاً . فكل ما تضمن كمالاً لا نقص فيه فالله أحق به ، وكل ما كان نقصاً من صفات المخلوقين أو كان كمال متضمناً لنقص بوجه من الوجوه ، فالله أولى بأن ينزه عنه .

ومعنى الكمال والنقص يجب أن يؤخذ من الشرع حتى لا نصفه سبحانه بما قد يظن أنه كمال في حقه بالمقايسة على المخلوقين ، وهو ليس كمالاً بالنسبة له سبحانه .

وهذه طريقة شديدة في التنزيه . أخذ بها السلف في الصفات ، ثم لا يكفي في الإثبات مجرد نفي التشبيه ، لأنه لو كان ذلك كافياً لجاز أن يوصف سبحانه بما لا يكاد يحصى من صفات المحدثين مع نفي التشبيه . كما وصفه بعضهم بالحزن والبكاء .

فالاقتصار على ما قد يظن كمالاً مع نفي المماثلة ليس كافياً في التنزيه ، بل لا بد من الاعتماد في ذلك على ضابط مانع . فما سكت عنه الشرع نفياً وإثباتاً ولم يكن في العقل ما يثبته ولا

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : ٥/ ٤٠ .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم : ٤٦٥ ط أنصار السنة ، سنة ١٩٥٠ م .
(٣) سورة النحل الآية ١٧ .

ينفيه سكتنا عنه . ونثبت ما علمنا ثبوته من ذلك وننفي ما علمنا نفيه (1) .

والقرآن قد راعى في الإثبات والنفي معنى الكمال والنقص . ولم يراع معاني الجسمية والتركيب والحركة والحيز والجهة . التي تحدث عنها المتكلمون .

فهو موصوف بكل صفات الكمال الواردة في القرآن وليس في وصفه بشيء منها ما يوجب الجسمية ولا الحيز والجهة ولا التركيب . بل هذه المعاني والألفاظ مأخوذة من اعتبار عالم الغيب على عالم الشهادة وهذا خطأ كبير .

ومن المعلوم بالفطرة أن من يسمع ويبصر أكمل من الأعمى والأصم . كما نبه على ذلك القرآن بقوله ﴿ هَلْ يَسْتَوي الأعمى والبَصيرِ ﴾ (2) .

ومن يفعل بمشيئته أكمل من ذلك الذي يفعل اضطراراً .

وقد ضرب القرآن الأمثلة التي تبين أن إثبات هذه الصفات كمال ، ونفيها نقص .

فابراهيم الخليل في موقفه من أبيه ودعوته له يقول : ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً﴾ فدل ذلك على أن من يسمع ويبصر أكمل من فاقد السمع والبصر ، وفي وصف القرآن للأصنام التي عبدها المشركون من دون الله نجده يسلبها هذه الكمالات كما هي في نفسها كذلك . وذلك يدل على أن سلب هذه الصفات أو نفيها نقص (3) .

٥ ـ طريقة التنزيه ينبغي أن تؤخذ من السمع :

لقد كان موقف السلف واضحاً في ذلك لأنهم رأوا أن تلقى معنى الكمال والنقص بالنسبة لله لا يؤخذ إلا من السمع ، لأنه سبحانه أعلم بنفسه وما يجب له . أما المتكلمون فتلقوا ذلك عن عقولهم وعن الفلاسفة . والعقل في ذلك لا يوصل إلى يقين إذا عزل نفسه عن السمع . فما بالك إذا تدخل بتأويل السمع إلى ما يوافق معقوله .

ومن هنا كان منهج المتكلمين في الصفات ليس بسديد .

ولو سألنا المتكلمين عن السبب الذي من أجله تأولوا آيات الصفات بما يؤدي إلى نفيها . نجد إجابة كل منهم تختلف عن الآخر . فالمعتزلة تابعوا الفلاسفة في أن الصفات تستلزم التعدد والتركيب والافتقار أو مشابهة الحوادث .

---

(1) الرسالة التدمرية : ٨٥ .

(2) سورة الأنعام الآية ٥٠ .

(3) الرسائل والمسائل : ٤٨/٥ ، شرح العقيدة الاصفهانية : ٨٧ .

والأشاعرة تأولوا المجيء والاستواء والنزول لأنها تستلزم الحركة والانتقال والمشابهة للحوادث .

وهذا يدل على الاضطراب لدى جميع المتكلمين . لأنهم متفقون على أن الذات الإلهية لا سبيل إلى معرفتها بالكنه والحقيقة . وعامة أساطين الفلسفة يعترفون بأنه لا سبيل للعقل إلى اليقين في الإلهيات (١) .

وإذا كان هذا شأنهم في الحديث عن الذات فلماذا لا يجعلون الحديث عن الصفات كذلك ؟ فيجرون على الصفات ما قالوا به في حديثهم عن الذات .

وهل المعنى الذي فروا منه بالتأويل مسلم لهم فيما ذهبوا إليه ؟

بمعنى : هل المعنى الذي تؤولت إليه الآية قد سلم من المحذور الذي فروا منه ، سواء كان ذلك المحذور هو الجسمية أو الحركة ، أو المشابهة للحوادث ؟

لقد تأول المتكلمون صفة المحبة على معنى الإرادة ، وقالوا ان المحبة تستلزم ميل القلب وهذا من صفات النقص . ولذلك يجب تأويلها بالارادة ، ولو خاطبناهم بلغتهم لقلنا لهم « إن الإرادة تستلزم العزم والهم بفعل الشيء بعد ان لم يكن ، وهذا من صفات المحدثين أيضاً (٢) فما فروا منه وقعوا فيه .

٦ ـ الجمع بين الإثبات والتنزيه :

والحديث عن الصفات ليس كافياً فيه مجرد نفي التشبيه أو مطلق الإثبات من غير تشبيه . وذلك لأنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر مميز ، فالنافي إن اعتمد فيما ينفيه على أن هذا تشبيه ، قيل له : إن التشابه في الأسماء لا يعني التشابه في حقيقة المسميات . والقدر المشترك بين الموجودين لا يستلزم تماثلهما من جميع الوجوه (٣) ونحن لا نعلم ما غاب عنا إلا بذلك القدر المشترك الذي لا بد منه بين كل موجودين . وبمقدار المناسبة بين ما عندنا وبين ما غاب عنا تكون المعرفة ممكنة لنا . ولولا ذلك لما استطعنا أن نعرف شيئاً مما غاب عنا ، ونحن نعرف الأشياء بحسّنا ثم نقيس الغائب على المشاهد فيتكون عندنا قضايا كلية عامة يشترك فيها ما غاب عنا وما هو تحت حواسنا . وهذه القضايا العامة هي القدر المشترك . وهي وجه الاعتبار والمناسبة بين الغائب والمشاهد . ولولا ذلك لما صح لنا قياس عقلي .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٥/ ٣٠ .

(٢) الرسالة التدمرية : ١٩ .

(٣) نفس المصدر: ٧٢ .

وإذا خوطبنا بوصف ما غاب لم نفهم معنى ما خوطبنا به إلا بمعرفة المحسوس لنا والمشاهد أمامنا من ذلك ، ونوع مناسبته لما عندنا . ولو لم نعرف ما في المشاهد من علم وسمع وبصر وقدرة لم نفهم معنى ما خوطبنا به من الصفات الإلهية عن هذه المعاني فلا بد من هذا القدر المشترك بين ما غاب عنا وبين ما شوهد ليحصل لنا نوع معرفة بذلك . وهذا القدر المشترك هو مسمى اللفظ المتواطىء والمشترك . وبهذه المواطأة والمشاركة نفهم معنى الخطاب وهذه هي خاصية العقل بذلك .

والأمر في هذا كما في أخبار الجنة وما فيها من ألوان النعيم والنار ، وما فيها من ألوان العذاب . ولولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم نفهم معنى ما خوطبنا به من تلك المعاني . ونحن نعلم أن حقيقة هذه الأمور غير حقيقة ما نشاهده في الدنيا من ذلك . كما قال ابن عباس : « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط » فإذا كانت صفات هذه الأشياء وهي مخلوقة ليست كصفات ما يشبهها في الدنيا وهي مخلوقة أيضاً ، بل بينهما من التفاضل ما لا يعلمه إلا الله ، فصفات الخالق سبحانه أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه إلا الله . فيثبت له المثل الأعلى من كل كمال لا نقص فيه ، مع نفي مماثلته لخلقه في ذلك [1] .

والقرآن قد جمع في حديثه عن الصفات بين الاثبات والتنزيه في آية واحدة حين قال ﴿ ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير ﴾ فالله سميع بصير ولا يشبهه أحد من خلقه مع أنهم يسمعون ويبصرون . وكذا في بقية الصفات لأن التماثل في الصفات فرع من التماثل في الذوات . والذاتان هنا مختلفتان تماماً فكذا صفاتهما .

ومن الإنصاف هنا أن نشير إلى أن كلًا من الغزالي وابن رشد وابن عربي وابن تيمية قد جمعوا في منهجهم بين الإثبات والتنزيه كما جمع القرآن بينهما في الآية السابقة . فابن عربي يذهب إلى أن الله يتجلى في صورة التنزيه في قوله تعالى ﴿ لَيسَ كمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ ويتجلى في صورة التنزيل للخيال في قوله ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ ﴾ يقول ابن عربي « وجميع المشاهدين للحق لا يخرجون عن هاتين النسبتين . وهما نسبة التنزيه لله تعالى ونسبة التنزيل للخيال بضروب التشبيه » .

كما أن الغزالي في « المقصد الأسنى » وابن رشد في « مناهج الأدلة » قد جمعا بين التشبيه والتنزيه كما يتضح ذلك من تتبع منهجها ، وكذلك ابن تيمية في رسائله الكثيرة .

٧ ـ الإثبات ليس تشبيهاً :

لقد تحدث القرآن عن الصفات بالإثبات . والله قد سمى بعض عباده بما سمى به نفسه

---

(١) الرسالة التدمرية : ٧٢ .

كالعلم والسمع والبصر . والله موجود . والعبد موجود . وليس إثبات هذه الصفات لله يقتضي مشابهته لشيء من خلقه في أي منها . لأنه لا يلزم من اتفاقهما في مسمى الصفة اتفاقهما في حقيقة الصفة .

والأسماء والصفات قد تستعمل خاصة مضافة إلى موصوفها . وقد تستعمل مطلقة عن الاضافة والتخصيص . فإذا استعملت الصفة مضافة كقولنا علم الله ، ووجود الله ، وقدرة الله . فإنها حينئذ تكون خاصة به لا يشركه فيها غيره .

أما إذا استعملت مطلقة عن الإضافة فينبغي أن يعرف أن المعنى المطلق معنى كلي لا وجود له إلا في الأذهان . ولا تحقق له في الخارج . وهذا موضع الشبهة عند المتكلمين حيث اختلط عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان ، وظنوا أن هذه المعاني المطلقة تكون موجودة ومتحققة في الخارج . وأننا لو قلنا الله موجود ومحمد موجود لزم من ذلك أن يكون وجود هذا كوجود هذا . وبنوا على ذلك قضية أخرى فقالوا :

« لا بد أن يكون في الرب ما يميزه عن غيره . فيكون فيه جزءان :

١ ـ جزء مشترك بينه وبين عباده .

٢ ـ جزء خاص به يميزه عن غيره .

وما به الاشتراك غير ما به الافتراق . فيلزم أن يكون الرب مركباً مما بـه الاشتراك ومـا به الافتراق . وترجع هذه الشبهة إلى تفرقتهم بين الماهيـة والوجـود حيث ظنوا أن للمـاهية وجـوداً مستقلاً خارج الأذهان . وهذا خـطأ . لأنهم لم يفرقـوا في ذلك بـين الإمكان الـذهني والإمكان الخارجي ، وظنوا أن كل ما يقـدره الذهن ممكنـاً ، يمكن تحققه في الخـارج بمجرد هـذا الإمكان الـذهني ، والإمام ابن تيميـة من علماء القرن الثـامن الهجري يؤكـد خطأ التفـرقة بـين الماهيـة والوجود . ويبين أن ماهية الشيء لا تتحقق إلا بوجود عينه . وما لم توجد عينه فإن ماهيته لا توجد إلا في الأذهان . وفرق كبير بين الوجود الذهني وبين الوجود العيني . لأن شأن جميع المعاني الكلية أنها لا توجد إلا في الذهن فقط ولا وجود لها في الخارج منفصلة عن أعيانها . وإذا وقع الاشتراك في هذه المعاني الكلية فهو اشتراك في معنى ذهني مطلق لا وجود له في الخارج . فإذا قلنا علم زيد ووجود زيد لم يدل هذا إلا على ما يختص به زيد من العلم والوجود . لكن لما علمنا أن زيداً نظير عمرو علمنا أن علمه نظير علمه ووجوده نظير وجوده . وعلمنا ذلك من جهة القياس لا من جهة دلالة اللفظ . فإذا كان هذا في صفات المخلوقين فهي في صفات الخالق أولى .

فإذا قيل علم الله ووجود الله لم يدل ذلـك على مـا يشركـه فيه غيـره من مخلوقاتـه بطريق الأولى . ولم يدل ذلك على مماثلته لخلقه لا في وجوده ولا في علمه كـما دل في زيد وعمـرو . لأن

هناك علمنا التماثل بين الصفات تبعاً لعلمنا بتماثل الذوات من جهة القياس لكون زيد مثل عمرو . وهنا نعلم أن الله ليس كمثله شيء في ذاته ، وبالتالي فليس كمثله شيء في صفاته . كما سبق . .

ولهذا كان مذهب السلف أصح المذاهب في ذلك . إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل (١) .

(١) انظر في ذلك : الرسالة التدمرية ١٠ ـ ١٤ مجموع الفتاوى : ١٢٢/٥ ـ ١٣٢ ـ ٢١٠ ، ٢٢٢ ـ ٢٣٢ ، العقل والنقل ٦٦/١ ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور علي سامي النشار ٢٠٠ ـ ٢٢٦ ط دار المعارف سنة ١٩٦٧ م . الصواعق المرسلة لابن القيم : ٤٦٤/٢ ط الإمام ، سنة ١٣٨٠ هـ .

منهج ابن تيمية في إثبات وجود الله

لقد وجد ابن تيمية في القرآن الكريم ومنهجه في الالهيات ما أغناه عن أدلة المتكلمين ومناهجهم . ووجد في أدلته من البراهين العقلية الصريحة ما يناسب جميع الناس . وفي نفس الوقت وجدها أكثر دلالة على مطلوب الشرع أكثر من أدلة المتكلمين والفلاسفة التي لا تدل على مطلوب الشرع بقدر ما تدل على مطلوبهم . وأول ما نعرض له في ذلك أدلته على وجود الله .

وفي استدلال ابن تيمية على وجود الله نجده يسلك اتجاهين كلاهما يمكن الاستدلال به على وجود الصانع .

الاتجاه الداخلي :

الاتجاه الأول : يمكن تسميته بالاتجاه الداخلي وهو لجوؤه إلى الفطرة السليمة التي هي مضطرة بطبعها إلى الإقرار بوجود الرب الخالق . وذلك لما تحتاج إليه النفوس من لجوئها إلى قوة عليا تستنقذ بها عند حلول المصائب . أيا كانت هذه النفوس . مؤمنة أو كافرة . فإن النفس البشرية مضطرة عند حلول المصائب بها الى الركون إلى تلك القوة العليا التي تتوجه اليها بالدعاء والإستغاثة بكشف الضر . ولقد لفت القرآن أنظارنا إلى هذا الاعتراف الفطري حيث قال في صيغة الاستفهام التقريري (١) ﴿ أَمَّنْ يُجيبُ المضْطَّرَّ إذا دعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٢) .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٤/١٤ ، ١٦/١٦٥ وانظر أيضاً : العقل والنقل ٤/٩٦ـ ١٠٤ ، ١١١ ـ ١٢٤ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

(٢) سورة النمل الآية ٦٢ .

والنفوس بطبعها أسبق إلى الاعتراف بالرب الخالق من الاعتراف بالإله المعبود وذلك لعلم النفوس بحاجتها وفقرها إلى من يحميها وتلوذ إليه عند نزول المصائب قبل علمهم بحاجتهم إلى الإله المعبود الذي تتوجه إليه بالعبادة دون غيره .

وهذه المعرفة الفطرية طبيعة مركوزة في كل نفس مؤمنة أو كافرة ، والنفوس تحسها بطبعها وتشعر بها وإن غابت عنها في بعض الأحيان لسبب طارىء فسرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى اللجوء إليها عند الشدائد . ولو لم تكن النفوس مفطورة على هذه المعرفة لما تطلعت إليها بل لم تكن مطلوبة لها .

وهذه الفطرة هي التي أخبر عنها الرسول بقوله « كُل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ويقدم ابن تيمية أدلته الكثيرة على صدق دلالة الفطرة على خالقها كما أخبر بذلك الرسول ويبين ذلك من وجوه كثيرة .

الأول : أن الإنسان قد يجد نفسه في بعض الأحيان يحصل لديه كثير من المعتقدات والارادات التي منها الحق والباطل والضار والنافع وفي مجال ترجيح رأي أو معتقد على آخر تجده مدفوعاً بفطرته إلى ترجيح ما فيه منفعته ودفع ما فيه مضرته ، فيرجح الصدق على الكذب والحق على الباطل كما يميل بطبعه إلى طلب الأكل عند الجوع والماء عند العطش . وفي هذا دليل كافٍ على أن في فطرة كل إنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وارادة النافع . ومن هنا كانت كل نفس مفطورة على الاعتراف بالصانع والإقرار به استجابة لما هي مركوزة عليه من طلب كل ما هو حق والاعتراف به (١) .

الثاني : قد يطرأ على بعض الناس ما يفسد فطرتهم فيحتاجون في ذلك إلى ما ينير لهم السبيل ، ويوضّح لهم الطريق كالتعليم مثلا . ولذلك بعث الله الرسل ، وأنزل الكتب ليكمل بها الفطرة ويذكرها إذا فسدت بما هي مركوزة عليه من طلب الحق . والطفل حين ولادته لا يكون لديه تعقّل لمثل هذه الأمور ، لأن الله يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ ولكنه يولد وفي فطرته قوة تقتضي ذلك الحق وتطلبه ، وتزداد هذه القوة الفطرية لدى الطفل بحسب ما يستطيع تحصيله من العلوم النافعة . وكلما ازداد الطفل علماً وإرادة ، إزداد معرفة بخالقه ومحبة له . وهذا دليل على أن النفوس مفطورة على الاعتراف بها (٢) .

الثالث : لا شك أن النفوس يحصل لها من العلوم بحسب ما تكتسبه من الخارج الحسي ، وإذا لم يكن في كل نفس قوة تقتضي معرفة هذه العلوم لما استطاعت أن تعلم شيئاً منها ، ولعل

(١) العقل والنقل ٤/٨٣ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

(٢) العقل والنقل ٤/٨٣ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور .

أكبر دليل على ذلك أننا لو قمنا بمحاولة لتعليم الحيوانات لما حصل لها من العلوم ما يحصل لبني آدم مع أن السبب في الموضعين واحد . وفي هذا دليل واضح على أن في النفوس قوة لطلب الحق وترجيحه على غيره . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في أن أسلوب القرآن في الاستدلال على وجود الله جاء في صورة التذكير والتنبيه وفي كل هذا دليل على أن الفطرة السليمة كافية في وجوب الإقرار بالصانع (١) .

الرابع : إذا لم تكن الفطرة كافية في ذلك وكان لا بد من معلم ومرشد من خارج ذاتها فإننا نجد في كل نفس ما يدفعها إلى قبول الحق ورفض الباطل مما يعرض لها من خارج ذاتها . وفي هذا دليل على أن فطرة كل إنسان مركوزة على الاعتراف بالحق (٢) .

الخامس : أن كل نفس إذا لم يعرض لها مصلح ولا مفسد من خارج ذاتها فاننا نجدها تطلب ما ينفعها وتحاول أن تدفع عنها ما يضرها . والدليل على ذلك أننا نجد الطفل مدفوعاً إلى لبن أمه بفطرته . ما لم يحصل له مرض يمنعه من ذلك . ومعنى هذا أن حب الإنسان لما ينفعه مركوز فيه ، ولا شك أن حب العبد لربه مفطور فيه أعظم مما فطر فيه من حبه للبن أمه . وفي هذا دليل على أن النفس مركوزة على طلب الحق النافع (٣) .

السادس : أنه لا يمكن للنفس أن تكون خالية عن الشعور بخالقها وعن الإحساس بوجوده ، وذلك لأن كل نفس لا بد أن تكون مريدة وشاعرة . وما دامت النفوس لا تكون إلا مريدة فلا بد لها من مراد تحسه وتطلبه وتحاول الوقوف عليه . وكل نفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة ، غير أنها على كثرتها وتنوعها لا بد أن تنتهي إلى مراد واحد تكون إرادتها له لذاته لا لغيره . وهذا لا يكون إلا الله . فهو الذي تريده القلوب وتطلبه النفوس . يقول ابن تيمية : « وبذلك يعلم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وأن كل مولود ولد على محبة الإله . ومحبته تستلزم معرفته . فعلم أن كل مولود ولد على محبة الله ومعرفته وهو المطلوب (٤) .

ويربط ابن تيمية في تناسق عجيب بين هذه المعرفة الفطرية وبين الميثاق الذي أخذه الله على عباده أزلا حين ﴿ أَشْهَدَهُمْ علىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَستُ بِربِّكُمْ قالُوا : بلىٰ شَهِدنَا ، أَنْ تقولُوا يومَ القيامةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلينَ . أو تقُولُوا إِنَّما أَشرَكَ ءَاباَؤُنَا من قبل وكُنَّا ذُرِّيَّةً من بعدِهم أَفتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ المبطِلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) نفس المصدر : ٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر : ٨٥ .

(٤) العقل والنقل : ٨٦/٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٢ - ١٧٣ .

فالله قد أشهد المرء على نفسه أزلا بهذه المعرفة الفطرية . ولا شك أن شهادة المرء على نفسه من أقوى أنواع الإقرار . لأن من شهد على نفسه بحق فقد أقر به .

وقول الخليقة : ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ هو إقرارهم بربوبيته وأنه خالقهم ، فهم حين خلقوا على الفطرة خلقوا مقرين بالخالق معترفين بوجوده شاهدين على أنفسهم بذلك . وهذا الاقرار هو حجة الله على الخليقة يوم القيامة . فهو يذكر لهم أخذه الميثاق عليهم . وإشهادهم على انفسهم . وإقرارهم على أنفسهم بهذه المعرفة لا يمكن جحده . ولهذا قال سبحانه مذكراً لهم بذلك الإقرار ﴿ أنْ تقولُوا يومَ القيامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلينَ ﴾ (١) أي كراهة أن تحتجوا يوم القيامة بغفلتكم عن ذلك الإقرار . لأن هذا لم يغفل عنه بشر بل هو من الأمور الضرورية التي لم تخلُ منها نفس فطرها الله . بخلاف غيرها من العلوم الضرورية التي قد يغفل الإنسان عنها أحياناً كالحساب والرياضة . فانها لو تصورت لوجدها الإنسان ضرورية ولكن قد يغفل عنها في كثير من الأحيان لشبه قد تطرأ على عقله أو لبس في الدليل . بخلاف الاعتراف الفطري بربوبية الخالق . فإنه علم ضروري لازم لكل نفس .

ولهذا كان أسلوب القرآن في آيات المعرفة الفطرية على سبيل التذكير والتذكر ﴿ لعلَّهُم يَتذكَّرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ إنَّ في ذلكَ لذِكرىٰ ﴾ (٣) ، ﴿ إنَّما أنتَ مُذكّر ﴾ (٤) ، ﴿ إنْ هذِه تَذكرةٌ ﴾ (٥) ، ﴿ فَهلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٦) .

فالقرآن في جميع هذه الآيات ، وغيرها كثير ، يذكر الانسان بأمور ضرورية فطرية قد ينساها المرء لعارض طارىء . أو لشبهة فاسدة . أو لطريان ما يفسد فطرته التي خلق عليها . كما قال عليه السلام فيما يرويه عن ربه « خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين » .

وكل ما في القرآن من ذلك إنما هو تذكير للإنسان بفطرته الأولى ومحاولة للعودة به إلى حالته الصحيحة قبل طريان الشبهات عليه . وآية الميثاق قد ذكرت حجتين قد يحتج بأحدهما من فسدت فطرته . وهذا الإقرار الفطري يدفع كلا منهما .

الحجة الأولى : احتجاجهم بالغفلة عن هذا الاقرار بقولهم « إنَّا كنَّا عَنْ هذا غَافلينَ »

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٣) سورة الزمر الآية ٢١ .

(٤) سورة الغاشية الآية ٢١ .

(٥) سورة الانسان الآية ٢٩ .

(٦) سورة القمر الآية ٢٢ .

والآية بينت أن إقرارهم بربوبيته أزلا حجة عليهم في ذلـك . وهذا يتضمن حجـة الله في إبطال التعطيل . تعطيل الخالق عن خلقه والرب عن مربوبه .

الحجة الثانية : إحتجاجهم بشرك آبائهم ومتابعتهم في ذلك بقولهم « إنما أشرك آباؤ نا وكنا ذرية من بعدهم » فالمشركون هم آباؤ نا فكيف تعاقبنا بفعلهم ؟

وذلك أن العادة جرت على أن الرجل يحذو حذو أبيه حتى في الصناعات والحرف فلو لم تكن نفوس هؤلاء مجبولة على الإقرار بالصانع لكانت متابعة الأبناء لآبائهم في شركهم نوع عذر . لأن هذا هو مقتضى العادة والطبيعة والأمر في ذلك كما قال عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فالفطرة السليمة هي التي تبين لمن يحتج بما سبق من العادة والمتابعة للآباء خطأ هذا الاعتقاد وبطلان الاحتجاج به .

وهذه الفطرة سابقة على جميع ألوان التربية التي يتلقاها المرء عن بيئتـه في شتى المجتمعات « وهذا يقتضي بالطبع أن العقل الذي يعرفون به التوحيد حجة مـع كل أحـد في بطلان ألـوان الشرك . ولا يحتاج الأمر في ذلك إلى واسطة » .

ولو لم يكن في الفطرة أساس يعتمد عليه في الأدلة العقلية التي يعلم بها إثبات الصانـع لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم . لأن الرسالة جاءت للتذكير بالربوبية . والدعوة إلى توحيـد الألوهية . وهذا من أقوى حجج الله على عباده يوم القيامة .

والشرك الذي وقع في جميع الأمم يناقض تماماً الإقرار بالربوبية كما سجل القرآن ذلك في كثيـر من آياتـه التي تتحدث عن المشـركين ﴿ وَلَئِن سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [1] ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [2] . كما سجل القرآن اعترافهم بذلك في أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتضمن وقوع المستفهم عنه سابقاً . كما في قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وأَنـزلَ لكُم مِنَ السَّماءِ مَـاءً فأَنْبتَنـا بـهِ حَدائق ذَاتَ بَهجةٍ ﴾ . ﴿ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ﴾ [3] ؟ ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرضَ قَراراً . وَجَعَلَ خِلاَلَها أَنهاراً . وَجعَلَ لها رَواسيَ . وَجعَلَ بينَ البَحْرَينِ حَـاجزاً . أَإِلـهٌ معَ اللهِ ﴾ [4] ، ﴿ أَمَّن يُجيبُ المضـطَرَّ إِذا دَعاهُ

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

(٤) سورة النمل الآية ٦١ .

وَيَكْشِفُ السُّوءَ ويجعلكُمْ خُلفاءَ الأَرضِ . أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ﴾[1] ، ﴿ أَمَّنْ يَبدؤُا الخلقَ ثمَّ يُعيدهُ . وَمَن يَرزقكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرضِ . أَإِله مَعَ اللهِ ﴾[2] ؟

وفي مقام الإجابة عن كل هذه التساؤلات المعجزة نجد أن القرآن يجيب على نفسه في أسلوب التحدي والإعجاز ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فجميع هذه الآيات تضع الإنسان مباشرة أمام هذه التساؤلات التي لا مناص له إزاءها من الإقرار والتسليم بمقصودها وهو الاعتراف بالخالق .

وهي أدلة سمعية وفي نفس الوقت عقلية وشعورية ونفسانية . لا يسع العقل السليم إلا أن يسلّم بها . ولا الاحساس إلا الشعور بمضمونها . ولا النفس إلا الرضى والتسليم بها .

ثم إن القضايا التي تطرحها هذه الآيات أمام الانسان هي قضايا عقلية لا بد أن يطرحها كل إنسان على نفسه من حين لآخر كما أنه لا بد له من الاجابة عليها بصورة أو بأخرى . وفي معرض إجابته على كل هذه التساؤلات يجد نفسه مضطرا إلى الاعتراف بوجود الله . ومن هنا فلا يجد ابن تيمية في استدلاله على وجود الخالق ضرورة إلى اللجوء إلى أدلة المتكلمين والفلاسفة ما دامت فطرة الانسان ووجوده كافيين في ذلك « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » .

الاتجاه الخارجي :

الاتجاه الثاني : ويمكن أن نسميه بالاتجاه الخارجي وهو التأمل في الآفاق ، أعني بذلك الاستدلال على وجود الله من خارج نفس الانسان ، ويلجأ ابن تيمية في ذلك إلى هذا الكون الفسيح وما فيه من الآيات الظاهرة في دلالتها على وجود الله . والاستدلال بالآيات أدل على المقصود من الاستدلال بالأقيسة والبراهين . ولهذا كانت أدلة القرآن تتجه كلها إلى الاستدلال بآياته الكونية على وجوده .

ويقسم ابن تيمية هذه الأدلة الى نوعين : أقيسة . وآيات .

الأقيسة :

فالأقيسة لا تدل إلا على معنى كلي غير متعين . فإذا قيل هذا محدث وكل محدث فلا بد له من محدث . أو كل ممكن فلا بد له من واجب . فإن النتيجة التي تؤدي إليها مقدمات هذا

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٤ .

القياس هي إثبات واجب قديم . لكنها لا تدل على عينه . وهذا التصور العقلي لا يمنع من وقوع الشركة فيه . بل ما زال الأمر في معرفته يحتاج إلى دليل آخر لا يمكن معرفته عن هذا الطريق .

وهنا فلا بد من اللجوء إلى دليل الآيات التي أودعها الله هذا الكون وأخذ يذكر الإنسان بها من حين لآخر . فهي التي تدل على عينه .

ويربط ابن تيمية بين الاتجاهين السائدين في مذهبه برباط عجيب حين يجعل الاتجاه الثاني « الخارجي » محتاجاً في صحته إلى الاتجاه الأول « الداخلي » وذلك لأن الاستدلال بالآيات مشروط بالمعرفة السابقة . والإقرار السابق بربوبية الخالق . لأنه لو لم تعرف عينه لما عرف أن هذه الآية تستلزم هذا الصانع .

وهنا نجد أن المعرفة الفطرية السابقة شرط في صحة الاستدلال بالآيات ، وأنها هي التي تهدي المستدل على ذات الخالق بحيث يميز بينه وبين غيره .

يقول ابن تيمية : « وهذا شأن الحق الذي يطلب معرفته بالدليل . فلا بد أن يكون مشعوراً به في النفس حتى يطلب الدليل عليه أو على بعض أحواله . وأما ما تشعر به النفس أصلا فليس مطلوباً لها البتة »(١) .

الآيات :

وفي معرض الاستدلال بالآيات على وجود الله نجد القرآن يضع أمام الإنسان أكثر هذه الآيات دلالة وأظهرها وضوحاً في الاستدلال وهي آية الخلق من العدم . وأول سورة نزلت من القرآن ذكرت نعمة الخلق قالت ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ فذكرت الخلق مطلقاً ومقيداً لتذكر الإنسان في جميع أحواله أن هذا الخلق لا بد له من خالق . ثم ذكرت خلق الإنسان من علقة ليكون الإنسان نفسه هو الدليل الذي يستدل به على خالقه . وهذا أيضا دليل فطري يعلمه كل انسان من نفسه ويذكره كلما تذكر بني جنسه (٢) . ولكون آية الخلق أقوى أنواع الآيات دلالة على الخالق كان القرآن في كثير من آياته يضع أمام العقل الإنساني هذه التساؤلات في صورة الاستفهام التقريري .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غيرِ شَيءٍ . أَمْ هُمُ الخالِقُونَ ﴾ (٣) ؟

﴿ أَوَ لَا يذكُرُ الإنسانُ أَنَّا خَلقناهُ مِنْ قبلُ ولَمْ يَكُ شَيئاً ﴾ (٤) ؟ .

---

(١) العقل والنقل : ٨٦/٤ .

(٢) مجموع الفتاوي ١٦٢/١٦ .

(٣) سورة الطور الآية ٣٥ .

(٤) سورة مريم الآية ٦٧ .

﴿هَلْ أتىٰ علىٰ الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَمْ يَكنْ شَيئاً مَذكُوراً ﴾ [١] ؟

فآية الخلق فطرية وظاهرة للعقول يمكن أن يستدل بها على الخالق . وفي نفسها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى دليل .

ويرى ابن تيمية أن آية الخلق وحدها كافية في الاستدلال على وجود الله وليست هناك حاجة إلى القول بأن الخلق أو الحدوث لا يعرف إلا بالاستدلال على حدوث الأعراض أولا ، ثم ملازمتها للجواهر ثانياً . ثم القول بأن الجواهر لما لازمت الأعراض وهي حادثة كانت حادثة أيضاً . وهذا مسلك المتكلمين . فإنهم لجأوا إلى طريقة الأعراض وملازمتها للجواهر والتزموا في ذلك مقدمات طويلة ومعقدة أوقعتهم في الاضطراب والحيرة . وآية الخلق أو الإحداث أو الاختراع كما أسماها ابن رشد صفة بيّنة بنفسها بحيث يستدل بها على غيرها ولا يستدل بغيرها عليها .

فأيهما أظهر للعقول . الاستدلال بالخلق على الخالق . أو اللجوء إلى طريقة المتكلمين في ذلك .

إن أدلة ابن تيمية على وجود الله تمتاز بوضوحها وبداهتها مع نفسها ومع ذلك فهي أدلة عقلية برهانية لا يمكن معارضتها بدليل عقلي برهاني قاطع . وهي أكثر ملاءمة للنفوس والعقول ولجميع الناس عامتهم وخاصتهم .

---

(١) سورة الانسان الآية ١ .

مَذْهَبُهُ في التَّوْحِيدِ

يرى عامة المتكلمين أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أنواع فيقولون :

١ ـ هو واحد في ذاته لا قسيم له .
٢ ـ واحد في صفاته لا شبيه له .
٣ ـ واحد في أفعاله لا شريك له .

وأشهر هذه الأنواع الثلاثة هو النوع الأخير المسمى عندهم « توحيد الأفعال » بمعنى أن خالق العالم واحد ، ويحتجون على ذلك بما يذكرونه من دليل التمانع وغيره . وأدلة المتكلمين على التوحيد مطلوبها إثبات هذا النوع [١] .

أما ابن تيمية فيذهب في اثبات التوحيد إلى منهج آخر حيث يقسم التوحيد إلى نوعين :

الأول : توحيد الربوبية بمعنى أن رب العالم وخالقه واحد . وليس اثنين . وهو الرب سبحانه الذي جبلت الفطر على الاعتراف به والخضوع له .

الثاني : توحيد الألوهية بمعنى أن يعبد الله وحده لا يشرك بعبادته أحد من خلقه ، وفي هذا النوع يتحقق معنى قولنا لا إله إلا الله .

أما النوع الأول (توحيد الربوبية) فقد اعترف به المشركون وجبلت على الإقرار به جميع الفطر كما سجل القرآن اعتراف مشركي العرب بذلك ، وأقرارهم به ﴿ ولئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

---

(١) الرسالة التدمرية : ١٠١ .

السَّمواتِ وَالأَرضَ لَيقُولُنَّ الله﴾ ، [الزمـر ٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ليقـولُنَّ الله ﴾ . [الزخرف ٨٧] .

فجميع المشركين كـانوا يقـرون بأن الله خـالق كل شيء وربـه ومليكه . ومـع إقرارهم بربوبيته لم يخرجوا عن مسمى الشرك لأنهم لم يحققوا معنى قول المسلم : لا إله إلا الله الذي يتضمنه النوع الثاني « توحيد الألوهيـة » الذي هـو قطب رحى القـرآن ، والذي لأجله جـاءت الرسل وأنزلت الكتب وعليه يكون الثواب والعقاب ، وبه يتحقق إخلاص الدين لله (١) .

فتوحيد الألوهية هو دعوة كل رسول إلى قومه من لدن آدم إلى محمد عليه السلام . فقد كان كل رسول يقول لقومه : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وبه أمر الرسول أن يقول « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين » .

وبه خوطب الرسول بقوله تعالى ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وبقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وبقـوله : ﴿ واسـأل من أرسلنا قبلك من رسلنا . أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ والذي يتدبر آيات التوحيد في القرآن الكريم يجدها كلها تدور حول تقرير هذا النوع من التوحيد لأنه مناط الإيمان ولا يتحقق إيمان المرء إلا بالإقرار به قولاً وعملاً . ولهذا كان ﷺ يقول : « أمرت أن أقاتـل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » .

ولما كان توحيد الألوهية هو مناط الإيمان بالله ورسوله كان لا بد أن يعني القرآن بتقريره والبرهنة عليه بالأدلة العقلية والبراهين الصحيحة . لأن الشرك الذي وقع في جميع الأمم كان في هذا النوع . فإن عامة مشركي الأمم كانوا مقرين بالصـانع ويعتـرفون بتـوحيد الـربوبيـة . ولكنهم مع إقرارهم بربوبيته قد أشركوا بعبادته غيره . وكان ما عابه مشركو العرب على محمـد ﴿ اجْعَلَ الآلهَةَ إلهاً واحداً ﴾ (٢) وقالوا له : ﴿ إنَّ هذا لَشيء عُجَابٌ ﴾ (٢) .

ولا شك في وجوب الايمان بتوحيد الربوبية إلا أنه ليس كل الواجب وليس هو مناط الإيمان والكفر ولا مناط التوحيد والشرك . وليس بمجرد الإقرار به يكون المرء موحداً .

وتوحيد الربوبية هو ما سماه المتكلمون بتوحيد الأفعال ، بمعنى أن لا شريك له فيها ، وهو الذي انهى المتكلمون عقولهم في تقريره والاستدلال عليه ، وظنوا ـ خطأ ـ أنه التوحيد الذي بعثت

---

(١) منهاج السنة ٢/ ٦٢ ط بولاق ، رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية : ٢٦٠ ضمن مجموعة شذرات البلاتين ط . أنصار السنة المحمدية .

(٢) سورة ص الآية ٥ .

به الرسل وأنزلت الكتب وأنه الذي يتعلق به حد التوحيد والشرك ، وخلطوا في ذلك بين معنى الربوبية ، ومعنى الألوهية ، فجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع ، واعتقدوا أن الإله هو القادر على الاختراع ، وجعلوا هذا أخص صفات الإله (١) .

ولقد أخطأ المتكلمون في معرفة حقيقة التوحيد وبالطرق التي سلكوها في تقرير هذا التوحيد ، ولم يقدروا أدلة القرآن حق قدرها . ولما ظنوا أن مجرد الاعتقاد في توحيد الربوبية كاف في حقيقة التوحيد أخذوا يستدلون على ذلك بأدلة لا ترقى إلى تقرير التوحيد كما جاءت به الرسل ، وكما أراده الله من عباده ، وحملوا الآية الكريمة « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » على أن هذا دليل التمانع الذي يستدلون به على اثبات التوحيد .

ويرى ابن تيمية ـ موافقاً في ذلك ابن رشد ـ ان الآية ليست مشتملة على دليل التمانع ، لأن دليل التمانع الذي يتحدثون عنه هو امتناع صدور العالم عن ربين خالقين له ، فظنوا أن الآية مسوقة لنفي الشركة في الربوبية ، وصار كل منهم يذكر في ذلك طريقاً غير طريق صاحبه . والآية ليست مسوقة لنفي التعدد في الربوبية لأن هذا لم يذهب إليه أهل الشرك ، بل هي مسوقة لنفي التعدد في الألوهية ، ونفى أن يكون هناك من يستحق العبادة من دون الله ، لأن توحيد الربوبية كان معترفاً به من جميعهم ، فليسوا في حاجة إلى تقريره ، وإنما هم في حاجة إلى بيان أن من أقروا بربوبيته وحده يجب أن يعبد وحده .

ومقصود القرآن هو توحيد الألوهية ، وهو متضمن لتوحيد الربوبية من غير عكس ، ولهذا قالت الآية ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ .

ولم تقل لو كان فيهما إلهان ، لأن الفرض المقدر هو آلهة كثيرة تعبد مع الله (٢) .

وابن رشد في مناقشته للمتكلمين لا يفرق بين نوعي التوحيد كما فرق بينهما ابن تيمية ، وخاصة في مناقشة هذه الآية .

ولهذا بنى كل مناقشته معهم على أن الآية مسوقة لنفي التعدد في الربوبية ، وإن كان يختلف عنهم في جهة الدلالة على ذلك كما هو موضح في مناهج الأدلة ، وهذا عكس ما ذهب إليه ابن تيمية .

ولهذا كان الفساد الذي نفته الآية عند ابن رشد هو عدم وجود العالم على حالة الفساد ، أما عند ابن تيمية فهو الفساد المترتب على وجود آلهة كثيرة تعبد من دون الله ، فهو يفسر الفساد بأنه ضد الصلاح الذي فيه سعادة البشر ، وهذا لا يكون إلا بتوجه جميع القلوب إلى إله واحد تألهه

---

(١) العقل والنقل : ٣٢١/٤ مخطوط .

(٢) العقل والنقل : ٣١٤/٤ مخطوط .

فتخضع له ، وتنهى إليه محبتهم وغايتهم ، ومن هنا كان كل عمل لا يقصد به وجه الله غير نافع ، وكانت أعمال المشركين كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وكسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً .

وما دامت الفطرة مركوزة على الإقرار بالصانع فليس هناك إله سواه ، لأنه ليس هناك من يستقل بالإبداع والاختراع غيره .

وابن تيمية يوافق ابن رشد على أن الآية لا تشتمل على دليل التمانع ، ولكنه ينكر نقد ابن رشد لدليل التمانع ، ويرى أنه دليل صحيح دال على مطلوب المتكلمين في نفي أن يكون هناك ربان خالقان للعالم ، إلا أنه ليس دليل الآية .

وفي الاستدلال على نفي التعدد في الألوهية تجد ابن تيمية يستدل بالآية الكريمة ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ ولدٍ وَمَا كانَ معهُ مِنْ إلهٍ إذاً لذهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولَعَلَا بعضَهمْ على بعضٍ ﴾ (١)، فالآية قد نفت أن يكون لله ولد يتقرب إليه بعبادة هذا الولد وفي هذا نفي لتأليه الوسائط بين الله وعباده ، ثم نفت أن يكون هناك آلهة أخرى تعبد على سبيل الشركة معه ، لأنه لو كان هناك من يستحق العبادة معه لكان الأمر لا يخلوا من أحد احتمالين .

الأول : أما أن يكون كل إله قادراً فيتحقق الفرض الأول وهو قوله ﴿ إذاً لَذَهبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ﴾ وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم (٢) .

الثاني : أن يكون أحدهم قادراً دون الآخرين وهنا يصدق الفرض الثاني وهو قوله ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ ومعلوم أن ذلك لم يقع ، فدل ذلك على امتناع أن يكون هناك إله قادر ، وآخر عاجز ، ولو فرض وقوع ذاك لكان القادر هو الإله دون بقية الالهة ، وعند ذلك يستحق العبادة وحده دون غيره .

فالآية تضمنت لازمين كلاهما منتف بالمشاهدة ، وانتفاء كل واحد منهما يدل على أنه ليس هناك إلا إله واحد يعبد دون سواه .

وهذا هو مطلوب الآية ، والمقصود من التوحيد الذي بعثت لأجله الرسل . والقرآن قد استعمل في نفي الشركاء لله في العبادة الأمثال المشاهدة أمام الإنسان وعليه أن يستعمل في ذلك قياس الأولى بالنسبة لله .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أنفسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِن مَا مَلَكَت أيمانُكُمْ مِنْ شُركَاء في مَا

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٢) العقل والنقل : ٤/٣٢١ - ٣٢٧

رَزَقْناكُمْ ﴾ (1) ومعلوم أن مملوك الرجل لا يكون شريكه بحال ما ، فإذا كان هذا شأن الإنسان مع عبده ـ ولله المثل الأعلى ـ فلماذا يجعلون عبيد الله ومخلوقاته شركاء معه في عبادته .

ثم يضع القرآن أمامنا دليلاً آخر في نفي التعدد في الألوهية ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

فالآية توجه إلى المشركين هذا السؤال :

هل الذين عبدتموهم من دون الله ، يملكون مثقال ذرة في السموات أو في الأرض على سبيل الاستقلال أو على سبيل الشركة ؟

وهل عاون أحد منهم في خلق السموات والأرض ؟

ولحصول العلم لديهم بنفي ذلك نجد القرآن يعمد إلى نفي قضية أخرى ، ربما كانت سبباً في وقع الشرك في هذا العالم ، فيقول لهم ، أن الشفاعة لا تقبل عنده إلا لمن أذن له في ذلك ، فينفي بذلك دعواهم في شركهم بأنهم قالوا ﴿ ما نَعبدُهُمْ إلَّا ليقربونَا إلىٰ اللهِ زُلفىٰ ﴾ (2) .

فالذي لا يخلق لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة لا يستحق العبادة ، وإذا كانوا هم مقرين بالرب الخالق ، فالآيات تبين لهم أن الرب القادر ، والضار النافع ، هو الذي يجب ان يعبد لا غيره .

وعلى هذا النحو من البساطة والهدوء يقدم ابن تيمية أدلة القرآن على توحيد الألوهية وهي أدلة عقلية وشرعية ، ومع ذلك هي فطرية مناسبة لجميع العقول ، فليس اثبات التوحيد محتاجاً إلى استعمال هذه الألفاظ المجملة التي أوقعت المتكلمين في الاضطراب ، والقرآن قد استغنى عن ألفاظ المتكلمين بأنه : أحدٌ صمدٌ ﴿لم يلدْ ولم يولدْ ، ولم يكنْ لهُ كفواً أحد ﴾ .

وعلى ذلك فإن جميع آيات القرآن تجري على ما هي عليه ، فليست هناك آية أو صفة يناقض ظاهرها وحدانية الله تعالى ، لأن منهج ابن تيمية في الوحدانية هو منهج القرآن وليس منهج المتكلمين المستلزم لنفي الصفات .

---

(1) سورة الروم الآية ٢٨ .

(2) سورة الزمر الآية ٣ .

ابن تيمية بين التشبيه والتنزيه

لقد وضع القرآن أمامنا آيات عديدة يدور الحديث فيها حول تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث مثل قوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ وأنه تعالى أحد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، ومع ذلك فقد ذكر القرآن جميع الصفات الإلهية التي وصف الله بها نفسه من العلم والقدرة والعلو والاستواء والمجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً والإتيان في ظلل الغمام وغير ذلك . وطلب من المؤمنين أن يؤمنوا بجميع صفاته تعالى وآيات كتابه الكريم ، ومنها آيات التنزيه . وعلى ذلك فليس من التشبيه في شيء أن يؤمن العبد بأن الله سبحانه عليم قدير ، وأنه استوى على عرشه ، ويجيء يوم القيامة ، ويأتي في ظلل من الغمام ، وأنه تعالى موصوف بهذه الصفات حقيقة لا مجازاً ما دام يعتقد أنه سبحانه ليس كمثله شيء في صفاته ، كما أنه لا يشبهه شيء في ذاته ولم يكن له كفواً أحد فيها ، لأن الله سبحانه أعلم منا بنفسه ، وبما يجب له من صفات الكمال ، وبما يجب أن ينزه عنه من صفات المحدثين ، وما على العبد في ذلك إلا أن يثبت وجود الصفة لله كما أثبتها له القرآن ولا يبحث في كيفها كما هو منهج القرآن في ذلك . إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل .

وإذا وضعنا أمام أعيننا تراث ابن تيمية لا نستطيع القول بأنه قد خالف منهج القرآن في ذلك . بل كل ما صرح به ابن تيمية هو ما نطق القرآن وجاءت به السنة الصحيحة . فهو يثبت لله صفات العلو والاستواء والمجيء والإتيان والنزول ، وأنه يحب المؤمن ويكره الكافر ويرضى عمن شاء ويفعل ما شاء كيف شاء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وهذه الصفات يجب حملها على الحقيقة لا على المجاز لأنه لو وصف الله تعالى بها مجازاً لم يكن موصوفاً بها في الحقيقة ،

وفي هذا القول نفي للصفة وسلب لمعناها المراد إثباته لله ، وهذا ما يجب ان ينزه الله عنه ما دام وصف نفسه بذلك .

وهذا المنهج قد أخذ به أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر وفي كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » وكتاب « للتوحيد » فهو يرى أن الله موصوف بما وصف نفسه به حقيقة لا مجازاً لأن لغة المجاز نوع من الكذب وأخذ يرد تأويلات المحرفين لكتاب الله ، وصرح بأن يده تعالى الواردة في كتابه الكريم ليست نعمته ولا قدرته وأن استواءه على العرش ليس استيلاء كما قالت الجهمية . وأنه لو وصف بهذه الصفات مجازاً لا حقيقة لكان غير موصوف بها حقيقة كوصف الجدار بالارادة فانه نوع من الكذب .

ومع أن ابن تيمية يصرح بنفي التمثيل والتشبيه والتكييف لهذه الصفات ، إلا ان خصومه ـ وما أكثرهم ـ نسبوا إليه أقوالاً ما كان أبعده عنها ، وكثيراً ما نسبوا إليه القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والحيز والاستواء الحسي والقول بقدم حروف القرآن وقراءة القارىء له ، وغير ذلك من الاتهامات التي برأ نفسه منها وهو ما زال على قيد الحياة .

وأحب أن أوضح هنا حقيقة هامة في فهم منهج ابن تيمية . فالرجل قد خاض غمار الفلسفة وعلم الكلام والتصوف وكشف الغامض من ذلك ووضح المبهم ، وكان إذا ناقش الفلاسفة أو المتكلمين تجده خبيراً بمصدر الرأي ومغزاه . وإذا تحدث عن التصوف تجده ذا بصر نفاذ إلى أسرار الصوفية وما يكمن في أقوالهم .

وهؤلاء وأولئك قد ذهبوا في تأويل القرآن إلى حد التحريف والتبديل لأن القرآن قد عارض ظاهره ما معهم من القضايا التي أدخلوها في جنس المعقول ، وهي ليست من المعقول في شيء ، فأراد ابن تيمية أن يكشف في نقاشه مع هؤلاء عن حقيقتين هامتين :

الأولى : أن العقل الصريح في دلالته على المراد لا يمكن أن يخالف المنقول الصحيح الثابت ، لأن العقل والنقل وسيلتان لغاية واحدة هي الوصول إلى الله . والوسائل التي تؤدي إلى غاية واحدة لا يمكن لها أن تتعارض وإنما تتعاضد وتتآزر في سبيل الوصول إلى الحقيقة المرادة . والحق المطلوب هنا للعقل والنقل هو الله سبحانه .

الثانية : بيان أن ما يدعيه الفلاسفة والمتكلمون والصوفية مما يقولون أنه قد خالفه ظاهر القرآن وخاصة في الأمور الإلهية ليس معهم من ذلك ما يصح أن يسمى دليلاً عقلياً حتى يقال أن المنقول الصحيح قد عارضه ولا بد فيه من التأويل منعاً للتعارض بينهما .

وفي سبيل تقرير هاتين الحقيقتين نجد ابن تيمية يلجأ إلى طريقة بارعة في إبطال حجج المخالفين للكتاب والسنة ، حيث يلجأ إلى مقارنة حجج الخصوم بعضها ببعض ليبين تهافتها كلها

عن أن تقنع ذوي العقول السليمة .

وقد يطول به المقام في ذلك إلى قدر كبير من الصفحات في كتبه التي يقرر فيها تهافت دعوى هؤلاء وهؤلاء ، وهو في كل ذلك لا يعبر عن رأيه هو . وإنما يحكي ما يجوز أن يعارض به الخصوم بعضهم بعضاً ليبين أن أدلة الطرفين لم تقنع أيا منهما فضلاً عن المخالف لهما جميعاً .

وفي نهاية الموقف نجده يعبر عن مقصوده من ذلك النقاش بقوله :

« والمقصود من ذلك بيان أن من خالف الكتاب والسنة ليس معه ما يسمى معقولات وإنما هي شبهات وسلبيات » وأن حجج أي من الطرفين لا تقنع الطرف الآخر .

أو بقوله « والمقصود هنا بيان أن من خرج عن الكتاب والسنة ضل سعيه وخاب أمله » [1] .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : إذا أراد الباحث أن يعثر على رأي ابن تيمية وعقيدته التي يدين بها . فهل من الصواب في ذلك أن نبحث عنها خلال نقاشة للخصوم ببيان تهافت حججهم ومناقضتهم بعضهم بعضاً . أم أن الصواب في ذلك أن نتلقاها عنه هو معبراً عما يعتقده ويدين به صراحة بلا لبس ولا التواء ؟

إن النظرة العلمية والمنهج السليم يقضي علينا أن نتلقى رأي ابن تيمية - في جميع المسائل التي تعرض لها - عنه كما صرح به بدون لبس أو غموض ، وليس من الصواب أن نذهب في متابعته لهؤلاء وهؤلاء وندّعي أن معارضته لهذا الرأي أو ذاك تدل على أنه يقبل نقيضه كما ألزمه بذلك خصومه ، وهو لم يترك موقفاً تعرض له إلا أدلى فيه برأيه صراحة مدعوماً بالأدلة العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة .

وإذا كان هذا رأينا فإن ابن تيمية قد وضع رسائل عدة في بيان العقيدة الصحيحة التي أجمع عليها سلف الأمة . كالعقيدة الواسطية ، والعقيدة الحموية ، وتعرض لها كذلك في مواطن عدة من كتبه الأخرى . كالفرقان بين الحق والباطل ، ومذهب أهل السنّة وعرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات . وغير ذلك من كتبه .

وسأترك الحديث الآن لابن تيمية لكي يوضّح لنا موقفه السليم من المسائل التي إتهم فيها بالإلحاد ، والزندقة لكي يبرىء نفسه بنفسه مما نسب إليه زوراً وبهتاناً .

وسأعرض نصوصاً أراها قاطعة في مذهبه .

ففي العقيدة الواسطية يقول « ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به

---

(1) انظر العقل والنقل : ١/٣٥ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٦ ، ٢/٩٤ ، ١١٣ ، ١٧٦ ، ٢٣٠ .

رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . . فاتفق السلف على أن الكيف غير معلوم . . وكذلك التمثيل منفي بالنص والاجماع مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف . إذ كُنْه الباري غير معلوم للبشر (١) » ويقول في العقيدة الحموية « ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث . . وهو سبحانه ليس كمثله شيء في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله » (٢) .

وفي مقام حديثه عن الاستواء يقول « القول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أنه مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير ولا يجوز أن تثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم . فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها » (٣) .

وفي مقام الحديث عن علوه سبحانه على خلقه يقول « ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحويه وتحيط به فهو كاذب ، إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه . . ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله إن الله في السماء ان السماء تحويه لبادر كل منهم إلى أن يقول هذا شيء لم يخطر ببالنا » (٤) .

ولا أريد أن استرسل في ذكر النصوص التي تبين مذهب ابن تيمية في نفي المماثلة بين الله وبين مخلوقاته فيما وصف به . لأنه لا يخلو كتاب من كتبه عن ذكر ذلك صراحة .

ولكن من أين لأعداء ابن تيمية أن يتهموه بالتجسيم والتشبيه إذا كان هذا مذهبه ؟ .

ولقد حيك حول ابن تيمية كثير من المؤامرات ورمي بالكفر والإلحاد ووضعت الكتب للنيل منه ، وما كان لمثل ابن تيمية أن يسلم من حقد حاسديه ووشايتهم به ، فكما نيل منه في حياته فقد تعرض تراثه كذلك لأيدي العابثين بعد وفاته . وحملت ألفاظه أكثر مما تحمل ووضعت في غير موضعها الذي أراده لها ابن تيمية .

وجميع الاتهامات التي وجهت إلى الإمام ابن تيمية سواء في حياته أو بعد مماته لا تكاد تخرج عن نمطين من الحديث :

---

(١) العقيدة الواسطية : ٣٩٣ - ١٩٤ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

(٢) العقيدة الحموية . ٤٣٨ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى .

(٣) العقيدة الحموية : ٤٣٩ - ٤٤٠ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

(٤) العقيدة الحموية : ٤٦٨ « من الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى » .

النمط الأول :

نمط من الحديث مكذوب ومحض إفتراء عليه بقصد التشنيع والتشويه . مثل ما يدعيه أبو بكر الحصني الدمشقي في كتابه « دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد » من أن ابن تيمية كان يجلس في صحن الجامع الأموي فذكر ووعظ ثم قال والله قد استوى على عرشه كإستوائي هذا . (والمشبه والمتمرد عند الحصني هو ابن تيمية) .

ومثل دعواه أيضاً . أن ابن تيمية يقول بأن الله ينزل إلى سماء الدنيا إلى مرجة خضراء وفي رجليه نعالان من ذهب (١)) .

النمط الثاني :

وهو اتهامه بالتشبيه والتجسيم نتيجة الخطأ في فهم مذهبه ، وهذه الدعوى قديمة أيضاً قدم تراث ابن تيمية نفسه ولا زلنا نقرؤها في كتب المعاصرين لنا إلى اليوم .

وسبب الخطأ عند هؤلاء أن ابن تيمية في نقاشه لخصومه كان ذا نفس طويل في إيراد حجج الخصوم وحكاياتها ، فظن بعض الباحثين ـ خطأ ـ بأن آراء ابن تيمية هي التي يعارض بها خصومه ، وهذا خطأ فاحش في فهم منهج ابن تيمية وأسلوبه في النقاش ومخاطبة مخالفيه وليس الأمر كذلك . بل أن حجج خصومه وآراءهم هي التي يقرع بعضها بعضا لتتساقط جميعها متهاوية امام أدلة الكتاب والسنة ثم يعلن ابن تيمية عن رأيه في نهاية المطاف مدعوماً بالكتاب والسنّة وهذا مصدر الخطأ عند كثير من الدراسين .

ويكفي لتنزيه موقف ابن تيمية عما نسب إليه أنه لا يستعمل الألفاظ المجملة لا في النفي ولا في الإثبات كالجسم والحيز والجهة . وعدم إستعماله لهذه لألفاظ لم يمنعه أن يناقش أصحابها ليبين لهم أنها ألفاظ مجملة لم ترد في الكتاب والسنّة ، ولا ينبغي أن يناط بها رأي أو مذهب في النفي أو الاثبات ، وأن من بنى مذهبه في التنزيه على ذلك فلا يسلم من الاضطرابات لما يلزمه من المحالات . ولا يترك لفظاً من هذه الألفاظ المجملة حتى يبين ما فيها من لَبْسٍ وإبهام . فهو إذا ناقش النفاة في علة نفي الصفات الإلهية لا يجد عندهم حجة سوى القول بأنْ إثبات الصفات يؤدي إلى التجسيم والحيز والجهة .

فيقول لهم : ماذا تريدون بهذه الألفاظ المجملة التي لم يرد فيها عن السلف أثر صحيح لا بنفي ولا إثبات ، وكيف ساغ لكم الكلام بها نفياً وإثباتاً ولم يرد بها شرع ولا دين .

ويبين لهم أن الألفاظ نوعان :

---

(١) انظر : ٤١ ـ ٤٨ من الكتاب المذكور .

لفظ ورد في الكتاب والسنّة وأجمع عليه سلف الأمة وهذا يجب القول به والأخذ بموجبه لأن الرسول لا يقول إلا حقاً .

والثاني : لفظ لم يرد به دليل شرعي كهذه الألفاظ المجملة وتكون المعارضة بها معارضة غير شرعية وحينئذ يجب أن يستفصل القول في ذلك (١) . ويقال لهم : ماذا تريدون بالجهة ؟

أتريدون بالجهة أنها شيء مخلوق ؟ إذا أردتم هذا المعنى وافقناكم عليه ، فالله ليس في شيء من مخلوقاته ولكن نخالفكم في إستعمال اللفظ لأنه لم يرد به أثر نفياً ولا اثباتاً ، أم تريدون بها ما وراء العالم ؟ . ولا ريب أن الله فوق خلقه عليٌّ على عرشه . وهذا اللفظ لم يرد به الشرع إنما ورد العلو والفوقية والاستواء ونفاة الجهة يريدون بذلك نفي أن يكون الله موصوفاً بالعلو والفوقية وهما ثابتان له في كتابه الكريم ، فهو سبحانه فوق عباده مستوٍ على عرشه . ونحن لا نترك هذا المعنى الحق الوارد في القرآن لمجرد هذه التسمية الباطلة المحدثة .

ومن اعتقد أن كون الله في السماء أنها تحويه وتحيط به فهو كاذب إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه ، وما سمعنا أحدا يفهمه من اللفظ ، ولا رأينا أحدا نقله عن واحد ، ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله أن الله في السماء وأن السماء تحويه أو تحيط به لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول هذا شيء لم يخطر ببالنا(٢) .

وابن تيمية يثبت هنا المعنى الحق الذي ورد به القرآن وينفي كل ما يتوهم في ذلك من الباطل . وكذا في الحيز والحد : يقول للنفاة ماذا تريدون بذلك ؟ . إن أردتم أن الله لا تحده مخلوقاته ولا يحوزه عرشه ولا سماواته بهذا يصرّح به لأن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض . بل الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه . وإن أردتم بذلك نفى أن يكون الله قد استوى على عرشه فنحن لا نترك هذا المعنى الحق لمجرد هذه التسمية الباطلة وقولنا من غير تكييف ولا تمثيل ينفي عن ذلك كل باطل .

وهكذا فإن ابن تيمية يثبت الصفات التي ورد بها السمع على حقيقتها لا على مجازها ، وينفي عن ذلك كل معنى يوهم التشبيه والتجسيم . ولا يتردد في حمل الصفات على حقيقتها ونفى أن تكون مجازاً ، وليس معنى ذلك أن حقيقة هذه الصفات لله تشبه حقيقتها بالنسبة للمخلوق . لأن حقيقة كل صفة تتبع حقيقة الذات الموصوفة بها . وإذا كنا لا نعلم عن حقيقة الذات الالهية إلا جهلنا بها وبكنهها فإن معرفتنا بحقائق صفاته وكيفها هي أيضا كذلك . ولقد عبر أبو بكر عن ذلك أصدق تعبير حين قال « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث في ذات الله إشراك » .

---

(١) مجموع الفتاوي : ٢٩٨/٥ - ٣٠٠ .
(٢) العقيدة الحموية : ٤٦٨ .

وقال أيضا « سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته » .

وكما أن الذات الالهية موجودة حقيقة لا مجازاً ، فكذلك الصفات الالهية موجودة أيضاً حقيقة لا مجازاً .

وكما أن كيف الذات الالهية مرفوع ، فكذلك كيف صفاته تعالى مرفوع . ومع وضوح التنزيه عند ابن تيمية فإن جماعة من الدارسين قد شنعوا على مذهبه في الصفات وقالوا أنه مشبه ومجسم . وذهبوا في التعلة لذلك كل مذهب ، ولو أنصفوا لقرأوا تراث ابن تيمية وما أخلدوا إلى الراحة واكتفوا بما كتبه عنه خصومه وأعداؤه . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

* * *

وبعد . .

فلقد أردت بهذه المقدمة توضيح منهج ابن تيمية من مسائل الخلاف بينه وبين خصومه ، وهي التي كانت مثار الاتهامات الموجهة إليه على كثرتها وإختلافها . وقد أفردنا بحثاً مستقلاً عن موقف ابن تيمية من هذه الأمور بالتفصيل أبنا فيها سبب الاشتباه عند المخالفين فليرجع إليه من أراد معرفة حقيقة الموقف . والله أسأل أن يجعل هذا العمل مقبولا لديه . وأن ينفعنا به ويعلمنا ما لم نكن نعلم . إنه نعم المولى ونعم النصير .

مقدمات في فهم القرآن

لابن تيمية

مقدمة أولى

- أنزل القرآن على سبعة أحرف

سئل شيخ الإسلام :

عن قول النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ما المراد بهذه السبعة ؟ وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع [1] وعاصم [2] وغيرهما هي الأحرف السبعة ، أو واحد منها ؟ وما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القرّاء فيما احتمله خط المصحف ؟ وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن محيصن وغيرهما من القراءات الشاذة أم لا ؟ وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلاة بها أم لا ؟ افتونا مأجورين .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

هذه « مسألة كبيرة » قد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقرّاء وأهل الحديث

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (أبو رويم) مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب . أحد القرّاء السبعة المشهورين . إمام أهل المدينة وعالمها في القراءة . رجع إلى قراءته واختياره وقرأ عليه مالك . كان عارفاً بوجوه القراءات . وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم . قرأ القرآن على ابن قعقاع والزهري والأعرج . قال ابن إسحاق : لما حضرت نافعاً الوفاة قال له أولاده : أوصنا . قال : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » توفي سنة ١٦٩ أو سنة ١٧٠ . وقيل غير ذلك .

انظر : غاية النهاية لابن الجزري ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤ ؛ مفتاح السعادة ٢ / ٢٩ .

(٢) هو عاصم بن بهدلة بن النجود (بفتح النون وضم الجيم) أبو بكر الأسدي . شيخ الإقراء بالكوفة ، أحد القرّاء السبعة ، وبهدلة اسم أمه . جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير والتجويد . كان من أحسن أهل الكوفة صوتاً بالقرآن . كان من التابعين وروى عن رفاعة والحارث بن حسان . أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي . كان أحب القراءة إليه قراءة أهل المدينة .

انظر : غاية النهاية للجزري ١ / ٣٤٦ - ٣٤٩ ، مفتاح السعادة ٢ / ٣٧ .

والتفسير والكلام وشراح الغريب وغيرهم ، حتى صنف فيها التصنيف المفرد ، ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي ، المعروف بابن أبي شامة ، صاحب « شرح الشاطبية » (١) .

فأما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الأحاديث الواردة في ذلك ، وذكر ألفاظها ، وسائر الأدلة ، إلى ما لا يتسع له هذا المكان ، ولا يليق بمثل هذا الجواب ، ولكن نذكر النكت الجامعة ، التي تنبه على المقصود بالجواب .

فتقول : لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن « الأحرف السبعة » التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست هي « قراءات القرّاء السبعة المشهورة » ؛ بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد (٢) ، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فانه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه ، من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وسائر العلوم الدينية ، فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قرّاء هذه الأمصار ، ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن ، لا لإعتقاده او اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، او أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم .

ولهذا قال من قال من أئمة القرّاء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة (٣) لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي (٤) إمام جامع البصرة وإمام قرّاء البصرة في زمانه في رأس المائتين .

---

(١) نسبة إلى الإمام الشاطبي ، وهو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي الضرير أحد أعلام القراءات المشهورين ، ولد سنة ٥٨٣ بشاطبية (قرية بجزيرة الأندلس) قرأ وأتقن القراءات على المنقرى . ثم رحل إلى بلنسية فعرض بها التيسير على أبي هذيل وأخذ عنه كتاب سيبويه ثم رحل للحج فسمع من أبي طاهر السلفي بالاسكندرية ، وأقام بمصر فترة وأكرمه القاضي الفاضل وعرف له قدره . توفي سنة ٥٩٠ بالقاهرة ودفن بها . انظر وفيات الأعيان ١/٥٣٤ ـ ٥٣٥ ، طبقات الشافعية ٤/٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، البداية والنهاية ١٣/١٠ ، نفح الطيب ١/٣٣٤ ـ ٣٣٥ ؛ شذرات الذهب ٤/٣٠١ ـ ٣٠٣ ؛ حسن المحاضرة للسيوطي ١/٢٨٤ ـ ٢٨٥ ؛ مفتاح السعادة ٢/٤٩ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي الحافظ البغدادي شيخ القرّاء في عصره . أول من سبع السبعة . قرأ على ابن عبدوس وأخذ عنه . كما قرأ على قنبر المكي . ولد سنة ٢٤٥ وتوفي ٣٢٤ هـ . انظر طبقات القراء ١/١٣٩ .

(٣) حمزة بن حبيب بن عمار بن اسماعيل الزيات التيمي أحد القرّاء السبعة المشهورين . كان من موالي تيم فنسب إليهم ، كان يحضر الزيت من الكوفة الى حلوان . ولد سنة ٨٠ هـ ومات بحلوان مما يلي بلاد الجبل بالعراق سنة ١٥٦ هـ . انعقد الاجماع على تلقي قراءته بالقبول . قال الثوري : ما قرأ حمزة حرفا من كتاب الله إلا بأثر . انظر غاية النهاية في طبقات القرّاء للجزري ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ الفهرست ص ٤٤ ؛ مفتاح السعادة ٢ / ٣٩ .

(٤) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله الحضرمي أحد القرّاء العشرة . إمام أهل البصرة ومقرئها ، سمع من الكسائي ، وسمع عن حمزة . إسناده في القراءة متصل الى الرسول ﷺ . قال عنه السجستاني : هو أعلم من رأيت بالحروف . انظر مفتاح السعادة ٢/٤٣ ـ ٤٥ .

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده ؛ بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً كما قال عبد الله بن مسعود : إنما هو كقول أحدكم أقبل ، وهلم ، وتعال .

وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الاخر ، لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض ، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ في هذا ؛ حديث: « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، إن قلت : غفوراً رحيما ، أو قلت : عزيزاً حكيماً فالله كذلك ، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة » (١) . وهذا كما في القراءات المشهورة (ربنا باعد وباعَد) (إلا أن يخافا ألا يقيما) . و(إلا أن يخافا إلا يقيما) و(إن كان مكرهم لتزول ، وليزول منه الجبال) و(بل عجبتَ . وبل عجبتُ) ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقا من وجه متبايناً من وجه كقوله : (يخدعون ويخادعون) (ويكْذبون ويُكذبون) ولمستم ، ولا مستم) و(حتى يطهُرن ، ويطَّهرن) ونحو ذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق ، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملا ، لا يجوز ترك موجب احداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض ، بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وأما ما اتحد لفظه ومعناه وإنما يتنوع صفة النطق به ، كالهمزات ، والمدات ، والامالات ، ونقل الحركات ، والإظهار ، والإدغام ، والاختلاس ، وترقيق اللامات والرآت : أو تغليظها ونحو ذلك مما يسمي القرّاء عامته الأصول فهذا أظهر وأبين في أنه ليس فيه تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى ؛ إذ هذه الصفات المتنوعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ، ولا يعد ذلك فيما اختلف لفظه واتحد معناه ، أو اختلف معناه من المترادف ونحوه ، ولهذا كان دخول هذا في حرف واحد من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها من أول ما يتنوع

---

(١) ورد الحديث في البخاري بروايات مختلفة . ونصه كما في رواية عروة بن الزبير عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلبيته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : اقرأنيها رسول الله ﷺ . فقلت : كذبت . فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت . يقول عمر : فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله ﷺ : ارسله . اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت : ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه ! انظر البخاري (كتاب فضائل القرآن : باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ٦/٢٢٧ ـ ٢٢٨ ، وانظر كذلك كتاب التوحيد، بدء الخلق ، كما أورده أبو داود في (كتاب الوتر) ؛ الترمذي في (كتاب القرآن) النسائي ؛ (الافتتاح) ؛ ابن حنبل ٥/١٦ .

فيه اللفظ أو المعنى ، وإن وافق رسم المصحف وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل .

ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبوعون من السلف والأئمة في أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين ، بل من ثبت عنده قراءة الأعمش (١) شيخ حمزة أو قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمي ونحوهما ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي (٢) ، فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الاجماع والخلاف ، بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين ، وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحق وغيرهم على قراء حمزة والكسائي .

وللعلماء الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء ؛ ولهذا كان أئمة أهل العراق الذي تثبت عندهم قراءات العشرة أو الأحدعشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك في الكتب ، ويقرؤ ونه في الصلاة وخارج الصلاة ، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم .

وأما الذي ذكره القاضي عياض (٣) ومن نقل من كلامه من الإنكار على ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بالشواذ في الصلاة في أثناء المائة الرابعة ، وجرت له قصة مشهورة فإنما كان ذلك في القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه .

ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ، ولكن من لم يكن (٤) عالما بها أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الإسلام بالمغرب أو غيره ، ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه ، فان القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الأول ، كما أن ما ثبت

---

(١) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي المشهور بالأعمش . تابعي مشهور أصله من بلاد الري ، ولد بالكوفة سنة ٦١ هـ . كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض . روى نحواً من ألف وثلاثمائة حديث . قال عنه الذهبي : كان الأعمش رأساً في العلم النافع والعمل الصالح .
انظر : الطبقات الكبرى ٦/٢٣٨ ؛ تذكرة الحفاظ ، الأعلام ١/٣٩٢ .

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الأسدي . فارسي الأصل المعروف بالكسائي ، انتهت إليه رياسة الإقراء في عهده بالكوفة . أخذ عنه حمزة . روى عنه كثير من الأئمة كابن حنبل وغيره . قال عنه الشافعي : من أراد أن يتبحر في العلم فهو عيال على الكسائي . وقال يحيى بن معين : ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي . انظر : غاية النهاية للجزري ١/٥٣٥ - ٥٤٠ . الفهرست ص ٩٧ - ٩٨ . مفتاح السعادة ٢ / ٤١ .

(٣) القاضي عياض هو عالم المغرب أبو الفضل عياض بن موسى ولد سنة ٤٧٦ هـ . كان ثقة زاهداً ورعاً عابداً قوي العقيدة بعيداً عن البدع توفي سنة ٥٤٤ هـ . وله ثمانٍ وستون سنة ، ومن أهم مصنفاته (كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) محدّث عالم بالرواية . كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبتة ثم غرناطة ، وكانت وفاته بمراكش . انظر مفتاح السعادة ٢/١٤٩ ، وفيات الأعيان ، الأعلام ٢/٧٤٩ .

(٤) في س : من يكن . وهو خطأ .

عن النبي ﷺ من أنوع صفة الأذان والإقامة وصفة صلاة الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه ، وأما من علم نوعاً ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل عما علمه إلى ما لم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من علم ما لم يعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كما قال النبي ﷺ : « لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » (١) .

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود ، وأبي الدرداء رضي الله عنهما ﴿ والليلِ إذا يغشى ، والنهارِ إذا تجلّى ، والذكرَ والأنثىٰ ﴾ كما قد ثبت ذلك في الصحيحين . ومثل قراءة عبد الله ﴿ فصيامُ ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ ﴾ وكقراءته (٢) : (إنْ كانت إلا زقية واحدة)ونحو ذلك. فهذه إذا ثبتت عن بعض الصحابة فهل يجوز أن يقرأ بها في الصلاة ؟ على قولين للعلماء ؛ هما روايتان مشهورتان عن الإمام أحمد ، وروايتان عن مالك .

« إحداهما » يجوز (٣) ذلك لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرؤ ون بهذه الحروف في الصلاة .

« والثانية » لا يجوز ذلك ، وهو قول أكثر العلماء ؛ لأن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة ، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه به مرتين ، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف ، وكتبها أبو بكر وعمر في خلافة أبي بكر في صحف ، أمر زيد بن ثابت بكتابتها ، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار ، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة ، علي وغيره (٤) .

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم) ٦/٢٤٥ . وذكره البخاري في (كتاب الاعتصام) أيضاً ؛ وانظر : أبو داود (كتاب البيوع) ، الترمذي (كتاب العلم) .

(٢) في س : وكقواته :

(٣) في س : أحدا يجوزهما ذلك . وهو خطأ .

(٤) وانما اتفق الصحابة على جمع القرآن بقراءة زيد بن ثابت لما له من مكانة وعلو شأن في قراءة القرآن وإقرائه ، فلقد ثبت في البخاري من رواية أنس رضي الله عنه أن القرآن جمعه أربعة في عهد رسول الله ﷺ أحدهم زيد بن ثابت ، ولقد جمع زيد القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعد أن إستحّر القتل بالقراء يوم اليمامة . يقول زيد بن ثابت : أرسل إلي أبو بكر فقال إن عمر أتاني فقال ان القتل قد إستحّر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله الرسول ﷺ ؟ . قال عمر : هذا والله خير . يقول ابو بكر : فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك . يقول زيد بن ثابت : قال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللحاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع احد غيره . . . فكانت الصحف عند ابي بكر حتى توفاه الله =

وهذا النزاع لا بد أن يبنى على الأصل الذي سأل عنه السائل ، وهو أن القراءات السبع هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا ؟ فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والأئمة أنها حرف من الحروف السبعة ؛ بل يقولون : إن مصحف عثمان هو أحد الحروف السبعة ، وهو متضمن للعرضة الآخرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ، والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول . وذهب طوائف من الفقهاء والقرّاء وأهل الكلام إلى أن هذا المصحف مشتمل على الأحرف السبعة ، وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام ، كالقاضي أبي بكر الباقلاني وغيره ؛ بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة ، وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف الإمام العثماني وترك ما سواه ، حيث أمر عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان أبو بكر وعمر كتبا القرآن فيها ، ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة إلى كل مصر من أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك .

ترتيب السور اجتهادي

قال هؤلاء : ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة . ومن نصر قول الأولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره من أن القراءة على الأحرف السبعة ، لم يكن واجباً على الأمة ، وإنما كان جائزاً لهم مرخصاً لهم فيه ، وقد جعل إليهم الاختيار في أي حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً ؛ بل مفوضاً إلى اجتهادهم ، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد ، وكذلك مصحف غيره .

ترتيب الآيات توقيفي

وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم ، كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور

= ثم عند عمر حياته . ثم عند حفصة . وفي عهد عثمان بن عفان قدم إليه حذيفة بن اليمان بعد أن أفزعه اختلاف أهل العراق في القراءة . فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك . فارسلت بها حفصة إلى عثمان . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا . . . ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . انظر في ذلك صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب جمع القرآن) ٦/٢٢٥ ـ ٢٢٧ ، ابن كثير : فضائل القرآن ٤/١ ـ ٢٥ ، الاتقان للسيوطي .

فمفوض إلى اجتهادهم . قالوا : فكذلك الأحرف السبعة ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعاً سائغاً ، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور .

ومن هؤلاء من يقول بأن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام ؛ لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة ، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أرفق بهم ، أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الآخرة . ويقولون : إنه نسخ ما سوى ذلك .

وهؤلاء يوافق قولهم قول من يقول : إن حروف أبي بن كعب ، وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة .

وأما من قال عن ابن مسعود : أنه كان يُجوِّز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة وإنما هو كقول أحدكم : أقبل . وهلم ، وتعال ، فاقرؤوا كما علمتم أو كما قال :

ثم من جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة قال : يجوز ذلك ، لأنه من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ ، تارة يقول : ليس هو من الحروف السبعة وتارة يقول : هو من الحروف المنسوخة ، وتارة يقول : هو مما انعقد إجماع الصحابة على الإعراض عنه ، وتارة يقول : لم ينقل إلينا نقلاً يثبت بمثله القرآن . وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين .

ولهذا كان في المسألة « قول ثالث » ، وهو اختيار جدي أبو البركات [1] أنه إن قرأ بهذه القراءات في القراءة الواجبة ـ وهي الفاتحة عند القدرة عليها ـ لم تصح صلاته ؛ لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك ، وإن قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل صلاته : لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها .

وهذا القول ينبني على « أصل » وهو أن ما لم يثبت كونه من الحروف السبعة ، فهل يجب القطع بكونه ليس منها ؟ فالذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب القطع بذلك ، إذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والإثبات قطعياً .

---

(١) هو أبو البركات مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني المتوفي سنة ٦٥٢ هـ ، صاحب كتاب المحرر في أصول الفقه الحنبلي . والمسودة التي علق عليها حفيده شيخنا ابن تيمية . انظر فهرس المخطوطات جامعة الدول العربية ١/٢٢٧ .

هل البسملة آية ؟

وذهب فريق من أهل الكلام إلى وجوب القطع بنفيه ، حتى قطع بعض هؤلاء ـ كالقاضي أبي بكر ـ بخطأ الشافعي وغيره ممن أثبت البسملة آية من القرآن في غير ﴿ سورة النمل ﴾ لزعمهم أن ما كان من موارد الاجتهاد في القرآن فإنه يجب القطع بنفيه ، والصواب القطع بخطأ هؤلاء ، وأن البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف . إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجردوه مما ليس منه ، كالتخميس والتعشير وأسماء السور ؛ ولكن مع ذلك لا يقال هي من السورة التي بعدها . كما أنها ليست في السورة التي قبلها ؛ بل هي كما كتبت آية أنزلها الله في أول كل سورة ، وإن لم تكن من السورة ، وهذا أعدل الأقوال الثلاثة في هذه المسألة .

وسواء قيل بالقطع في النفي أو الإثبات ، فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق فيها للنافي ، ولا للمثبت ، بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء : إن كل واحد من القولين حق ، وإنها آية من القرآن في بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين ، وليست آية في بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها بين السورتين .

وأما قول السائل : ما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراءة فيما احتمله خط المصحف ؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية ، لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله ، إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه : بل القراءة سنة متبعة ، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي (١) وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحد منهما خارجاً عن المصحف .

ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ، ويتنوعون في بعض ، كما اتفقوا في قوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعلمون ﴾ في موضع وتنوعوا في موضعين ، وقد بيّنا أن القراءتين كالآيتين ، فزيادة القراءات كزيادة الآيات ، لكن إذا كان الخط واحداً واللفظ محتملاً كان ذلك أخصر في الرسم .

والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن ربي قال لي أن قم في قريش فأنذرهم . فقلت : أي رب ! إذاً يثلغوا رأسي ـ أي يشدخوا ـ فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظاناً ، فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق

---

(١) نسبة إلى الإمام عثمان بن عفان . وهذا المصحف إمام لكل ما يكتب بعده من المصاحف .

عليك »[1] فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرؤه في كل حال كما جاء في نعت أمته : « أناجيلهم في صدورهم » بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرأونه كله إلا نظراً عن ظهر قلب .

وقد ثبت في الصحيح أنه جمع القرآن كله على عهد النبي ﷺ جماعة من الصحابة ، كالأربعة الذين من الأنصار ، وكعبد الله بن عمرو[2] ، فتبين بما ذكرناه أن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، وذلك باتفاق علماء السلف والخلف .

وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين ، بل القراءات الثابتة ، عن أئمة القراء ـ كالأعمش ويعقوب ، وخلف وأبي جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ونحوهم ـ هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنه ، كما ثبت ذلك .

وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم ، وإنما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، والتابعون لهم بإحسان ، والأمة بعدهم ، هل هو بما فيه من القراءات السبعة ، وتمام العشرة ، وغير ذلك ، هل هو حرف من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ؟ أو هو مجموع الأحرف السبعة ، على قولين مشهورين . والأول قول أئمة السلف والعلماء ، والثاني قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم ، وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد فيه المعنى ويتناقض ، بل يصدق بضعها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً .

وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم ؛ إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع ، لا إلى الرأي والابتداع .

أما إذا قيل : أن ذلك هي الأحرف السبعة فظاهر . وكذلك بطريق الأولى إذا قيل : إن ذلك حرف من الأحرف السبعة ؛ فإنه إذا كان قد سوغ لهم أن يقرؤوه على سبعة أحرف كلها شاف كاف مع تنوع الأحرف في الرسم ؛ فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه في اللفظ أولى وأحرى ، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة ، لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين ، كالتاء والياء ، والفتح والضم ، وهم يضبطون باللفظ كلا

---

(١) ورد في هذا الحديث في : ابن حنبل ٤/٦٢ ، مسلم (كتاب الجنة) .

(٢) أورد البخاري أن قتادة سأل أنس بن مالك فقال : من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أربعة كلهم من الأنصار . أبي بن كعب ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، وأبو زيد . انظر البخاري ٦/٢٣٠ (باب القراء على عهد رسول الله) .

الأمرين ، ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين ؛ فإن أصحاب رسول الله ﷺ تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعاً ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي (١) ـ وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٢) ، كما رواه البخاري في صحيحه ، وكان يقرىء القرآن أربعين سنة . قال ـ حدثنا الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

ولهذا دخل في معنى قوله : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » تعليم حروفه ومعانيه جميعاً ؛ بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه ، وذلك هو الذي يزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان .

وفي الصحيحين عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدّثنا « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن » (٣) وذكر الحديث بطوله ، ولا تتسع هذه الورقة لذكر ذلك . وإنما المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول الله ﷺ إلى الناس .

وبلغنا أصحابه عنه الإيمانَ والقرآن ، حروفه ومعانيه ، وذلك مما أوحاه الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلكَ أَوْحَيْنَا إليكَ روحاً من أمرِنَا مَا كُنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، وَلَكن جعلناهُ نوراً نهدي بهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٤) ، وتجوز القراءة في الصلاة وخارجها بالقراءات

---

(١) عبد الله بن حبيب بن ربيعة (أبو عبد الرحمن السلمى) الضرير . مقرىء الكوفة . ولد في حياة النبي ﷺ وثبت لأبيه شرف الصحبة ، انتهت إليه القراءة تجويداً وضبطاً . أخذ عن عثمان بن عفان وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت . أخذ عنه عاصم والحسن والحسين رضي الله عنهما . توفي سنة ٧٣ أو ٧٤ . أنظر : غاية النهاية في طبقات القراء للجزري ١/٤١٣ ـ ٤١٤ ، مفتاح السعادة ٢/٢١ ـ ٢٢ .

(٢) « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أورده البخاري بروايات مختلفة وفي مواضع مختلفة ، أنظر (كتاب فضائل القرآن . باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ٦/٢٣٦ ؛ وأورده أبو داود (كتاب الوتر) والترمذي (كتاب ثواب القرآن) وابن ماجه (المقدمة) ، والدارمي (فضائل القرآن) ؛ ابن حنبل ١/٥٧ .

(٣) تمام الحديث كما سمعه زيد بن وهب عن حذيفة يقول : حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن ؛ فقرأوا القرآن وعلموا السنة . انظر : البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب الاقتداء بسنن رسول الله) ٩/١١٣ ـ ١١٤ ، مسلم (كتاب الإيمان) ، ابن ماجة (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٥/٣٨٣ .

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ .

الثابتة الموافقة لرسم المصحف ، كما ثبتت هذه القراءات ، وليست شاذة حينئذ . والله أعلم .

وسئل أيضاً :

عن « جمع القراءات السبع » هل هو سنة أم بدعة ؟ وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ؟ وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد لله . أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القراءة التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم وقد أقروا بها سُنَّة . والعارف في القراءات الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ولا يعرف إلا قراءة واحدة .

وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة . وأما الصحابة [1] .

مقدمة ثانية

تحزيب القرآن

قال شيخ الإسلام

فصل

في « تحزيب القرآن » وفي « كم يقرأ » وفي « مقدار الصيام والقيام المشروع »

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد ابنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كنفاً مذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ألقني به فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟ قلت : كل يوم . قال : متى ـ أو كيف ـ تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صم من كل شهر ثلاثة أيام ، واقرأ القرآن في كل شهر . قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام من كل جمعة . قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً ، قال : قلت إني أطيق أكثر من ذلك . قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ القرآن في كل سبع ليال مرة . قال : فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أني كبرت وضعفت » فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، فإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصن وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ .

وقال بعضهم : في ثلاث وفي خمس ، وأكثرهم على سبع . وفي لفظ : « اقرأ القرآن في شهر ، قلت : إني أجد قوة . قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك » رواه بكماله البخاري وهذا لفظه [١] . وروى مسلم الحديث بنحوه واللفظ الآخر مثله . وفي رواية ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن في كل ليلة . فقلت : نعم يا نبي الله . وفيه قال : « اقرأ القرآن في كل شهر ، قال : قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه كل عشر ، قال : قلت يا نبي الله

---

(١) انظر البخاري ٦/٢٤٢ (كتاب فضائل القرآن . باب في كم يقرأ القرآن) والحديث من رواية مجاهد عن عبد الله بن عمر . مع اختلاف في بعض الألفاظ .

إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك [1] قال : فشددت فشدد عليّ » وقال لي النبي ﷺ : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عمرك ، قال : فصرت إلى الذي قال النبي ﷺ » ، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « اقرأ القرآن في كل ثلاث » رواه أحمد وأبو داود .

قلت هذه الرواية نبه عليها البخاري . وقال بعضهم : في ثلاث ، وهو معنى ما روي عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال : يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : « نعم » وكان يقرؤه حتى توفي . رواه أحمد من طريق ابن لهيعة . وذكر أن بعضهم قال : في خمس وأكثرهم على سبع ، فالصحيح عندهم في حديث عبد الله بن عمرو أنه انتهى به النبي ﷺ إلى سبع ، كما أنه أمره ابتداء بقراءته في الشهر ، فجعل الحد ما بين الشهر إلى الأسبوع ، وقد روي أنه أمره ابتداء أن يقرأه في أربعين ، وهذا في طرف السعة يناظر التثليث في طرف الاجتهاد .

وأما رواية من روي : « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه » [2] فلا تنافي رواية التسبيع فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو ، ولا فيه أنه جعل قراءته في ثلاث دائماً سنة مشروعة ، وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه ، ومفهومه مفهوم العدد ، وهو مفهوم صحيح أن من قرأه في ثلاث فصاعداً فحكمه نقيض ذلك ، والتناقض يكون بالمخالفة ، ولو من بعض الوجوه .

فإذا كان من يقرؤه في ثلاث أحياناً قد يفقهه حصل مقصود الحديث ، ولا يلزم إذا شرع فعل ذلك أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مستحبة ، ولهذا لم يعلم في الصحابة على عهده من داوم على ذلك ، أعني على قراءته دائماً فيما دون السبع ، ولهذا كان الإمام أحمد - رحمه الله - يقرؤه في كل سبع .

والمقصود بهذا الفصل أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر - وإن كان قد روي ما بين ثلاث إلى أربعين - فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوراً تامة ، لا يحزبون السورة الواحدة ، كما روى أوس بن حذيفة ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال :

---

(١) ورد الحديث في البخاري ٦/٢٤٣ ولفظه : قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر . قلت اني أجد قوة . حتى قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك ، ويقول ابن كثير معلقاً على هذا النص : فهذا السياق يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع . انظر : كتاب فضائل القرآن ٤/٤٩ من التفسير .

(٢) هي رواية قتادة عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « لا تفقه في قراءة في أقل من ثلاث » يقول ابن كثير أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة : وقال عنه الترمذي : حسن صحيح ، وبرواية عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يختم القرآن في أقل من ثلاث . . ويعلق ابن كثير على هذا الحديث قائلاً : هذا حديث غريب جداً وفيه ضعف وضعفه الدارقطني .

أنظر تفسير ابن كثير ٤/٤٩ - ٥٠ (كتاب فضائل القرآن) .

فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له ، قال : وكان كل ليلة يأتينا بعد العشاء ، يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش . ثم يقول : لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة ، قال : إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه [١] .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل واحد [٢] . رواه أبو داود وهذا لفظه ، وأحمد وابن ماجة ، وفي رواية للإمام أحمد قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من (ق) حتى يختم . ورواه الطبراني في معجمه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ : كيف كان رسول الله ﷺ يحزب القرآن ؟ فقالوا : كان رسول الله ﷺ يحزبه ثلاثاً ، وخمساً ، فذكره .

وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو ، في أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع ، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب ، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة ، وفيه أنهم حزبوه بالسور ، وهذا معلوم بالتواتر : فإنه قد علم أن أول ما جزىء القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين ، وثلاثين ، وستين . هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة ، وأثناء القصة ونحو ذلك ، كان في زمن الحجاج وما بعده ، وروي أن الحجاج أمر بذلك . ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك .

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق ، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي ﷺ وبعده كان لهم تحزيب آخر ، فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون :

---

(١) أورد ابن الأثير هذه القصة بأكملها في ترجمته لأوس ابن حذيفة فقال : قال حذيفة « قدمنا وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فنزل الاحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبتة . وكان رسول الله يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الأخير حتى يراوح بين قدميه من طول القيام . وكان أكثر ما يحدثنا اشتكاء قريش . يقول كنا بمكة مستذلين مستضعفين فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم . فكانت (الحرب) سجال لنا وعلينا . يقول حذيفة : واحتبس عنا (الرسول) ليلة عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، ثم أتانا ، فقلنا يا رسول الله : احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه . فقال رسول الله ﷺ : إنه طرأ على حزبي من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه . قال حذيفة : فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله عن أحزاب القرآن كيف تحزبونه . . الخ » .

أنظر بالاضافة الى أبي داود وابن ماجة : ابن الأثير في أسد الغابة ١/١٦٧ - ١٦٩ .

(٢) حزب المفصل يبدأ من سورة محمد إلى آخر القرآن ، وانظر القاموس المحيط مادة « فصل » .

خمسون آية ، ستون آية ، وتارة بالسور ، لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ولا ذكره أحد فتعين التحزيب بالسور .

فإن قيل : فترتيب سور القرآن ليس هو أمراً واجباً منصوصاً عليه ، وإنما هو موكول إلى الناس ، ولهذا اختلف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا في كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد . « إحداهما » يكره لأنه خلاف المصحف العثماني المتفق عليه . و « الثانية » لا يكره كما يلقنه الصبيان ، إذ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

قيل : لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرتباً ، أكثر ما في الباب أن الترتيب يكون أنواعاً ، كما أنزل القرآن على أحرف ، وعلى هذا ، فهذا التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب . ويجوز أيضاً أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب ، فإنه ليس في الحديث تعيين السور .

الأفضل ما كان عليه الصحابة

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن ، لوجوه :

« أحدها » أن هذه التحزيبات المحدثة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه ، فيحصل القارىء في اليوم الثاني مبتدئاً بمعطوف ، كقوله تعالى : ﴿ والمحصناتُ مِنَ النِّساءِ إلَّا مَا ملكَتْ أيمانُكُمْ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقنُتْ منكُنَّ للهِ ورسُولِهِ ﴾ (٢) وأمثال ذلك . يتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض - حتى كلام المتخاطبين - حتى يحصل الابتداء في اليوم الثاني بكلام المجيب ، كقوله تعالى : ﴿ قال : أَلَمْ أَقُل لكَ إنَّكَ لَن تَستطيعَ معيَ صَبراً ﴾ (٣) .

ومثل هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي ، ولهذا لو ألحق بالكلام عطف أو استثناء أو شرط ونحو ذلك بعد طول الفصل بأجنبي لم يسغ باتفاق العلماء ، ولو تأخر القبول عن الإيجاب بمثل ذلك بين المتخاطبين لم يسغ ذلك بلا نزاع ، ومن حكى عن أحمد خلاف ذلك فقد أخطأ ، كما أخطأ من نقل عن ابن عباس في الأول خلاف ذلك ، وذلك أن المنقول عن أحمد أنه فيما إذا كان المتعاقدان غائبين ، أو أحدهما غائب والآخر حاضراً فينقل الإيجاب أحدهما إلى الآخر ، فيقبل في مجلس البلاغ وهذا جائز ، بخلاف ما إذا كانا

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣١ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٥ .

حاضرين ، والذي في القرآن نقل كلام حاضرين متجاورين ، فكيف يسوغ أن يفرق هذا التفريق لغير حاجة ؟ بخلاف ما إذا فرق في التلقين لعدم حفظ المتلقن ونحو ذلك .

« والثاني » أن النبي ﷺ كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ في الصلاة بسورة كـ (ق) ونحوها ، وكما كان عمر رضي الله عنه يقرأ « يونس » و « يوسف » و « النحل » ، ولما قرأ ﷺ بسورة « المؤمنين » في الفجر أدركته سعلة فركع في أثنائها . وقال : « إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأخفف لما أعلم من وجد أمه به » .

وأما « القراءة بأواخر السور وأوساطها » فلم يكن غالباً عليهم ، ولهذا يتورع في كراهة ذلك ، وفيه النزاع المشهور في مذهب أحمد وغيره ، ومن أعدل الأقوال قول من قال يكره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً ، لئلا يخرج عما مضت به السنة ، وعادة السلف من الصحابة والتابعين .

وإذا كان كذلك فمعلوم أن هذا التحزيب والتجزئة فيه مخالفة السنة أعظم مما في قراءة آخر السورة ووسطها في الصلاة ، وبكل حال فلا ريب أن التجزئة والتحزيب الموافق لما كان هو الغالب على تلاوتهم أحسن .

و « المقصود » أن التحزيب بالسورة التامة أولى من التحزيب بالتجزئة .

« الثالث » أن التجزئة المحدثة لا سبيل (فيها) إلى التسوية بين حروف الأجزاء ، وذلك لأن الحروف في النطق تخالف الحروف في الخط في الزيادة والنقصان ، يزيد كل منهما على الآخر من وجه دون وجه ، وتختلف الحروف من وجه ، وبيان ذلك بأمور :

« **أحدها** » ان ألفات الوصل ثابتة في الخط ، وهي في اللفظ ، تثبت في القطع وتحذف في الوصل ، فالعادُّ إن حسبها انتقض عليه حال القارىء إذا وصل وهو الغالب فيها ، وإن أسقطها انتقض عليه بحال القارى القاطع ، وبالخط .

« **الثاني** » أن الحرف المشدد حرفان في اللفظ ، أولهما ساكن وهذا معروف بالحس واتفاق الناس ، وهما متماثلان في اللفظ ، وأما في الخط فقد يكونان حرفاً واحداً مثل ﴿إياك﴾ و ﴿إياك﴾ وقد يكونان حرفين مختلفين مثل : ﴿الرحمن الرحيم﴾ ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ و ﴿حينئذ﴾ .

و (قد سمع) ، فالعادُّ إن حسب اللفظ فالإدغام إنما يكون في حال الوصل دون حال القطع ، ويلزمه أن يجعل الأول من جنس الثاني ، وهذا مخالف لهذا الحرف المعاد بها . وإن حسب الخط كان الأمر أعظم اضطراباً . فإنه يلزمه أن يجعل ذلك تارة حرفاً وتارة حرفين مختلفين ، وهذا وإن كان هو الذي يتهجى فالنطق بخلافه .

« **الثالث** » أن تقطيع حروف النطق من جنس تقطيع العروضيين ، وأما حروف الخط

فيخالف هذا من وجوه كثيرة ، والناس في العادة إنما يتهجون الحروف مكتوبة لا منطوقة ، وبينهما فرق عظيم .

« **الرابع** » أن النطق بالحروف ينقسم إلى ترتيل وغير ترتيل ، ومقادير المدات والأصوات من القرّاء غير منضبطة ، وقد يكون في أحد الحزبين من حروف المد أكثر مما في الآخر فلا يمكن مراعاة التسوية في النطق ، ومراعاة مجرد الخط لا فائدة فيه ، فان ذلك لا يوجب تسوية زمان القراءة .

وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد ، كان ذلك من جنس تجزئته بالسور هو أيضاً تقريب ، فان بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض الحروف ، وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض ، والافتتاح بما فتح الله به السورة ، والاختتام بما ختم به ، وتكميل المقصود من كل سورة ما ليس في ذلك التحزيب . وفيه أيضاً من زوال المفاسد الذي في ذلك التحزيب ما تقدم التنبيه على بعضها ، فصار راجحاً بهذا الاعتبار .

ومن المعلوم أن طول العبادة وقصرها يتنوع بتنوع المصالح ، فتستحب إطالة القيام تارة وتخفيفه أخرى في الفرض والنفل بحسب الوجوه الشرعية ، من غير أن يكون المشروع هو التسوية بين مقادير ذلك في جميع الأيام . فعلم أن التسوية في مقادير العبادات البدنية في الظاهر لا اعتبار به إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم من التساوي في القدر التساوي في الفضل ، بل قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن [(١)] ، وثبت في الصحيح أن فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في القرآن مثلها [(٢)] ، وثبت في الصحيح أن آية الكرسي أعظم آية في القرآن [(٣)] ، وأمثال ذلك .

فإذا قرأ القارىء في اليوم الأول البقرة ، وآل عمران ، والنساء بكاملها ، وفي اليوم الثاني إلى آخر براءة ، وفي اليوم الثالث إلى آخر النمل : كان ذلك أفضل من أن يقرأ في اليوم الأول إلى قوله : (بليغا) وفي اليوم الثاني إلى قوله ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصلِحِينَ ﴾ [(٤)] فعلى هذا إذا قرأه كل شهر كما أمر به النبي ﷺ عبد الله بن عمرو أولا عملا على قياس تحزيب الصحابة ، فالسورة التي تكون نحو جزء أو أكثر بنحو نصف أو أقل بيسير يجعلها حزباً كآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف .

---

(١) ورد الحديث في البخاري عن أبي سعيد الخدري ولفظه : ... والذي نفسي بيده أنها ﴿ قل هو الله أحد ﴾ لتعدل ثلث القرآن . انظر البخاري ٢٣٣/٦ (كتاب فضائل القرآن . فضل قل هو الله أحد) .

(٢) ورد الحديث في البخاري ٢٠٠/٦ (كتاب التفسير . باب ما جاء في فاتحة الكتاب) ؛ الترمذي (ثواب القرآن) ؛ ابن حنبل ٣١١/٤ .

(٣) انظر (فضل آية الكرسي) في البخاري ٢٣١/٦ (فضل سورة البقرة) .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٠ ، ١٢٦ .

وأما البقرة فقد يقال : يجعلها حزبا وإن كانت بقدر حزبين وثلث ، لكن الأشبه أنه يقسمها حزبين للحاجة ، لأن التحزيب لا بد أن يكون متقاربا ؛ بحيث يكون الحزب مثل الأجزاء ومثله مرة دون النصف ، وأما إذا كان مرتين وشيئاً فهذا تضعيف وزيادة .

وعلى هذا فإلى الأعراف سبعة أجزاء ، والأنفال جزء ، وبراءة جزء ، فإن هذا أولى من جعلها جزءاً ، لأن ذلك يفضي إلى أن يكون نحو الثلث في ثمانية . والذي رجحناه يقتضي أن يكون نحو الثلث في تسعة ، وهذا أقرب إلى العدل . وتحزيب الصحابة أوجب أن يكون الحزب الأول أكثر ، ويكون إلى آخر العنكبوت العشر الثاني سورتين سورتين .

وأما يونس وهود فجزءان أيضاً أو جزء واحد ، لأنهما أول ذوات (الر) ، ويكون على هذا الثلث الأول سورة سورة ، والثاني سورتين سورتين ، ولكن الأول أقرب إلى أن يكون قريب الثلث الأول في العشر الأول ، فان الزيادة على الثلث بسورة أقرب من الزيادة بسورتين . وأيضاً فيكون عشرة أحزاب سورة سورة ، وهذا أشبه بفعل الصحابة ، ويوسف والرعد جزء ، وكذلك إبراهيم والحجر ، وكذلك النحل وسبحان (الاسراء) ، وكذلك الكهف ومريم ، وكذلك طه والأنبياء ، وكذلك الحج والمؤمنون ، وكذلك النور والفرقان ، وكذلك ذات (طس) الشعراء والنمل والقصص ، وذات (الم) العنكبوت والروم ولقمان والسجدة جزء ، والأحزاب وسبأ وفاطر جزء ، و(يس) و(الصافات) و(ص) جزء ، والزمر وغافر و(حم) السجدة جزء ، والخمس البواقي من آل (حم) جزء .

والثلث الأول أشبه بتشابه أوائل السور ، والثاني أشبه بمقدار جزء من تجزئة الحروف وهو المرجح . ثم « القتال » و« الفتح » و« الحجرات » و« ق » و« الذاريات » جزء ، ثم الأربعة الأجزاء المعروفة ، وهذا تحزيب مناسب مشابه لتحزيب الحروف ، واحدى عشرة سورة حزب حزب ، إذ البقرة كسورتين ، فيكون إحدى عشر سورة ، وهي نصيب إحدى عشرة ليلة . والله أعلم .

مقدّمة ثالثة
في
أصحّ كتب التفسير

سئل شيخ الإسلام :

عن جندي نسخ بيده صحيح مسلم والبخاري والقرآن ، وهو ناوٍ كتابة الحديث والقرآن العظيم ، وإن سمع بورق أو أقلام اشترى بألف درهم ، وقال : أنا إن شاء الله أكتب في جميع هذا الورق أحاديث الرسول والقرآن ، ويؤمل آملاً بعيدة ، فهل يأثم أولا ؟ وأي التفاسير أقرب الى الكتاب والسنّة ؟ الزمخشري ؟ أم القرطبي ؟ أم البغوي ؟ أو غير هؤلاء ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس عليه إثم فيما ينويه ويفعله من كتابة العلوم الشرعية ، فإن كتابة القرآن والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموجودة الثابتة من أعظم القربات والطاعات .

وأما « التفاسير » التي في أيدي الناس فأصحها « تفسير محمد بْن جرير الطبري » [1] فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن

(١) هو محمد بن جرير الطبري أحد أئمة السلف علماً وديناً ولد سنة ٢٢٤ أو سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ كان حافظا لكتاب الله بصيراً بمعانيه فقيهاً في أحكامه حجة في رواياته . تفرغ للعلم والاشتغال به حتى أنه قال : اضطررت لنفقة والدي ففتقت كمي قميصي فبعتهما لأنفق عليه من ثمنهما . له مؤلفات كثيرة قيل أنه ظل أربعين سنة من عمره يكتب في اليوم الواحد أربعين ورقة . ومن أهم كتبه على الإطلاق وأكثرها نفعاً تفسيره المشهور للقرآن ويقع في ثلاثين مجلداً . انظر : مفتاح السعادة ٢/٣١٥ ، تاريخ بغداد ٢/١٦٢ - ١٦٩ ، وفيات الأعيان ١/٥٧٧ ، المنتظم لابن الجوزي ٦/١٧٠ - ١٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٠٦ - ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٢٥١ - ٢٥٥ .

بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كمقاتل بن بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كتفسير عبد الرزاق ، وعبد بن حميد . ووكيع وابن أبي قتيبة وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه .

وأما « التفاسير الثلاثة » المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة « البغوي » (١) لكنه مختصر من « تفسير الثعلبي » (٢) وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيه ، وحذف أشياء غير ذلك :

أما « الواحدي » (٣) فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ؛ لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره . وتفسيره و« تفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز » فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما « الزمخشري » (٤) فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصول المعتزلة .

و« أصولهم خمسة » يسمونها التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي والمحدّث والمفسّر المشهور بالفراء . توفي سنة ٥١٦ هـ وهو من أقرب المفسرين وأجودهم رواية عن السلف ، تأثر بالثعلبي في تفسيره ونقل عنه بعد أن حذف منه الأحاديث الموضوعة ، ويعتبر البغوي من أئمة أهل السنّة في زمانه . انظر عنه : الوفيات ٤٠٢/١ ، طبقات الشافعية ٢١٤/٤ - ٢١٧ ؛ تذكرة الحفاظ ٢٥٧/٤ الاعلام ٢٨٤/٢ .

(٢) هو أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري صاحب التفسير . كان إماماً في اللغة والتفسير ، روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأخذ عنه الواحدي . توفي سنة ٤٢٧ هـ . انظر عنه . وفيات الأعيان ٢٦/١ ؛ أنباء الرواة ١١٩/١ البداية والنهاية ٤٠/١٢ ؛ معجم الأدباء ٣٦/٥ ، طبقات المفسرين ٥ ؛ مرآة الجنان ٤٦/٣ ؛ شذرات الذهب ٢٣٠/٣ ؛ اللباب ١٩٤/١ ؛ مفتاح السعادة ٦٧/٢ .

(٣) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية المعروف بالواحدي . مفسر وعالم بفنون الأدب ، ولد بنيسابور . وتوفي بها سنة ٤٦٨ هـ من أهم مصنفاته في التفسير ؛ البسيط ؛ والوسيط والوجيز ؛ أسباب النزول . انظر عنه : وفيات الأعيان ٤١٩/١ ، طبقات الشافعية ٣٨٩/٣ ؛ الكامل ٣٥/١٠ ، البداية والنهاية ١١٤/١٢ ، طبقات القراء ٥٢٣/١ ؛ شذرات الذهب ٣٢٠/٢ ، بغية الرعاة ص ٣٢٧ مفتاح السعادة ٦٦/٢ .

(٤) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر المعتزلي الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ صاحب (تفسير الكشاف) المعروف ، ويعده المعتزلة من كبار مفسريهم حيث فسر القرآن على طريقتهم ومذهبهم في الأصول الخمسة التي أخذوا أيها في أصول العقيدة . كان غاية في الذكاء والفضل واشتهر بفخر خوارزم . انظر : وفيات الأعيان ١٠٧/٢ ؛ النجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ ؛ اللباب ٥٠٧/١ ؛ تذكرة الحفاظ ٧٦/٤ ؛ نزهة الألباء ٤٦٩ - ٤٧٢ ؛ طبقات المفسرين ص ٤١ .

لكن معنى « التوحيد » عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمى ابن التومرت أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى « العدل » عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات والقدرة على شيء . ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ، لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري ، فان مذهبه مذهب المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم . ومذهب أبي الحسين والمعتزلة الذين على طريقته نوعان : مشايخية وخشبية .

وأما « المنزلة بين المنزلتين » فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً ، فنزلوه بين منزلتين .

و« انفاذ الوعيد » عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقول الخوارج .

و« الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف . وهذه الأصول حشا (بها) كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها ، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين .

و« تفسير القرطبي » (١) خير منه بكثير ، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنّة ، وأبعد عن البدع ، وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد ، لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

و« تفسير ابن عطية » (٢) خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير ، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

---

(١) هو عبد الله بن الحسن بن أحمد الأنصاري القرطبي المالقي من حفاظ الحديث ومن كبار أئمة التفسير . ولد سنة ٥٥٦ وتوفي سنة ٦٣١ هـ . ومن أهم كتبه تفسيره الكبير (الجامع لأحكام القرآن) وله تصانيف في القرءات . أنظر عنه : بغية الوعاة ص ٢٨٠ مفتاح السعادة ٨٦/٢ ؛ الإعلام ٥٥٢/٢ (ط ١٩٢٥) .

(٢) هو الإمام أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وينبغي أن نعرف أن هناك مفسراً آخر اشتهر بابن عطية توفي سنة ٣٨٣ هـ . وله تفسير يسمى « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » قال أبو حيّان : هو أجلّ من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير . وقيل في المقارنة بين الزمخشري وابن عطيّة : ان كتاب ابن عطية أقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص . انظر كشف الظنون للهجويري ، بغية الوعاة ٢٩٥ ، فهرس الكتبخانة ٢٠٨/١ ؛ الأعلام ٤٧٨/٢ (ط ١٩٢٥) .

وثم تفاسير أُخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزي [1] والماوردي [2] .

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ابو الفرج) الإمام المحدّث والفقيه والمتكلّم والمفسّر . توفي سنة ٥٩٧ هـ . اشتهر بالوعظوسلاسة الأسلوب . من أهم كتبه : زاد المسير في علم التفسير ، تيسير البيان في علم القرآن . المغني في التفسير (قال ابن رجب أن هذا الكتاب أحد وثمانون جزءاً) أنظر ترجمته في : وفيّات الأعيان ٢/٣٢١ ـ ٣٢٢ ، تاريخ ابن الوردي ٢/١٨٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١/٣٩٩ ـ ٤٣٣ ، الكامل لابن الأثير ١/٢٢٨ ، ١٢/٦٧ ؛ الاعلام ٤/٨٩ ـ ٩٠ . وانظر أيضا درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧٠ هامش ٦ .

(٢) علي بن محمد بن حبيب الفقيه الشافعي المعروف بالماوردي ، درس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة ، وتولى منصب القضاء مرات عدة ، وقيل أنه لم يظهر تصانيفه في حياته إلا الحاوي فقد قرىء عليه كما قال ابن السبكي . له مؤلفات كثيرة من أهمها . الحاوي ، الإقناع ، أدب الدنيا والدين ، دلائل النبوة ، الأحكام السلطانية ، قانون الوزارة ، سياسة الملك . توفي سنة ٤٥٠ هـ . أنظر عنه : تاريخ بغداد ١٢/١٠٢ ـ ١٠٣ ؛ وفيّات الأعيان ١/٤١٠ ـ ٤١١ ؛ معجم الأدباء ١٥/٥٢ ـ ٥٥ ، طبقات الشافعية ٣/٣٠٣ ـ ٣١٤ ، المنتظم لابن الجوزي ٨/١٩٩ ـ ٢٠٠ ، مفتاح السعادة ٢/٣٣١ .

مقدمة رابعة

قواعد كلية في التفسير

١ - السلف فهموا القرآن وبينوا معناه
٢ - اختلاف السلف في التفسير قليل
٣ - الاختلاف في التفسير وأسبابه

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن برحمتك

الحمد لله نستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً .

أما بعد : فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية ، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه ، والتمييز ـ في منقول ذلك ومعقوله ـ بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل . فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح والحق المبين . والعلم إما نقل مصدق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم . وما سوى هذا فاما مزيف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود . وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي « هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الترديد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط المستقيم . ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله » قال تعالى ﴿ فإمَّا يأْتينَّكُمْ مني هُدىً فمن اتَّبعَ هُدايَ فلا يضلُ ولا يشقىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكاً ، ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قالَ ربِّ لمَ حَشَرْتَني أعمىٰ وقد كُنْتُ بَصِيراً ؟ قالَ كَذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتَها وكَذلكَ اليومَ

تُنسى ﴾ [1] ، وقال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، ويخرجُهُمْ مِنَ الظُّلماتِ إلىٰ النّورِ بإذنهِ ، وَيَهديهِمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ آلر . كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ بإذنِ ربهِمْ إلىٰ صِراطِ العزيزِ الحميد . الله الَّذي لهُ ما في السَّماواتِ وَمَا في الأَرضِ ﴾ [3] ، وقال تعالى ﴿ وكذلكَ أَوحينَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمرِنَا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإِيمانُ ، ولكن جَعلناهُ نوراً نهدي بِهِ مَنْ نشاءُ مِنْ عِبادِنَا ، وإنَّكَ لَتهدي إلى صِراطٍ مستقيمٍ ، صِراطَ الله الَّذي لهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أَلا إلىٰ اللهِ تَصيرُ الأُمورُ ﴾ [4] .

وقد كتبت هذه (المقدمة) مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من املاء الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

فصل
السلف فهموا القرآن وبيّنوا معناه

يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى ﴿ لتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّل إليهِمْ ﴾ [5] يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي [6] : حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين ـ قيل ثمان سنين ـ ذكره مالك . وذلك أن الله تعالى قال ﴿ كِتابٌ أَنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبَّرُوا آياته ﴾ [7]

---

(١) سورة طه الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦) .

(٢) سورة المائدة الآية ١٥ .

(٣) أول سورة إبراهيم .

(٤) سورة الشورى الآيات ٥٢ ـ ٥٣ .

(٥) سورة النحل الآية ٤٤ ـ ١٤ .

(٦) هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة الشهير بأبي عبد الرحمن السلمي من مشاهير القراء الذين أخذوا عن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب . لم يعلم تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته . انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤١٣/١٠ وكثيراً ما يذكر ابن تيمية هذا النص عن السلمي ليستدل به على أن السلف تعلموا القرآن وتعلموا معه العمل به .

(٧) سورة ص الآية ٢٩ .

وقال ﴿ أَفَلَا يتدبَّرُونَ القرآنَ ﴾[1] وقال ﴿ أفلم يدَّبَّرُوا القَـولَ ﴾[2] وتدبـر الكلام بـدون فهم معانيه لا يمكن . وكذلك قال تعالى ﴿ إنَّـا أنزلنـاهُ قرآنـاً عربيَّـاً لعلَّكم تَعقِلونَ ﴾[3] ، وعقل الكلام متضمن لفهمه . ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفـاظه ، فالقرآن أولى بذلك .

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحـوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجـاتهم وسعادتهم وقيـام دينهم ودنياهم ؟ ولهـذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ؛ وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعـدهم ، وكلما كان العصـر أشرف كـان الاجتماع والائتـلاف والعلم والبيان فيه أكثر . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد[4] : عرضت المصحف على ابن عباس ، أفقه[5] عند كل آية منه وأسأله عنها[6] ، ولهذا قال الثوري[7] : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيره ، من أهل العلم ، وكذلك الامام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

فصل
اختلاف السلف في التفسير قليل

الخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير ،

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ ؛ ومحمد الآية ٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، شيخ القراء والمفسرين ، قرأ على ابن عباس وأخذ عنه ، ولد سنة ٢١ وقيل أنه توفي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ انظر شذرات الذهب ١/١٢٥ ، تذكرة الحفاظ ١/٨٠ ـ ٨١ ، ميزان الاعتدال ٣/٩ الاعلام ٦/١٦١ .

(٥) في طبعة محب الدين الخطيب ، أوقفه وهو خطأ .

(٦) ذكر ابن كثير هـذا الأثير في (كتـاب فضل القـرآن) ذكره في فضـائل ابن عبـاس ومجاهـد انظر ٤/٢٨ ـ ٢٩ (فضـائل القرآن) .

(٧) هو سفيان بن سعيد بن مسروق (الثوري) محدّث وإمام ثقة ولد سنة ٩٧ وتوفي سنة ١٦١ هـ . انظر ترجمته في : دول الإسلام ١/٧٨ ـ ٧٩ ، الوفيات ٢/١٢٧ ؛ طبقات ابن سعد ٦/٣٧١ ـ ٣٧٤ .

وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد . وذلك صنفان :

١ ـ تعدد اللفظ والمراد واحد :

أحدهما : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة ، كما قيل في اسم السيف : الصارم والمهند وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله ﷺ وأسماء القرآن ، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر ، بل الأمر كما قال تعالى ﴿ قُلِ ادعُوا الله أو ادعُوا الرَّحمنَ أَيّاماً تدعُوا فلهُ الأسماءُ الحُسنى ﴾[(١)] ، وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الإسم ، كالعليم يدل على الذات والعلم ، والقدير يدل على الذات والقدرة ، والرحيم يدل على الذات والرحمة . ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون : لا يقال هو حي ولا ليس بحي ، بل ينفون عنه النقيضين فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات ، وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات ، فمن وافقهم على مقصودهم كان ـ مع دعواه الغلو في الظاهر ـ موافقاً لغلاة الباطنية في ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك ، وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الإسم من صفاته ، ويدل أيضاً على الصفة التي في الإسم الآخر بطريق اللزوم . وكذلك أسماء ﷺ مثل محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب ، وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك ، فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبّرنا عنه بأي اسم كان ، إذا عرف مسمى هذا الإسم . وقد يكون الإسم علماً وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله ﴿ وَمَنْ أَعرَضَ عَنْ ذِكرِي ﴾[(٢)] . ما ذكره ؟ فيقال له هو القرآن مثلاً ، أو ما أنزله من الكتب ، فإن الذكر مصدر ، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول ، فإذا قيل ذكر الله بالمعنى الثاني كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر . وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه ، وهذا هو المراد في قوله ﴿ وَمَنْ أَعرَضَ عَنْ ذِكرِي ﴾ لأنه قال قبل ذلك ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مني هُدىً فمن اتَّبعَ هُداىَ فَلاَ يَضِلُّ ولا يشقى ﴾[(٣)] وهداه هو ما أنزله من الذكر . وقال بعد ذلك ﴿ قالَ رَبِّ لِمَ حشرتَني أَعمىٰ وقد كُنتُ بصيراً ؟ قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا

---

(١) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

(٢) سورة طه الآية ـ ١٢٤ .

(٣) سورة طه الآية ١٢٣ .

فنسيتَهَا ﴾ (١) والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل ، أو هو ذكر العبد له ، فسواء قيل ذكرى كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك فإن المسمى واحد . وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى ، مثل أن يسأل عن القدوس السلام المؤمن وقد علم أنه الله ، لكن مراده ما معنى كونه قدوساً سلاماً مؤمناً ونحو ذلك . إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه ، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الإسم الآخر ، كمن يقول : أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب ، والقدوس هو الغفور والرحيم أي إن المسمى واحد ، لا أن هذه الصفة هي هذه ، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس ، مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم ، فقال بعضهم : هو القرآن ـ أي اتباعه ـ لقول النبي ﷺ في حديث على الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة « هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » (٢) وقال بعضهم : هو الإسم لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتوحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو من فوق الصراط ، وداع يدعو على رأس الصراط . قال : فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ؛ والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » (٣) فهذان القولان متفقان ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث . وكذلك قول من قال : هو السنة والجماعة . وقول من قال : هو طريق العبودية . وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ﷺ . . وأمثال ذلك . فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل بصفة من صفاتها .

٢ ـ ذكر العام وإرادة بعض أنواعه :

الصنف الثاني : أن يذكر كل منهم من الإسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل ،

---

(١) سورة طه الآية ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) هذا جزء من الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ (إنها ستكون فتنة ـ قلنا فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله) الخ الحديث . وقال عنه الترمذي : إسناده مجهول ؛ وأورده ابن كثير في كتاب فضائل القرآن الذي ألحقه بتفسيره ، وعلق على كلام الترمذي بقوله : ان الحديث قد روي من وجه آخر ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام علي بن أبي طالب ، وهو كلام حسن صحيح ، انظر : الترمذي ١١/٣٠ ـ ٣١ ؛ مسند الإمام أحمد ٢/٨٨ ـ ٨٩ حديث رقم ٧٠٤ ط دار المعارف ؛ تفسير ابن كثير ٤/٥ (كتاب فضائل القرآن) : وقد اقتبس ابن تيمية هذا الحديث في مقدمته لهذه القاعدة .

(٣) ورد الحديث في : ابن حنبل ٤/١٨٢ ـ ١٨٣ ؛ الترمذي (كتاب الآداب) .

وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه ، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ « الخبز » فأرى رغيفاً وقيل له : هذا . فالاشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده . مثال ذلك ما نقل في قوله ﴿ ثُمَّ أورثنا الكِتَابَ الَّذينَ اصطفينَا مِنْ عِبادِنَا فمنهُم ظَالمٌ لنفسهِ ومنهُمْ مُقتصدٌ ومنهُم سَابقٌ بالخيراتِ ﴾ (١) ، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع الواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ، والسابقون أولئك المقربون . ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار . أو يقول : السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة ، فإنه ذكر المحسن بالصدقة ، والظالم بأكل الربا ، والعادل بالبيع .

والناس في الأموال إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم . فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات ، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا . وأمثال هذه الأقاويل . فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية وإنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره ، فان التعريف بالمثال قد يسهّل أكثر من التعريف بالحد المطابق ، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف فقيل له هذا هو الخبز . وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ، لاسيما إن كان المذكور شخصاً ، كأسباب النزول المذكورة في التفسير ، كقولهم إن آية الظهار (٢) نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وإن آية اللعان (٣) نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية ، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وإن قوله ﴿ وأَنِ احكُمْ بينهُمْ بما أنزلَ اللهُ ﴾ (٤) نزلت في بني قريظة والنضير ، وإن قوله ﴿ وَمَنْ يولّهِمْ يومئذٍ دُبُرَهُ ﴾ (٥) نزلت في بدر ، وإن قوله ﴿ شَهادةُ بينكُمْ إِذَا حَضَرَ أحدكُمُ الموتُ ﴾ (٦) نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء ، وقول أبي أيوب إن قوله ﴿ وَلَا تُلقُوا بأَيديكُمْ إِلَىٰ التَّهلُكَةِ ﴾ (٧) نزلت فينا معشر الأنصار : الحديث . ونظائر هذا

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ .

(٢) انظر الآيات الأولى (٢ ، ٣) من سورة المجادلة .

(٣) انظر الآية رقم ٥ من سورة النور .

(٤) سورة المائدة الآية ٤٩ .

(٥) سورة الأنفال الآية ١٦ .

(٦) سورة المائدة الآية ١٠٦ .

(٧) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا ، فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنّة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ .

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن بمنزلته أيضاً . ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب ، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء إنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها . وقولهم « نزلت هذه الآية في كذا » يراد به تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، كما تقول عني بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء في قول الصاحب « نزلت هذه الآية في كذا » هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ، والبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند ، وإذا عرف هذا فقول أحدهم : نزلت في كذا ، لا ينافي قول الآخر : نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولها كما ذكرناه في التفسير بالمثال . وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله ، وذكر الآخر سبباً ، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب ، أو تكون نزلت مرتين : مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير ـ تارة لتنوع الأسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات ـ هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف .

الصنف الثالث
إحتمال اللفظ للأمرين

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين ، إما لكونه مشتركاً في اللغة كلفظ «قسورة» الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد ، ولفظ « عسعس » الذي يراد به إقبال الليل وإدباره وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في

قوله : ﴿ ثمَّ دَنَا فتدلَّىٰ ، فَكَانَ قابَ قَوسينِ أو أَدْنىٰ ﴾ (١) وكلفظ ﴿ والفجرِ ، وَلَيـالٍ عَشرٍ ، والشَّفعِ وَالوِتْرِ ﴾ (٢) وما أشبه ذلك ، فمثل هذا قد يجوز أن يـراد به كـل المعاني التي قـالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة ، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ، إذ قد جوّز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام ، وإما لكون اللفظ متـواطئاً فيكـون عامـاً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني .

الرابع
إستعمال الألفاظ المتقاربة

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض النـاس اختلافـاً أن يعبروا عن المعـاني بألفـاظ متقاربة لا مترادفة ، فان الترادف في اللغة قليل ، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإمـا معدوم ، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن ، فإذا قال القائل ﴿ يومَ تمورُ السَّماءُ مَوراً ﴾ (٣) إن المور هو الحركة كان تقريباً ، إذ المور حركة خفيفة سريعة . وكذلك إذا قال : الوحي الإعلام ، أو قيل : أوحينا إليك أنزلنا إليك ، أو قيل ﴿ وقَضَينا إلىٰ بني إسرَائِيلَ ﴾ (٤) أي علمنا وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي والقضاء إليهم أخص من الإعلام ، فان فيه إنزالا إليهم وإيحاء إليهم . والعرب تضمن الفعـل وتعديـه تعديتـه ، ومن هنا غلط من جعـل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعجتِكَ إلىٰ نِعاجِهِ ﴾ (٦) أي مع نعاجه و﴿ مَنْ أَنصَاري إلىٰ اللهِ ﴾ (٥) أي مع الله ، ونحو ذلك ، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين ، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه ، وكذلك قوله ﴿ وإنْ كَادُوا ليفتِنُونَكَ عن الَّذي أَوحينَا إليكَ ﴾ (٧) ضمن معنى يزيغونك ويصدونك ، وكذلـك قولـه

---

(١) سورة النجم الآيات (٧ ـ ٨) .
(٢) أول سورة الفجر .
(٣) سورة الطور الآية ٩ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٤ .
(٥) سورة ص الآية ٢٤ .
(٦) سورة الصف الآية ١٤ .
(٧) سورة الإسراء الآية ٧٣ .

﴿ وَنَصرناهُ مِنَ القومِ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنَا ﴾ (١) ضمن معنى نجيناه وخلصناه ، وكذلك قوله ﴿ يشربُ بها عبادُ اللهِ ﴾ (٢) ضمن يروى بها . ونظائره كثيرة . ومن قال : لا ريب لا شك ، فهذا تقريب . وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وفي الحديث : أنه مر بظبي حاقف (٣) فقال « لا يريبه أحد » فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة فالريب ضده (ضمن الاضطراب والحركة) ، ولفظ « الشك » وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه . وكذلك إذا قيل (ذلك الكتاب) هذا القرآن فهذا تقريب ، لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالاشارة بجهة الحضور غير الاشارة بجهة البعد والغيبة ، ولفظ « الكتاب » يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً . فهذه الفروق موجودة في القرآن . فاذا قال أحدهم (أن تبسل) (٤) أي تحبس ، وقال الآخر : ترتهن ونحو ذلك ، لم يكن من اختلاف التضاد ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم . وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جدا لأن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ، ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم ، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام . ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم بل متواتر عند العامة أو الخاصة ، كما في عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها ، وفرائض الزكاة ونصبها ، وتعيين شهر رمضان ، والطواف والوقوف ورمي الجمار والمواقيت وغير ذلك . ثم اختلاف الصحابة في الجد والإخوة وفي المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً في جمهور مسائل الفرائض ، بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء ، والكلالة من الإخوة والأخوات ، ومن نسائهم كالأزواج . فان الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة ذكر في الأولى (٥) الأصول والفروع وذكر في الثانية (٦) الحاشية التي ترث بالفرض كالزوجين وولد الأم ، وفي الثالثة (٧) الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الإخوة لأبوين أو لأب ، واجتماع الجد والإخوة نادر ، ولهذا لم يقع في الاسلام إلا بعد موت النبي ﷺ .

والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل ، أو الذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون الغلط في فهم النص ، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٧ .

(٢) سورة الانسان الآية ٦ .

(٣) حاقف بمعنى نائم قد انحنى في نومه .

(٤) جزء من الآية رقم ٢٧٠ من سورة الأنعام وتمامها (أن تبسل نفس بما كسبت) . . الخ .

(٥) وهي قوله تعالى ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾ الخ سورة النساء ١١ .

(٦) وهي قوله تعالى ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم أن لم يكن لهن ولد ﴾ . الخ الآية . النساء ، ١٢ .

(٧) وهي قوله تعالى ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة . . الخ الآية ﴾ النساء ، ١٧٦ .

فصل
الاختلاف في التفسير وأسبابه
(النوع الأول سببه النقل)

الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . إذ العلم إما نقل مصدق ، وإما إستدلال محقق . والمنقول إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم .

والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم ـ وهذا هو النوع الأول ـ فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه . وهذا القسم الثاني من المنقول ـ وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه ـ فالبحث عنه مما لا فائدة فيه من فضول الكلام . وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فان الله نصب على الحق فيه دليلا . فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منذ اختلافهم في أحوال أصحاب الكهف ، وفي « البعض » الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار « سفينة نوح » وما كان خشبها ، وفي اسم « الغلام » الذي قتله الخضر ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولا نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ ـ كاسم صاحب موسى أنه الخضر ـ فهذا معلوم . وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن اسحق وغيرهم ممن يأخد عن أهل الكتاب ـ فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » (١) . وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ والمقصود أن الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه (هو) كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك . وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد ، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم

---

(١) أورد البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ـ الآية ـ انظر : البخاري ١٣٦/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ، باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) .

وسلامه والنقل الصحيح يدفع ذلك ، بل هذا موجود فيما مستنده النقل وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل .

أهل المدينة هم أعلم الناس بالمغازي

فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ، ولهذا قال الامام أحمد « ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير والملاحم والمغازي » ويروى « ليس لها أصل » أي إسناد ، لأن الغالب عليها المراسيل مثل ما يذكره عروة بن الزبير والشعبي والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق ، ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم في المغازي ، فان أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق . فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا عظم الناس كتب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك ، وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار .

أهل مكة أعلم الناس بالتفسير

وأما التفسير فان أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ـ كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ـ وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم . وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب .

رأي ابن تيمية في الأحاديث المرسلة

والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصدا أو (حصل) الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً ، فان النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر ، وإما أن يكون كذباً تعمد صاحبه الكذب ، أو أخطأ فيه ، فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب . فاذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات ـ وقد علم أن المخبرين لم يتواطأوا على اختلاقه ، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد ـ علم أنه صحيح . مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ، ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطىء

الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول من تفاصيل الأقوال والأفعال ، فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق في الجملة ، فانه لو كان كل منهما كذب بها عمداً أو أخطأ لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه ، فان الرجل قد يتفق أن ينظم بيتاً وينظم الآخر مثله ، أو يكذب كذبة ويكذب الآخر مثلها ، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروى فلم تجر العادة بأن غيره ينشىء مثلها لفظاً ومعنىً مع الطول المفرط ، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه . وكذلك إذا حدّث حديثاً طويلا فيه فنون وحدث آخر بمثله ، فانه إما أن يكون واطأه عليه ، أو أخذه منه ، أو يكون الحديث صدقاً ، وبهذه الطريق يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات ، وإن لم يكن أحدها كافياً إما لإرساله وإما لضعف ناقله ، لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق ، بل يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والدقائق ، ولهذا ثبتت بالتواتر غزوة بدر وأنها قبل أحد ، بل يعلم قطعاً أن حمزة وعلياً وعبيدة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد (١) ، وأن علياً قتل الوليد ، وأن حمزة قتل قرنه ، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شيبة (٢) .

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف ، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك . ولهذا إذا روي الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي ﷺ من وجهين ـ مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر ـ جزم بأنه حق ، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب ، وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط ، فإن من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب وابن عمر وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم علم يقينا أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ فضلا عمن هو فوقهم ، كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ويقطع الطريق ويشهد بالزور ونحو ذلك .

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة ، فإن من عرف مثل أبي صالح السمان والأعرج وسليمان بن يسار وزيد بن أسلم وأمثالهم علم قطعاً أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث فضلاً عمن هو فوقهم مثل محمد بن سيرين والقاسم بن محمد أو سعيد بن المسيب أو عبيدة السلماني أو علقمة أو الأسود أو نحوهم ، وإنما يخاف على الواحد من الغلط ، فإن الغلط

---

(١) في طبعة الخطيب ، خطأ .

(٢) يشير بذلك ابن تيمية إلى الكيفية التي بدأ بها القتال في غزوة بدر ، حيث بدأ القتال بالمبارزة . فبرز ثلاثة من المسلمين هم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الجراح وبرز لهم ثلاثة من صناديد المشركين هم عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة . وقتل كل مبارز مسلم قرينه المشرك .

والنسيان كثيراً ما يعرض للإنسان ، ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جداً كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم لا سيما الزهري في زمانه والثوري في زمانه ، فإنه قد يقول القائل أن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه .

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلاً من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطاً كما امتنع أن يكون كذباً ، فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة وإنما يكون في بعضها ، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ، ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة ، امتنع الغلط في جميعها كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة . ولهذا انما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي ﷺ البعير من جابر ، فإن من تأمل طرقه علم قطعاً أن الحديث صحيح ، وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن . وقد بيّن ذلك البخاري في صحيحه ، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي ﷺ قاله ، لأن غالبه من هذا النحو ، ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق . والأمة لا تجتمع على خطأ ، فلو كان الحديث كذباً في نفس الأمر والأمة مصدقة له قابلة لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب ، وهذا إجماع على الخطأ وذلك ممتنع ، وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ او الكذب على الخبر فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن بخلاف ما اعتقدناه ، فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً . ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أنه يوجب العلم ، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ، ولكن كثيراً من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك ، وهو قول أكثر الأشعرية كأبي إسحاق [1] وابن فورك [2] ، وأما ابن الباقلاني [3] فهو الذي أنكر ذلك وتبعه

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاسفراييني الملقب بركن الدين . من فقهاء الشافعية المعروفين بالاجتهاد والأصول . توفي بنيسابور سنة ٤١٨ هـ .
انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ١/٨ ـ ٩ ، شذرات الذهب ٣/٢٠٩ ، طبقات الشافعية ٣/١١١ ـ ١١٤ تبين كذب المفتري ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، العبر للذهبي ٣/١٢٨ ، الأعلام ١/٥٩ .

(٢) هو محمد بن الحسن الشهير بابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ هـ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني ويعرف بابن الباقلاني أيضاً ، أعظم رجال الأشاعرة بعد أبي الحسن الأشعري ويعد الباقلاني إمام المذهب بحق . إذ تطور المذهب على يديه وأحدث فيه آراء لم تظهر في زمن أبي الحسن ، ومن أهم كتبه التمهيد ، الإنصاف انظر : شذرات الذهب ٣/١٦٠ ـ ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري ص ٢١٧ ، تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ ، وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ ، الاعلام ٧/٤٦ .

مثل أبي المعالي (1) الجويني وأبي حامد (2) وابن عقيل (3) وابن الجوزي (4) وابن الخطيب (5) والآمدي (6) ، ونحو هؤلاء ، والأول هو الذي ذَكره الشيخ أبو حامد وأبو الطيب وأبو إسحاق وأمثاله من أئمة الشافعية ، وهو الذي ذَكره القاضي عبد الوهاب (7) ، وأمثاله من المالكية وهو

---

(1) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشهير بإمام الحرمين (أبو المعالي) من أئمة الأشاعرة وهو شيخ الغزالي ومعلمه أصول المذهب .

أنظر : تبيين كذب المفتري ٢٧٨ - ٢٨٢ ، شذرات الذهب ٣٥٨/٣ ؛ وفيات الأعيان ٣٤١/٢ - ٣٤٣ ، الاعلام ٣٠٦/٤ .

(2) هو أبو حامد الغزالي (حجة الإسلام) من كبار الشافعية والأشاعرة ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ مزج المنطق بعلوم المسلمين في كتابه (القسطاس المستقيم) ، كثيراً ما ينقده ابن تيمية في مؤلفاته العديدة وأحياناً يتهمه بميله الى القول بالباطن في موقفه من التأويل .

أنظر : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ ، طبقات الشافعية ١٠١/٤ ، تبيين كذب المفتري ٢٩١ - ٣٠٦ .

(3) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي من رجال الحنابلة الذين مالوا إلى التأويل . ولد سنة ٤٣١ وتوفي سنة ٥١٢ هـ .

أنظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١٤٢/١ - ١٦٣ . شذرات الذهب ٣٥/٤ - ٤٠ ، لسان الميزان ٢٤٣/٤ الاعلام ١٢٩/٥ .

(4) هو عبد الرحمن بن علي الجوزي (أبو الفرج) توفي سنة ٥٩٧ هـ من أهم كتبه زاد المسير في علم التفسير ، تلبيس إبليس ، وتيسير البيان في علم القرآن ، أنظر : وفيات الأعيان ٣٢١/٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٨٨/٢ ، الذيل لابن رجب ٣٩٩/١ ، ابن الأثير ٢٢٨/١٠ ، الإعلام ٨٩/٤ - ٩ .

(5) هو أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي المعروف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري ، ويذكره ابن تيمية أحياناً بابن عمر وأحياناً بأبي عبد الله ولد سنة ٥٤٤ وتوفي سنة ٦٠٦هـ وهو من كبار الأشاعرة الذين مزجوا علم الكلام بالفلسفة وقد صنف ابن تيمية في الرد على الرازي أهم كتبه على الاطلاق وهو المسمى (درء تعارض العقل والنقل) وقد أخرجه أستاذي وصديقي الدكتور محمد رشاد سالم بتحقيق علمي ممتاز .

انظر : وفيات الأعيان ٣٨١/٣ ، شذرات الذهب ٢١/٥ ، طبقات الشافعية ٣٣/٥ ، لسان الميزان ٢٤٦/٤ ، الاعلام ٢٠٣/٧ .

(6) أبو الحسين علي بن علي محمد بن سالم الثعلبي (سيف الدين الآمدي) الحنبلي ثم الشافعي . صنف في أصول الدين والفقه والمنطق وهو أهم مصنفاته أبكار الأفكار ، وقد طبع له « غاية المرام في علم الكلام » بتحقيق زميلي الدكتور حسن شافعي بكلية دار العلوم .

أنظر : طبقات الشافعية ١٢٩/٥ - ١٣٠ ؛ شذرات الذهب ٣٢٣/٣ ؛ لسان الميزان ١٣٤/٣ ، مفتاح السعادة ٤٩/٢ ؛ الاعلام ١٥٣/٥ .

(7) عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي (قاضي القضاة) من كبار فقهاء المالكية ولد سنة ٣٦٢ وتوفي ٤٢٢ هـ رحل إلى الشام ومصر . من أهم كتبه « التلقين » و « عيون المسائل » شرح فصول الأحكام .

انظر : فوات الوفيات ٢١/٢ ؛ طبقات الشيرازي ١٤٣ ، البداية والنهاية ٢٢/١٢ ؛ الوفيات ٣٠٤/١ شذرات الذهب ٢٢٣/٣ ، الاعلام ٣٣٤/٤ - ٣٣٥ .

الذي ذكره شمس الدين السرخسي (١) ، وأمثاله من الحنفية ، وهو الذي ذكره أبو يعلى (٢) وأبو الخطاب وأبو الحسن بن الزاغوني (٣) ، وأمثالهم من الحنبلية . وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع به فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث ، كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة ، والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول ، لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين .

وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك ، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون : أنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره ، قال أحمد « قد أكتب حديث الرجل لأعتبره » ومثل ذلك بعبد الله بن لهيعة (٤) قاضي مصر فإنه كان من أكثر الناس حديثاً ومن خيار الناس ، لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط فصار يعتبر بذلك ويستشهد به ، وكثيراً ما يقترن هو والليث بن سعد (٥) ، والليث حجة ثبت إمام .

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ ، فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم غلطه فيها بأمور يستدلون بها ، ويسمون هذا « علم علل الحديث » وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه وغلطه فيه عرف ، إما بسبب ظاهر : كما عرفوا أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم ، وأنه صلى في

---

(١) هو محمد بن أحمد بن أبي سهل عبد الرحمن من كبار فقهاء المذهب الحقيقي . ومن أهم مصنفاته كتاب المبسوط في الفقه والأصول . توفي سنة ٤٨٣ هـ .

(٢) وهو أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء عالم عصره في أصول الحنابلة ولد سنة ٣٨٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٨ هـ .
أنظر : طبقات الحنابلة ٢/١٩٣ - ٢٣٠ ؛ تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٠٣ - ٢٠٧ الاعلام ٦/٣٣١ .

(٣) علي بن عبد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني ، ولد سنة ٤٥٥ وتوفي سنة ٥٢٧ هـ . من كبار رجال الحنابلة وعلماء المذهب .
أنظر : شذرات الذهب ٤/٨١ - ٨٢ ؛ اللباب لابن الأثير ١/٤٨٩ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١/١٨٠ - ١٨٤ ، الاعلام ٥/١٢٤ .

(٤) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري ، قاضي مصر وعالمها ومحدثها في عصره .
قال ابن حنبل : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة . وقال النوري ابن لهيعة الأصول . والفروع عندنا . تولى قضاء مصر سنة ١٥٤ هـ وتوفي سنة ١٧٤ هـ .
انظر : الولاة والقضاة ص ٣٩٩٠ ، والنووي ١/٢٨٣ ، الإعلام ٢/٥٧٥ (ط سنة ١٩٢٠) .

(٥) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن مولى قيس بن رقام أصله من أصفهان ولد سنة ٩٢ أو ٩٤ هـ وتوفي يوم الخميس سنة ١٧٥ هـ أخذ عن ابن شهاب ، قال عنه الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به .
أنظر طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٨ ، ٧٩ .

البيت ركعتين ، وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حلالاً ولكونه لم يصل مما وقع فيه الغلط ، وكذلك أنه اعتمر أربع عمر . وعلموا ان قول ابن عمر أنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط . وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع ، وأن قول عثمان لعلي كنا يومئذ خائفين مما وقع فيه الغلط . وأن ما وقع في بعض طرق البخاري « أن النار لا تمتلىء حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر » (١) مما وقع فيه الغلط ، وهو كثير .

والناس في هذا الباب طرفان : طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله لا يميز بين الصحيح والضعيف ، فيشك في صحة أحاديث ، أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعاً بها عند أهل العلم به ، وطرف ممن يدّعي اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته ، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم ، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك ، فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك . مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل ، مثل حديث يوم عاشوراء ، وأمثاله مما فيه : أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً (٢) وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم . والثعلبي هو نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع . والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية ولكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف . والبغوي (٣) تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة والموضوعات في كتب التفسير كثيرة (مثل) (٤) الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة ، وحديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم ، ومثل ما روي في قوله

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الأنعام ـ وكتاب التوحيد ١٣٩/٩ ـ ١٤٢ .

(٢) جاء في تذكرة الموضوعات للفتني « من صلى يوم عاشوراء أربعين ركعة بعد الظهر في كل ركعة آية الكرسي عشر مرات والإخلاص إحدى عشرة مرة والمعوذتين خمس مرات » وقال عنه انه موضوع ، وجاء في اللآئي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي « فضل أربع ركعات بالفاتحة والاخلاص خمسين مرة يوم عاشوراء » وقال السيوطي أنه موضوع ، وكثيراً ما يصرح ابن تيمية أن مثل هذه الأحاديث « . . . عند أهل الحديث من الأحاديث الموضوعة » .
انظر تذكرة الموضوعات ص ٤٣ ؛ الفوائد المجموعة ص ٤٧ ؛ درء تعارض العقل والنقل ص ١٥٠ وانظر أيضاً تعليق المحقق .

(٣) أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بالبغوي الفراء ، الفقيه الشافعي المحدث صاحب التفسير المعروف توفي سنة ٥١٠ هـ .
انظر : الوفيات ٤٠٢/١ ، طبقات الشافعية ٢١٤/٤ ـ ٢١٧ تذكرة الحفاظ ١٢٥٧/٤ ، الاعلام ٢٨٤/٢ .

(٤) في طبعة الخطيب : ومنها ويوجد بالهامش إشارة الى ان بالاصل فراغاً قدر كلمة والتصحيح من ط : س .

﴿ ولكلِّ قومٍ هاد ﴾ أنه علي ، ﴿ وتعيها أذنٌ واعية ﴾ أذنك يا علي .

النوع الثاني سببه اختلاف طرق الاستدلال

وأما النوع الثاني من سببي الاختلاف ، وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرازق ووكيع وعبد الرحمن بن حميد بن ابراهيم دحيم . ومثل تفسير الإمام أحمد وإسحاق بن راهوية وبقي بن مخلد وأبي بكر بن المنذر وسفيان بن عيينة وسنيد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي سعيد الأشج وأبي عبد الله بن ماجة وابن مردويه .

أحداهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

والثانية : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه والمخاطب به . فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام . ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط بذلك الآخرون ، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

الأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دلّ عليه وأريد به ، وتاره يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به . وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول . وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها . وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم : تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلِم عن مواضعه . ومن هؤلاء فرق الخوارج (١) والروافض (٢) والجهمية (٣) والمعتزلة والقدرية (٤) والمرجئة (٥)

---

(١) الخوارج يرجع تاريخهم إلى قضية التحكيم في الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية حيث خرجوا على التحكيم وكفروا مرتكب الكبيرة وقالوا بخلوده في النار وأجازوا أن تكون الإمامة في غير قريش . وتفرع عنهم فرق مختلفة كالحرورية ، والناصبية ، والشراة والبغاة ، ومن أشهرهم الأباضية والأزارقة . =

وغيرهم . وهذا كالمعتزلة مثلا فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبه مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ ابراهيم بن اسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي ، ومثل كتاب أبي علي الجبائي ، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني و(التفسير) لعلي بن عيسى الرماني ، والكشاف لابي القاسم الزمخشري ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة .

وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (وتوحيدهم) هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : ان الله لا يُرى ، وأن القرآن مخلوق ، وأنه ليس فوق العالم ،

= انظر عنهم : مقالات الأشعري ١/٨٦ - ١٣١ (ط ريتر) ؛ الملل والنحل ١/١٩٥ - ٢٥٥ ؛ الفرق بين الفرق ص ٤٥ - ٦٦ ؛ التبصير في الدين ص ٤٦ - ٥٩ .

(٢) الرافضة أو الروافض : فرقة من فرق الشيعة الغلاة ، وهو يطلق بالتحديد - كما يرى الشهرستاني - على شيعة الكوفة حين تبرأو من زيد بن علي لأنه قال بامامة الشيخين (أبي بكر وعمر) يقول الشهرستاني « ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة من زيد وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه . . فسميت الرافضة . ومن كبار غلاتهم هشام بن الحكم الرافضي والجواليقي . ومذهبهم في الاله يميل إلى التجسيد الصريح ولا يقول بمقالاتهم مسلم وكثيرا ما يشير ابن تيمية وكذا الغزالي الى أن الرافضة هم سبب البلاء والاختلاف في هذه الأمة .

انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/٢٥١ ، ٣٠٧ ، بغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الإلحاد ، فضائح الباطنية للغزالي في أماكن متفرقة .

(٣) الجهمية ينتسبون إلى الجهم بن صفوان . كان معاصراً لواصل بن عطاء تتلمذ على الجعد بن درهم ، أخذ عنه القول بخلق القرآن ونفي الصفات . وابن تيمية يستعمل لفظ الجهمية أحياناً ويريد به المعتزلة لقولهم بآراء الجهم في نفي الصفات وخلق القرآن ويصفهم بقول الشاعر :

جهمية الأوصاف إلا أنهم ... قد لقبوها أعظم الأشياء

وأحياناً يستعمل لفظ الجهمية ويريد به الأشاعرة لقولهم بالجبر ويرى أنهم أخذوه عن الجهم . انظر عن الجهم والجهمية : مقالات الأشعري ١/١٣٢ ، ٢٧٩ الملل والنحل ١/١٣٥ - ١٣٧ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٨ - ١٣٩ ، خطط المقريزي ٢/٣٤٩ - ٣٥٠ ، لسان الميزان ٢/١٤٢ - ١٤٣ ، وانظر تاريخ الجهمية للقاسمي .

(٤) القدرية لا تطلق على فرقة بعينها . وإنما يطلق ابن تيمية هذا اللفظ على المعتزلة وعلى كل من يرى أن العبد خالق لفعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وأحياناً يرجع هذا الرأي إلى غيلان الدمشقي ويرى أن المعتزلة اخذوا عنه القول بنفي القدر ، ولفظ القدرية من الألفاظ التي يرمي بها علماء الكلام بعضهم بعضا وتحاول كل فرقة أن تبرىء نفسها من الإتصاف به وتتهم به غيرها . فالمعتزلة يصفون به الجبرية والمشبهة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة . انظر شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٢ - ٧٨٣ ، التعريفات للجرجاني .

(٥) هم القائلون بأن العمل ليس جزءاً من الإيمان . ويقصرون الايمان على التصديق القلبي والإقرار باللسان . ويرجئون أمر الفاسق الى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وأكثرهم على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه لا يتبعض ، ويصرح بعضهم بأن المؤمن لن يدخل النار مهما ارتكب من المعاصي .

انظر عنهم : مقالات الاشعري ١/١٣٢ - ١٥٤ ؛ الملل والنحل ١/٢٥٧ - ٢٩٧ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٢ - ١٢٥ ، الفصل لابن حزم ٤/٢٠٤ - ٢٠٥ خطط المقريزي ٢/٣٤٩ - ٣٥٠ .

وأنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة ولا صفة من الصفات .

وأما (عدلهم) فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها ولا هو قادر عليها كلها ، بل عندهم أفعال العباد لم يخلقها الله لا خيرها ولا شرها ، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته . وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة كالمفيد وأبي جعفر الطوسي وأمثالهما . ولأبي جعفر هذا التفسير على هذه الطريقة لكن يضم الى ذلك قول الأمامية الاثني عشرية (١) ، فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ومن أصول المعتزلة مع الخوارج (انفاذ الوعيد في الآخرة) وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ولا يخرج منهم أحداً من النار . ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة الكرامية (٢) والكلابية (٣) وأتباعهم فأحسنوا تارة وأساءوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض كما بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا من أئمة المسلمين ، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم . وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم أو جواباً على المعارض لهم . ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه

---

(١) الاثنا عشرية فرقة من الشيعة الأمامية ، يقولون بأن الرسول ﷺ قد نص على علي بالامامة من بعده ، ثم ساقوا الامامة في ابنائه من بعده حتى محمد بن الحسن المهدي المنتظر وهو الامام الثاني عشر . والامامة عندهم أهم أركان الدين ، ويقولون بعصمة الامام ويلحقون الامام بالنبي في العصمة . وقد صنف ابن تيمية كتاباً عظيما في الرد على الشيعة وهو « منهاج السنّة النبوية» في الرد على منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي . وقد نشر الجزء الأول منه بتحقيق الاستاذ الدكتور محمد رشاد سالم . انظر ، الملل والنحل ١/٢٧٧ - ٢٧٩ ؛ الفرق بين الفرق ص ٢١ - ٢٤ ؛ مقالات الاشعري ١/٥ ، ١٦ - ١٧ .

(٢) الكرامية هم اتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني المتوفي سنة ٢٥٥ وهم يقولون باثبات الصفات لله وبعضهم يبالغ في ذلك إلى حد التشبيه ويقولون بالحكمة وإثبات القدر ، ويوافقون المعتزلة في القول بالمعرفة العقلية والتحسين والتقبيح العقليين وهم يعتبرون من المرجئة . انظر عنهم : لسان الميزان ٥/٣٥٣ - ٣٥٦ ، ميزان الاعتدال ٤/٢١ ، الفصل لابن حزم ٤/٤٥ ، الملل والنحل ١/١٨٠ - ١٩٣ خطط ٢/٣٤٩ ، ٣٥٧ .

(٣) تنسب الكلابية الى ابن كلاب . وهو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) توفي بعد سنة ٢٤٠ هـ بقليل ، يقول عنه ابن حزم بأنه من شيوخ الأشعرية الذين أخذ عنهم أبو الحسن .
انظر عنهم : لسان الميزان ٣/٢٩٠ - ٢٩١ ؛ طبقات الشافعية ٢/٥١ الفهرست ، لابن النديم ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ مقالات الاشعري ١/٢٩٨ - ٢٩٩ ، خطط المقريزي ٢/٣٥٨ ، نهاية الإقدام ص ١٨١ ، الملل والنحل ١/١٤٨ ، الفصل لابن حزم ٢/١٢٣ ، ٤/٢٠٨ .

من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك .

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة [١] وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة فانهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم : ﴿ تبت يَدا أبي لَهبٍ ﴾ وهما أبو بكر وعمر ، و﴿ لئن أشركتَ ليَحبطنَّ عَملكَ ﴾ [٢] أي بين أبي بكر وعمر وعلي في الخلافة ، و﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾هي عائشة ، و﴿ قَاتِلُوا أئمةَ الكفرِ ﴾ طلحة والزبير ، و﴿مرج البحرين ﴾علي وفاطمة ، و﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾ الحسن والحسين ، ﴿ وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾ [٣] في علي بن أبي طالب ، و﴿ عمَّ يتساءلونَ عنِ النبأِ العظيم ﴾ علي بن أبي طالب ، و﴿ إنَّما وليكُم الله ورسولهُ والَّذينَ آمنوا الَّذينَ يقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهم رَاكعونَ ﴾ [٤] هو علي ، ويذكرون الحديث الموضوع باجماع أهل العلم وهو تصدقه بخاتمه في الصلاة وكذلك قوله ﴿ أولئكَ عليهم صلواتٌ مِنْ ربِّهم وَرَحمة ﴾ نزلت في علي لما أصيب بحمزة . ومما يقارب هذا ـ من بعض الوجوه ـ ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله ﴿ الصَّابرينَ والصَّادقينَ والقَانتينَ والمنفقِينَ والمستغفرينَ بالأسحَارِ ﴾ [٥] أن الصابرين رسول الله والصادقين أبو بكر ، والقانتين عمر ، والمنفقين عثمان ، والمستغفرين علي ، وفي مثل قوله ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ أبو بكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾عمر « رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ علي . وأعجب من ذلك قول بعضهم ﴿ والتين ﴾ أبو بكر ﴿ والزيتون ﴾عمر ﴿ وطور سينين ﴾ عثمان ﴿وهذا البلد الأمين﴾ علي .

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال ، فان هذه

---

(١) القرامطة فرقة تنسب إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، تتلمذ على حسين الاهوازي رسول عبد الله بن ميمون القداح ، اتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة ، يشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شهر الغارات على المسلمين بقصد إضعاف دولتهم ، وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتن في العالم الإسلامي ، ويكفي ان يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه إلى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري ، ليبطلوا بذلك فريضة الحج إلى مكة . انظر عنهم : مقالات الأشعري ٢٦/١ ، الفرق بين الفرق ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ، دائرة المعارف الاسلامية (مقال هبوار) مادة حمدان قرمط ، مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ، ليحيى بن حمزة العلوي (المقدمة) ، بغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الالحاد لابن تيمية .

(٢) الزمر الآية ٦٥ .

(٣) يس الآية ١٢ .

(٤) المائدة الآية ٥٥ .

(٥) البقرة الآية ١٥٧ .

(٦) آل عمران الآية ١٧ .

الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص ، وقوله تعالى : ﴿ والَّذينَ معهُ أَشدَّاءُ علىٰ الكُفَّارِ رُحماءُ بينهُمْ تَراهُم رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ (١) كل ذلك نعت للذين معه وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر ، والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد ، وهم الذين معه ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد ، وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقولهم : إن قوله﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾أريد بها علي وحده ، وقول بعضهم : إن قوله﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ أريد بها أبو بكر وحده ، وقوله﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أريد بها أبو بكر وحده ، ونحو ذلك ، وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنّة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فانه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنّة من المعتزلة لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب ، فان الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ـ وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم باحسان ـ صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه . فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب ، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً . ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية كما هو مبسوط في موضعه ، والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير ، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرّفوا الكلِم عن مواضعه . وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله . فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق ، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم ، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما

---

(١) الفتح الآية ٢٩ .

صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم ، يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحة لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير . وإن كان فيما ذكروه ما هو معانٍ باطلة فإن ذلك يدخل في القسم الأول وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً حيث يكون المعنى الذي قصدوه (فاسداً) .

فصل
(أحسن طرق التفسير)

فان قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب :

(الأول) إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر .

(الثاني) فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الامام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزلنَا إِليكَ الكِتَابَ بالحقِّ لِتَحكُمَ بينَ النَّاسِ بما أَراكَ اللهُ ولاَ تكُنْ للخَائنينَ خَصِيماً ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وأَنزلنَا إليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للناس مَا نُزِّلَ إليهِمْ ولعلّهُمْ يتفكَّرونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أنزلنَا عليكَ الكِتَابَ إِلَّا لتُبيِّنَ لهُمُ الَّذي اختلفُوا فيهِ وَهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ ﴾ (٣) ولهذا قال رسول الله ﷺ « ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنّة . والسنّة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لأنها تتلى كما يتلى ، وقد استدل الامام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك . والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فان لم تجده فمن السنّة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنّة رسول الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي : قال ، فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله » (٤) وهذا الحديث في المساند والسنن باسناد جيد .

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .

(٤) أورد ابن جرير الطبري هذه الروايات في تفسيره ١/٢٧ - ٢٩ ط بولاق كما أوردها ابن كثير في مقدمة تفسيره للقرآن بنفس الأسانيد المتصلة إلى ابن مسعود عن ابن عباس انظر ١/٣ ، كما أورد السيوطي بعضا منها في الاتقان .

(الثالث) وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين (منهم) عبد الله بن مسعود . قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب قال أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى (مسلم بن صبيح) عن مسروق قال : قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ : والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته (١) وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل (شقيق بن سلمة) عن ابن مسعود قال : كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (٢) . ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ له حيث قال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » (٣) وقال ابن جرير : حدّثنا محمد بن بشار أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم (عن مسروق قال) قال عبد الله يعني ابن مسعود نعم ترجمان القرآن ابن عباس ، ثم رواه عن يحيى بن داود عن اسحاق الأزرق عن سفيان الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس ، ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك ، فهذا إسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال هذه العبارة ، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ، وقال الأعمش عن أبي وائل إستخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ـ وفي رواية سورة النور ـ ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

---

(١) ورد هذا الأثر في البخاري ٤/٢٢٩ (كتاب التفسير . باب القرّاء عن أصحاب رسول الله) عن مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت . ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت إليه ، وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره ١/٢٨ ، ط بولاق ، وابن كثير ٤/٢٧ ، كتاب فضائل القرآن .

(٢) ذكر ابن تيمية هذا الأثر مرويا عن عبد الرحمن السلمي « حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود . . الحديث » وقد ذكر البخاري مجموعة من الأحاديث في فضل ابن مسعود وعلو مرتبته في التفسير وفي الأخذ عن رسول الله حيث روى عن الأعمش . . حدّثنا شقيق بن سلمة قال خطبنا عبد الله بن مسعود فقال والله لقد أخذت من في رسول الله بضعا وسبعين سورة » كما روى البخاري عن مسروق قال « سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ : خذوا القرآن عن أربعة عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب .

انظر البخاري ٥/٣٤ (فضائل الصحابة) ، ٦/٢٢٩ (كتاب التفسير) ، تفسير الطبري ١/٢٧ ط بولاق .

(٣) ورد هذا الدعاء في البخاري ١/٢٨١ (كتاب المناقب ، باب ذكر مناقب ابن عباس) ولفظه (. . اللهم علمه الحكمة) وباسناد آخر في (كتاب الوضوء) ولفظه (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، مسلم (فضائل الصحابة) ؛ ابن حنبل ١ / ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ .

ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبد الرحمن السدي في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . ومن كذب عليّ فليتبوء مقعده من النار »[1] رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ، ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من الحديث من الأذن في ذلك ، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني ما علمنا كذبة بما عندنا مما يخالفه .

والثالث ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ،وتعيين « البعض » الذي ضرب به المقتول من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى ﴿ سيقولونَ ثلاثةٌ رابعهُمْ كلبهُمْ ويقُولُونَ خمسةٌ سادسهُمْ كلبهُمْ رَجْماً بالغيبِ ، ويقُولُونَ سبعةٌ وَثَـامِنُهُمْ كلبهُمْ قُلْ رَبِّي أعلمُ بِعـدَّتِهِمْ ما يعلمهُمْ إلاَّ قليـلٌ فَلاَ تُمـارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظَـاهِراً ولا تستفتِ فيهم منهُمْ أَحَداً ﴾[2] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت على الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا ﴿ قُلْ ربِّي أعلمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال ﴿ فَلاَ تمارِ فيهم إلاَّ مراءً ظَاهراً ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا (يطولِ)[3] النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به

---

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم . باب أثم من كذب على النبي ﷺ وكذا في كتاب الأنبياء والأدب ، وفي مسلم (كتاب الزهد) والدارمي (كتاب العلم) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، ابن حنبل ٣ / ٤٧ ، ٨٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٢ . (٣) ليست بالأصل وأضيفت من : س .

عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عمداً فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ . كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الأمانة ، وتكثر مما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور والله الموفق للصواب .

فصل
تفسير القرآن بأقوال التابعين

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وبه إلى الترمذي قال : حدّثنا الحسين بن مهدي البصري ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (قال مجاهد) : ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً . وبه إليه قال : حدّثنا ابن أبي عمر ، حدّثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال مجاهد : لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت . وقال ابن جرير حدّثنا أبو كريب ، قال حدّثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل (ابن عباس) عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول له ابن عباس « اكتب » حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية والربيع وابن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه ، أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن . فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي . وقال شعبة بن الحجاج وغيره « أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة في التفسير » يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم . وهذا صحيح ، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو عموم

لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك [1] .

تفسير القرآن بالرأي حرام

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام . حدّثنا مؤمل حدّثنا سفيان حدّثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » [2] وبه إلى الترمذي قال : حدّثنا عبد بن حميد حدّثني حيان بن هلال قال : حدّثنا سهيل أخو حزام القطعي قال : حدّثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم . وهكذا روى بعض أهل العلم عن أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم ، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن ، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم ، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم ، فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم ، وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال ﴿ فإذا لم يأتوا بالشهداءِ فأُولئكَ هم الكَاذِبُونَ ﴾ [3] فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، وتكلف ما لا علم له به ، والله تعالى أعلم .

---

(1) لعل ابن تيمية قد أزال بقاعدته هذه في التفسير ما يحيك في صدور البعض من ان الخلاف قد وقع بين صحابة رسول الله ﷺ في تفسير القرآن ، وأن سبب هذا الظن يرجع الى عدم المعرفة الكاملة بطرق الحديث وفنون التعبير ، فإذا كان بين الصحابة خلاف في استعمال الألفاظ فإن هذا لا يعني أبداً اختلافهم في المراد . فإن المراد قد يكون واحداً ويعبر عنه بألفاظ متنوعة وليست متضادة وكلها تدل على عين المراد . فهو اختلاف تنوع في العبارة وليس اختلاف تناقض او تضاد ، كما رأى ابن تيمية ان رأي التابعين لا يكون حجة إلا اذا اجتمعوا على رأي واحد ، أما إذا اختلفوا فإن رأي الواحد منهم ليس حجة على الآخر منهم ولا على من بعدهم ، وينبغي أن يكون المرجع في مسائل الخلاف حينئذ هو الكتاب والسنة وعموم اللغة وأقول الصحابة .

(2) ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم ، الجنائز ، المناقب) ، ابو داود (كتاب الإيمان) ، الترمذي (كتاب الفتن) ، ابن ماجة (المقدمة) .

(3) سورة النور الآية ١٣ .

توقف السلف عن التفسير بالرأي

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال : قال أبو بكر الصديق « أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم » . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدّثنا محمود بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (١) فقال « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (إسناده) منقطع (٢) .

وقال أبو عبيد أيضاً حدّثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما هو الأب ، ثم رجع إلى نفسه فقال « إن هذا لهو التكلف يا عمر » . وقال عبد بن حميد حدّثنا سليمان بن حرب قال : حدّثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر ابن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿ وَفَاكِهَةً وأباً ﴾ فقال : ما الأب . ثم قال « إن هذا لهو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه » وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى ﴿ فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضباً ، وزَيتُوناً وَنخلاً ، وحَدَائِقَ غُلْبَاً ﴾ (٣) .

وقال ابن جرير : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا ابن علية عن أيوب عن [ابن أبي مليكة أن] (٤) ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها إسناده صحيح ، وقال أبو عبيد : حدّثنا إسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن ﴿ يوم كانَ مِقدارهُ ألفَ سَنةٍ ﴾ (٥) فقال له ابن عباس فما ﴿ يوم كانَ مِقدَارُهُ خمسينَ ألفَ سَنةٍ ﴾ (٦) فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثني ، فقال ابن عباس « هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما » . فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وقال ابن جرير : حدّثني يعقوب يعني [ابن] إبراهيم حدّثنا ابن علية عن مهدي بن

---

(١) سورة عبس الآية ٣١ .

(٢) وإنما انقطع الإسناد لأن أبا بكر رضي الله عنه قد توفي سنة ١٣ هـ بينما ولد ابراهيم بن محمد سنة ٣٦ هـ فلم ير أبا بكر وبالتالي لم يرو عنه .

(٣) سورة عبس الآيات (٢٧ - ٣٠) .

(٤) ما بين المعقوفين من : س .

(٥) سورة السجدة الآية ٥ .

(٦) سورة المعارج الآية ٤ .

ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال له « أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني » أو قال « أن تجالسني » .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « إنا لا نقول في القرآن شيئاً » .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن . وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن [آية من] القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه . يعني عكرمة . وقال [عبد الله] بن شوذب حدّثني يزيد بن أبي يزيد قال كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

وقال ابن جرير حدّثني أحمد (بن عيدة الضبي ، حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عبيد الله بن عمر) قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع .

وقال أبو عبيد : حدّثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط . وعن أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد .

وقال أبو عبيد حدّثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدّثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده . حدّثنا هشيم ، عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال : قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سئلت عنها ، ولكنها الرواية عن الله . وقال أبو عبيد حدّثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله (٢) .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٢) جميع هذه الآثار التي رواها ابن تيمية عن تحرج السلف في موقفهم من التفسير بالرأي رواها ابن جرير الطبري في تفسيره بنفس الإسناد . انظر تفسير الطبري ١ / ٢٨ - ٢٩ (ط بولاق) .

جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له بـه ، فكذلـك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى ﴿ لَتُبيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلَا تكتُمُونَهُ ﴾ [(١)] ، ولما جاء في الحديث المروى من طرق : «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »[(٢)] .

وقال ابن جرير : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا مؤمل ، حدّثنا سفيان عن أبي الزناد قال ابن عباس « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العـرب من كلامهـا ، وتفسير لا يعـذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » والله سبحانه وتعالى أعلم .

أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة : الزمخشري ، أم القرطبي ، أم البغوي ، أم غير هؤلاء ؟

فأجاب تغمده الله برحمته ورضوانه :

الحمد لله . أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها (تفسير محمد ابن جرير الطبري) فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيـه بدعـة ، ولا ينقل عن المتهمـين كمقاتـل بن بكير ، والكلبي .

والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة . كتفسير عبد الرازق ، وعبـد بن حميد ، ووكيـع ، وابن أبي قتيبة ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهوية .

وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفـة (البغوي) ، لكنه مختصر من (تفسير الثعلبي) وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيـه ، وحذف أشياء غير ذلك .

وأما (الواحدي) فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ، لكن الثعلبي فيه سلامـة من البدع ، وإن ذكرها تقليداً لغيره . وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيهـا فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما (الزمخشري) فتفسيره محشو بالبدعة ، وعـلى طريقـة المعتزلـة من إنكار الصفـات ، والرؤية ، والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصوال المعتزلة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٧ .

(٢) الحديث ورد في الدارمي (كتاب العلم) الترمذي ، ابن ماجة في المقدمة وابن حنبل ٢ / ٢٦٣ .

وأصولهم خمسة يسمونها : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن معنى (التوحيد) عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمي ابن التومرت أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى (العدل) عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد ، وإرادة الكائنات ، والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ، لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري ، فإن مذهبه مذهب المغيرة بن علي ، وأبي هاشم وأتباعهم . ومذهب أبي الحسين ـ والمعتزلة الذين على طريقته ـ نوعان : مشايخية وخشبية .

وأما (المنزلة بين المنزلتين) فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً ، فنزلوه بين منزلتين .

(وانفاذ الوعيد) عندهم معناه ان فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقول الخوارج .

(والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف .

وهذه الأصول حشا (بها الزمخشري) كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها ، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين .

(وتفسير القرطبي) خير منه بكثير ، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة ، وأبعد عن البدع . وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد ، لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

و (تفسير ابن عطية) خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير ، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

وثم تفاسير أخر كثيرة جداً ، كتفسير ابن الجوزي ، والماوردي .

جمع القراءات السبع

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن (جمع القراءات السبع) هل هو سنة أم بدعة ، وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ، وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية (واحدة) أم لا ؟

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله ، أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة ، يأخذها الآخر عن الأول . فمعرفة القراءة التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم وقد قرأوا بها ، سنة . والعارف في القراءات الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ولا يعرف إلا قراءة واحدة .

وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة خامسة

في المتشابه والتأويل

قال شيخ الاسلام علم الأعلام ، أبو العباس
أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

« فصل »

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍ إلَّا إذا تَمنَّىٰ ، أَلقىٰ الشيطانُ في أُمنيتهِ ﴾ إلى قوله ﴿ ليجعلَ مَا يُلقِي الشَّيطانُ فتنةً للَّذينَ في قُلوبهِمْ مَرضٌ والقاسِيَةِ قلوبُهُمْ وإنَّ الظَّالمينَ لفِي شقاقٍ بعيدٍ ، وليعلمَ الَّذينَ أُوتُوا العلمَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فيؤْمنُوا به فَتُخبِتَ لهُ قلوبُهُمْ ، وإنَّ الله لهادِ الَّذينَ آمنُوا إلىٰ صِراطٍ مستقيمٍ ﴾ (١) .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية وذات مرض ومؤمنة مخبتة ، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً ، أو لا تكون يابسة جامدة .

فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ، ولا يرتسم فيه العلم ، لأن ذلك يستدعي محلاً ليناً قابلاً .

والثاني لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال . فالثاني هو الذي فيه مرض ، والأول هو القوي اللين . وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلاً ، فإما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش ، أو تبطش بعنف ، فذلك مثل القلب القاسي ، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها ، فذلك الذي فيه مرض ، أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم ، فبالرحمة خرج عن القسوة ، وبالعلم خرج عن المرض ، فان المرض من الشكوك والشبهات ، ولهذا وصف

---

(١) سورة الحج الآيات : (٥٢ ـ ٥٤) .

من عدى هؤلاء بالعلم والايمان والإخبات . وفي قوله : ﴿ وليعلم الَّـذينَ أُوتُوا العلمَ أَنَّـهُ الحقُّ مِنْ ربِّك فيؤمنُوا بهِ فَتُخبِتَ لهُ قلوبهُمْ ﴾ دليـل على أن العلم يـدل على الايمـان ، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة ، بل معهم العلم والايمان كما قال تعـالى : ﴿ لكن الرَّاسِخُـونَ في العلمِ مِنْهُمْ والمؤمنونَ يُؤمنُـونَ بما أُنـزِلَ إليـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِنْ قبلكَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلم والايمانَ ﴾ (٢) .

وعلى هذا فقوله : ﴿ والرَّاسِخُونَ في العلمِ يقـولُونَ آمنـا بِهِ كـلٌّ مِنْ عند ربِّنَا ﴾ (٣) . نظير هذه الآية ، فانه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنـه الحق من ربهم ، وأخبر هنـاك أنهم يقولون في المتشابه ﴿ آمنَّا بهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنـا ﴾ وكلا المـوضعين مـوضع شبهـة لغيرهم ، وأن الكـلام هناك في المتشـابه ، وهنـا فيما يلقى الشيـطان مما ينسخـه الله ثم يحكم الله آيـاتـه ، وجعـل المحكم هنا ضـد الذي نسخـه الله مما ألقى الشيـطان ، ولهذا قـال طائفـة من المفسرين المتقدمين (٤) المحكم هو الناسخ ، والمتشابـه المنسوخ . أرادوا والله أعلم قـوله ﴿ فينسَـخُ الله ما يُلقي الشَّيطانُ ثمَّ يُحكِمُ الله آياتِـهِ ﴾ (٥) والنسخ هنـا رفع مـا ألقاه الشيـطان لا رفع مـا شرعـه الله ، وقد أشرت إلى وجـه ذلك فيـما بعد ، وهـو أن الله جعل المحكم مقـابل المتشـابه تـارة ، ومقابل المنسوخ أخرى ، والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيـين ، ويدخـل فيه المجمل ، فإنه متشابه ، وإحكامه : رفع مـا يتوهم فيـه من المعنى الذي ليس بمراده ، وكذلـك مارفع حكمـه ، فان في ذلـك جميعه نسخـاً لما يلقيـه الشيطان من معـاني القرآن ، ولهـذا كانـوا يقولون : هل عرفت الناسخ من المنسوخ ؟ فإذا عرفت الناسخ عرفت المحكم .

وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقـال المحكم والمتشابـه . وقولـه بعد ذلك ﴿ ثم يُحكِمُ الله آياتِـهِ ﴾ جعل الآيات محكمـة ، محكمها ومتشـابهها ، كـما قال : ﴿ آلـر . كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُـهُ ثمَّ فُصِّلت ﴾ (٦) وقال : ﴿ تلك آيـاتُ الكِتابِ الحكيمِ ﴾ (٧) عـلى أحد

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٢.

(٢) سورة الروم الآية : ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٤) أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخة ، وحلاله وحرامه ، وفـرائضه ومـا يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة واقسامه وما يؤمن به ولا يعمـل به . انـظر الإتقان للسيـوطي ٢/٢ ، ٢٠ ـ ٢٧ .

(٥) سورة الحج الآية : ٥٢ .

(٦) أول سورة هود .

(٧) أول سورة يونس .

القولين . وهنالك جعل الآيات قسمين : محكماً ومتشابهاً ، كما قال : ﴿ مِنْهُ آياتٌ محكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ ﴾ [١] وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله . مما ألقاه الشيطان .

ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكماً وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً للظاهر من قوله « فينسخ الله » و« يحكم الله آياته » فهذه ثلاثة معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها .

(أنواع الإحكام والنسخ)

وجماع ذلك أن الأحكام تارة يكون في التنزيل ، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم المنزل من عند الله ، أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه ، فان الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحي ، أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في مسمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال : ﴿ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوديةٌ بِقدَرِهَا ﴾ [٢] . الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له ، فانه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به رفع الحكم وبان المراد . وعلى هذا التقدير فيصح ان يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتراة يكون الإحكام في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين .

(قال أحمد بن حنبل : المحكم الذي ليس فيه اختلاف ، والمتشابه الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا [٣]) ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله ، وإنما قال ﴿ وَمَا يعلمُ تأويلهُ إلاّ الله ﴾ [٤] . وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع . فإن الله

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٧ والاشارة هنالك الى هذه السورة .

(٢) سورة الرعد الآية : ١٧ .

(٣) هذه زيادة من مجموع الرياض .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٧ .

أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة ، ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال ﴿ كتابٌ ، أنزلنَاهُ إليكَ مباركٌ ، ليدَّبَّرُوا آياتِهِ ﴾(١) وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات ، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر : وقال : ﴿ أَفَلا يتدَّبرُون القرآنَ ﴾(٢) . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود ـ الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي ﷺ كحي بن أخطب وغيره ـ من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين .

موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً ، لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المكرر ، وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر .

وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ في وفد نجران من تأويل إنا ونحن على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل في الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا في اليوم الآخر وهؤلاء تأولوا في الله (٣) ومعلوم أن إنا ونحن من المتشابه ، فانه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى ، فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع .

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه وبعض المتواطىء أيضاً من المتشابه ،

---

(١) سورة ص الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢ ، محمد الآية : ٢٤ .

(٣) ذكر الطبري أن آية آل عمران « وما يعلم تأويله الا الله » نزلت في جماعة من اليهود كياسر بن أحطب وحي بن أخطب أرادوا أن يعرفوا الفترة التي يمكثها الإسلام على وجه الأرض من معرفتهم تأويل حروف المعجم التي بدئت بعض سور القرآن بها طبقا لنظامهم في حساب الحروف . فاكذب الله مقالتهم بقوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . روى ذلك عن جابر بن رئاب . ومال الطبري إلى هذا الرأي .

وذكر الطبري سبباً آخر لنزول الآية . فقيل أنها نزلت في وفد نجران حينما ناظروا الرسول في أمر المسيح ودعاهم الرسول إلى المباهلة . وأرادوا أن يتأولوا قوله تعالى : ﴿ أنا . . ونحن ﴾ على أن الالهة ثلاثة لأن هذا ضمير للجمع وليس للمفرد . فاكذب الله مقالتهم أيضاً بقوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ وعامة هذه السورة ﴿ آل عمران ﴾ في أمر المسيح وأهل الكتاب مما يجعلنا نميل الى الرأي الثاني في سبب النزول .

أنظر الطبري ٦/ ١٨٠ ـ ٢٠٩ . ٣/ ١٨٠ .

ويسميها أهل التفسير : الوجوه والنظائر ، وصنفوا كتب الوجوه النظائر فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً من الأسماء المشتركة فهي نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله .

والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل ﴿ وإلهكُمْ إلَـهٌ واحدٌ ﴾(١) ﴿ إني أنا الله لا إلَهَ إلاَّ أنَا فاعبُدْني ﴾ (٢) . ﴿ ما اتَّخذَ الله من ولدٍ وما كانَ مَعَهُ من إلـهٍ ﴾ (٣) ﴿ لم يتَّخِذْ وَلداً ولم يكُنْ لهُ شريكٌ ﴾ (٤) ﴿ لم يلدْ ولمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٥) ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وابتغاء تأويله ، وهو الحقيقة التي أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان ، إنشاء فيه الأمر ، وإخبار ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من السلف إن السنة هي تأويل الأمر . قالت عائشة رضي الله عنها : كان الرسول ﷺ يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم وبحمدك . اللهم اغفر لي يتأول القرآن » ، تعني قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً ﴾ (٦) .

وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به اذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع وهذا معناه . قال الله تعالى : ﴿ ولقَدْ جئْنَاهُمْ بكتابٍ فصَّلنَاهُ علىٰ علمٍ هُدىً ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنُونَ : هَلْ ينظرونَ إلاَّ تأويلهُ يومَ يأتي تأويلُهُ يقولُ الَّذينَ نَسُوهُ من قبلُ قد جاءت رسُلُ ربِّنا بالحقِ ﴾ (٧) . فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه . ثم قال ﴿ هَلْ ينظرونَ ﴾ أي ينتظرون ﴿ إلاَّ تأويلهُ يومَ يأتي ﴾ إلى آخر الآية . وانما ذلك مجيء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها ، كالدابة ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ومجيء ربك والملك صفاً صفاً ، وما في الآخرة من الصحف والموازين ، والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك ، فحينئذ يقولون ﴿ قد

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(٢) سورة طه الآية ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ١١١ .

(٥) سورة الصمد الآيات : (٣ـ ٥).

(٦) ورد الحديث برواية عائشة عن الرسول ﷺ في البخاري ٢/١٥٨ ﴿ كتاب الصلاة . باب التسبح والدعاء في السجود ﴾ . مسلم ٢/٥٠ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : (٥٢ـ ٥٣) .

جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بالحقِ ، فهلْ لنا من شفعاءَ فيشفعُوا لنا أو نُردُّ فنعملَ غيرَ الَّذي كُنَّا نعملُ ﴾ [١] .

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته الا الله فان الله يقول ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم مِنْ قرَّةِ أعينٍ ﴾[٢] . ويقول : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[٣] وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء ، فان الله قد أخبر أن في الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله ﴿ وأُتُوابه مُتشابهاً ﴾ [٤] على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه . فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه . وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به . وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم ، فانه ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه امثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد [٥] وإن كان من منافقه الملتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه الى ما اعتقد ثبوته ، وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه الى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يعلمُ تأويلهُ إلاَّ الله ﴾ فان تلك الحقائق قال الله فيها

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٣ .

(٢) سورة السجدة الآية : ١٧ .

(٣) الحديث ورد في البخاري (كتاب التوحيد ، بدء الخلق) ، مسلم (كتاب الايمان)؛ الترمذي (كتاب الجنة) ، ابن حنبل ٣١٣/٣، ٣٨٠.

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥ .

(٥) يريد ابن تيمية أن يلفت نظرنا الى موقف الفلاسفة وخاصة ابن سينا من قضية البعث وتأويلهم لآياتها بما يفيد صرفها عن ظاهرها . ودعواهم أن البعث روحاني فقط وليس جسماني . أنظر في ذلك : (الإشارات لابن سينا النمط الرابع) ، رسالة اضحوية في أمر المعاد ، وانظر تكفير الغزالي لهم في تهافت الفلاسفة ، ورد ابن تيمية على ابن سينا في العقل والنقل ، الجزء الرابع مخطوط رقم ٨٢ عقائد تيمور بدار الكتب المصرية .

﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرَّةِ أَعينٍ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقوله ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه ، فان كان عائداً على الكتاب قوله : منه ومنه ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ، فان جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله : ﴿ ولقد جِئْناهُمْ بكتاب فَصَّلناهُ علىٰ علمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ . هل ينظرونَ إلَّا تأويلَه يومَ يأتي تأويلُهُ ﴾ [1] فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم (وجود) نظيره عندنا وكذلك قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بما لم يُحِيطُوا بعلمه ولمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [2] .

وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : ﴿يسأَلُونَك عنِ السَّاعة أَيَّانَ مَرساها . قل انَّما عِلْمِها عند ربيّ لا يُجليها لوقْتِهَا إلاَّ هُوَ ، ثقلتِ في السَّمواتِ والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ إنما عِلْمُهَا عِند الله ﴾ [3] .

وكذلك قوله ﴿ يسألكَ النَّاسُ عنِ الساعةِ ، قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عند الله وما يدريكَ لعلَّ الساعة تكونُ قريباً ﴾ [4] . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به . فعلم تأويله كعلم الساعة ، والساعة من تأويله . وهذا واضح بين ، ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً الى ما تشابه ، كما يقوله كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار « العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه » [5] لأن المقصود في الخبر الإيمان ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٥٢ ـ ٥٣) .

(٢) سورة يونس الآية : ٣٩ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٨٧ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٦٣ .

(٥) أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : . . . أنزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر ، وحلال وحرام . ومحكم ومتشابه . . . واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا كل من عند ربنا وفي الطبري . كان رسولهم في العلم أن عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابه . انظر : الاتقان ٤/٢ ، تفسير الطبري ١٠٨/٦ ـ ٣٩ .

بخلاف الأمر والنهي فانه متميز غير مشتبه بغيره ، فانه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لا بد أن نتصورها .

(الفرق بين المعنى والتأويل)

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى : ﴿ بل كذَّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمِهِ ولمَّا يأتِهِمْ تَأويلُهُ ﴾[1] والكناية عائدة على القرآن أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود الى القرآن . قال تعالى : ﴿ وَمَا كانَ هذَا القرآنُ أَنْ يُفترىٰ مِنْ دونِ الله ولكنْ تصديقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيهِ مِنْ ربِّ العالمينَ أَمْ يَقُولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهِ وادعُوا مَنِ استطعتُمْ مِنْ دونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادقينَ . بَلْ كَذَّبوا بما لم يحيطُوا بعلمِهِ ولما يَأْتِهِمْ تأويلهُ ، كذلكَ كذَّبَ الَّذينَ من قبلِهِمْ فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظَّالمينَ . ومنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يؤمِنُ بِه وَربُّكَ أعلمُ بالمفسدينَ ﴾[2] . فأخبرسبحانهأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله ﴿ وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهلكَ القرىٰ بظلم ﴾[3] لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله كما تحداهم وطالبهم لما قال ﴿ أَمْ يقولونَ افتراهُ ؟ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهُ وادعُوا مَنْ استطَعْتُمْ من دون الله إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ فهذا تعجيز لجميع المخلوقين ، قال تعالى : ﴿ وَلكِن تصديقَ الَّذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ ﴾ أي مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذي بين يديه ومفصل الكتاب ، والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين افتراه ودل على أنهم هم المفترون . قال : ﴿ بَلْ كذَّبُوا بما لم يُحيطوا بعلمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تأويلهُ ﴾ (أي كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)[4] ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله ، . فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله (ونكتة ذلك أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم ، كذهن الإنسان مثلاً ، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم ، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة

---

(١) سورة يونس الآية ٣٩.

(٢) سورة يونس الآيات (٣٨ ـ ٤٠).

(٣) سورة هود الآية : ١١٧.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في ١٣ / ٢٨٣ مجموع الرياض .

الخارجة ، فالتأويل هو الحقيقة الخارجية وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية)(١) وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه ، محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله .

ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : ﴿ وإذا قَرأتَ القرآنَ جعلنَا بينكَ وبينَ الَّذينَ لا يؤمنُونَ بالآخرةِ حِجَاباً مستوراً . وجعلنَا علىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يفقهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وإذَا ذكرتَ ربَّكَ في القرآنِ وحدهُ ولَّوا علىٰ أدبارِهِمْ نُفُوراً ﴾ (٢) فقد أخبر ذماً للمشركين أنه إذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك . وقوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصري (٣) ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت وماذا عني بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلا آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها : فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا الله ، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن .

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ ، فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل ، لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه ، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله .

(سبب هذا الخلاف)

وأصل ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك (٤) بين ما عناه في القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الإشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن . ومجاهد إمام التفسير . قال

---

(١) ما بين المعوقين زيادة في مجموع الرياض ١٣/٢٨٣ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : (٤٥ ـ ٤٦) .

(٣) هو الحسن ابن أبي الحسن بن أبي سعيد البصري . تربى في حجر أم سلمة زوج رسول الله ﷺ حيث كانت أمه تعمل خادمة لها . وقيل أن أم سلمة كانت تلقم الحسن ثديها ليكف عن بكائه حين كانت تغيب أمه عنه . وكان لنشأته في بيت النبوة أثر في حكمته التي رزقها . سمعته عائشة وهو يحدث فقالت من هذا النبي يشبه كلامه كلام الأنبياء . ويعده المعتزلة من رجال الطبقة الثالثة فيهم توفى سنة ١١٠ هـ .
أنظر . طبقات المعتزلة ص ٣٣ ـ ٣٨ ؛ فضل الاعتزال ص ٢١٥ ـ ٢٢٦ طبقات الشعراني ١/٢٥ .

(٤) في طبعة أنصار السنة . وفيه أشير الى بيد . وهو كلام لا معنى له . والتصحيح من مجموع الرياض ١٣/٢٨٥ .

الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وأما التأويل فشأن آخر . ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ، ولا قال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه .

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك ، فلقبوها : هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم ؟ فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه . والغالب على كلا الطائفتين الخطأ ، أولئك يقصرون في فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه ﴿ ومنهم أُمِّيونَ لا يعلمُونَ الكِتابَ إلَّا أمانِيَّ ﴾ (١) وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئاً . خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجري على أصله فقال : هذا عبث ، والعبث على الله محال . وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم : أن مدعي التأويل أخطأوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقيناً أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر ، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون آيات الصفات ، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض

---

(١) سورة البقرة الآية : ٧٨ .

الصفات ، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر ، وأخرون من أصناف الأمة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعو العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معاني القرآن ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه ، وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطأوا في معنى التأويل الذي نفاه الله وفي التأويل الذي أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعتهم الى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب الى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ولكن بفرية على الله ، وقول عليه بمالا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وأياته فهذا هذا :

(معاني التأويل ثلاثة)

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل .

فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج الى دليل والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر بل يجب تأويلها ، وقال الثالث بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم ، الى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا والله أعلم هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ، ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا ، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثاني في لفظ السلف ، وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً (١) هو نفس المراد بالكلام ، قال الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وبين هذا المعنى والذي قبله بون ، الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي ، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلة ، فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها .

[ويكون التأويل من باب الوجود العيني تأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشئونها وأحوالها . وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والأخبار ، الا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وأخبار ، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب ، إما بضرب المثل ، وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك] (٢) .

وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها : وقد قدمنا التبيين في ذلك ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾(٣) وقوله ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قال أحدُهُمَا إني أراني أعْصرُ خمراً ، وقالَ الآخرُ إني أراني أحْمِلُ فوقَ رأسي خُبزاً تأكلُ الطَّيرُ منهُ نَبِئنا بتأويلِهِ إنَّا نَراكَ مِنَ المحسنين . قالَ لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانِهِ إلَّا نَبَّأتكما بتأويلِهِ قَبلَ أَنْ يأتيكما ﴾ (٤) وقول الملأ ﴿ أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ . وقالَ الَّذي نَجا مِنْهما وادّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ : أَنَا أنبئكم بتأويلِهِ فأرسلونِ ﴾ (٥) وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبويه ﴿ وقالَ ادخُلوا مِصْرَ إن شاءَ اللهُ آمِنِينَ . ورفَعَ أبويهِ على العرشِ وخرُّوا له سُجَّداً وقالَ يا أَبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِنْ قبلُ قد جَعَلَها ربِّي حَقّاً ﴾ (٦) .

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام ، هي نفس مدلولها التي تؤول اليه كما قال يوسف

---

(١) المعنى الأول . صرف اللفظ عن ظاهره الراجح الى المعنى المرجوع لدليل يقترن به .
وهذا المعنى محدث لم يعرفه السلف في تخاطبهم . وانما ظهر بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة .
المعنى الثاني . التفسير والبيان ، المعنى الثالث هو نفس مراد المتكلم بكلامه . فيكون للتأويل ثلاثة معان .

(٢) ما بين المعوقين زيادة في . س .

(٣) سورة يوسف الآية : ٦ .

(٤) سورة يوسف الآيات : (٣٦ - ٣٧).

(٥) سورة يوسف الآيات (٤٤ - ٤٥) .

(٦) سورة يوسف الآيات : (٩٩ - ١٠٠) .

﴿ هذَا تأويلُ رؤ يايَ مِنْ قبلُ ﴾ والعالم بتأويلها : الذي يخبر به كما قال يوسف (لا يأتيكما) أي قبل أن يأتيكما التأويل .

وقال الله تعالى ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُمْ في شيءٍ فَرُدُّوهُ الى الله والرَّسُولِ إنْ كنْتُمْ تُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ، ذلك خَيْرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ [1] قالوا . أحسن عاقبة ومصيراً . فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد الى الكتاب والسنة . والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤ يا . والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن ، وكذلك في سورة آل عمران .

وقال تعالى في قصة موسى والعالم ﴿ قالَ هذا فِراقُ بيني وبينِكَ سأنَبّئكَ بتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صبراً ﴾ [2] الى قوله : ﴿ وَمَا فعلتُهُ عن امرى، ذلك تأويلُ ما لَمْ تَسْطِع عليهِ صبراً ﴾ [3] فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير اذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأويل عمل لا تأويل قول . وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤ وله تأويلاً ، مثل حول تحويلاً ، وعول تعويلاً ، وأول يؤ ول تعدية آل يؤ ول أولاً مثل حال يحول حولاً . وقولهم : آل يؤ ول ، أي عاد الى كذا ورجع اليه ، ومنه المآل وهو ما يؤ ول إليه الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الموئل ، فإنه وأن وهذا من أول . والموئل المرجع قال تعالى : ﴿ لنْ يَجِدُوا من دُونه موئلاً ﴾ [4] .

ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤ ول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤ ول اليه الآل كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل والأول أفعل لأنهم قالوا في تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى . وفي القصص ﴿ لهُ الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ ﴾ [5] ومن الناس من يقول فوعل ، ويقول أوله إلا أن هذا يحتاج الى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فان فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمى المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يؤ ول اليه ويبني عليه ، فهو أسٌّ لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى ، لا من باب أحمر وحمراء . ولهذا يقولون جئته من أمس وقال : (من أول يوم) وأنا أول المسلمين ﴿ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كافرٍ بهِ ﴾ ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذي فضل

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٨ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٨٢ .

(٤) سورة الكهف الآية : ٥٨ .

(٥) سورة القصص الآية ٧٠ .

عليهم في الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمد عليه ، وهذا السابق كلهم يؤول إليه ، فإن من تقدم في فعل فاستبق به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه فالأول له وصف السؤدد والاتباع .

ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود ، والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدأ خلاف العائد ، لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فانه يقال أول المسلمين وأول يوم فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف .

وإذا قلنا : آل فلان ، فالعود الى المضاف ، لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلا ومرجعاً لغيره ، لأنه كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع لا آيل راجع ، إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيره آيلاً اليه ويؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل في كونه مآلاً ومرجعاً والتفضيل المطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدىء والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله إليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكلام ، أو ما تأوله المتكلم ، فإن التفعيل يجري على غير فعل ، كقوله ﴿ وتبَّتل إليه تبتيلاً ﴾ (١) فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل ، كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير وهذا خلق الله .

فالتأويل . هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه . والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤوِّل الى حقيقته التي هي عين المقصود به كما قال بعض السلف في قوله ﴿ لِكُلِّ نبإٍ مستقرٌّ ﴾ (٢) قال حقيقة ، فإنه إن كان خيراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مال ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلاً . ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فالى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ، كما روى عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ القادرُ علىٰ أَن يبعثَ عليكُمْ عذاباً مِنْ فوقِكُمْ أو مِنْ تحتِ أرجِلُكُمْ أو يَلْبسَكُمْ شِيعاً ﴾ (٣) قال إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد(٤) [وعن عبد الله قال : وخمسة قد مضين البطشة واللزام والدخان والقمر

---

(١) سورة المزمل الآية ٨.

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦٥ .

(٤) سلك ابن تيمية في تبيانه لمعنى كلمة « تأويل » في القرآن الكريم منهجاً قويماً أخذ به ابن تيمية في علاجه لكثير من المشكلات التي عرض لها وموقفه في بيان معنى هذه الكلمة يعتبر تطبيقاً أميناً لمنهجه الذي يأخذ به . وهذا المنهج له ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : استقراء كامل للفظ في القرآن الكريم وبيان معناه خلال حكاية اقوال السلف له .

المرحلة الثانية : بيان معنى اللفظ في السنة النبوية وبأي معنى كان يستعمله الرسول ثم الصحابة .

والروم][1]

فـصـل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله . أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم . فانهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الوجه الأول

الأول . من قال إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه ، فيقول : أما الدليل على ذلك ، فإني ما اعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه . وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت . ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها. التي مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في أحاديث الوعد مثل قوله «من غشنا فليس منا »[2] وأحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب (الرد على الزنادقة والجهمية) أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من

= المرحلة الثالثة : بيان معنى اللفظ في اللغة التي نزو بها القرآن ولا ينتقل الى المرحلة الثانية الا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى . وهكذا الثانية : فيكون ابن تيمية بذلك قد طبق منهجه الذي دعا اليه تطبيقاً أميناً . حيث فسر القرآن بالقرآن ثم بالسنة . ثم باللغة . وكل واحدة من هذه المراحل تؤكد الأخرى وتقويها .

(١) ما بين المعوفتين زيادة في : س .

(٢) ورد الحديث في مسلم (كتاب الايمان) ، الترمذي (كتاب البيوع) ، ابن ماجه (تجارات) ، الدارمي (بيوع) ابن حنبل ٢/٥ ، ٢٤٢ .

الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره. بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين . والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل إن هذا هو التأويل المذكور في الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلاً يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمه إلا الله وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها لا التوقف عنها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها ، وتمر كما جاءت دالة على المعاني ، لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات ، مثل سورة الإخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر وقوله ﴿ إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ (١) وعلى كل شيءٍ قدير ، ﴿ إنَّ الله يُحبُّ المتَّقِين ﴾ (٢) والمقسطين والمحسنين ، وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فلمَّا آسفونَا انتقمنَا منْهُمْ ﴾ (٣) ﴿ ذلك بأنَّهُمْ اتَّبعُوا ما أسخطَ الله ﴾ (٤) ﴿ ولَكن كَرِهَ الله انبعاثَهُمْ ﴾ (٥) ﴿ الرَّحمنُ على العرش استوىٰ ﴾ (٦) ﴿ ثم استوىٰ علىٰ العرشِ ﴾ (٧) . ﴿ يعلمُ ما يلِجُ في الأرضِ وما يخْرُجُ منْهَا ، وما ينزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (٨) . ﴿ وهُوَ معَكُمْ أينما كُنْتُمْ ﴾ (٩) ﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ وهُوَ الحكيمُ العليمُ ﴾ (١٠) ﴿ إليهِ يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ ، والعملُ الصالحُ يرفعه ﴾ ﴿ إنني معكما أسمَعُ وَأرىٰ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الله في السَّمواتِ والأرض ﴾ ، ﴿ ما منعَكَ أَنْ تسجدَ لما خلقْتُ بيدي ﴾ ، ﴿ بل يَداهُ مبسوطتانِ ، ينفقُ كيفَ يشاءُ ﴾ ، ﴿ ويبقىٰ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥ .
(٢) سورة التوبة الآية ٤ .
(٣) سورة الزخرف الآية ٥٥ .
(٤) سورة محمد الآية ٢٨ .
(٥) سورة التوبة الآية ٤٦ .
(٦) سورة طه الآية ٥ .
(٧) سورة الرعد الآية ٢ .
(٨) سورة سبأ الآية ٢ .
(٩) سورة الحديد الآية ٤ .
(١٠) سورة الزخرف الآية ٨٤ .

وجَهُ ربّكَ ذُو الجلالِ والإكرام ﴾ ، ﴿ يريدونَ وَجْهَهُ ﴾ ، ﴿ولتُصنَعَ على عيني ﴾ إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هذا في جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فإن قلت : هذا في الجميع ، كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل كفر صريح ، فإنا نفهم من قوله ﴿ إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٍ ﴾ معنى ، ونفهم من قوله : ﴿ إنَّ الله على كلِ شيءٍ قدير ﴾ معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : ﴿ إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقام ﴾ معنى . وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا . وقد رأيت بعض من ابتدع وجمد من أهل المغرب مع انتسابه الى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة من يقول : إنا نسمي الله الرحمن العليم القدير علماً مخصوصاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله : ﴿ ولا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِهِ ﴾ يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم [1] .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة في الباطن ، لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند . فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود وعلى حق موجود أم لا ؟

فإن قال لا ، كان معطلاً محضاً ، وما أعلم مسلماً يقول هذا .

وإن قال نعم ، قيل له فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم وكلاهما في الدلالة سواء ؟ فلا بد أن يقول نعم ، لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات . فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات

---

(١) يوضح ابن تيمية هنا موقف علماء الكلام في قضية الصفات وخاصة المعتزلة والأشاعرة ويحاول أبطال مذهبهم .

ذلك ان المعتزلة ـ كما يرى ابن تيمية ـ ينفون الصفات ويثبتون الأسماء فقط كأعلام مجردة عن معناها ، ويبطل ابن تيمية هذا الرأي ، لأن اثبات الاسم دون معناه المتضمن فيه لا يقول به عاقل ، فان الله لم يسم نفسه بالرحمن الرحيم الا لملاحظة معنى الرحمة في أفعاله . فلو جعلناه الرحمن علماً مجرداً عن معنى الرحمة كان هذا تعطيلاً للصفقة المتضمنة في الإسم . أما الأشاعرة فان موقفهم مضطرب في هذه القضية ، فانهم ينفون بعض الصفات ويثبتون البعض الآخر ، فيقول ابن تيمية فما الفرق عندكم بين المثبت وا لمنفى ؟ وبمناقشتهم يتضح ان مقياس الإثبات والنفى عندهم غير معقول فليتأمل ذلك جيداً .

دون بعض فيقال له : ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه ، فان الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال على دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع .

أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير علي عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته .

وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر ، لم نفيت مثلاً حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه ، قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه ، وكذلك محبته ، وإن قال ـ وهو حقيقة قوله ـ لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل ، وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين ، لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على الإرادة . قيل له الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة ، كدلالة التخصيص على الإرادة . والتقريب والإدناء وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة : وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص . وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

الثاني : يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا فانه لا ينفيه إلا ـ بمثل ما ينفي به من الإرادة والسمع ـ دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضايق أعظم ودلالته أتم ، فلأي شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها الى الإرادة مع أن **النصوص تفرق؟** فلا يذكر حجة الا عورض بمثلها في إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث : يقال له إذا قال لك الجهمي الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة فانهم لا يقولون بارادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلواً في البدعة في الصفات ، وفي القدر نفوا

حقيقة الإرادة ، وقال الجاحظ[1] لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي [2] لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عبادة .

والبصريون كأبي علي [3] وأبي هاشم[4] قالوا : تحدث إرادة لا في محل فلا إرادة ، فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

كان جوابه أن ما أدعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها والعقل أيضاً ، فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو العقل جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فان خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ، فان ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية والضرورة العقلية والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل ، ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن

---

(١) عمرو بن بحر محبوب الكناني (أبو عثمان) الجاحظ ولد سنة ١٦٣ وتوفى سنة ٢٤٥ رئيس فرقة الجاحظية من المعتزلة ، مات بسبب وقوع كتبه على رأسه ، وتوفي والكتاب على صدره ، اشتهر بالأدب وله تصانيف كثيرة في الأدب وعلم الكلام والفلسفة .

أنظر : ارشاد الأريب ٥/٥٦ ـ ٨٠ ، والوفيات ١/٣٨٨ ، لسان الميزان ٤/٥٥ ، تاريخ بغداد ١٢/٢١٢ ، امالي المرتضى ١/١٢٨ الاعلام ، ٥/٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البلخي صاحب « المقالات » واليه تنسب فرقة الكعبية من معتزلة بغداد . توفي سنة ٣١٧ .

انظر . وفيات الأعيان ٢/٧٤٨ ـ ٧٤٩ ، الفرق بين الفرق ص ١٠٨ ـ ١١٠ ؛ الملل والنحل ١/١١٦ ـ ١١٧ ، الخطط ٢/٣٤٨ ، لسان الميزان ٣/٢٥٥ .

(٣) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي من كبار أئمة معتزلة البصرة ، ولد سنة ١٣٥ هـ توفي سنة ٣٠٣ هـ واليه تنسب فرقة الجبائية .

انظر : المنية والأمل ص ٤٥ ـ ٤٨ ، شذرات الذهب ٢/٢٤١ ، الخطط ٢/٣٤٨ ، لسان الميزان ٥/ ٢٧١ ، وفيات الأعيان ٣/٣٩٨ ، الملل والنحل ١/ ١٨ ـ ١٢٩ .

(٤) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبي على الجبائي ، واليه تنسب فرقة الهشمية ، من كبار معتزلة البصرة ، توفي سنة ٣٢١ هـ .

انظر . وفيات الأعيان ٢/٣٥٥ ، تاريخ بغداد ١١/٥٥ ـ ٥٦ ، ميزان الاعتدال ٣/٦١٨ ، الخطط ٢/٣٤٨ ، الملل والنحل ١/١١٨ ، الأعلام ٤/١٣٠ ـ ١٣١ .

يفروا الى إثبات مالا تشبه حقيقته الحقائق ، فالقول في سائر ما سمى ووصف به نفسه كالقول في نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع ، وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده مقتض ولا مانع ، فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم ، إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فان كان المقتضى هناك حقاً فكذلك هنا ، وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا.

وأما المانع فيبين أن المانع الذي تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره باثبات أحدهما ونفى الآخر ، فانه إن كان حقاً نفاهما ، وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوي بين الأمرين في الاثبات والنفي ، ولا سبيل إلى النفي ، فتعين الاثبات .

فهذه نكتة الالزام لمن أثبت شيئاً وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته . فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التي يدعي أنها موجبة النفي خيالات غير صحيحة وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غير مرة .

فإن قال ـ من أثبت هذه الصفات التي فينا أعراض ، كالحياة والعلم والقدرة ولم يثبت ما هو فينا أبعاض ، كاليد والقدم ـ: هذه[1] أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلي ، كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسي ، فان أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له . وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً ، أو تسميتها تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فان قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل إلا الأعراض ، فان قال . العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية .

قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك في حق الله محال ، فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة في حق الله تعالى مطلقاً والمخلوق يجوز ان تفارقه اعراضه وأبعاضه .

فإن قال . ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل . وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

---

(١) هذه : مفعول الفعل (قال) المذكور أول الفقرة .

فإن قال . أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز وان لم يكن له في الشاهد نـظير ، قيل له . فاعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وان لم يكن له في الشاهد نظير .

فـان نفى عقل هـذا نفى عقل ذاك ، وان كـان بينهما نـوع فرق لكنـه فرق غـير مؤثر في مـوضع النـزاع ، ولهذا كـانت المعـطلة الجهمية تنفي الجميـع ، لكن ذاك أيضـاً مستلزم لنفي الذات ، ومن أثبت هذه الصفات الخبريـة من نظير هؤلاء صـرح بأنها صفـة قائمـة به كـالعلم والقدرة ، وهذا ايضاً ليس هو معقول النص ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم الى هذه المضايق .

(اسباب هذه الشبهة)

وأصـل ذلك : أنهم أتـوا بـألفـاظ ليست في الكتـاب ولا في السنـة ، وهي ألفـاظ مجملة مثل ، متحيز ، ومحدود ، وجسم ، ومركب ، ونحو ذلك . ونفوا مدلولها وجعلوا ذلـك مقدمـة بينهم مسلمة ومدلولاً عليها بنـوع قياس ، وذلـك القياس أوقعهم فيـه مسلك سلكوه في أثبـات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بـالتركيب من الأجـزاء فوجب طـرد الـدليل بـالحدوث والإمكـان لكل مـا شمله هذا الـدليل ، إذ الـدليل القـطعي لا يقبل التـرك لمعـارض راجح ، فـرأوا ذلك يعكـر عليهم من جهـة النصـوص ومن جهـة العقـل من نـاحيـة اخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتـزلة ، وتـارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضي ، فإنه قد قيل أول ما تكلم في الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبي الهذيل العلاف(1) ، فان أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس ، وعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة الا ولا بد أن يتناقض ، فيحيـل ما أوجب نـظيره ويـوجب ما أحـال نظيـره ، إذ كلامهم من عنـد غير الله ، وقد قال الله تعالى ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾ (2) .

---

(1) أبو الهذيل محمد بن عبد الله بن مكحول المشهور بالعلاف ، من كبار معتـزلة البصـرة . ولد سنـة ١٣٥هـ . كف بصره في آخر عمره . توفى سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٨ على خلاف ذلك .

انظر عنه : لسان الميزان ٤١٣/٥ ـ ٤١٤، وفيات الأعيان ٣٩٦/٣ ـ ٣٩٨، تاريخ بغداد ٦٦/٣ ـ ٢٨٠ أمالي المـرتضى ١٢٤/١، الاعلام ٣٥٥/٧ .

(2) سورة النساء الآية ٨٢.

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والايمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة ، لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون من باب ﴿ الَّذينَ إذا ذُكِرُوا بآياتِ ربهم لم يَخِرُّوا عليها صمّاً وعُمْياناً ﴾ ، ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين ﴿ لا يعلمونَ الكتابَ إلا أمانيّ ﴾ . فهذا أحد الوجهين وهو منع أن تكون هذه[1] من المتشابه .

الوجه الثاني [2] : أنه إذا قيل : هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله الا الله إما المتشابه وإما الكتاب كله كما تقدم ، ونفى علم تأويله ليس نفى علم معناه ، كما قدمناه في القيامة وأمور القيامة ، وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن إسحاق في وفد نجران أنهم احتجوا على النبي ﷺ بقوله إنا ونحن ونحو ذلك[3] ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب كما أن ذلك في مسائل المعاد أولى ، فإن نفى التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفي التشابه بين موجود الجنة وموجود الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفى علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : ﴿ ولقد ضَرَبْنَا للنَّاسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ لعلّهم يتذكرونَ ، قرآناً عربيّاً غير ذي عوجٍ ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ الر . تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ . إنَّا أنزلْنَاهُ قرآناً عربياً لعلَّكم تعقلونَ ﴾ [5] . فأخبر أنه أنزل ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربها للنَّاسِ لعلَّهم يتفكرونَ ﴾[6] . فحض على تدبره وفهمه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً ، بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله ﴿ أفَلا يتدَبَّرُون القرآنَ أَمْ علىٰ قلوب أقفالُها ﴾ وقوله : ﴿ أفَلا يتدَبَّرُون القرآن ولو كانَ مِنْ عِنْدِ غيرِ الله لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون الا بتدبره كله ، والا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

---

(١) اسم الاشارة راجع الى الصفات الإلهية .

(٢) سبق الوجه الأول ص ١١٥ .

(٣) انظر سبب نزول آل عمران في الجزء الثاني من هذا التفسير .

(٤) سورة الزمر الآية ٢٨ .

(٥) سورة يوسف الآيات (١ ـ ٢) .

(٦) سورة الحشر الآية ٢١ .

وقال علي عليه السلام لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة . فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمانَ وكلاً آتينا حُكماً وعِلماً﴾ وقال النبي ﷺ « رب مبلغ أوعى من سامع » وقال « بلغوا عني ولو آية » .

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ، آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها ، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم ، مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول (لو أعلم أعلم - بكتاب الله مني تبلغه اباط الإبل لأتيته) وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا . وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما في علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالة أصحاب زيد بن ثابت ، ولكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس . ولو كان معنى هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية ، كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ، فقال : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) ، وكذلك ربيعة قبله ، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس [احد] من أهل السنة ينكره . وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال كيف استوى . ولم يقل مالك الكيف معدوم ، وإنما قال الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجري ماهيته في مقال ، ومنهم من يقول ليس له كيفية ولا ماهية .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم ، أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم قاله بعض

أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف . فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، فان السائل قد علم أن هـذا مـوجود في القـرآن وقد تـلا الآيـة . وأيضـاً فلم يقـل ذكـر الاستـواء في القـرآن ولا إخبـار الله بـالاستواء ، وإنمـا قال الإستـواء معلوم . فـأخبـر عن الاسم المفـرد أنـه معلوم ، ولم يخبـر عن الجملة .

وأيضاً فانه قال والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول او تفسير الاستواء مجهول ، او بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء . وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله (إني معكُـمَا أسمعُ وأَرَىٰ) كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا السمع والرؤ يا معلوم والكيف مجهول ، ولو قال كيف كلم موسى تكليماً ، لقلنا التكليم معلوم والكيف غير معلوم .

وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهـم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العـرش حقيقة وأن ذاته فـوق العرش، لا ينكـرون معنى الاستواء ولا يـرون هذا من المتشـابه الـذي لا يعلم معناه بالكلية .

ثم السلف متفقون على تفسيـره بما هـو مذهب أهـل السنة . قـال بعضهم : ارتفع عـلى العرش ، علا على العرش . وقـال بعضهم عبارات أخرى ، وهذه ثـابتة عن السلف قـد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر في كتاب الرد على الجهمية .

وأما التأويلات المحرفـة مثل استـولى وغير ذلـك فهي من التأويـلات المبتدعـة لما ظهـرت الجهميـة ، وأيضاً قـد ثبت أن اتبـاع المتشـابـه ليس في خصـوص الصفـات ، بـل في صحيـح البخاري أن النبي ﷺ قال لعائشة : « يا عائشة اذا رأيت الذين يتبعـون ما تشـابه منـه فأولئـك الذين سمى الله فاحذريهم » وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا ، فانه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن الذاريـات ذرواً ، فقال ما اسمك ؟ قال عبد الله صبيغ ، فقال وأنا عبـد الله عمر ، وضـربه الضـرب الشديـد ، وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقـول ما أحـوجك أن يصنـع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « إذا رأيت الذين يتبعـون ما تشـابه منـه» وكما قـال تعالى : ﴿ فأما الـذين في قلوبهم زيغ فيتبعـون ما تشـابه منـه ابتغاء الفتنـة ﴾ فعاقبـوهم على هـذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيـات القرآن ، وقـد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقـال : لا تضربـوا كتاب الله بعضه ببعض فان ذلك يوقع الشك في قلوبهم ، ومع ابتغاء الفتنة ابتغـاء تأويله الذي

لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها .

ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة في تفسيرها ، مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها كره سؤاله لما رآه من قصده ، ولكن علياً كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس في اللفظ ذكر الموصوف ، والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر ، وكذلك في قوله ، إنا ونحن ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى ، فان معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فان المسمى واحد ومعاني الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع .

وأما التأويل الذي اختص الله به ، فحقيقته ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول . فاذا قالوا ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره ، قيل هذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله .

وما أحسن ما يعاد التأويل الى القرآن كله . فإن قيل : فقد قال النبي ﷺ لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، وهذا كقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله ﴾ وقوله ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم **تأويله** ﴾ فان المراد تأويل الخبر الذي فيه عن المستقبل ، فانه هو الذي ينتظر ويأتي ولما يأتهم ، وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر . وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل في التأويل لا ينتظر . والله سبحانه أعلم وبه التوفيق .

مقدّمة سادسة
في معجزات القرآن

فصل
القرآن آية صدق النبي

قال شيخ الاسلام ابن تيمية .

لما كان محمداً ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ـ كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة لكل الخلق ، الذين بعث اليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء .

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إنْ كانَ من عندِ الله ثمَّ كفرتُمْ بِهِ مِنْ أضلُّ ممن هُوَ شقاقٍ بعيدٍ * سنريهم آياتنا في الآفاقِ وفِي أنفسهم حتىٰ يتبينَّ لهمْ أَنَّهُ الحقُّ أَوَ لم يكفِ أَنَّهُ علىٰ كُلِّ شيءٍ شهيدٍ ﴾ [1] أخبر سبحانه أنه سيري العباد الآيات في أنفسهم ، وفي الآفاق ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد اليه ، إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ والضمير في « كان » عائد الى معلوم .

يقول أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد .

فانه على هذا التقدير ، يكون الكافر في شقاق بعيد ، قد شاق الله ورسوله ولا أحد أضل

(١) سورة فصلت : ٥٢ ـ ٥٣ .

ممن هـو في مثل هـذا الشقاق ، حيث كـان في شق ، والله ورسولـه في شق ، كما قـال تعـالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وَمَا أُنْزِلَ إلىٰ إبراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقـوبَ والأسباطَ ومـا أوتيَ موسىٰ وعيسىٰ وما أوتيَ النبيّونَ مِنْ ربِّهم لا نفرِّق بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمـونَ . فإنْ آمنـوا بمثلِ ما آمنتم بهِ فقد اهتدوا وإن تولوا فإنَّما هم في شقـاقٍ فسيكفيكهُمُ الله وهُوَ السَّميعُ العليمُ ﴾ (١) بين أن من تولى عن ذلك ، لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب ، من قصده الحق ، وإنما يتولى عنه من قصده المشاقة والمعاداة ، لهوى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله، ثم كفر به من كفر ، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله ، إذ هو في شقاق بعيد .

وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهو ضال .

والشقاق قد يكون مع العناد ، وقد يكون مع الجهل .

فان الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً ، ولهذا قال عقيب ذلك « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فأخبر أنه سيرى عباده من الآيـات الأفقية والنفسيـة ، ما يبـين أنه حق ، ثم قـال ﴿ أو لم يكف بربـك أنه عـلى كل شيء شهيد ﴾ فان شهـادته وحـده كافيـة بدون مـا ينتظر من الآيـات كما قـال تعالى ﴿ قـل كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينكُمْ وَمَنْ عِندَهُ علمُ الكتابِ ﴾ (٢) وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بـأقوالـه التي أنزلها قبل ذلك على انبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَمَنْ أظلمُ ممّن كَتَمَ شهـادةً عندهُ مِنَ اللهِ ﴾ (٣) . وتكـون بأقـواله التي أنـزلها عـلى محمد ﷺ ، فـإن القرآن نفسـه ، آيـة بينـة ، ومعجزة قاهرة .

وتكون بأفعاله ، وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون .

والقـرآن نفسه هـو قول الله ، وفيـه شهـادة الله بمـا أخبـر بـه الـرسـول ، وإنـزالـه عـلى محمد ﷺ ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان ، وذلك من فعل الله ، إذ كان البشر لا يقدرون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيـرهم ، كما قـال تعالى : ﴿ قل لئِنَ اجتمعت الانسُ والجنُّ علىٰ أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهُمْ

(١) سورة البقرة الآيات (١٣٦ ـ ١٣٧) .
(٢) سورة الرعد الاية ٤٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

لبعض ظَهِيراً ﴾[1] . ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره ، إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية ، صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم عن جميع الثقلين ، إنسهم وجهنم ، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر ، فيفسد عليه ما قصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسهم أحد بمثلها ، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ الى يوم القيامة ، الذي يقرأ به في الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا لو كان شاكاً في ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ، فمن يصدقه الناس ، لا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، وقصد أن يخلده هذا التخليد ، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه .

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن الى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه الى جميع الخلق وهو ـ وحده ـ كاف في العلم بأن القرآن معجز .

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة ، تامة وانتفت المعارضة . علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، هذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهي آية ظاهرة باقية الى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد ، وهي من أعظم الآيات فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

دليل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو دليل اعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقالوا لوْلاَ أُنْزل عليْهِ آيةٌ من ربهِ قلْ إنَّما الآيات عندَ الله وإنما أنَا نذيرٌ مبينٌ . أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنزلْنا عليكَ الكِتابَ يُتلى عليهِمْ إنَّ في ذلكَ لرحمةً وذكرىً لقومٍ يؤمنونَ ﴾ (١) فهو كافٍ في الدعوة والبيان ، وهو كافٍ في الحجج والبرهان .

فصــــل

في إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، ونحو ذلك .

وهذه الألفاظ اذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ « المعجزات » موجوداً في الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ « الآية » و« البينة » و« البرهان » كما قال تعالى في قصة موسى ﴿ فذانكَ برْهانانِ منْ ربِّكَ ﴾ (٢) ، في العصا واليد ، وقال الله تعالى في حق محمد : ﴿ يا أَيُّها النَاسُ قدْ جاءكُمْ برهانٌ مِنْ ربكُمْ وأنزلنا اليكُمْ نوراً مُبيناً ﴾ (٣) وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان : ﴿ وقالوا لنْ يدخل الجَنَّة إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نصَارى تلكَ أمانِيُّهم قلْ هاتوا برْهانِكُمْ إنْ كنتمْ صادِقِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ أمْ مَنْ يبدؤُ الخلقَ ثُمَّ يعيدهُ وَمَن يرزقكُمْ من السَّماء والأرض أَإلهٌ معَ الله ؟ قلْ هَاتوا برهانكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَمَنْ يَدعُ مَعَ الله إلهاً آخر لاَ برهانَ لَهُ بِهِ فإنَّما حِسابُه عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يفلحُ الكافرُونَ ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ ويوْمَ يناديهِمْ فيقولُ : أيْنَ شُركائِيَ الَّذِينَ كنتمْ تزعُمُونَ * وَنزعنا منْ كلِّ أمَّةٍ شهيداً فقلنَا هاتوا برهانكُمْ فعِلموا أنَّ الحقَّ لله وضلَّ عنهُمْ ما كانوا يفترُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة العنكبوت الآيات (٥٠ ، ٥١) .

(٢) سورة القصص الآية ٣٢ .

(٣) سورة النساء الآية ١٧٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٥) سورة النمل الآية ٦٤ .

(٦) سورة المؤمنون الآية ١١٧ .

(٧) سورة القصص الآيات ٧٤ ـ ٧٥ .

وأما لفظ « الآيات » فكثير في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلنا في كلِّ قريةٍ أكابرَ مُجْرميهَا ليمكروا فيها وما يمكرون الَّا بأنفسهمْ وما يشعـرون ، وإذا جاءَتْهُمْ آيـةٌ قالـوا لنْ نؤمنَ حتَّى نؤتىٰ مثلَ ما أُوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [1] . وقوله تعـالى : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ تسعَ آياتٍ بيناتٍ فاسئل بني إسرائيل إذْ جاءَهُمْ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وادخلْ يدكَ في جيبكَ تخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ آيةٍ أخرىٰ ﴾ [3] وقول فرعون له : ﴿ فأت بآيةٍ إنْ كنتَ مِنَ الصَّادقين ﴾ [4] .

وقال قوم صالح : ﴿ فأتِ بآيةٍ إنْ كنتَ مِنَ الصَّادقينَ . قالَ : لها شربٌ ولكم شربُ يومٌ معلومٌ ﴾ [5] ﴿ وهذهِ ناقةُالله لكم آية ﴾ .

وقال المسيح : ﴿ قد جئتكم بآيةٍ مِنْ ربّكُمْ أني أخلقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كهيئـة الطير فـانفخُ فيهِ فيكونُ طيراً باذنِ الله ، وأُبرىءُ الأكمَهَ والأبرصَ وأحيي الموتىٰ باذنِ الله ، وأنبئكُمْ بما تأكلونَ وما تدَّخرونَ فِي بيوتِكُمْ ، إنَّ في ذلكَ لآيةً لكُمْ إن كنتُمْ مؤمنينَ ﴾ [6] .

وقال في حق محمد : ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ مِنْ آياتِ ربّهم إلَّا كانُوا عنهـا مُعرضـينَ ، فقد كذَّبُوا بالحقِ لما جاءَهُمْ فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانُوا بِهِ يستهزؤ ونَ ﴾[7] وقال : ﴿ أو لم يكنْ لهم آيةً أن يعلمهُ علماءُ بنى إسرائيل﴾[8]وقال: ﴿اقتربت السَّاعة وانشقَّ القمرُ، وإنْ يرُوا آيةً يعرضُوا ويقـولُوا سحـرٌ مستمرٌ ﴾[9] وقـال : ﴿ ومنهُمْ مَنْ يستمِعُ اليـكَ وجعلنَا علىٰ قلوبهمْ أكنَّـةً أنْ يفقهـوهُ وفي آذانِهِمْ وقراً وإنْ يـرُوا كلَّ آيـةٍ يؤ مِنُوا بهـا حتىٰ إذا جاؤُك يجـادلونـَك يقـولُ الَّـذين كفرُوا : إنْ هذَا إلَّا أساطيرُ الأولين ﴾[10] وقال تعالى : ﴿ وقالُوا لولاَ يأتينا بآيةٍ مِنْ ربّهِ قلْ إنَّما الآيات عند الله وإنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ او لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليكَ الكِتَاب يُتلىٰ عليهم إنَّ في ذلكَ لرحمةً وذكرىٰ لقومٍ يُؤْمنون ﴾[11]وقال ﴿ سنريهم آياتِنَا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبينَّ لهم أنَّهُ

(١) سورة الأنعام الآيات (١٢٣ ـ ١٢٤) .

(٢) سورة الاسراء الآية ١٠١ .

(٣) سورة طه الآية ٢٢ .

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٥) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

(٧) سورة الأنعام الآية ٤ .

(٨) سورة الشعراء الآية ١٩٧ .

(٩) سورة القمر الآيات (١ ـ ٢) .

(١٠) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(١١) سورة العنكبوت الآية ٥ .

الحقُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ في سبيل الله وأُخرى كافرةٌ يرونَهُم مثليهُمْ رأيَ العين والله يؤيدُ بنصره مَنْ يشاءُ إنَّ في ذَلِكَ لعبرةٍ لأُولي الأبصار ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بيِّنات قالَ الَّذينَ لا يرجونَ لقائَنا إئتِ بقرآنٍ غيرَ هذا او بدِّلهُ قل ما يكـون لي أَنْ أبَدِّلهُ مِنْ تلقاء نفسي ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ قلْ انظُروا ماذا في السَّموات والأرض وما تغنى الآيات والنُّذرعن قوم لا يؤمنون ﴾[٣] .

وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء ، قال في آخر كل قصة ﴿ إنَّ في ذلـكَ لآيةً وما كانَ اكثرهُمْ مؤمنينَ، وإنَّ ربَّك لهُوَ العزيزُ الرَّحيمُ ﴾ وقال : ﴿ لقد كانَ في يوسفَ وإخوتـهِ آياتٍ للسائلين ﴾[٤] إلى أن قال في آخرها ﴿ ذلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوجيـهِ إليكَ وَمَـا كُنْتَ لديهِمْ إذا أجمعُوا أمرهُمْ وهُمْ يمكرونَ﴾إلى قوله: ﴿وكـأين من آية في السمـوات والأرض يمرون عليهـا وهم عنها معرضون ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ وعدكُمْ الله مغـانمَ كثيرةً تـأخذونها فعجَّـل لكم هذه وكفَّ أيـدي النَّاسِ عنكُمْ ولتكـونَ آيةً للمؤمنـينَ ﴾[٦] وقال : ﴿ وَجَعَلْنـا ابنَ مريمَ وأُمَّـهُ آيـةً وآويناهُمَا الى ربوةٍ ذَاتَ قرارٍ وَمَعِينٍ ﴾[٧] .

وأما لفظ المعجزة فانما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ ومـا هُمْ بمعجزينَ ﴾[٨] وقال : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بمعجِزينَ في الأرضِ ولاَ في السَّماء ﴾[٩] .

ومن لا يثبت فعلاً إلا لله ، يقول : المعجز هو الله ، وإنما سمى غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به ، وذكـر شرائـطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأوليـاء إن اثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٥ .

(٣) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٤) سورة يوسف الآية ٧ .

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

(٦) سورة الفتح الآية ٢٠ .

(٧) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

(٨) سورة النمل الآية ٤٦ .

(٩) سورة العنكبوت الآية ٢٢ .

بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي ، فإن هذا يجب اختصاصه [1]

وقد يسمون الكرامات آيات ، لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي ، فإن الدليل مستلزم للمدلول ، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول ، فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي .

وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبي الذي اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهي آية على صحة طريقهم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، كما قد تكلمنا على ذلك في غير هذا الكتاب ، وبينا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هي أنواع كثيرة ، لكن الآيات نوعان .

منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر ، كمعجزات موسى وعيسى .

ومنها : ما هو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد ﷺ وكالعلم والإيمان اللذين في أتباعه ، فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التي أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التي يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ، ووقوع ما أخبر بوقوعه ، كقوله «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك » [2] وقوله « لا تقوم الساعة حتى

---

(١) يرى ابن تيمية أن استخدام كلمة «آية» برهان ، أكثر دلالة على صدق الرسول في دعوى النبوة بخلاف كلمة معجزة ، ذلك أن علامة صدق الرسول في دعوى رسالته هو ما يقدمه من آيات تشهد بصحة دعواه وما يحتج به من براهين تؤيد قوله ، وتسميته ما يقدمه الرسول من علامات على صدق قوله آية وبرهاناً ، تكون مطابقة لمسماها ومطردة في ذلك لا تتخلف عنه ، بخلاف استخدام كلمة معجزة أو خارق للعادة فان دلالتها على صدق المدعي قد تتخلف مع أنها تكون خارقة للعادة ومعجزة للغير ، كما في شأن الكهان والسحرة والشرط في الدليل ألا يتخلف عن مدلوله ، وهذا يوضح لنا سر تسمية القرآن لها بأنها اية أو برهاناً ولم يسمها أبداً معجزة .

ومن يقرأ قصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد أن القرآن قد سمى ما يقدمه النبي دلالة على صدقه آية أو برهاناً . وكثيراً ما يتردد في القرآن أن في ذلك لآية . ولقد تركناها آية . فذالك برهاناً من ربك ، ولم ترد كلمة معجزة في القرآن مطلقاً ، وانما هي تسميه حادثة .

أنظر تفصيل رأي ابن تيمية في ذلك في كتاب النبوات ص ٢٠٦ ـ ٢٣٥ .

(٢) ورد هذا الحديث في صحيح البخاري ٥١/٤ ـ ٥٢ من رواية الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك . صغار الأعين . حمر الوجوه . ذلف الأنوف . كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» .

تخرج نار بأرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى [1] » .

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستماية ، وشاهد الناس أعناق الإبـل في ضوء النار ببصرى .

وظهور دينه وملته بالمحجة والبرهـان ، واليد والسنـان ، ومثل المثـلات والعقوبـات التي تحيق بأعدائه ، وغير ذلك ، وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله ، وغير ذلك .

فصـــــل
في معجزات القرآن

القرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص عـلى غيره ، كـما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُوتي من الآيـات ما آمن عـلى مثله البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة [2] .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلاً .

أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنـه هو الـذي أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار ، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

(تحدي أهل مكة)

والقرآن نفسه ، فيه تحدي الأمم بالمعارضة ، والتحدي هـو أن يحدوهم ، (أي يـدعوهم ويبعثهم) الى أن يعارضوه .

فيقـال فيه : حـداني على هـذا الأمر (أي بعثني عليـه) ومنه سمى حـادى العيس ، لأنـه بحداه يبعثها على السير .

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ، ولكن أصله الأول ، قال تعالى في سـورة الطور ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [3] فهنا قال

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ٧٣/٩ (كتاب ، الفتن ، باب خروج النار) من روايه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى .

(٢) ورد هذا الحديث في البخاري (كتاب فضائل القرآن . باب نزول الوحي) ولفظه كما في رواية أبي هريرة (قال النبي ﷺ : ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله الى . فأرجـو أن اكون أكثـرهم تابعاً يوم القيامة) . وأنظر أيضاً مسلم (كتاب الايمان حديث رقم ٣٢٩)، ابن جعبل ٢٢١/٢ .

(٣) سورة الطور الآيات (٣٣ ـ ٣٤) .

« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » في أنه تقوله ، فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿ أَمْ يقولونَ افتراهُ قل فأتوا بعشرِ سُوَر مثله مفتريات وادعوا مَنِ استطَعْتُمْ منْ دونِ الله إنْ كنتمْ صادقين ﴾ (١) ثم تحدَّاهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : ﴿ وَمَا كان هٰذا القُرْآنُ أنْ يُفترى مِنْ دونِ الله ولكنْ تصديقَ الذِي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لا رَيبَ فيهِ مِنْ رب العالمينَ . أَمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتوا بسورة مثلِه وادْعوا مَن استطعْتُمْ من دون الله إن كنتمْ صادقين ﴾(٢) فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة واحدة ، هم ومن استطاعوا قال : ﴿ فإنْ لَمْ يستَجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلاَّ هو ﴾ (٣) وهذا أصل دعوته ، وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ فإنْ لَمْ يستجيبوا لكُمْ فاعلموا أنما أُنْزِلَ بعِلْمِ الله ﴾ كما قال : ﴿ لكن الله يشهدُ بما أنزل إليكَ أنزلهُ بعلْمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفي بالله شهيداً ﴾ (٤) أي هو يعلم أنه منزل ، لا يعلم أنه مفترى كما قال : ﴿ وَمَا كانَ هٰذا القرآنُ أنْ يُفترى من دون الله ﴾ أي ما كان لأن يفتري ، يقول : ما كان ليفعل هذا ، فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى : ما يمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لا يقدر على ذلك ، وهذا التحدي كان بمكة ، فإن هذه السور مكية، سور يونس ، وهود ، والطور .

تحدي اهل المدينة

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة ، فقال في « البقرة » وهي سورة مدنية ﴿ وإنْ كنتمْ في رَيْبٍ مما نزلنا عَلَى عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دونِ الله إنْ كنتُمْ صادقينَ ﴾(٥) ثم قال : ﴿ فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتَّقوا النَّارَ التي وقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أعدَّتْ للكافرينَ ﴾(٦) فذكر أمرين .

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .

(٢) سورة يونس الآية (٣٧ ـ ٣٤) .

(٣) سورة هود الآية ١٤ .

(٤) سورة النساء الآية ١٦٦ .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٤) .

أحدهما : قوله﴿فإنْ لم تَفْعَلُوا ولَنْ تفعلُوا فاتَّقـوا النَّارَ﴾ يقـول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين ، هذا دعـاء الى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جدالهم بالتي هي أحسن .

والثاني : قوله « ولن تفعلوا » و«لن » لنفي المستقبل ، فثبت بالخبر أنهم فيـما يستقبل من الزمان ، لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول في سورة «سبحان » وهي سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبـر المتواتـر ، وذكر فيهـا من مخاطبة للكفار بمكة ، ما يبين ذلك بقوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أَنْ على أَنْ يأتُوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً ﴾[1] فعم بأمره له ان يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم ، قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لاً يأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدي والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن . وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث ، والى اليوم ، الأمر على ذلك ، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ، ولما بعث إنما تبعه قليل .

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن .

تارة يذهبون الى أهل الكتـاب فيسألـونهم عن أمور من الغيب ، حتى يسـألوه عنهـا ، كما سألوه عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذي القرنين كما تقدم .

وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولـونه فيـه ، وصاروا يضـربون لـه الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق .

فتارة يقولون : مجنون . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : شاعر . الى أمثال ذلك من الأقوال ، التي يعلمونها ، هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضـة ، مرة بعـد مرة . وهي تبـطل دعوتـه ، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها ، لفعلوها ، فانه ـ مع وجود هذا الداعي التام المؤكـد ـ إذا كانت القـدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول في سائر اهل الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علماً بيناً لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض ، عن أن يأتـوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى ، فـإن هذا لم يأت أحد بنظيره .

---

(١) سورة الأسراء الآية ٨٨.

وجه إعجاز القرآن

وكون القرآن أنه معجزة ، ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط .

بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي . وعن الغيب المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد صرَّفنا في هَذا القرآنَ للنَّاسِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ وكَانَ الإنسانُ أَكثَر شيءٍ جَدَلاً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولقد صرَّفنا للنَّاسِ في هَذا القرآنَ مِنْ كلِّ مَثَلٍ فَأَبىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً ﴾ (٢) وقال : ﴿ ولقد ضربَنَا للنَّاسِ في هَذا القرآنَ مِنْ كلِّ مَثَلٍ لعلَّهُمْ يتذكَّرونَ . قرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لعلَّهم يتَّقونَ ﴾ (٣) .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن ، هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام ، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى لزكريا : ﴿ آيتكَ ألاّ تكلِمَ النَّاسَ ثلاثَ ليالٍ سوياً ﴾ (٤) فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه اذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة الى المعارضة - من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ، بمنزلة من يقول : اني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكوا الى الله ، أو الى ولي الأمر ، وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٩ .

(٣) سورة الزمر الآية (٢٧ - ٢٨) .

(٤) سورة مريم الآية ١٠ .

ولو قدر أن واحداً صنف كتاباً ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً ، يقدر أن يقولوا مثله ، وتحداهم كلهم ، فقال : عارضوني ، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودماؤكم لي حلال ، امتنع في العادة ان لا يعارضه أحد .

فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

والذي جاء بالقرآن ، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً ، ومن آمن بي ، دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي ، دخل النار ، وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم ، وغنيمة أموالهم ، ووجب عليهم ـ كلهم ـ طاعتي ومن لم يطعني ، كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين .

فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعي قلوبهم ، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم ، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فان سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتي أنكم كلكم لا يقدر احد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب ، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة ، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين ، النفي و الإثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر .

فهذا غاية التنزيل ، وإلا فالصواب المقطوع به ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه ، على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه ، لكل من له أدنى تدبر ، كما قد أخبر في قوله : ﴿ قل لئِنْ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتُوا بمثل هَـذَا القرآنَ لا يأْتُونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهُمْ لبعضٍ ظَهيراً ﴾[1] .

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم الى المعارضة حاصلة ، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه .

وقد انتدب غير واحد لمعارضته ، لكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الاتيان بمثله ، مثل قرآن مسيلمة الكذاب ، كقوله « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين » .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلا يجدون انفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه ، وكان ـ مع ذلك ـ من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، ينال مقصوده ، سواء قيل : أنه صادق أو كاذب ، فإن من دعا الناس الى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار ، هو من عظماء الرجال على أي حال كان . فإقدامه ـ مع هذا القصد ـ في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، لا في ذلك العصر ، ولا في سائر الأعصار المتأخرة ، لا يكون إلا مع جزمه بذلك ، وتيقنه له ، وإلا ، فمع الشك والظن، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

وإذا كان جازماً بذلك ، متيقناً له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك .

وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الانسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإنا نعلم ذلك ، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقاً للعادة ، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم ، وإلا كان العلم جهلاً ، فثبت انه ـ على كل تقدير ـ يستلزم كونه خارقاً للعادة .

ولو قال مفتر : بل أنا أقول الذي أخبر بهذه الغيوب وأتى بهذه العجائب ، كان جاهلاً أخرق ، ولا يدري ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ في الإعجاز . وخرق العادة أن يكون مجنوناً ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التي لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

(الدليل التفصيلي)[1]

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس اساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام

(١) انظر الدليل الاجمالي أول هذه المقدمة .

جميع الخلق ، وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر .

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر ، لا نبي ولا غير نبي .

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ما أمر به القرآن ، من الدين ، والشرائع كذلك ، ونفس ما أخبر به من الأمثال ، وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك .

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية ، والخلقية ، والسياسية ، وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية ، التوارة ، والانجيل ، والزبور ، وصحف الأنبياء ، تفاوتاً عظيماً ، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت ، أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر الفاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز في معناه ، أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه ، وجميع عقلاء ـ بني آدم ـ عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما في التوراة والانجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدح في المقصود ، فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي ، كما أتى المسيح بإحياء الموتى ، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن ، لا في الحقيقة ، ولا في الكيفية ولا في الكمية ؟! بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ، ظهر له إعجازه من هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله ، كعجز جميع الخلق عن الاتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم ، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد ، كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك . وفيها ما يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون الى الاقرار بالخالق ، والأقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً .

فلما كانت حاجتهم الى التنفس اكثر من حاجتهم الى الماء ، وحاجتهم الى الماء أكثر من حاجتهم الى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر ، لأن الحاجة اليه أشد .

فكذلك دلائل الربوبية ، حاجة الخلق اليها في دينهم أشد الحاجات ، ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج اليه العامة ، مثل تماثل الأجسام واختلافها ، وبقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ، ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصل

وسيرة الرسول ﷺ ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله . وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حيث بعث الى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة ابراهيم ، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد إبراهيم الا من ذريته ، وجعل له ابنين : أسماعيل واسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ، ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره ، ودعا ابراهيم لذرية اسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم ، ثم من قريش صفوة بني ابراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قريش ، ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه ابراهيم ؛ ودعا الناس الى حجه ، ولم يزل محجوجاً من عهد ابراهيم ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من اكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ، ولا في أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولا هم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والانجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة الى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر ، لم يكن في بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار ، من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا الى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه وسعوا في

هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق ، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه ، لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ، ولا جهات يوليهم إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ، ويدعوهم الى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب ، وجفاء الجافي وإعراض المعرض الى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر ، الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن امره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه الى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه الى المدينة ، وبها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة ، الا قليلاً من الأنصار اسلموا في الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أذِنَ له في الجهاد ، ثم أمِرَ به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل ، والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب ، وسلم وأمنٍ ، وخوف ، وغنى ، وفقر ، وقلة ، وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه ، وهو ـ على ذلك كله ـ ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم ـ حين قدموا الشام ـ قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وهو ﷺ ـ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات ﷺ ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً له إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك .

وهو ، في كل وقت ، يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء ، حتى أكمل الله دينه الذي بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات ، فلم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره . وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة ، والانجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر ، إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب .

فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب الى الفضائل وترغيب في الحسنات ، الا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها ، وعبادات غيره من الأمم ، ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع .

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أدْينُ من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله ، وصبرهم على المكاره في ذات الله ، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة انفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ، وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم ، حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ ، فلم يكونوا قبله يقرءون كتاباً ، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى

وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوا آمنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزل الى إبراهيمَ وَإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النبّيونَ مِنْ ربِّهم لا نفرّقُ بينَ أحدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مسلمونَ * فإنْ آمنُوا بمثلِ ما آمنتُمْ به فقدِ اهتدَوا وإنْ تَوَلَّوا فإنَّما هُمْ في شقاقٍ فسيكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّميعُ العليمُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿آمن الرَّسولُ بما أُنْزِل إليهِ من ربِّهِ والمؤمنُونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلِهِ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ من رُسلِهِ وقالوا سَمِعْنا وأطعْنَا غُفرانكَ ربَّنَا واليك المصيرُ * لا يُكلِّفُ الله نفساً إلا وُسعهَا لها ما كسبتْ وَعَلَيها ما اكتسبتْ ربَّنَا لا تواخِذْنَا إن نسينَا أو أخطأنَا ربَّنا ولا تَحْمِل علينَا إصراً كما حملته علىٰ الَّذينَ من قبلنَا ربَّنَا ولا تُحَمِّلنا ما لا طَاقَة لنا بِهِ واعفُ عَنَّا واغفِرْ لَنَا وارحمْنَا أنتَ مولانَا فانصُرنَا علىٰ القوْمِ الكافِرينَ ﴾[2] .

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به ، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله .

لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم واعتبروا به ، وما حدثهم به أهل الكتاب ، موافقاً لما عندهم ، صدقوه ، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه ، أمسكوا عنه ، وما عرفوا أنه باطل ، كذبوه ، ومن أدخل في الدين ما ليس منه ، من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم ، كان ـ عندهم ـ من أهل الإلحاد والابتداع ، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون ، وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين لهم في الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ، ومن خرج عن ذلك ، كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الظاهرون إلى قيام الساعة ، الذين قال فيهم النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً ، ودين محمد خصوصاً .

ومن خالف هذا الأصل كان ـ عندهم ـ ملحداً مذموماً ، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) سورة البقرة الآيات (٢٨٥ ـ ٢٨٦) .

ديناً ، قام به أكابر علمائهم وعبادهم ، وقاتل عليه ملوكهم ، وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ، ولا دين غيره من الأنبياء .

والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل في البدع ، من قصر في اتباع الأنبياء ، علماً وعملاً .

ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ، عليه أمة محمد ﷺ آخذوه عن نبيهم ، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية .

ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم ، فهو من الأصل المعلم . وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله : «إني رسول الله إليكم جميعاً» لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم ، إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً .

وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله : «إني رسول الله » لأن الذي لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً . والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً ، وكمال علمه ينافي جهله ، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب ، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى :

﴿ والنَّجم إذَا هَوىٰ * ما ضلَّ صاحبكُمْ وما غَوىٰ * ومـا ينطِقُ عَنِ الهَـوَىٰ * إنْ هُوَ إلَّا وحْيٌ يُوحىٰ ﴾[1] .

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به :

﴿ إنَّه لقولُ رسُولٍ كريمٍ * ذي قُوَّةٍ عندَ ذي العرشِ مكينٍ * مُطاعٍ ثمَّ أمينٍ ﴾[2] .

---

(١) سورة النجم الآيات (١ ـ ٤) .

(٢) سورة التكوير الآيات (١٩ ـ ٢١) .

ثم قال عنه :

﴿ وَمَا صاحِبُكُمْ بمجنُونٍ * ولقد رَآهُ بالأُفُقِ المبينِ * وَمَـا هُوَ عَـلىٰ الغيبِ بضنينٍ ﴾[1] أي بمتهم ، أو بخيل ، كالذي لا يُعلِّم إلا بجعل أو لمن يكرمه : ﴿ وَمَا هُوَ بقولِ شيطانٍ رجيمٍ * فأينَ تذْهَبونَ * إنْ هُوَ إلا ذكرٌ للعالمين ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ * نزَلَ بهِ الرُّوحُ الأمـينُ * علىٰ قلبـكَ لتكُونَ من المنـذِرينَ * بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ هَلْ أنبئُكُمْ علىٰ مَنْ تنزَّلُ الشَّيـاطينُ تنـزَّل علىٰ كُـلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَّمعَ وأكثرهُمْ كاذِبونَ ﴾[4] . بين سبحانه ان الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصـل به غـرضه ، فـإن الشيطان يقصـد الشر (وهـو الكذب والفجـور) لا يقصـد الصـدق والعدل ، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأ ، فـإن الخطأ في الـدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود ـ لما سئل عن مسألة ـ: « أقول فيها برأي فـإن يكن صوابـاً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » .

فالرسول برىء من تنزُّل الشيطان عليه في العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسـول فإنـه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان ، وإن كان خطؤه مغفوراً له ، فـإذا لم يعرف لـه خبر أخبـر به ، كان فيه مخطئاً ، ولا أمر به ، كان فيه فاجراً . علم أن الشيطان لم ينزل عليه ، وإنمـا ينزل عليه ملكٌ كريم ، ولهـذا قال في الآيـة الاخرى عن النبي : ﴿ إنَّـه لقولُ رسـولٍ كريمٍ ﴾ إلى آخر الآية .

---

(١) سورة التكوير الآيات (٢٢ ـ ٢٤) .

(٢) سورة التكوير الآيات (٢٥ ـ ٢٧) .

(٣) سورة الشعراء الآيات (١٩١ ـ ١٩٥) .

(٤) سورة الشعراء الآيات (٢٢١ ـ ٢٢٣) .

مقدمة سابعة
في ترجمة القرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

الترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ . مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء . فهذا علم نافع . إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً .

والثاني : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ ، كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صوَّر ذلك المعنى إما تحديداً وإما تقريباً .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد ، وإما بدليل يبين علة وجوده .

وهنا قد يُحتاج الى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى ، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى ، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه . وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج الى قياس ومثل ودليل آخر .

فإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً ، وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل

---

(١) أنظر رأي ابن تيمية في جواز ترجمة القرآن في نقض المنطق ص ٩٧ - ٩٩ .

شيء كما قال تعالى ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفتَرَىٰ وَلَكِن تَصدِيقَ الَّذِي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصِيلَ كُلِّ شَيءٍ ﴾ [١] وقال : ﴿ وَنَزَّلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ ﴾ [٢] . ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك . وأن تبليغه الى العجم قد يحتاج الى ترجمته لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان ، والترجمة قد تحتاج الى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة .

﴿ هل يترجم القرآن في الصلاة ؟ ﴾

وقد اختلف الفقهاء في أذكار الصلاة : هل تقال بغير العربية .؟ وهي[٣] ثلاث درجات ، أعلاها القرآن [٤] . ثم الذكر الواجب غير القرآن . كالتحريمة بالإجماع . وكالتحليل . والتشهد عند من أوجبه [٥] .

ثم الذكر الواجب من دعاء وتسبيح أو تكبير وغير ذلك .

فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية (في الصلاة)[٦] سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور . وهو الصواب الذي لا ريب فيه . بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الاعجاز.

واختلف أبو حنيفة وأصحابه في القادر على العربية . وأما الأذكار الواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن ، هل تترجم للعاجز عن العربية وعن تعلمها .؟ وفيه لأصحاب أحمد وجهان . أشبههما بكلام أحمد أنه لا يترجم وهو قول مالك أو إسحق .

والثاني : يترجم ، وهو قول أبي يوسف ومحمد والشافعي .

وأما سائر الأذكار ، فالمنصوص من الوجهين أنه لا يترجمها . ومتى فعل بطلت صلاته . وهو قول مالك وإسحق وبعض أصحاب الشافعي . والمنصوص عن الشافعي أنه يكره ذلك بغير العربية ولا يبطل .

ومن أصحابنا من قال : له ذلك إذا لم يحسن العربية[٧] .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) الضمير يرجع الى اذكار الصلاة .

(٤) كقراءة الفاتحة والآية .

(٥) كما في المذهب الشافعي .

(٦) ما بين القوسين زيادة لتوضيح المعنى .

(٧) انظر رأي ابن تيمية في ترجمة القرآن في الصلاة بالتفصيل في : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٠٠ - ٢٠٧.

فصـــل (١)

في معنى الصراط المستقيم

الصراط في لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح .

ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه . ومنه الصراط المنصوب على جهنم ، وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون الى الجنة ، وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم .

ويقال : فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه . وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات : الصراط ، والسراط ، والزراط ، وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا (٢) .

ويقال : أصله من سرطت الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلعته ، واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلواً فتسترط ولا مراً فتعفى . من قولهم (عفت) الشيء إذا أزلته من فيك لمرارته .

ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكى عن يعقوب بن السكيت . الأخذ سريط ، والقضاء صرايط ، والسرطاط الفالوذج ، لأنه يسترط استراطاً . وسيف سراطي أي قاطع فانه ماضٍ سريع المذهب في مضربه .

فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه الى مطلوبه بسرعة . وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ، ولم يسم الله سبيل الشيطان سراطاً بل سماها سبلاً ، وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى ﴿ وأَنَّ هَذَا صِراطي مُستقيماً فاتَّبعُوهُ ولا تتَّبِعُوا السُّبُل فتفرَّق بكُمْ عَنْ سبيله ﴾(٣) .

وفي السند عن عبد الله بن مسعود قال : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ،

---

(١) هذا الفصل ناقص من نسخة : س .

(٢) الضمير في زعموا يعود الى النصارى : لزعمهم أنهم المعنيون بقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم . انظر رأي ابن تيمية في ذلك في الجواب الصحيح ٢/٨٢ وبعدها .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، من أجابه قذفه في النار ، ثم قرأ ﴿وأن صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ . فسمى سبحانه طريقه صراطاً ، وسمى تلك سبلا ولم يسمها صراطاً . كما سماها سبيلاً ، وطريقه يسميه سبيلاً كما يسميه صراطاً .

وقال تعالى عن موسى وهارون ﴿ وآتيناهُما الكِتَابَ المستبينَ . وَهَدينَاهُمَا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾ [(١)] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّا فتحنَا لَكَ فَتحاً مُبيناً . ليغفرَ لكَ الله ما تقدَّمَ من ذنبكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتمَّ نعمتهُ عليكَ ويهدِيَكَ صراطاً مُستقيماً . وينصُرَكَ الله نَصراً عَزيزاً ﴾ [(٢)] .

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاه إياها[(٣)] بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم ، فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدى بعد هدى . وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ .

كما قال تعالى : ﴿ إنَّ هَذَا القرآنَ يهدِي للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١١٧ ـ ١١٨) .

(٢) سورة الفتح الآيات (١ ـ ٣) .

(٣) الضمير في : اعطاه يعود الى الرسول ﷺ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

قال شيخ ا لاسلام
قدس الله روحه ونور ضريحه

فصل

أسماء القرآن وصفاته

القرآن ، الفرقان ، الكتاب ، الهدى ، النور ، الشفاء ، البيان ، الموعظة، الرحمة ، بصائر ، البلاغ ، الكريم ، المجيد ، العزيز ، المبارك ، التنزيل ، المنزل ، الصراط المستقيم ، حبل الله ، الذكر ، الذكرى ، تذكرة ﴿ وإنه لتذكرةٌ للمتقينَ ﴾ ، ﴿ إنه تذكرة فمن شاءَ ذكرهُ ﴾ و ﴿مصَّدِقٌ لما بينَ يديهَ ﴾ و ﴿تصديقُ الَّذي بينَ يديهِ ﴾ المهيمن عليه ، ﴿ تفصيلُ كلّ شيءٍ ﴾ ، ﴿ تبياناً لكلِ شيءٍ ﴾ ، المتشابه ، المثاني ، الحكيم ﴿ تلكَ آياتُ الكتابِ الحكيمِ ﴾ محكم ، المفصل ﴿ وهو الَّذي أنزلَ إليكم الكتابَ مفَّصلاً ﴾ ، البرهان ، ﴿ قد جاءَكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا اليكم نُوراً مبيناً ﴾ على أحد القولين ، الحق ﴿ قد جاءَكم الحقّ من ربِكم ﴾ ، عربي مبين ، أحسن الحديث ، أحسن القصص على قول ، كلام الله ﴿ فاجرهْ حتى يسمعَ كلامَ الله ﴾ ، العلم ، ﴿ فمنْ حاجَّك فيه من بعدِ ما جاءَك من العلمِ ﴾ ، العلي الحكيم ﴿ وإنه في أم الكتابِ لدينَا لعلي حكيم ﴾ ، القيم ، ﴿ يتلُو صحفاً مطهرةً فيها كتبٌ قيمةٌ ﴾ ، ﴿ أنزل على عبدهِ الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوجاً قيماً ﴾ ، وحي في قوله : ﴿ إن هُوَ إلا وحيٌ يوحىٰ ﴾ ، حكمة في قوله : ﴿ ولقد جاءَهُمْ مِنَ الانباء ما فيه مزدجرٌ حكمَةٌ بالغَةٌ ﴾ ، وحكماً في قوله : ﴿ أنزلناهُ حكماً عربياً ﴾ ونبأ على قول في قوله : ﴿ عن النبأ العظيمِ ﴾ ، ونذير على قول ﴿ هذا نذيرٌ من النُّذرِ الأولى ﴾ في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً ، وسماه النبي ﷺ « حجة لك أو عليك » وفي حديث الحارث عن علي « عصمة لمن استمسك به » .

وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يقصُّ على بني إسرائيل ﴾ ، ﴿ هذَا كِتابنا ينطقُ عليكم ﴾ ، ﴿ قل الله يفتيكم فيهنَّ وما يتلىٰ عليكم في الكتابِ ﴾ أي يفتيكم ، أيضاً ﴿ إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ ، ويبشر المؤمنين الَّذين يعملون ﴾ .

فصل

في الآيات الدالة على اتباع القرآن

قوله : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ فانه في التفسير المرفوع عن النبي ﷺ كتاب الله (١) .

وسئل رحمه الله

عن أحاديث هل هي صحيحة وهل رواها أحد من المعتبرين باسناد صحيح ؟ الخ .

فقال :

فصل

وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ما سأل ؛ فإذا قال العبد : ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ . قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ . قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستعينُ ﴾ قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ إهدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ ، صِرَاطَ الَّذينَ أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالينَ ﴾ قال : « هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » (٢) .

وثبت في صحيح مسلم عن أبن عباس قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحه الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » وفي بعض الأحاديث : « إن فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش » .

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) سيأتي تحقيق الحديث في مكان آخر من سورة الفاتحة .

[تفسير سورة الفاتحة]

فصل

(في إياك نعبد وإياك نستعين)

قال الله تعالى في أم القرآن والسبع المثاني والقرآن العظيم ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهذه السورة هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع من[1] المثاني والقرآن العظيم ، وهي الشافية ، وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها ، وهي الكافية تكفى من غيرها ، ولا يكفى غيرها عنها .

والصلاة أفضل الأعمال ، وهي مؤلفة من كلم طيب ، وعمل صالح[2] فأفضل[3] كلمها الطيب وأوجبه أم القرآن [4] ، وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود ، وكما جمع بين الأمرين في اول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها [بقوله تعالى][5] ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الَّذي خلقَ ﴾[6] وختمها بقوله ﴿ واسجد واقترب ﴾ فوضعت الصلاة على ذلك ، أولها القراءة ، وآخرها السجود ، ولهذا قال سبحانه في صلاة الخوف ﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ﴾[7] والمراد بالسجود الركعة التي يفعلونها وحدهم بعد مفارقتهم للإمام ، وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح واستعاذة هي تحريم للصلاة ومقدمة لما بعده ، أول ما يبدأ به كالتقدمة ، وما يفعل بعد السجود من قعود وتشهد ، فيه التحية لله والسلام على عباده الصالحين ، والدعاء والسلام على الحاضرين [8] ، فهو تحليل للصلاة ومعقبة لما قبله ، قال النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »[9] ولهذا لما تنازع الناس[10] أيما أفضل : كثرة الركوع والسجود أو طول القيام . أو هما سواء ؟ على ثلاثة أقوال عن أحمد وغيره ، كان الصحيح أنهما سواء ، القيام فيه أفضل الأذكار ، والسجود أفضل

---

(١) من : ناقصة من : س .

(٢) في الأصل : صالحاً . وهو خطأ واضح .

(٣) في س : أفضل .

(٤) أم القرآن : في س : القرآن .

(٥) بقوله تعالى : زيادة في . س .

(٦) سورة العلق الآية : ١ .

(٧) سورة النساء الآية : ١٠٢ .

(٨) في د: المخاطبين .

(٩) ورد الحديث في: أبي داود ١/ ١٦ (كتاب الطهارة . باب فرض الوضوء) حديث رقم ٦١ ، الدارمي ١ ـ ١٧٥ (كتاب الوضوء ، باب مفتاح الصلاة الطهور) ، ابن حنبل ١ ـ ١٢٣ .

(١٠) في س : العلماء .

الأعمال ، فاعتدلا ، ولهذا كانت صلاة رسول الله ﷺ معتدلة ، يجعل الأركان قريباً من السواء وإذا أطال القيام طولاً كثيراً كما كان يفعل في قيام الليل وصلاة الكسوف أطال معه الركوع والسجود ، وإذا اقتصد فيه اقتصد في الركوع والسجود .

(فضل فاتحة الكتاب)

وأم الكتاب كما أنها القراءة الواجبة فهي أفضل سورة في القرآن ، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لم ينزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »(١) وفضائلها كثيرة جداً ، وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري ، رواه ابن ماجه وغيره ، أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع علمها في الأربعة ، وجمع علم الأربعة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصَّل ، وجمع علم المفصَّل في أم القرآن ، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين ، « إياك نعبد وإياك نستعين » . وأن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع في هاتين الكلمتين ﴿ الجامعتين ﴾(٢) ولهذا ثبت في الحديث الصحيح ، حديث قسمة الصلاة(٣) أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين نصفها لي ، ونصفها لعبدي،ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال

---

(١) ورد هذ الحديث بروايات مختلفة ومن طرق عدة ، ونصه كما في رواية أبي هريرة كما أوردها المنذري في الترغيب والترهيب ٥٦/٣ (كتاب قراءة القرآن ، باب ما ورد في أن اعظم سورة في القرآن الفاتحة) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أُبي بن كعب ، فقال : يا أبي - وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه ، وصلى أبي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . السلام عليك يا رسول .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ما منعك يا أبي أن تجيبني إذا دعوتك ؟ .

فقال : يا رسول الله إني كنت في الصلاة .

قال : فلم تجد فيما أوحي الله الى أن « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ؟

قال : بلى . ولا أعود ان شاء الله .

قال : أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الفرقان مثلها ؟

قال : نعم يا رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تقرأ في الصلاة ؟

قال : فقرأ أم القرآن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي اوتيته » .

قال المنذري : رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، وورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم باختصار عن أبي هريرة عن أبي . وقال الحاكم. صحيح على شرط مسلم .

(٢) الجامعتين : زيادة في : س .

(٣) قسمة الصلاةض: ناقصة من : س .

الله سبحانه وتعالى[١] : حمدني عبدي وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل : مجدني ، (وفي رواية فوض الى عبدي) واذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، قال : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »[٢] فقد ثبت بهذا النص أن السورة قسمة[٣] بين الله وبين عبده وأن هاتين الكلمتين مقتسم[٤] السورة فإياك نعبد مع ﴿ما﴾ قبله لله[٥] وإياك نستعين مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال من قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة .

وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء ، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ، إذ إيجاب القبول الذي هو إقرار[٦] واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه ، ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له ، فإن هذا لا يجوز أن يقع بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة ، فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب ، أو القلب والبدن ، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته وتكليمه ومخاطبته بذلك ، ليكون الواجب من ذلك كاملاً صورة ومعنى . بالقلب وسائر الجسد .

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً في مواضع ، كقوله في آخر سورة هود ﴿ فاعبدهُ وتوكَّل عليهِ ﴾[٧] وقول العبد الصالح شعيب ﴿وما توفيقي إلا باللهِ عليه توكلت وإليهِ أُنيب ﴾[٨] ، وقول إبراهيم والذين[٩] معه ﴿ ربَّنا عليكَ توكلنَا وإليكَ أَنبنَا وإليكَ المصير ﴾[١٠] وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه

---

(١) سبحانه وتعالى : ناقصة من . س .

(٢) ورد الحديث في مسلم ٢/٩ - ١٠ (كتاب الصلاة . باب وجوب قراءة الفاتحة) ، أبي داود ١/٢١٧ (كتاب الصلاة . باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب) حديث رقم ٨٢١ ، ابن ماجه ٢/١٢٤٣ (كتاب الأدب باب ثواب القرآن) حديث رقم ٣٧٨٤ . وجاء في الترغيب للمنذري ٣/٢٨ (كتاب قراءة القرآن . ما ورد أن اعظم سورة في القرآن الفاتحة) .

(٣) في س : منقسمة .

(٤) في د . مقسم .

(٥) في د : مع قبله له .

(٦) في د : اقرأ .

(٧) سورة هود : ١٢٣

(٨) سورة هود . ٨٨ .

(٩) في الأصل : الذي معه . وفي الآية الكريمة « والذين معه » الخ الآية .

(١٠) سورة الممتحنة : ٤ .

متاب ﴾[1] فأمر نبيه بأن يقول على الرحمن توكلت وإليه متاب ، كما أمر بهما[2] في قوله : فاعبده وتوكل عليه . والأمر له أمر لأمته ، وأمره بذلك في أم القرآن وفي غيرها لأمته ليكون فعلهم[3] ذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره لا تقدماً[4] بين يدي الله ورسوله ، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعبادات وغيرها ، إنما هو بأمر من الله ، بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسناً أو عفواً ، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم ، وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به وبغيره ، كالمنحرفين عن الصراط المستقيم ، وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عبادته وأذكاره ومناجاته مثل قوله في الأضحية « اللهم هذا[5] منك ولك[6] وإليك[7] ، فإن قوله منك هو معنى التوكل والاستعانة ، وقوله لك هو معنى العبادة . ومثل قوله في قيامه من الليل « لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك لا إله إلّا أنت ان تضلني ،انت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون[8] » إلى أمثال ذلك .

(الإنسان بين العبادة والاستعانة)

إذا تقرر هذا الأصل ، فالإنسان في هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة .

إما أن يأتي بهما[9] .

وإما أن يأتي بالعبادة فقط .

وإما أن يأتي بالاستعانة فقط .

وإما أن يتركهما جميعاً .

---

(١) سورة الرعد ٣٠ .

(٢) في د : أمر بهما .

(٣) فعلهم . ناقصة من . د .

(٤) في س . ولا يتقدموا :

(٥) هذا : ناقصة من د .

(٦) في د . واليك .

(٧) ورد الحديث في أبي داود ١٢٦٣ برواية جابر رضي الله عنه وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين ، وان مما قاله عند ذلك « اللهم منك ولك عن محمد وأمته » : وانظر أيضاً جامع الأصول ١٤٨/٤ ـ ١٤٩ .

(٨) ورد الحديث في : البخاري ٤٨/٢ (كتاب الصلاة . باب التهجد) ، ابي داود ٢٠٥/١ (كتاب الصلاة . باب ما يستفتح بالدعاء في الصلاة) حديث رقم ٧٧١ ، مسلم ٥٣٢/١ ـ ٥٣٣ (كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه) حديث رقم ٧٦٩ .

(٩) بهما : في د : بها .

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة ، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام ، وهم المقصودون هنا بالكلام .

(قسم يغلب عليه التأله)

قسم يغلب عليه قصد التأله لله ، ومتابعة الأمر والنهي ، والإخلاص لله تعالى ، واتباع الشريعة في الخضوع[١] لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات[٢] ولكن يكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل ، فيكون إما عاجزاً وإما مفرطاً ، وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن وإما مع عدوه الظاهر ، وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه والحزن لما يفوته[٣] ، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره ، ويرى انه متبع للشريعة والعبادة الشرعية ولا يعرف قضاءه وقدره وهو حسن القصد طالب للحق ، ولكنه غير عارف بالسبيل الموصلة والطريق المفضية .

(قسم يغلب عليه الاستعانة والتوكل)

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره ، وكلماته الكونيات ، ولكن يكون منقوصاً من جانب العبادة وإخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعاً لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ، بل قصده نوع سلطان في العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير ، وإما سلطان كشف وإخبار ، أو قصده طلب ما يريده ودفع ما يكرهه بأي طريق كان ، أو مقصوده نوع عبادة وتألة بأي وجه كان ، وهمته في الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده ، فيكون إما جاهلاً وإما ظالماً تاركاً لبعض ما أمره الله ، راكباً لبعض ما نهى الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوّف ويتفقر ويشهد قدر الله وقضاءه ، ولا يشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها اليه وإقامته لها ، ولا يشهد ما أمر به وما نهى عنه ، وما الذي يحبه منه ويرضاه وما الذي يكرهه منه ويسخطه ، وما الذي نهاه الله عنه[٤] ، ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة ، مع انحلال عن بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الإباحة[٥] والانحلال ، وربما صعد الى فساد التوحيد، فيخرج الى الاتحاد[٦] والحلول المقيد ، كما قد وقع[٧] لكثير من الشيوخ . ويوجد في كلام

---

(١) في د : والخضوع .

(٢) في د : الدينيات.

(٣) في د . يعوقه .

(٤) وما الذي نهاه الله عنه : ناقصة من س .

(٥) في س : الإباحية .

(٦) في د : الإباحة .

(٧) قد وقع : في د . وقع .

صاحب منازل السائرين[٥] وغيره ما يفضي الى ذلك ، وقد يدخل بعضهم في الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود ، فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق .

« كما يقول صاحب الفتوحات المكية في أولها »[١] :

الرب حق والعبد حق   يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت   أو قلت رب أنى يكلف[٢]

(قسم معرض عن الواجبين)

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعاً . وهم فريقان : أهل دنيا . وأهل دين ، فأهل الدين منهم : هم[٣] أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون غير الله بظنهم وهواهم ﴿ إن يتَّبِعُونَ إلا الظن وما تهوىٰ الأنفسُ ولقد جاءَهُم من رَبِهم الهدىٰ ﴾[٤] . وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

وأعلم أنه التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه .

« فصـــل »

(في معنى الحمد لله رب العالمين)

قال الله عزّ وجل في أول السورة ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ﴾ فبدأ بهذين الاسمين ، الله ، والرب . والله هو الاله المعبود ، فهذا الاسم أحق بالعبادة ، ولهذا يقال : الله أكبر ، الحمد لله ، سبحان الله ، لا إله إلا الله .

والرب هو المربى ، الخالق الرازق ، الناصر الهادي ، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة

---

(١) صاحب منازل السائرين هو : أبو ذر عبد أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري الهروي ، الحافظ الثقة المالكي ، أخذ الكلام عن الباقلاني ، صنف مستخرجاً على الصحيحين توفي ٤٣٤ هـ . انظر عنه : شذرات الذهب ٢٥٤/٣ ، تبيين كذب المفتري ، س ٢٥٥ - ٢٥٦ ، الاعلام ٤١/٤ .

(٢) كما . . . أولها ناقصة من د ، ويوجد مكانها كلمة ، ويقول فقط .

(٣) هذه الأبيات لمحي الدين بن عربي الصوفي والفيلسوف المعروف وهي معبرة عن مذهبه في وحدة الموجود ، انظر الفتوحات المكية ٢/١ . ط بولاق .

(٤) هم : ناقصة من : د .

(٥) سورة النجم : ٢٣ .

والمسألة ، ولهذا يقال : رب اغفر لي ولوالدي [١] . ﴿ ربَّنا ظلمنا أنْفُسَنا وإن لم تغفِرْ لنَا وترحَمنا لنكوننَّ مِنَ الخاسرينَ ﴾[٢] ، ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفُرْ لي﴾[٣] ﴿ ربَّنا اغفر لنَا ذُنوبنا وإسرافِنَا في أمْرِنَا ﴾[٤] ﴿ ربَّنا لا تؤاخذنَا إنْ نسينَا أو أخطأنَا ﴾[٥] ، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب .

فالاسم الأول يتضمن غاية البعْد (العبد) ومصيره ومنتهاه وما خلق له ، وما فيه صلاحه وكماله ، وهو عبادة الله .

والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه ، وهو أنه يربه ويتولاه ، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الاهية ، والربوبية تستلزم الألوهية ايضاً .

والاسم الرحمن يتضمن كمال التعلقين وبوصف[٦] الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وهُمْ يكفرُونَ بالرَّحمنِ قلْ هُوَ ربي لا إلهَ إلاَّ هُوَ عليهِ توكَّلتُ وإليهِ متابِ ﴾[٧] ، فذكر هنا الأسماء الثلاثة ، الرحمن ، وربي ، والإله . وقال : ﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾ ، كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن . لكن بدأ هناك باسم الله ، ولهذا بدأ في السورة بـ﴿إياك نعبد﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة ، لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن ، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية ، فإنها علة غائية للعلة الفاعلية[٨] وقد بسطت هذا المعنى في مواضع في أول التفسير وفي « قاعدة المحبة[٩] والارادة » وفي غير ذلك .

فصل

(توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية)

ولما كان علم النفوس بحاجتهم ﴿ ومقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم ﴾[١٠]

---

(١) هذا من دعاء نوح عليه السلام ، ورد في سورة نوح : ٢٨ .

(٢) سورة الاعراف : ٢٣ .

(٣) سورة القصص : ١٦ .

(٤) سورة آل عمران . ١٤٧ .

(٥) دعاء آخر سورة البقرة . آية رقم ٢٨٦ .

(٦) في د : ووصف .

(٧) سورة الرعد ٣٠ .

(٨) فإنها علة غائية للعلة الفاعلية : في س فإنها علة فاعلية للعلة الغائية .

(٩) لابن تيمية قاعدة جليلة في معنى المحبة والارادة مصورة بمعهد المخطوطات العربية .

(١٠) ساقطة من د .

إلى الإله المعبود ، وقصدهم [إياه][1] لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة [به][2] والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والانابة اليه ، ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ، وقد أخبر عنهم أنه ﴿ لئِنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ليقُولُنَّ الله ﴾[3] . وأنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه ، وقال : « إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين »[4] ، فأخبر أنهم مقرون بربوبيته وأنهم مخلصون له الدين[5] إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم ، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول اغراضهم .

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا اليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال ، إنما توجههم الى الله من جهة ربوبيته ، لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون ، وهؤلاء من جنس الملوك . وقد ذم الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً ، فتدبر هذا فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق ويعملون عليها[6] وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية ، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة . وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به والله سبحانه أعلم[7] .

فصل[8] متصل بالذي قبله[9]

(الانسان ليس له في نفسه الا العدم)

وذلك أن الإنسان بل وجميع المخلوقات ، عباد الله تعالى فقراء ، مماليك له ، وهو ربهم

(١) اياه : ناقصة في الأصل ، وزيدت لحاجة السياق اليها .

(٢) به : زيادة في :س .

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٤) في د . واذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين .

(٥) الجملة فأخبر . . . له الدين . ساقطة من: د .

(٦) في د . ويعلمون علها .

(٧) انظر مثلاً الرسالة التدمرية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

(٨) كتب بهامش هذه الصفحة في : د ما يلي:

« هذا الفصل الى آخره تكلم عليه الشيخ عماد الدين الواسطي رحمه الله وناقش الشيخ في مواضع أبهمت على الشيخ عماد الدين شرحها له الشيخ تقي الدين رحمة الله عليهما فاعلم هذا ، كما كتب في مقابل كلمة فصل بالهامش عبارة : بلغ مقابلة .

(٩) العبارة : متصل بالذي قبله ساقطة من: س .

ومليكهم وإلههم ، لا إله هو ، فالمخلوق[1] ليس له من نفسه شيء اصلا بل نفسه وصفاته ، وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك ، إنما هو من خلق الله ، والله عز وجل رب ذلك كله ، ومليكه وبارئه ، وخالقه ومصوره ، وإذا قلنا ليس له من نفسه الا العدم ، فالعدم ليس هو شيئاً يفتقر الى فاعل موجود ، بل العدم ليس بشيء ، وبقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل ، لا أن عدم الفاعل يوجبه ويقتضيه ، ؛ كما يوجب الفاعل المفعول الموجود ، بل قد[2] يضاف عدم المعلول الى عدم العلة ، وبينهما فرق . وذلك المفعول الموجود إنما خلقه وأبدعه الفاعل ، وليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل ، فإنه يفضي الى التسلسل والدور ، ولأنه ليس اقتضاء احد العدمين للآخر بأولى من العكس ، فإنه ليس أحد العدمين مميزاً بحقيقة[3] استوجب بها أن يكون فاعلاً ، وإن كان يعقل أن عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس ، فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى ، صار العقل يضيف عدمه الى عدمه إضافة لزومية ، لأن عدم الشيء إما يكون لعدم المقتضى ، أو لوجود المانع ، وبعد قيام المقتضى ، لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو الحالتين ، فلما كان الذي انعقد سبب وجوده يعوقه المانع[4] المنافي ، وهو أمر موجود ، وتارة لا يكون سببه قد انعقد ، صار عدمه تارة ينسب الى عدم مقتضيه وتارة الى وجود مانعه ومنافيه ، وهذا معنى قول المسلمين « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن »[(5] فمشيئته موجبة للكائنات كلها ، وما لم يشأه لم يكن [5)] . إذ مشيئته هي الموجبة وحدها لا غيرها فيلزم من انتفائها انتفاؤه .

(لا يكون شيء حتى تكون مشيئته)[6]

لا يكون شيء بدونها بحال ، فليس لنا سبب يقتضي وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده ، بل مشيئته هي السبب الكامل . فمع وجودها لا مانع ومع عدمها لا مقتضى ﴿ ما يفتحِ الله للناسِ من رحمةٍ فلا مُمسِكَ لها وَمَا يُمسِكْ فلا مرسلَ لـهُ من بعدِهِ ﴾[7] . ﴿ وإن يمسَسْك الله بضرٍّ فلا كاشِفَ لهُ إلاَّ هُوَ وإنْ يُردك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله ﴾[8] . ﴿ قُلْ أَفرءيتُم ما تدعون من دونِ الله إنْ أرادني الله بضُر هل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ

---

(١) في د . فالمخلوقات .

(٢) قد : ساقطة من : د .

(٣) في س: لحقيقة .

(٤) في س: ويمنعه المانع .

(٥ ـ ٥) ساقطة من : س .

(٦) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٧) سورة فاطر : ٢ .

(٨) سورة يونس الآية ١٠٧.

أو أَرَادني برحمةٍ هَلْ هُنَّ ممسكاتُ رحمتِهِ قُلْ حسبيَ الله عليهِ يتوكَّلُ المتوكِّلُونَ ﴾[1] .

(الانسان ليس له من نفسه خير أصلاً)

وإذا عرف ان العبد ليس له من نفسه خير أصلاً ، بل ما بنا من نعمة فمن الله وإذا مسَّنا الضر فإليه نجأر والخير كله بيديه[2] والشر ليس اليه ، نحن به وإليه [2] ، كما قال : ﴿ ما أصابكَ من حسنةٍ فمن الله وما أصابكَ من سيئةٍ فمنْ نفسك ﴾[3] وقال : ﴿ أوَ لَمَّا أصابتكُمْ مصيبةٌ قد أصبتُمْ مثليها قلتُمْ أنَّى هذا قُلْ هُوَ من عندِ أنفسِكُمْ ﴾[4] وقال النبي ﷺ في سيد الاستغفار الذي في صحيح البخاري : «اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب الا انت »[5] وقال في دعاء الاستفتاح الذي في صحيح مسلم « لبيك وسعديك ، والخير بيدك والشر ليس اليك ، تباركت وتعاليت »[6] .

(الشر إما موجود وإما معدوم)

وذلك أن الشر إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، والمعدوم[7] سواء كان عدم ذات ، أو عدم صفة من صفات كمالها ، أو فعل من أفعالها ، مثل عدم الحياة أو العلم، أو السمع أو البصر أو الكلام ، أو العقل أو العمل الصالح على تنوع أصنافه ، مثل معرفة الله ومحبته وعبادته ، والتوكل عليه والإنابة اليه ، ورجائه[8] وخشيته ، وامتثال اوامره واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة ، من الأقوال والأفعال . فإن هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات ، لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا حتى يكون له باريء وفاعل فيضاف الى الله ، وإنما هو من لوازم النفس التي هي حقيقة الإنسان قبل أن تُخلق وبعد أن خُلقت ، فإنه قبل أن تخلق عدم مستلزم لهذا العدم ، وبعد أن خلقت ـ وقد خلقت ضعيفة ناقصة ـ، فيها النقص والضعف والعجز ، فإن هذه امور عدمية فأضيف الى النفس من

---

(٦) سورة الزمر الآية ٣٨.

(٢ ـ ٢) ساقط من: س.

(٣) سورة النساء ٧٩.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٥) ورد الحديث في: مسلم ٤٣٤/١ « كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه » ، وفي أبي داود : ٢٠١/١ « كتاب الصلاة . باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء » .

(٦) ورد الحديث في أبي داود ١٦٢/٢ « كتاب المناسك. باب التلبية » حديث رقم ١٨١٢ ، ابن ماجه ٩٧٤/٢ « كتاب المناسك . باب التلبية » ، ابن حنبل ٢/٣.

(٧) في س: فالمعدوم .

(٨) في د: ورجاؤه .

باب اضافة عدم المعلول الى عدم علته وعدم مقتضيه ، وقد تكون من باب إضافته الى وجود منافيه من وجه آخر سنبينه ان شاء الله تعالى .

(الشر لا ينسب الى الله)

ونكتة الأمر ان هذا الشر والسيئات العدمية ليست موجودة حتى يكون الله خالقها ، فإن الله [1] خالق كل شيء . والمعدومات تنسب تارة الى عدم فاعلها ، وتارة الى وجود مانعها ، فلا تنسب اليه هذه الشرور العدمية على الوجهين .

أما الأول : فلأنه الحق المبين ، فلا يقال عدمت لعدم فاعلها ومقتضيها .

وأما الثاني : وهو وجود المانع فلأن المانع إنما يحتاج اليه إذا وجد المقتضى . ولو شاء فعلها لما منعه مانع ، وهو سبحانه لا يمنع نفسه ما شاء فعله ، بل هو فعال لما يشاء ، ولكن الله [2] قد يخلق هنا[3] سبباً ومقتضياً ومانعاً[4] فان جعل السبب تاماً لم يمنعه شيء ، وإن لم يجعله تاماً منعه المانع لضعف السبب وعدم إعانة الله له ، فلا يعدم أمر الا لأنه لم يشأه ، كما لا يوجد أمر الا لأنه يشاؤه .

(السيئات العدمية تضاف الى العبد)

وإنما تضاف هذه السيئات العدمية الى العبد ، لعدم السبب منه تارة ، ولوجود المانع منه اخرى .

أما عدم السبب فظاهر ، فانه ليس منه قوة ولا حول ، ولا خير ولا سبب خير أصالة ، ولو كان شيء لكان سبباً ، فأضيف اليه لعدم السبب ، ولأنه قد صدرت منه أفعال كان سبباً لها باعانة الله له فما لم يصدر منه كان لعدم السبب .

وأما وجود المانع المضاد له المنافي ، فلأن نفسه قد[5] تضيق وتضعف وتعجز ان تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها ، متنافية في حقه ، فاذا اشتغل بسمع شيء أو بصره ، أو الكلام في شيء أو النظر فيه ، أو إرادته ، أو اشتغلت[6] جوارحه بعمل كثير[7] ، اشتغلت عن عمل

---

(١) في د: فإنه .

(٢) لفظ الجلالة ساقط من : د.

(٣) هنا : في س : هذا ، في د . هو .

(٤) سبباً ومقتضياً ومانعاً: في د : سبباً مقتضاؤه . مانع .

(٥) قد : ساقطة من : د .

(٦) في د : اذا اشتغلت .

(٧) في د : كبير .

آخر ، وان كان ذلك خيراً لضيقه وعجزه[1] فصار قيام احدى الصفات والأفعال به مانعاً وصاداً عن آخر . والضيق والعجز يعود الى عدم قدرته ، فعاد الى العدم الذي هو منه ، والعدم المحض ليس بشيء حتى يضاف الى الله تعالى .

(الشر الوجودي)

وأما إن كان الشر[2] موجوداً ، كالألم وسبب الألم ، فينبغي ان يعرف أن الشر الموجود ليس شراً على الإطلاق ، ولا شراً محضاً ، وإنما هو شر في حق من تألم به ، وقد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ، ولهذا جاء في الحديث الذي رويناه مسلسلاً « آمنت بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره » وفي الحديث الذي رواه أبو داود « لو أنفقت ملء الأرض ذهباً لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك [3] » .

فالخير والشر هما بحسب العبد المضاف اليه كالحلو والمر سواء ، وذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شراً ، ومن تنعم به فهو في حقه خير ، كما كان النبي ﷺ يعلم من قص عليه لأحد رؤيا أن يقول : « خيراً تلقاه وشراً توقاه خيراً لنا وشراً لأعدائنا » فانه اذا أصاب العبد شر يسر قلوب عدوه فهو خير لهذا وشر لهذا ، ومن لم يكن له ولياً ولا عدواً فليس في حقه لا خيراً ولا شراً وليس في مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائماً ، بل ولا ما يؤلم جمهورهم دائماً ، بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في اغلب الأوقات ، كالشمس والعافية ، فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقاً عاماً ، فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص ، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن ، وهو أغلب وجهيه كما قال تعالى : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شيءٍ خلقَهُ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ صُنْعَ الله الذي اتقنَ كلَّ شيءٍ ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وما خَلَقْنَا السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ ﴾[6] وقال : ﴿ ويتفكَّرونَ في خلقِ السَّموات والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً ﴾[7] .

---

(1) وان كان ذلك بصفة وعجزه : جاءت هذه الجملة في: د في عير وضعت بعد عبارة : وصادراً عن آخر في السطر التالي لها .

(2) في س: الشيء .

(3) ورد الحديث في أبي داود ٤/٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(4) سورة السجدة الآية ٧ .

(5) سورة النمل الآية ٨٨ .

(6) سورة الحجر الآية ٨٥ .

(7) سورة آل عمران الآية ١٩١ .

(لم يخلق الله شيئاً الا لحكمة)

وقد علم المسلمون ان الله لم يخلق شيئاً ما إلا بحكمة ، فتلك الحكمة وجه حُسنه وخيره ، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه [ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه] [1] ، وبهذا يظهر معنى قوله « والشر ليس اليك » .

وكون الشر لم يضف الى الله وحده ، بل إما بطريق العموم ، أو يضاف الى السبب ، أو يحذف فاعله ، فهذا الشر الموجود الخاص المقيد ، سببه إما عدم وإما وجود .

فالعدم مثل عدم شرط ، أو جزء سبب ، إذ لا يكون[2] سببه عدماً محضاً ، فإن العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجود ، ولكن يكون سبب الخير واللذة قد انعقد ولا يحصل الشرط فيقع الألم ، وذلك مثل عدم فعل الواجبات ، الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل عدم العلم ، الذي هو سبب ألم الجهل ، وعدم السمع والبصر والنطق ، الذي هو سبب الألم بالعمى والصمم والبكم ، وعدم الصحة والقوة ، الذي هو سبب الألم بالمرض[3] والضعف ، فهذه المواضع ونحوها يكون الشر أيضاً مضافاً الى العدم المضاف الى العبد ، حتى يتحقق قول الخليل : ﴿ وإذا مرضتُ فهُوَ يشفيني ﴾[4] فإن المرض وإن كان ألماً موجوداً فسببه ضعف القوة وانتفاء الصحة الموجودة ، وذلك عدم هو من الإنسان المعدوم بنفسه ، ويتحقق[5] قول الحق ﴿ وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسكَ ﴾[6] وقوله ﴿ قلتُمْ أَنَّى هذا ؟ قل هُوَ من عندِ أنفُسِكُمْ ﴾[7] ونحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب ، وكذلك أقوال الصحابي وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان .

يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان إنما يفعلها[8] العبد لجهله أو لحاجته ، فإنه إذا كان عالماً بمضرتها وهو غني عنها ، امتنع ان يفعلها ، والجهل أصله عدم . والحاجة أصلها العدم ، فأصل وقوع السيئات منه هو عدم العلم والغنى ، ولهذا يقول في القرآن : ﴿ ما كانُوا يستطيعونَ السَّمعَ ﴾[9] ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ﴿ إنهُمْ أَلَفوا آباءَهُمْ

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة في : س .

(٢) في د : أو لا يكون .

(٣) في س : والمرض .

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٠.

(٥) في س : ولا يتحقق . وهو خطأ واضح .

(٦) سورة النساء الآية ٧٩.

(٧) سورة آل عمران الآية ١٦٥ والجزء الأول من الآية (قلتم انى هذا) ساقطة من : د.

(٨) في د : والعصيان لنا يفعلها .

(٩) سورة هود الآية ٢٠.

ضالينَ * فهم على آثارِهِمْ يهرعُونَ ﴾[1] إلى نحو هذه المعاني .

(الشر الذي سببه الوجود)

وأما الوجود الذي هو[2] سبب الشر الموجود ، الذي هو خاص ، كالآلام مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار، والفسوق الذي هو فعل المحرمات ، ونحو ذلك ، فان ذلك سبب الذم والعقاب ، وكذلك تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم ، فهذا الوجود لا يكون وجوداً تاماً محضاً ، إذ الوجود التام المحض لا يورث الا خيراً كما قلنا ان العدم المحض لا يقتضي وجوداً ، بل يكون وجوداً ناقصاً ، إما في السبب ، وإما في المحل ، كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسبب عدم هذا العلم والقول[3] عدم أسبابه ، من النظر التام والاستماع التام لآيات الحق وإعلامه ، وسبب عدم النظر والاستماع ، إما عدم المقتضى فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس ، والله لا يحب كل مختال فخور ، وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحق ، فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

والحسد أيضاً سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه ، فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود[4] أو يتفضل عليه ، وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبائح ، إنما سببها حاجة النفس الى الاشتفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، وإلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك .

(الشر مصدره العدم)

والحاجة مصدرها العدم ، وهذا يبين ـ اذا تدبره الإنسان ـ ان الشر الموجود إن أضيف[5] الى عدم أو وجود ، فلا بد أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف الى عدم كمال السبب ، أو فوات الشرط ، وتارة يضاف الى وجود ويعبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص ، وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع . والمانع لا يكون مانعاً الا لضعف المقتضى .

وكل ما ذكرته واضح بين الا هذا الموضع ففيه غموض يتبين عند التأمل وله طرفان :

---

(١) سورة الصافات الآيات (٧٠ ـ ٧١) .

(٢) هو : ساقطة من : د.

(٣) والقول: ساقطة من: د.

(٤) في الأصل : كتبت هذه العبارة في : د هكذا . لأن تكافيه المحسود. الخ .

(٥) في س : إذا أضيف .

أحدهما : أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

والثاني : أن الموجود لا يكون سبباً للعدم المحض . وهذا معلوم بالبديهة أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود ، ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع [كما قال تعالى][1] ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالِقُون ﴾[2] يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا انفسهم ، ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس وضرب الأمثال[3] والاستدلال عليه ممكن ودلائله كثيرة ، والفطرة عند صحتها اشد اقراراً به ، وهو لها أبده ، وهي اليه أشد اضطراراً من المثال الذي يقاس به .

(اختلاف الأصوليين في العلة الشرعية)

وقد اختلف أهل الأصول في العلة الشرعية ، هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمي فيها[4] مع قولهم ان العدمى يعلل بالعدمى ؟ فمنهم من قال يعلل به ، ومنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من فصل بين ما لا يجوز أن يكون علة للوجود في قياس العلة ويجوز أن تكون علة له في قياس الدلالة فلا يضاف اليه في قياس الدلالة وهذا فصل الخطاب ، وهو أن قياس الدلالة يجوز ان يكون العدم فيه علة وجزءاً من علة ، لأن عدم الوصف قد يكون دليلاً على وصف وجودي يقتضي الحكم .

وأما قياس العلة فلا يكون العدم فيه علة تامة ، لكن يكون جزءاً من العلة التامة ، وشرطاً للعلة المقتضية التي ليست بتامة [وقلنا : جزء من العلة التامة وهو معنى كونه شرطاً في اقتضاء العلة الوجودية . وهذا نزاع لفظي فإذا حققت المعاني ارتفع][5] ، فهذا في بيان أحد الطرفين ، وهو أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

وأما الطرف الثاني[6] ، وهو أن الموجود لا يكون سبباً لوجود يستلزم عدماً ، فلأن العدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود ، بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ولأن السبب الوجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر ، بل إذا أثر الإعدام فالإعدام أمر وجودي فيه عدم ، فإن جعل الموجود معدوماً ،

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة في : س.

(٢) سورة الطور الآية ٣٥.

(٣) في س : المثال .

(٤) فيها : ساقطة من: د.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة في : س .

(٦) في س: وجوها.

والمعدوم موجوداً أمر معقول ، أما جعل المعدوم معدوماً فلا يعقل الا بمعنى الإبقاء على العدم ، والابقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل . والفرق معلوم بين عدم الفاعل وعدم الموجب في عدم العلة ، وبين فاعل العدم وموجب العدم وعلة العدم ، والعدم لا يفتقر الى الثاني بل يكفي فيه الأول ، فتبين بذلك الطرفان ، وهو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود ، لا يكون لوجود(١) ما لا سبباً ولا مسبباً ، ولا فاعلاً ولا مفعولاً أصلاً. فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم(٢) ، لا يكون سبباً لعدم أصلاً، ولا مسبباً عنه ، ولا فاعلاً له ولا مفعولاً .

أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولاً له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فإن كان سبباً لعدم محض، فالعدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود ، وان كان لعدم فيه وجود ، فذاك الوجود لا بد له من سبب ، ولو كان سببه تاماً وهو قابل لما دخل فيه عدم ، فإنه اذا كان السبب تاماً والمحل قابلاً وجب وجود المسبب ، فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو في المحل ، فلا يكون وجوداً محضاً ، فظهر أن السبب حسب(٣) تخلف حكمه ، ان كان لفوات شرط فهو عدم ، وان كان لوجود مانع فانما صار مانعاً لضعف السبب ، وهو أيضاً عدم قوته وكماله ، فظهر ان الوجود ليس سبب العدم المحض ، وظهر بذلك القسمة الرباعية وهي(٤) أن الوجود المحض لا يكون الا خيراً.

يبين ذلك أن كل شر في العالم لا يخرج عن قسمين . إما ألم ، وإما سبب الألم ، وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب ، والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم ، كما(٥) يكون سببه تفرق الاتصال ، وتفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذي بينهما ، وهو الشر والفساد .

وأما سبب الألم فقد قررت في قاعدة كبيرة . أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات(٦) وأن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات ، فصار أهل الذنوب عدم الواجبات ، وأصل الألم عدم الصحة ، ولهذا كان النبي ﷺ يعلمهم في خطبته الحاجة أن

---

(١) في د، الذي ليس شوب فيه عدم . والصحيح ما اثبتناه .

(٢) في س: حيث .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من : د .

(٤) في د . وهو .

(٥) في س : فكما .

(٦) انظر ما كتبه ابن تيمية في ذلك في رسالة الحسنة والسيئة ص ٩٢ ، وما بعدها .

يقولوا : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا »[1] . فيستعيذ[2] من شر النفس الذي نشأ عنها من[3] ذنوبها وخطاياها ، ويستعيذ[4] من سيئات الأعمال التي هي عقوباتها وآلامها ، فإن قوله : « ومن سيئات أعمالنا » قد يراد به السيئات في الأعمال ، وقد يراد به العقوبات ، فإن لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر ويراد به الأعمال السيئة ، قال الله تعالى ﴿ إنْ تمسسكُمْ حسنةٌ تسؤهُمْ وَإنْ تصِبْكُمْ سيئةٌ يفرحُوا بها ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿ وإنْ تصبُهُمْ سيِّئَةٌ بما قدَّمتْ أيديهِمْ فإنَّ الانسانَ كفُورٌ ﴾[6] ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال الشر والعقوبات الحاصلة بها ، فيكون مستعيذاً من نوعي السيئات ، الأعمال السيئة ، وعقوباتها . كما في الاستعاذة المأمور بها في الصلاة « أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »[5] فأمرنا بالاستعاذة من العذاب ، عذاب الآخرة ، وعذاب البرزخ ، ومن سبب العذاب ، ومن فتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، وذكر الفتنة الخاصة [بعد الفتنة العامة][6] ، فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما في الحديث الصحيح « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال »[7] .

فصل

(العبد وكل مخلوق فقير الى الله)

إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقير الى الله محتاج اليه ، ليس فقيراً الى سواه ، فليس هو

---

(١) هذا جزء من حديث قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته الحاجة وأورده الإمام أحمد بن حنبل في مسنده « ط دار المعارف » ٥/٢٧١ رقم ٣٧٢٠ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : علمنا خطبته الحاجة ، الحمد لله نستعيذه ونستهديه ونستغفره » الخ الخطبة ، وانظر الحديث رقم ٣٢٧٥ ، ٣٧٢١، ٤١١٥، ٤١١٦ .
وقال الأستاذ المحقق رحمه الله إن الحديث قد قد ذكره الترمذي في سننه وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وانظر الأذكار للنووي ، ص ٢٥٠ ، ابن ماجه ١/٦٠٩ ـ ٦١٠ ، وانظر تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم للحديث المذكور في كتاب جامع الرسائل لابن تيمية ، ص ١١٧ ت ٣ .

(٢) في : د فنستعيذ . . . . ونستعيذ .

(٣) من ساقطة في: د.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠ وفي الأصل « ان تصبكم حسنة » وصحة الآية ما أثبتناه .

(٥) سورة الشورى الآية ٤٨.

(٦) ورد الحديث في: مسلم ٤/٢٠٧٩ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب التعوذ من العجز والكسل وغيره) حديث رقم ٢٧٠٦ . ، النسائي ٨/٢٤٢ (كتاب الاستعاذة . باب الاستعاذة من فتنة القبر) ابن ماجه ٢/١٢٦٢ (كتاب الدعاء. باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ) .

(٦) ما بين المعقوفين زياد في : س .

(٧) ورد الحديث في: ابن ماجه ٢/١٣٥٩ (كتاب الفتن. باب فتنة المسيح الدجال وخروج عيسى بن مريم وياجوج وماجوج) حديث رقم ٤٠٧٧ « . . . منذ ذرا الله ذرية آدم أعظم من فتنة المسيح الدجال » .

مستغنياً بنفسه ولا بغير ربه ، فإن ذلك الغير فقير ايضاً محتاج الى الله ، ومن المأثور عن أبي يزيد[1] رحمه الله أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق ، كاستغاثة الغريق بالغريق . وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم ، فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحانه ﴿ من ذا الذي يشفعُ عندهُ إلَّا باذنِهِ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يشفعُونَ إلَّا لمن ارتَضَىٰ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وما هم بضارّينَ بهِ أحدٍ إلَّا بإذن الله ﴾[4] .

واسم العبد يتناول معنيين : أحدهما : بمعنى العابد كرهاً كما قال : ﴿ إن كل مَنْ في السَّمواتِ والأرض إلَّا آتى الرَّحمن عبداً ﴾[5] وقال ﴿ وله أسلمَ مَنْ في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[6] وقال : ﴿ بديعِ السَّمواتِ والأرض كلٌ لهُ قانتونَ ﴾[7] وقال : ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[8] .

والثاني : بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهذا هو المذكور في قوله ﴿ وعباد الرَّحمنِ الَّذينَ يمشونَ على الأرضِ هوناً ﴾[9] وقوله ﴿ عيناً يشربُ بها عبادُ الله يفجرونها تفجيراً ﴾[10] وقوله ﴿ إن عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان ﴾[11] وقوله ﴿ إلَّا عبادكَ منهم المخلصينَ ﴾[12] وقوله ﴿يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنونَ ﴾[13] وقوله

---

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي (أبو يزيد) نسبة الى بسطام، متصوف كبير ، اشتهر بالزهد والورع والعزوف عن الدنيا ، ويقال إنه أول من تكلم في الفناء بمعناه الصوفي . توفى سنة ٢٦١ هـ .
انظر عنه : طبقات الصوفية ، ص ٦٧ ـ ٧٤، وفيات الأعيان ١٠ ـ ٢٤٠ ، ميزان الاعتدال ، ١ ـ ٤٨١ ، خلية الأولياء ، ١٠ ـ ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٠٢ .
(٥) سورة مريم الآية ٩٣.
(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣.
(٧) سورة البقرة الآية ١١٧ .
(٨) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٩) سورة الفرقان الآية ٦٣.
(١٠) سورة الانسان الآية ٦ .
(١١) سورة الاسراء الآية ٦٥.
(١٢) سورة ص الآية ٨٣.
(١٣) سورة الزخرف الآية ٦٨.

﴿ واذكر عبادَنا ابراهيم واسحَق ويعقوبَ ﴾[1] وقوله : ﴿ فأوحىٰ الى عبدهِ ما أوحىٰ ﴾[2] قوله : ﴿ نعم العبدُ إنَّهُ أواب ﴾[3] وقوله : ﴿ سبحانَ الَّذي أسرىٰ بعبدهِ ليلاً ﴾[4] وقوله : ﴿ وإنَّه لما قامَ عبد الله يدعوهُ ﴾[5] وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة . وأما الأولى فوصف لازم إذا أريد بها جريان القدر عليه وتصريف الخالق له ، قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغونَ وَلَهُ أسلَم من في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعونَ ﴾[6] .

وعامة السلف على أن المراد بالإسلام استسلامهم له بالخضوع والذل ، لا مجرد تصريف الرب لهم ، كما في قوله : ﴿ لله يسجدُ منْ في السَّمواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[7] وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكل عبد لا بد له من ذلك ، وإن كان قد يعرض له أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل له ، لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة ، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كما قال : ﴿ وإذا مسَّ الانسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لجنبهِ أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرَّهِ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾[8] وقال : ﴿ وإذا مسكم الضُّر في البحرِ ضلَّ من تدعونَ إلَّا إياهُ فلما نجَّاكُمْ الىٰ البرِّ أعرضتُمْ وكانَ الإنسان كفوراً ﴾[9] .

وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هي آية[10] لخالقها وفاطرها، إذ لا قيام لها بدونه ، وإنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه عن قلوبهم ، وأيضاً : فالعبد مفتقر الى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب اجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبه ومراده ، ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا .

(المحبوب لذاته هو الله)

وأصل الحركات الحب ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكل من أحبَ مع الله شيئاً

---

(١) سورة ص الآية ٤٥ .

(٢) سورة النجم الآية ١٠ .

(٣) سورة ص الآية ٤٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية ١ .

(٥) سورة الجن الآية ١٩ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

(٧) سورة الرعد الآية ١٥ .

(٨) سورة يونس الآية ١٢ .

(٩) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(١٠) في س : انها .

فهو مشرك ، وحبه فساد ، وانما الحب الصالح النافع حب الله ، والحب لله ، والإنسان فقير ألى الله من جهة عبادته له ، ومن جهة استعانته به ، بالاستسلام[1] والانقياد لمن أنت اليه فقير وهو ربك وإلهك ، وهذا العمل هو[2] أمر فطري ضروري ، فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها وتذل لمن افتقرت إليه ، وغناه من الصمدية التي انفرد بها ، فإنه يسأله من السموات والأرض ، وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة اليه فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه ، فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب اليه[3] وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه ، فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئة الله ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة اليه فقيرة إليه مسلمة له طوعاً وكرهاً ، فإذا شهد العبد ذلك وأسلم له وخضع ، فقد آمن بربوبيته ورأى حاجته وفقره اليه ، وصار سائلاً له متوكلاً عليه ، مستعيناً به إما بحاله وإما بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته .

(أنواع مسألة العبد لربه)

ثم هذا المستعين به السائل له ، إما أن يسأل ما هو مأمور به ، أو ما هو منهى عنه ، أو ما هو مباح له .

فالأول حال المؤمنين السعداء الذين حالهم ﴿إياك نعبد واياك نستعين﴾ .

والثاني حال الكفار والفساق والعصاة ، الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال : ﴿ وما يؤمنُ أكثرهُمْ بالله إلاَّ وهم مشركونَ ﴾[4] فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون في عبادته ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين الخزاعي : « يا حصين كم تعبد » ؟

قال : سبعة آلهة، ستة في الأرض وواحداً في السماء .

قال : فمن الذي لرغبتك ورهبتك ؟

قال : الذي في السماء .

قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها ، فأسلم فقال : قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي »[5] رواه أحمد وغيره . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا سألكَ عبادي

---

(١) في س : للإستسلام .

(٢) هو : ساقطة من : س .

(٣) اليه : ساقطة من : د .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٥) رواه الامام احمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٣٥٤ .

عنِي فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنُوا بي لعلَّهُمْ يرشُدُونَ ﴾[1] أخبر سبحانه أنه قريب من عباده ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . فهذا إخبار عن ربوبيته لهم وإعطائه سؤلهم ، وإجابة دعائهم . فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفسَّاقاً أو عصاة ، قال تعالىٰ : ﴿ وإذا مسَّكُمْ الضُرُّ في البحرِ ضلَّ مَنْ تدعوْن إلاَّ إيَّاهُ فلما نجَّاكُمْ إلىٰ البرِّ أعرضتُمْ وكانَ الإنسانُ كفوراً ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبِهِ أو قَاعِداً أو قائماً فلما كشفنَا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يدعُنَا الى ضرٍّ مسَّهُ كذلكَ زين للمسرفينَ ما كانوا يعملون[3] ونظائره في القرآن كثيرة .

ثم أمرهم بأمرين فقال : فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون .

فالأول : أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة .

والثاني : الإيمان بربوبيته وألوهيته وأنه ربهم وإلههم ، ولهذا قيل : اجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال الطاعة ، لأنه عقب آية الدعاء بقوله « فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي » .

والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته ، وأما إجابة دعائه وإعطاؤه سؤله ، فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة . قال : تعالى : ﴿ ويدعو الإنسان بالشّرِ دعاءَهُ بالخيرِ وكانَ الإنسانُ عجولاً ﴾[4] وقال تعالى : « ولو يعجل الله النَّاسِ الشرَّ استعجالهم بالخير لقضىَ اليهم أجلهم ﴾[5] وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذ قالوا اللهمَّ إنْ كانَ هذا هو الحقَّ من عندِكَ ، فأمطِرْ علينَا حِجارةً من السَّماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾[6] وقال : ﴿ إنْ تستفتحُوا فقد جاءَكُمْ الفتحُ وإن تنتهوا فهوَ خيرٌ لكم ﴾[7] وقال : ﴿ ادعوا ربَّكم تضرعاً وخفيةً إنَّهُ لا يُحبُّ المعتدينَ ﴾[8] وقال: ﴿ واتلُ عليهم نبأَ الَّذينَ آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكَانَ من الغاوينَ * ولو شِئنَا لرفعناهُ بها ولكنهُ أخلَدَ إلىٰ الأرضِ واتَّبعَ هواهُ ﴾[9] الآية ، وقال « فمن حاجَّكَ فيهِ من بعد ما جاءكَ مِنَ العلمِ فقلْ تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءَكم ونساءَنا

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧ .
(٣) سورة يونس الآية ١٢ .
(٤) سورة الاسراء الآية ١١ .
(٥) سورة يونس الآية ١١ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٣٢ .
(٧) سورة الأنفال الآية ١٩ .
(٨) سورة الأعراف الآية ٥٥ .
(٩) سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمَّ نبتهلْ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبينَ ﴾[1] وقال النبي ﷺ لما دخل على أهل جابر فقال : (لا تدعوا على أنفسكم الا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)[2] .

فصل

فالعبد كما أنه فقير الى الله دائماً في إعانته وإجابة دعوته واعطاء سؤاله وقضاء حاجته فهو فقير اليه في أن يعلم ما يصلحه وما هو الذي يقصده ويريده ، وهذا هو الأمر والنهي والشريعة ، والا فاذا قضيت حاجته التي طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له ، كان ذلك ضررا عليه . وإن كان في الحال له فيه لذة[3] ومنفعة ، فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة ، وهذا قد عرَّفه الله عباده برسله وكتبه ، علموهم وزكوهم وأمروهم بما ينفعهم ونهوهم عما يضرهم . وبينوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو وحده لا شريك له . كما أنه هو ربهم وخالقهم ، وأنهم ان تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسراناً مبيناً ، وضلوا ضلالاً بعيداً . وكان ما أوتوه من قوة ومعرفة وجاه ومال وغير ذلك . وان كانوا فيه فقراء الى الله مستعينين به عليه . مقرين بربوبيته ، فانه ضرر عليهم ولهم بئس المصير وسوء الدار .

وهذا هو الذي تعلق به الأمر الديني الشرعي [والإرادة الدينية الشرعية ، كما تعلق بالأولى الأمر الكوني القدري][4] والارادة الكونية القدرية والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة والهداية فانه بين لهم هداهم بارسال الرسل وانزال الكتب ، واعانهم على اتباع ذلك، علماً وعملاً ، كما من عليهم وعلى سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم ، ومن على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهم وحاجتهم اليه ، وأعطاهم سؤالهم وأجاب دعاءهم قال تعالى : ﴿ يسألُه من في السَّمواتِ والأرض كل يومٍ هوَ في شأن ﴾[5] فكل أهل السموات والأرض يسألونه فصارت الدرجات أربعة .

قوم لم يعبدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم .

وقوم استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

وقوم طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦١ .

(٢) ورد الحديث في مسلم ٢/٦٣٤ « كتاب الجنائز . باب إغماض الميت والدعاء له إذا حضر » حديث رقم ٢٩٠ .

(٣) في د: وإن كان في الحال له في لذة .

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة في : س .

(٥) سورة الرحمن الآية ٢٩ .

والصنف الرابع الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد بين سبحانه ، ما خص به المؤمنين في قوله : ﴿ حببَ إليكم الإيمانَ وزينةُ في قلوبكم وكرَّهَ اليكم الكفرَ والفسوق والعصيان أولئكَ هم الرَّاشدونَ ﴾(١) والحمد لله رب العالمين وصلى الله على أفضل المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين (٢) .

قال شيخ الإسلام
ابو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى

فصل

والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم . فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء ، فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين ، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية .

وأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها ، كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به ؛ فإن ﴿ الصراط المستقيم ﴾ أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا يفعل ما نهى عنه ، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور ، فهذا العلم المفصل والارادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد ، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والارادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم .

نعم ! حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسول حق ، ودين الاسلام حق ، وذلك حق ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه ان لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم .

والإنسان خلق ظلوماً جهولاً ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧ .

(٢) إلى هنا انتهت نسخة دار الكتب فيما يختص الفاتحة ، والتكملة من نسخة س .

جهله ، وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿ إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ ويهديك صِراطاً مستقيماً ﴾ فاذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

و ﴿ الصراط المستقيم ﴾ قد فسر بالقرآن ، وبالاسلام ، وطريق العبودية وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فـ « القرآن » مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونواهي وأخبار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها ، وكذلك « الاسلام » ، وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك « العبادة وما اشتملت عليه » .

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه ، بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فإذا انقطع رزقه مات ، والموت لا بد منه ، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية .

وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً وكان القتل من تمام النعمة ، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق : بل لا نسبة بينهما ، لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿ وَمَنْ يتق الله يجعل لهُ مخرجاً ، ويرزقهُ من حيثُ لا يحتسبُ ﴾[2] وكان ممن ينصر الله ورسوله ومن نصر الله نصره الله ، وكان من جند الله ، وهم الغالبون ، ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض .

و «ايضاً»فإنه يتضمن الرزق والنصر،لأنه إذا هدى ،ثم أمر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيته فالهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر ، فتبين ان هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ، وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها ، وأما فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فاذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم .

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) أول سورة الفتح .

(٢) سورة الطلاق الآيات (٢ ، ٣) .

[تفسير سورة البقرة]

أولاً ! (عرض مجمل لما تضمنته السورة من معاني)

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــل

وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه « سورة البقرة » من تقرير أصول العلم وقواعد الدين : ان الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ، ثم الكافرين ، ثم المنافقين . فهذه « جمل خبرية »(١) ثم ذكر « الجمل الطلبية » فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقاً للعباد(٢) ، ثم قرر « الرسالة »(٣) وذكر « الوعد ، والوعيد »(٤) ثم ذكر مبدأ « النبوة والهدى » وما بثه في العالم من الخلق والأمر(٥) ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم(٦) ، فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ؛ ، فقص جنس دعوة الأنبياء .

ثم انتقل إلى خطاب بني اسرائيل وقصة موسى معهم(٧) ، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ

---

(١) اقرأ الآيات من ١ ـ ٢٠ من السورة .

(٢) اقرأ الآيات من ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) اقرأ الآية ٢٣ .

(٤) اقرأ الآية ٢٤ .

(٥) اقرأ الآيات من ٢٥ ـ ٢٩ .

(٦) اقرأ الآيات من ٣٠ ـ ٣٨ . فهي متضمنة لقصة آدم .

(٧) استغرقت قصة بني إسرائيل مع موسى عدداً كبيراً من الآيات الكريمة في هذه السورة . فشملت الآيات من ٤٠ ـ ١٠٥ . وبدأت بتذكير الله لبني إسرائيل بنعمه الكثيرة وبفضله عليهم ، ونجاتهم من فرعون وبطشه ، وفلق البحر لهم . ثم رجوعهم إلى عبادة العجل وتوبيخ موسى لهم على ذلك . ثم ذكرت الآيات إظلال الغمام لهم وعيشهم في رغد ونعيم وأكلهم الطيب ، ثم ذكرت استسقاء موسى لهم وانفلاق الحجر وخروج الماء منه معجزة لموسى . وأمر موسى لهم بذبح =

هو قرين محمد ، فذكر آدم الذي هو اول،وموسى الذي هو نظيره ، وهما اللذان احتجا[1] ، وموسى قتل نفساً فغفر له ، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه ، وكان في قصة موسى رد على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به ، وقد يتأولون أخبار الأنبياء ، وفيها رد على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، وتقرير نبوته ، وذكر حال من عدل عن النبوة الى السحر ، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم[2] وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم [3] كل هذا في تقرير اصول الدين من الوحدانية والرسالة .

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الاسلام التي على ملة إبراهيم ، فذكر ابراهيم الذي هو إمام ، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم ، وذكر استقباله[4] ، وقرر ذلك ، فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم ؛ ولهذا يقال : أهل القبلة ، كما يقال : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم »[5] .

وذكر من « المناسك » ما يختص بالمكان ، وذلك أن الحج له مكان وزمان ، و « العمرة »

= البقرة وسؤالهم عنها وعن لونها . ثم تحريفهم الكتاب عن مواضعه واشترائهم به ثمناً قليلاً وقولهم هو من عند الله وما هو من عند الله . ثم بدأت الآيات تصف نفوس بني اسرائيل وقلوبهم وأنهم لا عهد ولا أمان لهم ، ثم ختمت القصة بذكر الوعيد لهم جزاء موقفهم من الأنبياء وقتلهم العديد منهم . وذكر خلال هذه القصة من الآيات ما يقرر جنس النبوة التي يتشرف بها كل الأنبياء . ومنهم آدم الذي سبق ذكر قصته في أول السورة . ثم موسى الذي تحاج معه. ثم محمد الذي سبقت هذه الآيات بما اشتملت عليه من قصص الأنبياء لتقرير نبوته هو . وأنه فيما يأتي قومه به من آيات ومعجزات ودعوة إلى الله من نظير آدم وموسى السابقين عليه ، ودعوته من جنس دعوتهم .

(١) يشير بذلك ابن تيمية الى الحديث الذي احتج فيه موسى على آدم بسبب أكله من الشجرة والحديث ثابت في الصحيحين ، للبخاري ومسلم ، وفيه احتج آدم وموسى : فقال موسى يا آدم أنت أبو البشر ، الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ .

فقال آدم : انت موسى الذي كلمك الله تكليما ، وكتب لك التوراة . فبكم تجد فيها مكتوباً وعصى آدم ربه فغوى قبل أن أخلق ؟ .

قال : بأربعين سنة .

قال : فحج آدم موسى ، ولابن تيمية رسالة مستقلة من الاحتجاج بالقدر ، وانظر البخاري ١٥٧/٧ (كتاب القدر . باب تحاج آدم وموسى عند الله) .

(٢) اقرأ الآية رقم ١٠٦ .

(٣) اقرأ الآية رقم ١٢٠ .

(٤) استغرقت قصة إبراهيم وبناء البيت مع ابنه اسماعيل وتقرير دعوة الرسل ووصيتهم الآيات من ١٢٤ ـ ١٣٣ .

(٥) ورد الحديث في البخاري (كتاب الصلاة ، باب فضل استقبال القبلة) وهو من رواية أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، ولفظه « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته » .

وانظر أيضاً : الترمذي (كتاب الإيمان) ، النسائي (كتاب التحريم) ، ابن حنبل ١٩٩/٣ .

لها مكان فقط ، والعكوف والركوع والسجود شرع فيه ، ولا يتقيد به ؛ ولا بمكان ، ولا بزمان ، لكن الصلاة تتقيد باستقباله . فذكر سبحانه هذه الانواع الخمسة : من العكوف ، والصلاة ، والطواف ، والعمرة ، والحج ، والطواف يختص بالمكان فقط ، ثم أتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين وأنه لا جناح فيه جواباً لما كان عليه الانصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما لاجل إهلالهم لمناة ، وجواباً لقوم توقفوا عن الطواف بهما(١) .

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت ـ بل وبالقلوب والابدان والأموال ـ بعدما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما ، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر ، لأن ذلك من تمام أمر البيت ، لأن أهل الملل لا يخالفون فيه ، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه ، وذكر الصبر على المشروع والمقدور ، وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين(٢) . فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها ، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ، ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما في سبيل الله فأما الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنص والاجماع ، وكذلك الحج في الأصح كما قال : « الحج من سبيل الله »(٣) .

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بذمه لكاتم العلم ، ثم ذكر أنه لا يقبل ديناً غير ذلك . ففي أولها : ﴿ فلا تجعلوا للهِ أنداداً ﴾ . وفي أثنائها : ﴿ ومن النَّاسِ من يتخذ من دونِ الله أنداداً ﴾ فـ « الأول » نهي عام و« الثاني » نهي خاص ، وذكرها بعد البيت لينتهي عن قصد الأنداد المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ، ووحد نفسه قبل ذلك ، وأنه ﴿ لا إله إلا هوَ الرحمن الرحيم ﴾ ، ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات(٤) .

ثم ذكر الحلال والحرام ، وأطلق الأمر في المطاعم ، لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت ، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة(٥) ، وفي الدماء بما شرعه من القصاص ، ومن

---

(١) ذكرت هذه العبادات الخمس وما يتعلق بها في الآيات من رقم ١٤٤ ـ ١٥٨ ، حيث يذكر الطواف بين الصفا والمروة وأن ذلك من شعائر الله .

(٢) اقرأ الآية ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) في البخاري ٢/١٦٤ (كتاب الحج . باب فصل الحج المبرور) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله ، الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ، قال :لا ، لكُنّ أفضل الجهاد حج مبرور »، وانظر أيضاً البخاري (كتاب الجهاد) .

(٤) جاء ذلك في الآيات من ١٦٣ ـ ١٦٧ .

(٥) جاء ذلك في الآية رقم : ١٧٢ ، ١٧٣ .

أخذ الدية[1] ، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان ، فذكر الوصية المتعلقة بالموت[2] ، ثم الصيام المتعلق برمضان ، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوباً بوقت الصيام ، ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة ، لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام ، والصلاة تشرع في جميع الأرض ، والعكوف بينهما[3] .

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الاموال بالباطل[4] ، وأخبر أن المحرم « نوعان » : نوع لعينة كالميتة ، نوع لكسبه كالربا والمغصوب ، فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه ، وذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقل ، الحرام المنتقل ، ولهذا اتبعه بقوله : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ الآية ، وهي أعلام العبادات الزمنية ، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لان البيت تحجه الملائكة والجن ، فكان هذا أيضاً في أن الحج موقت بالزمان كأنه موقت بالبيت المكاني ، ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة .

وذكر « المحصر » وذكر تقديم الإحلال المتعلق بالمال وهو الهدى على الإحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق ، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ، ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطء فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحظور سواه .

وذكر « التمتع بالعمرة إلى الحج » لتعلقه بالزمان مع المكان فإنه لا يكون متمتعاً حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج . وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام ـ وهو الأفقي ـ فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه ، أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ، ثم ذكر وقت الحج ، وأنه أشهر معلومات ، وذكر الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ، فإن هذا مختص بزمان ومكان ، ولهذا قال : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ولم يقل : ﴿ والعمرة ﴾ لأنها تفرض في كل وقت ، ولا ريب أن السُّنة فرض الحج في أشهره ، ومن فرض قبله خالف السُّنة ، فأما أن يلزمه ما التزمه كالنذر ـ إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت ـ وإما أن يلزم الاحرام ويسقط الحج ويكون معتمراً وهذان قولان مشهوران .

ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره وقضائها ـ والله أعلم ـ قضاء التفث والإحلال ، ولهذا

---

(١) جاء ذلك في الآية رقم ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) اقرأ الآية رقم : ١٨٠ .

(٣) استغرق الحديث عن فريضة الصيام الآيات من ١٨٣ ـ ١٨٧ .

(٤) جاء ذلك في الآية ١٨٩ .

قال بعد ذلك : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ وهذا أيضاً من العبادات الزمانية المكـانية . وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ، ودل على أنه مكـاني قولـه : ﴿ فمن تعجل في يومين ﴾ الآية ، وإنما يكـون التعجيل والتـأخير في الخـروج من المكان ، ولهـذا تضاف هـذه الأيام إلى مكانها فيقال : أيام منى ، وإلى عملها فيقال : أيام التشريق ، كما يقال : ليلة جمـع ، وليلة مـزدلفة ، ويـوم عرفـة ،ويوم الحج الأكبـر ، ويوم الجمعـة فتضاف إلى الأعمـال وأمـاكن الأعمال ، إذ الزمان تابع للحركة ، والحركة تابعة للمكان[1] .

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض ، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في مـوضعين : مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه ، ومـوضع ذكـر فيه الأهلة فـذكر مـا يتعلق بزمـانه ، وذكـر أيضاً القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام لأن ذلك مما يتعلق بالـزمان المتعلق بـالمكان ، ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج .

وذكر أن « البر » ليس أنه يشقى الرجل نفسه ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيتـه حتى إذا أراد دخول بيتـه لا يأتيـه إلا من ظهره فـأخبر أن الهـلال الذي جعل ميقاتاً للحج شـرع مثل هـذا ، وإنما تضمن شـرع التقوى ، ثم ذكـر بعد ذلـك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات[2] ، وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والـديون وغـير ذلك[3] ، ثم ختمها بالـدعاء العـظيم المتضمن وضع الآصـار ، والأغلال ، والعفـو ، والمغفرة ، والـرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين ، الذي هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين[4] .

والحمد لله رب العالمين ؟

---

(١) استغرق الحديث عن فريضة الحج والعمرة ، وشروطها وأركانها وأحوال الحج من إفراد أو قران وغير ذلك ، الآيات من : ١٩٦ ـ ٢٠٣ .

(٢) جاء ذلك في الآيات من ٢٢١ ـ ٢٤١ حيث ذكر فيها أحكام النكاح والخطبة والطلاق وما يتعلق بها من أحكام .

(٣) جاء ذلك في الآيات من ٢٦١ ـ ٢٨٣ .

(٤) وهـو قولـه عز شـأنه : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لهـا ما كسبت وعليهـا ما اكتسبت ربنـا لا تؤاخـذنـا إن نسينـا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

ثانياً ـ (دقائق تضمنتها السورة)

قال شيخ الإسلام

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب التفسير » إلا ما هو خطأ :

منها قوله : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ الآية ، ذكر أن المشهور أن ﴿ السيئة ﴾ الشرك ، وقيل الكبيرة يموت عليها . قاله عكرمة ، قال مجاهد : هي الذنوب تحيط بالقلب .

قلت : الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها [ما هو] ضعيف فالحجة تبين ضعفه ، فلا يعدل عن ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة ، وهم ينقلون عن بعض السلف أن هذه الآية أخطأ فيها الكاتب كما قيل في غيرها ، ومن أنكر شيئاً من القرآن بعد تواتره استتيب ، فإن تاب وإلا قتل ، وأما قبل تواتره عنده فلا يستتاب ، لكن يبين له ، وكذلك الأقوال التي جاءت الأحاديث بخلافها : فقهاً ، وتصوفاً واعتقاداً ، وغير ذلك .

وقول مجاهد صحيح ، كما في الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء »[1] الخ .

والذي يغشى القلب يسمى « ريناً » و « طبعاً » و « ختماً » و « قفلاً » ونحو ذلك ، فهذا ما أصر عليه . و « إحاطة الخطيئة » إحداقها به فلا يمكنه الخروج [عنها] ، وهذا هو البسل بما كسبت نفسه ، أي : تحبس عما فيه نجاتها في الدارين ، فإن المعاصي قيد وحبس لصاحبها عن الجولان في فضاء التوحيد ، وعن جني ثمار الأعمال الصالحة .

ومن المنتسبين إلى السنة من يقول : إن صاحب الكبيرة يعذب مطلقاً والأكثرون على

---

(١) ورد الحديث في ابن حنبل ٢/٢٩٧ ، ابن ماجه (كتاب الزهد) ، وبلفظ مختلف في : مسلم (كتاب الإيمان) الترمذي (كتاب التفسير ـ تفسير سورة الانفطار) .

خلافه ، وان الله سبحانه يزن الحسنات والسيئات وعلى هذا دل الكتاب والسنة وهو معنى الوزن ، لكن تفسير السيئة بالشرك هو الأظهر لأنه سبحانه غاير بين المكسوب والمحيط ، فلو كان واحداً لم يغاير ، والمشرك له خطايا غير الشرك أحاطت به لأنه لم يتب منها .

و « أيضاً » قوله : ﴿ سيئة ﴾ نكرة ، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق .

و « أيضاً » لفظ ﴿ السيئة ﴾ قد جاء في غير موضع مراداً به الشرك ، وقوله : ﴿ سيئة ﴾ أي حال سيئة أو مكان سيئة ونحو ذلك ، كما في قوله : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ أي حالاً حسنه تعم الخير كله ، وهذا اللفظ يكون صفة ، وقد ينقل من الوصفية إلى الاسمية ، ويستعمل لازماً أو متعدياً يقال : ساء هذا الأمر أي قبح ، ويقال : ساءني هذا ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ عملوا الشرك ، لأنه وصفهم بهذه فقط ، ولو آمنوا لكان لهم حسنات ، وكذا لما قال : ﴿ كسب سيئة ﴾ لم يذكر حسنة كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ أي فعلوا الحسنى ، وهو ما أمروا به ، كذلك ﴿ السيئة ﴾ تتناول المحظور فيدخل فيها الشرك .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــل

﴿ في معنى لفظ الغيب والشهادة ﴾

قال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنَا فوقكم سبعَ طرائقَ ، وما كنَّا عن الخلقِ غافلينَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ، ولنسألنَّ المرسلينَ ، فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ وما كنَّا غائبينَ ﴾ (٢) وقد قال تعالى : ﴿ الَّذينَ يؤمنُونَ بالغيبِ ﴾ (٣) قال طائفة من السلف : « الغيب » هو الله ، أو من الإيمان بالغيب الايمان بالله . ففي موضع نفى عن نفسه أن يكون غائباً ، وفي موضع جعل نفسه غيباً .

ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة ، فطائفة من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم -

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٧ .

(٢) سورة الأعراف الآيات (٦ - ٧) .

(٣) سورة البقرة الآية ٣ .

كالقاضي وابن عقيل (١) وابن الزاغوني (٢) - يقولون : بقياس الغائب على الشاهد ، ويريدون بالغائب الله ، ويقولون : قياس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعلة والدليل والشرط . كما يقولون في مسائل الصفات في إثبات العلم والقدرة والارادة وغير ذلك . وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد في رسالته إلى أهل رأس العين ، وقال : لا يسمى الله غائباً واستدل بما ذكر .

وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم « الغيب ، والغائب » من الأمور الإضافية يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليس هو غائباً وإنما [لما] لم يره العباد كان غيباً ، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب ، فإن « الغائب » اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب ، وأما « الغيب » فهو مصدر غاب يغيب غيباً ، وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور ، وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الأمير .

ولهذا يقرن الغيب بالشهادة ، وهي أيضاً مصدر ، فالشهادة هي المشهود أو الشاهد ، والغيب هو إما المغيب عنه فهو الذي لا يشهد نقيض الشهادة ؛ وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهده فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه على النسبة إلى الغير أي ليس هو بنفسه غائباً ، وإنما غاب عن الغير أو غاب الغير عنه .

وقد يقال اسم « الشهادة ، والغيب » يجمع النسبتين ، فالشهادة ما شهدنا وشهدناه ، والغيب ما غاب عنا وغبنا عنه فلم نشهده ، وعلى كل تقدير فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهودنا له ، وهذه تسمية قرآنية صحيحة ، فلو قالوا : قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة موافقة ، وأما قياس الغائب ففيه مخالفة في ظاهر اللفظ ولكن موافقة في المعنى ، فلهذا حصل في إطلاقه التنازع .

---

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي المعروف بأبي الوفاء ، من كبار الحنابلة المجتهدين الذين خالفوا المذهب ولجأوا إلى التأويل مثل ابن الجوزي ، كان محباً للحلاج فنفر منه الحنابلة وأرادوا قتله ، ولد سنة ٤٣١ ، وتوفي سنة ٥١٣ هـ . انظر عنه : الذيل لابن رجب ١/١٤٢ - ١٦٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤/٣٥ - ٤٠ ، لسان الميزان ٤/٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ الاعلام ٥/١٢٩ ، وانظر بروكلمان GAL الملحق ٣ / ٥٠٢

(٢) هو على بن عبد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني . ولد سنة ٤٥٥ وتوفي سنة ٥٢٧ - من كبار الحنابلة ، انظر ترجمة الذيل على طبقات الحنابلة١ / ١٨٠ - ١٨٤ ، شذرات الذهب ٤/ ٨٠ - ٨١ ، المنظم لابن الجوزي ١٠ / ٣٢ ، الباب لابن الأثير : ١ / ٤٨٩ ؛ الاعلام : ٥ / ١٢٤ - ١٢٥ .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــل

(في قياس التمثيل وقياس الشمول)

المثل في الأصل هو الشبيه وهو نوعـان : لأن القضية المعينـة إما أن تكـون شبهاً معينـاً أو عاماً كلياً ، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتقال وهي مطابقة مماثلة لكل ما يندرج فيهـا ، وهذا يسمى قياس في لغة السلف واصطلاح المنطقيين، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين أيضاً يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء ، وهو الذي يسمى قياس التمثيل .

ثم من متـأخري العلماء ـ كالغزالي (١) وغيـره ـ من ادعى أن حقيقة القياس إنما يقـال عـلى هذا ، وما يسميه تأليف القضايا الكليـة قياسـاً فمجاز من جهـة أنه لم يشبـه فيه شيء بشيء ، وإنما يلزم من عموم الحكم تساوي أفراده فيه ، ومنهم من عكس كأبي محمد بن حزم (٢) ، فإنه زعم أن لفظ القياس إنما ينبغي أن يكون في تلك الأمور العامة وهو القياس الصحيح .

والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن ، كـما سأذكـره إن كليهما قيـاس وتمثيل واعتبار ، وهو في قياس التمثيل ظاهر ، وأما قياس التكليل والشمـول فلأنـه يقاس كـل واحـد من الأفراد بـذلك المقيـاس العام الثـابت في العلم والقول ، وهـو الأصل ، كـما يقـاس الواحد بالأصل الـذي يشبهه ، فـالأصل فيهـا هو المثـل ، والقياس هـو ضرب المثـل ، وأصله ـ والله أعلم ـ تقديره ، فضرب المثل للشيء تقديره له ، كما أن القيـاس أصله تقديـر الشيء ، ومنه ضرب الدرهم وهو تقديره ، وضرب الجزيـة والخراج وهـو تقديـرهما ، والضـريبة المقـدرة والضرب في الأرض ، لأنه يقدر أثر الماشي بقدره ، وكذلك الضـرب بالعصى لأنـه تقديـر الألم بالآلة ، وهـو جمعه وتـأليفه وتقـديره ، كـما أن الضريبـة هي المال المجمـوع والضريبـة الخلق ، وضرب الدرهم جمع فضة مؤلفـة مقدرة ، وضـرب الجزيـة والخراج إذا فـرضه وقـدره على مـر السنين ، والضرب في الأرض الحركات المقدرة المجموعة الى غاية محددة ، ومنه تضريب الثـوب المحشو وهو تأليف خلله طرائق طرائق .

ولهذا يسمون الصورة القياسية الضرب ، كما يقال للنوع الواحد ضرب لتـألفه واتفـاقه ، وضرب المثل لما كان جمعاً بين علمـين يطلب منهـا علم ثالث كـان بمنزلـة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب الى ناتج وعقيم كـما ينقسم ضرب الفحـل للأنثى الى

---

(١) أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) محمد بن محمد بن محمد من أشهر رجال الاشاعرة توفي سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد من كبار علماء الأندلس توفي سنة ٤٥٦ -٨ وهو غني عن التعريف به .

ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعي ضرب المثل ـ وهو القياس ـ تارة يراد به التصوير وتفهيم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصديق به ، فقياس تصور وقياس تصديق فتدبر هذا .

(نوعا قياس التمثيل)

وكثيراً ما يقصد كلاهما ، فان ضرب المثل يوضح صورة المقصود وحكمه . وضرب الأمثال في المعاني نوعان هما نوعا القياس :

(النوع الأول)

« أحدهما » : الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر ، وهي في القرآن بضع وأربعون مثلا ، كقوله : ﴿ مثلهُمْ كمثلِ الَّذي استوْقدَ ناراً ﴾ (١) إلى آخره وقوله : ﴿ مثلُ الَّذينَ ينفقونَ أموالهم في سبيلِ اللهِ كمثلِ حبةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ في كلِّ سنبلةٍ مائة حبةٍ ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطِلُوا صدقاتكم بالمنِّ والأذىٰ كالَّذي يُنفِقُ مالهُ رئاءَ النّاسِ ، ولا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر ، فمثلهُ كمثلِ صفوانٍ عليه تراب ﴾ (٣) الآية ﴿ ومثلُ الَّذين ينفقونَ أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً من أنفسهِمْ كمثلِ جنةٍ بربوةٍ أصابَها وابلٌ ، فآتت أكُلَهَا ضعفينِ ﴾ (٤) .

فان التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل ، الذي يقال فيه : مثل الذي يقتل بكودين القصار كمثل الذي يقتل بالسيف ، ومثل الهرة تقع في الزيت كمثل الفأرة تقع في السمن ونحو ذلك ، ومبناه على الجمع بينهما ، والفرق في الصفات المعتبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه ، وقوله : مثله كمثل كذا . تشبيه للمثل العلمي بالمثل العلمي لأنه هو الذي يتوسطه يحصل القياس ، فإن المعتبر ينظر في أحدهما فيتمثل في علمه ، وينظر في الآخر فيتمثل في علمه ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر فيجدهما سواء ، فيعلم أنهما سواء في أنفسهما لاستوائهما في العلم ، ولا يمكن اعتبار أحدهما بالآخر في نفسه حتى يتمثل كل منهما في العلم ،

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .

فان الحكم على الشيء فرع على تصوره ، ولهذا والله أعلم يقال مثل هذا كمثل . . (١) .

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله : ﴿ أيودُّ أحدكم أن تكونَ له جنة من نخيلٍ وأعناب تجري من تحتها الأنهارُ ، لهُ فيها من كلِّ الثمراتِ وأصابهُ الكبرُ ؟ ﴾ إلى قوله : ﴿ كذلكَ يبينُ الله لكم الآياتِ لعلّكم تتفكرونَ ﴾ (٢) فإن هذا يحتاج الى تفكر ، ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي أرضاه .

ونظير ذلك ذكر القصص ، فانها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار ، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها ، لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب . فيقال فيها : ﴿ لقد كانَ في قصصهم عبرةً لأولي الألبابِ ﴾ (٣) ويقال عقب حكايتها : ﴿ فاعتبرُوا يا أُولي الأَبصَارِ ﴾ (٤) ويقال : ﴿ قد كان لكم آيةً في فئتينِ التقتا ﴾ (٥) إلى قوله : ﴿ إن في ذلكَ لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ (٦) والاعتبار هو القياس بعينهِ ، كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان أن قيسوها بها ، فان الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع ، فكذلك الأصابع ، ويقال : اعتبرت الدراهم بالصنجة إذا قدرتها بها .

(النوع الثاني)

« النوع الثاني » الأمثال الكلية ، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً ، كما أشكل تسميتها قياساً ، حتى اعترض بعضهم قوله : ﴿ يا أيُّها الناس ضُربَ مثلٌ فاستمعُوا لهُ ﴾ (٧) فقال : أين المثل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : ﴿ ولقد ضربنَا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ ﴾ (٨) يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقد رأوا عدد ما في تلك الأمثال المعينة بضعاً وأربعين مثلا .

وهذه « الأمثال » تارة تكون صفات ، وتارة تكون أقيسة ، فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٦ .

(٣) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٤) سورة الحشر الآية ٢ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٧) سورة الحج الآية : ٧٣ .

(٨) سورة الروم الآية : ٥٨ .

من خبرين هما قضيتـان وحكمان ، وأنـه لا بد أن يكـون أحدهمـا كلياً ، لأن الأخبـار التي هي القضايا لما انقسمت إلى معينة ومطلقة وكلية وجزئية ، وكل من ذلك انقسم إلى خبر عن إثبـات وخبر عن نفي ، فضرب المثل الذي هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عـام وقضية كليـة ، وذلك هو المثل الثابت في العقل الذي تقاس به الأعيان المقصود حكمها ، فلولا عمومه لما أمكن الاعتبـار ، لجواز أن يكـون المقصود حكمـه خارجـاً عن العموم ، ولهذا يقال : لا قيـاس عن قضيتين جزئيتين ، بل لا بد أن تكون إحداهما كلية ، ولا قياس أيضاً عن سالبتـين ، بل لا بـد أن تكون إحداهما موجبة ، وإلا فالسلبان لا يدخل أحدهما في الآخر [بـل] لا بد فيـه من خبر يعم .

وجملة مـا يضرب من الأمثـال ستة عشـر ، لأن الأولى إما جـزئيـة وإمـا كليـة ، مثبتـة أو نافية ، فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر ، تحذف منها الجـزئيتين سـواء كانتـا مـوجبتين أو سـالبتين ، أو إحـداهما سـالبـة والأخرى مـوجبـة ، فهـذه ست من ستـة عشـر ، والسالبتين سواء كانتـا جزئيتـين أو كليتين أو إحـداهما دون الأخـرى ، لكن إذا كانتـا جزئيتـين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفين من ستة عشر . ويحذف منها السالبـة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية ، لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب أن يلاقيها السلب ، بخلاف الإيجاب ، فان الايجابين الجزئيين يلتقيان ، وكذلك الايجـاب الجزئي مـع السلب الكلي يلتقيان لاندراج ذلك الموجب تحت السلب العام .

يبقى من الستة عشر ستـة أضرب ، فـإذا كانت إحـداهما مَـوجبة كليـة جاز في الأخـرى الأقسام الأربعة ، وإذا كانت سالبة كلية جـاز أن تقارنها المـوجبتان ، لكن تقـدم مقارنـة الكلية لها ، ولا بد في الجزئية أن تكون صغرى ، وإذا كانت موجبة جزئيـة جاز أن تقـارنها الكليتان ، وقد تقدمتا ، وإذا كانت سالبة جـزئية لم يجـز أن يقارنها إلا مـوجبة كليـة ، وقد تقـدمت ، فيقر الناتج ستة ، والملغى عشرة وبالاعتبارين تصير ثمانية .

فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الإيجاب العام ، ولا بد في جميع ضـروبه من أحـد أمرين ، إما إيجاب وعموم ، وإما سلب وخصوص ، فنقيضان لا يفيد اجتماعهما فائدة ، بـل إذا اجتمـع النقيضان من نـوعين كسـالبة كليـة وموجبـة جزئيـة فتفيد بشـرط كون الكبـرى هي العامة ، فظهر أنـه في كل قيـاس من ثبوت وعمـوم ، إما مجتمعـين في مقدمـة وإما مفتـرقين في المقدمتين .

وأيضـاً مما يجب أن يعلم أن غـالب الأمثال المضـروبة ، والأقيسـة إنما يكـون الخفي فيهـا احدى القضيتين ، وأما الأخرى فجلية معلومة ، فضـارب المثل ونـاصب القياس إنمـا يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية ، فيعلم بذلك المقصود لّما قاربها في الفعل من القضية السلبية ، والجلية هي الكبرى التي هي أعم .

فان الشيء كلما كان أهم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل ، وخير الكلام ما قلّ ودلّ ، فلهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجلية لأن في ذكرها تطويلاً وعيا ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين يعد تطويلاً .

واعتبر ذلك بقوله : ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لفسدتَا ﴾ [1] ما أحسن هذا البرهان ! فلو قيل بعده : وما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل ، وإنما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء والخط إذا علمنا الصبي الخط نقول: « با » « سين » « ميم » صارت (بسم) فاذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأه تهجياً فيذهب ببهجة الكلام ، بل قد صار التأليف مستقراً ، وكذلك النحوي إذا عرف أن « محمد رسول الله » مبتدأ وخبر لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول : لانه مبتدأ و خبر . فتأليف الأسماء من الحروف لفظاً ومعنى ، وتأليف الكلم من الأسماء ، وتأليف الأمثال من الكلم جنس واحد .

ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولا في مفردات الألفاظ والمعاني التي هي الأسماء ، ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر والقصة والحكم ، ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو « القياس » « البرهان » و« الدليل » و« الآية » و« العلامة » . فهذا مما ينبغي أن يتفطن له ، فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم إتباع ذلك بالإخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود ؛ بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، وأما ما لا حاجة إلى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك : الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلاً ، وقال الثاني ، إنه ليس في القرآن برهان تام ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر .

و« أيضاً » فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والايجاب ، فإنه ما من خبر إلا وهو إما عام أو خاص : سالب أو موجب ، فالمعين خاص محصور ، والجزئي أيضاً خاص غير محصور ، والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص .

فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف « صيغ النفي والعموم » فإن ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .

مثال ذلك أن « صيغة الاستفهام » يحسب من أخذ ببادىء الرأي أنها لا تدخل في القياس المضروب ، لأنه لا يدخل فيه إلا القضايا الخبرية ، وهذه طلبية ، فإذا تأمل وعلم أن أكثر استفهامات القرآن أو كثيراً منها إنما هي استفهام إنكار معناه الذم والنهي إن كان إنكاراً شرعياً ، أو معناه النفي والسلب إن كان إنكار وجود ووقوع ، كما في قوله : ﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقهُ ، قال : ﴿ من يحيى العظامَ وهي رميم ﴾[1] ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكُمْ من شركاء فيما رزقناكم ﴾[2] الآية ، كذلك قوله : ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾[3] وقوله في تعديد الآيات : ﴿أإله مع الله ﴾ أي أفعل هذه إله مع الله ؟! والمعنى ما فعلها إلا الله ، وقوله : ﴿ أم خلقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقونَ ﴾[4] وما معها ، وهذا الذي ذكرناه الذي جاء به القرآن هو ضرب الأمثال من جهة المعنى .

وقد يعبر في اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة ، لكن لا يستفاد منه الدليل على الحكم كأمثال القرآن ، وهو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو منثورة لسبب اقتضاء فشاعت في الاستعمال ، حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأول ، وان كان اللفظ في الأصل غير موضوع لها ، فكأن تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص الى العام كما تنقل الألفاظ المفردة فهذا نقل في الجملة مثل قولهم : « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » هو مواز لقولهم : « أنت جنيت هذا » لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنايته بالإيكاء والنفخ ، ثم صار مثلاً عاماً ، وكذلك قولهم : « الصيف ضيعت اللبن » مثل قولك « فرطت وتركت الحزم ، وتركت ما يحتاج اليه وقت القدرة عليه حتى فات » ، وأصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص .

وكذلك « عسى العويدا بؤساً » أي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن ردىء ؟ فهذا نوع من البيان يدخل في اللغة والخطاب ، فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبارة الدالة ، سواء كان المعنى في نفسه حقاً أو باطلاً ، إذ قد يتمثل به في حق من ليس كذلك ، فهذا تطلبه في القرآن من جنس (ما) تطلب الألفاظ العرفية ، فهو نظر في دلالة اللفظ على المعنى لا نظر في صحة المعنى ودلالته على الحكم ، وليس هو المراد بقوله : ﴿ ولقد ضربنا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كل مثلٍ ﴾[5] فتدبر هذا فانه يجلو عنك شبهة لفظية ومعنوية .

وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجود في القرآن منها أجناسها ، وهي معلنة ببلاغة لفظه

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٨ .
(٣) سورة النمل الآية ٥٩ .
(٤) سورة الطور الآية ٣٥ .
(٥) سورة الروم الآية ٥٨ .

ونظمه وبراعة بيانه اللفظي ، والذين يتكلمون في علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا .

ومن الناس من يكون أول ما يتكلم بالكلمة صارت مثلاً ، ومنهم من لا تصير الكلمة مثلاً حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها ، كقوله ﷺ : « الآن حمي الوطيس » وكقوله : « مسعر حرب » ونحو ذلك ، لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الإنكار هو نفي مضمن دليل النفي ، فلا يمكن مقابلته بمنع ، وذلك أنه لا ينفي باستفهام الانكار إلا ما ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه ، فيكون ضاربه إما كاملاً في استدلاله وقياسه ، وإما جاهلاً ، كالذي قال : ﴿ من يحيى العظامَ وهي رميم ﴾ .

إذا تبين ذلك فالامثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمى بذلك ﴿ مثلهم كمثل الَّذي استوقدَ ﴾[١] والذي يليه ﴿ إن الله لا يستحي أن يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ﴾[٢] ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الَّذي ينعقُ ﴾[٣] ﴿ ولما يأتكم مثلُ الَّذين خلوا من قبلكُمْ ﴾[٤] ﴿ مثل الذين ينفقُونَ أموالهم في سبيلِ الله ﴾[٥] ﴿ لا تُبطِلُوا صدقاتكم بالمنِّ والأذىٰ كالذي ينفقُ مالهُ رئَاءَ النَّاسِ ﴾[٦] الآية ﴿ ومثل الَّذينَ ينفقونَ أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ الله ﴾[٧] والذي بعده ليس فيه لفظ مثل ﴿ كدأبِ آلِ فرعونَ ﴾[٨] في الثلاثة ﴿ قد كان لكم آية ﴾[٩] ﴿ مثل ما ينفقون في هذهِ الحياةِ الدُّنيا ﴾[١٠]وقوله : ﴿ أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم ﴾[١١] .

ومن هذا الباب قوله : ﴿ ولا أقول لكم ﴾[١٢] الآية ، ويسمى جدالاً ﴿ فمثله كمثل الكلب - الى قوله - ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾[١٣] ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾[١٤] الآية ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم ﴾[١٥] ﴿ إلَّا كباسطٍ كفيهِ الى الماءِ ﴾[١٦] وقول يوسف : ﴿أأرباب متفرقونَ﴾[١٧]﴿ قل هل يستوى الأعمىٰ والبصير ﴾[١٨]الآية

(١) سورة البقرة الآية ١٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٧١ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٤ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢١١ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .
(٧) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .
(٨) ذكرت الآية في سورة آل عمران آية رقم ١١ ، وفي سورة الأنفال ٥٢ ، ٥٤ .
(٩) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(١٠) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(١١) سورة الأنعام الآية ٤٦ .
(١٢) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(١٣) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .
(١٤) سورة يونس الآية ٢٤ .
(١٥) سورة هود الآية ٢٤ .
(١٦) سورة الرعد الآية ١٤ .
(١٧) سورة يوسف الآية ٣٩ .
(١٨) سورة الأنعام الآية ٥٠ ، سورة الرعد الآية ١٦ .

﴿ أنزل من السماء ماء ﴾[1] الى قوله : ﴿ كذلك يضربُ الله الأمثال ﴾ ، ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾[2] ﴿ مثلُ الذين كفرُوا بربّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريحُ ﴾[3] ﴿ ألم تر كيفَ ضربَ الله مثلاً كلمةً طيبةً ﴾[4] إلى آخره ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنَا لكم الأمثالَ ﴾[5] ﴿ للذين لا يؤمنونَ بالآخرة مثلُ السوءِ ، ولله المثَلُ الأعلىٰ ﴾[6] ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾[7] ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾[8] والذي بعده ﴿ وضربَ الله مثلاً قريةً كانت آمنةً ﴾[9] ﴿ أنظر كيف ضربُوا لك الأمثالَ ﴾[10] في موضعين ﴿ ولقد ضربنا للنَّاسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ فأبىٰ أكثر النَّاسِ إلَّا كفوراً ﴾[11] بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحدي بالقرآن ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾[12] القصة ﴿ واضرب لهم مثل الحياةِ الدُّنيا ﴾[13] ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناسِ من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾[14] ينبه على أنها براهين وحجج تفيد تصوراً أو تصديقاً ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السَّماءِ ﴾[15] ﴿ يا أيُّها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ﴾[16] ﴿ ومثل من الَّذين خلوا من قبلكم ﴾[17] . ﴿ مثل نوره ـ إلى قوله ـ ويضرب الأمثال للنَّاسِ ﴾ ﴿ والذين كفرُوا أعمالُهُمْ كسراب ﴾[18] المثلين ، مثل نور المؤمنين في المساجد وأولئك في الظلمات ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناكَ بالحقِ وأَحسَنَ تفسيراً ﴾[19] ـ فـ « التفسير » يعم التصوير ، ويعم التحقيق بالدليل ، كما في تفسير الكلام المشروح ـ ﴿ مثل الذين اتَّخذُوا من دونِ الله أولياء ﴾[20] الآية ﴿ وتلك الامثال نضربها للنَّاس ﴾[21] ﴿ وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السَّموات والأرض ﴾ ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾[22] ﴿ ولقد ضربنا للنَّاس في هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتم بآية ﴾[23] الآية ﴿ واضرب لهم مثلاً اصحاب القرية ﴾[24] ﴿ فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾[25] وقوله : ﴿ ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ﴾[26] ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧ .
(٢) سورة الرعد الآية ٣٥ .
(٣) سورة ابراهيم الآية ١٨ .
(٤) سورة ابراهيم الآية ٢٤ .
(٥) سورة ابراهيم الآية ٤٥ .
(٦) سورة النحل الآية ٦٠ .
(٧) سورة النحل الآية ٧٤ .
(٨) سورة النحل الآية ٧٥ .
(٩) سورة النحل الآية ١١٢ .
(١٠) سورة الفرقان الآية ٩ .
(١١) سورة الروم الآية ٥٨ .
(١٢) سورة النحل الآية ٧٦ .
(١٣) سورة الكهف الآية ٤٥ .
(١٤) سورة الإسراء الآية ٨٩ .
(١٥) سورة الحج الآية ٣١ .
(١٦) سورة الحج الآية ٧٣ .
(١٧) سورة النور الآية ٣٥ .
(١٨) سورة النور الآيات (٣٥ ـ ٣٩) .
(١٩) سورة الفرقان الآية ٣٣ .
(٢٠) سورة العنكبوت الآية ٤١ .
(٢١) سورة العنكبوت الآية ٣٤ .
(٢٢) سورة الروم الآية ٢٨ .
(٢٣) سورة الروم الآية ٥٨ .
(٢٤) سورة يس الآية ١٣ .
(٢٥) سورة يس الآية ٧٨ .
(٢٦) سورة ص الآية ٢٣ .

القرآن من كل مثل ﴾ الى قوله ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾ ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾[1] الى إخره لما أوردوه نقضا على قوله : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله ﴾ فهم الذين ضربوه جدلاً ﴿ الَّذين كفروا وصدُّوا ﴾ الى قوله : ﴿ كذلك يضرب الله للنّاس امثالهم ﴾ [2] ﴿ كمثل الَّذين من قبلهم قريباً ﴾ . ﴿ كمثلِ الشيطان إذا قال للإنسان أكفر ﴾ ، ﴿ ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال ﴾[3] ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾[4] الآية ﴿ ضربَ الله مثلاً للذين كفروا ﴾ و ﴿ للذين آمنوا ﴾[5] ﴿ وليقول الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلاً ؟ ﴾[6] كأنَّهم الى نُصُبٍ يوفضونَ ﴾[7] ﴿ كالفراش ﴾ و ﴿ كالعهن ﴾[8] .

(فصل)(*)

قال الله تعالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةَ ﴾ [سورة البقرة : ٥]

قـال علي بن أبي طـالـب : « الصبر من الإيمـان بمنزلـة الرأس من الجسـد ، فـإذا انقـطع الرأس بَارَ الجسد ، ألا لا إيمان لمن لا صبر له »[9] .

فالصبر على أداء الواجبات واجب ، ولهذا قـرنه بـالصلاة في أكـثر من خمسين مـوضعاً ، فمن كان لا يصلي من جميع الناس ـ رجالهم ونسائهم ـ فإنه يؤمر ، فإن امتنع عوقب[10] بـإجماع المسلمين . ثم أكثرهم يوجبون قتل تارك الصلاة ، وهل يقتـل كـافراً مـرتدًّا أو فـاسقاً ؟ عـلى قـولين في مـذهب أحمـد وغيـره والمنقـول عن أكـثر السلف يقتضي كفره ، وهـذا مـع الاقـرار بالوجوب ، فإنه [مع] حجود الوجوب[11] فهو كافر بالاتفاق .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٥٧.
(٢) سورة محمد الآيات (١ ـ ١٣) .
(٣) سورة الحشر الآيات : (١٥ ـ ٢١) .
(٤) سورة الجمعة الآية ٥ .
(٥) سورة التحريم الآيات (١٠ ـ ١١) .
(٦) سورة المدثر الآية ٣١.
(٧) سورة المعارج الآية ٤٣ .
(٨) هذه اجزاء من ا لآيات ٣و٤ من سورة القارعة وبتتبع ابن تيمية في هـذه القضية تجده قد استقرأ الآيات المتضمنة لأنواع قياس التمثيل في القرآن الكريم بنوعيه الجزئي والكلي ، ومما يلفت النظر حقاً هذا التتبع الدقيق من ابن تيميـة لورود هـذه القضية في آيات القرآن بنفس ترتيب السور وورودها في المصحف حيث بدأ بسورة البقـرة وظل يتـابع القضيـة حتى انتهى الى سورة القارعـة ولم يفته خـلال هذا الاستقـراء الكامـل أن ينبه الى الآيـات الأخرى التي لم يـذكر فيهـا لفظ مثل أو أداة التشبيه الأخرى لكنها تتضمن نوعاً ما من أنواع القياس .

(*) طبعت هذه الآية ضمن مجموع رسائل ابن تيمية تحقيق د . محمد رشاد سالم .

(٩) جاء في « شرح نهج البـلاغة » لابن أبي الحديد ط . المعارف ٣٢٤/١٩ : كـلام أمير المؤمنين عليـه السـلام : . . . «وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فكما لا خير في جسد لا رأس له ، لا خير في إيمان لا صبر معه » .

(١٠) في الأصل : عوقبوا .
(١١) في الأصل : فأما جحود الوجوب .

ومن ذلك تعاهد مساجد المسلمين وأئمتهم ، وامرهم بأن يصلوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صلُّوا كما رأيتموني أصلي » رواه البخاري[1] ، وصلّى مرة بأصحابه على طرف المنبر وقال : إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي .

فعلى إمام الصلاة أن يصلِّي بالناس صلاةً كاملة ، لا يقتصر على ما يجوز للمنفرد الاقتصار عليه إلا لعذر ، وكذلك على إمامهم في الحج وأميرهم في الحرب . ألا ترى الوكيل والولي في البيع والشراء عليه أن يتصرف لموكله ولمولِّيه على الوجه الأصلح له في ماله ، وهو في مال نفسه يفوت [على] نفسه[2] ما شاء ، فأمر الدين أهم ، ومتى اهتمت[3] الولاة بإصلاح دين الناس صلح الدين للطائفتين والدنيا ، وإلا اضطربت الأمور عليهم جميعاً .

وملاك ذلك حسن النية للرعية ، وإخلاص الدين كله لله عز وجل ، والتوكل عليه ، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . فهاتان الكلمتان[4] قد قيل إنهما تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان مرة في غزاة فقال : « يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها[5] .

وقد ذكر ذلك في غير موضع من كتابه كقوله عز وجل : ﴿ فاعْبُدْه وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنيبُ ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، [سورة الشورى : ١٠] وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : « منك وإليك »[6] .

وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن ، والإحسان الى الناس بالنفع والمال

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه ١٢٤/١ (كتاب الصلاة ، الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة . . الخ) وأوله : « حدثنا مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببه متقاربون . . الخ » ورواه مرة أخرى ٦/٩ خبر الواحد ، باب ما جاء في اجازة خبر الواحد. . الخ) وروي عن مالك ورواه أحمد في مسنده (ط . الحلبي) ٥٣/٥ .

(٢) في الأصل : يفوت نفسه

(٣) في الأصل : اهمت .

(٤) في الأصل فهاتان الكلمتان.

(٥) ندر الشيء يندر ندوراً سقط وفي الدر المنثور ١٤/١ : « واخرج ابو القاسم البغوي والماوردي معاً في معرفة الصحابة ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك عن أبي طلحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلقى العدو، فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : فلقد رأيت الرجال تصدع ، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها .

(٦) أخرج أبو داود في سننه ١٢٦/٣ عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن مما قاله عند ذلك: « اللهم منك ولك من محمد وأمته » . وانظر جامع الأصول ١٤٨/٤ ـ ١٤٩ .

الذي هو الزكاة ، والصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ، وإذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة عرف [ما] يدخل في الصلاة[1] من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفي الزكاة [من][2] الإحسان الى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروف صدقة »[3] ، فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة .

ففي الصحيح عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ الا سيكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدَّمه ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدَّمه ، وينظر أمامه فيستقبل النار ، فمن أستطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[4] .

وفي السنن « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »[5] . وفي رواية : « ووجهك إليه منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقى » .

وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر ، كما قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [سورة هود : ٩ ـ ١١] .

وروى الحسن البصري : « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العلق[6] الا ليقم مَنْ

---

(١) في الأصل : إذا عرف الإنسان . . . عرف يدخل في الصلاة !!!

(٢) من : ليست في الأصل .

(٣) الحديث عن جابر في البخاري ١١/٨ (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة) : وعن حذيفة في : مسلم ٣/ ٨٢ (كتاب الزكاة ، باب بيان ان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) .

(٤) الحديث في البخاري ١١٢/٨ (كتاب الرقاق ، باب عن يونس الحساب عذب) ، مسلم ٨٦/٣ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة او كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) ، سنن ابن ماجه ٦٦/١ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) ، ص ٥٩٠ (كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة) .

(٥) روى عن ابي ذر رضي الله عنه في : مسلم ٣٧/٨ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب الصدقة طلقة الوجه عند اللقاء) ، وهو عن جابر رضي الله عنه في سنن الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٤٦/٨ ـ ١٤٧ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر) وفيه : « وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » . وقال الترمذي : « وفي الباب عن أبي داود قال : « هذا حديث حسن » .

(٦) في لسان العرب (بطن) . « وفي الحديث : ينادي مناد من بطنان العرش ، أي من رسله ، وقيل : من أصله . وقيل : البطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض ، يريد : من هو مثل العرش » .

أَجْرُه على الله ، فلا يقوم الا من عفا وأصلح » .

وليس من حسن النية للرعية والإحسان اليهم أن يُفعل ما يهوونه ويُترك ما يَكرهـونه[٣] . قـال تعـالى : ﴿ وَلَـوْ اتَّبَـعَ الحَقُّ أَهْـوَاءَهُـم لَفَسَـدَتْ السَّمٰـواتُ والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[سـورة المؤمنون : ٧١] . وقال لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَـوْ يُطيعُكُمْ في كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [سورة الحجرات : ٧].

وقال شيخ الاسلام

رحمه الله تعالى

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من « كتب في التفسير » الا مـا هو خـطأ [فيها].

منها قوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ الآيتين ، فهو سبحانه وصف أهل السعادة من الأولين والآخرين ، وهو الذي يدل عليه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ، ومناسبـة لما قبلها ولما بعدهـا ، وهو المعـروف عند السلف ، ويـدل عليـه مـا ذكـروه من سبب نـزولهـا بالأسانيد الثابتـة عن سفيان عن ابن أبي نجيـح عن مجاهـد ، قال سلمـان : « سألتُ النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من عبادتهم ، فنزلت الآية ولم يـذكر فيـه أنهم من أهل النـار ، كما روى بأسانيد ضعيفة ، وهذا هو الصحيح كما في مسلم « إلا بقايا من أهل الكتاب » .

والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده ، وقـد ثبت أنه أثنى عـلى من مات في الفتـرة ، كزيد بن عمرو وغيره ، ولم يذكر ابن أبي حـاتم خلافـاً عن السلف ، لكن ذكر عن ابن عبـاس ثم أنـزل الله : ﴿ ومن يبتغ غـير الإسلام دينـاً ﴾ الآية، ومـراده أن الله يبـين أنـه لا يقبـل إلا الإسلام من الأولين والآخرين .

وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن أن الآية دالة عليه ، فـإن من المعلوم ان من كذب رسولاً واحداً فهو كافر فلا يتناوله قوله : ﴿ من آمن بالله ﴾ الخ .

وظن بعض النـاس : ان الآية فيمن بعث إليهم محمد ﷺ خاصـة فغلطوا ، ثم افترقـوا على أقوال متناقضة .

---

(١) في الأصل : أنه تفعل ما يهوونه ويتركون ما يكرهونه .

وقال شيخ الإسلام
قدس الله روحه
فصـــل

قسم الله أهل الكتاب الى محرفين وأميين ،حيث يقول : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله ثمَّ يحرِّفُونهُ من بعد ما عقلوهُ وهم يعلمونَ؟وإذا لقُوا الذَّين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلَا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهُمْ بما فَتَحَ الله عليكم ليحاجُّوكم بهِ عندَ ربِّكُمْ ؟ أفلا تعقلونَ ؟ أَوَلا يعلمونَ أنَّ الله يعلمُ ما يُسرُّون وما يعلنونَ ؟ ومنهم أميّون لا يعلمونَ الكتابَ إلا أماني ، وإنْ هم إلا يظنونَ ، فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا من عندِ اللهِ ليشتروا بهِ ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهمْ وويلٌ لهم ممَّا يكسبونَ ﴾ (١) .

وفي هذا عبرة لمن ركب سنتهم من أمتنا ، فإن المحرفين في نصوص الكتاب والسنّة كالصفات ونحوها من الأخبار والأوامر :

« قوم » يحرفونه إما لفظاً وإما معنى ، وهم النافون لما أثبته الرسول ﷺ جحوداً وتعطيلاً ، ويدعون أن هذا موجب العقل الصريح القاضي على السمع .

و« قوم » لا يزيدون على تلاوة النصوص لا يفقهون معناها ، ويدعون أن هذا موجب السمع الذي كان عليه السلف ، وأن الله لم يرد من عباده فهم هذه النصوص ، فهم ﴿ لا يعلمونَ الكتابَ إلَّا أمانيّ ﴾ أي تلاوة ﴿ وإنْ هم إلَّا يظنونَ ﴾ .

ثم يصنف أقوام علوماً يقولون : إنها دينية ، وإن النصوص دلت عليها والعقل ، وهي دين الله ، مع مخالفتها لكتاب الله ، فهؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله بوجه من الوجوه .

فتدبر كيف اشتملت هذه الآيات على الأصناف الثلاثة ، وقوله في صفة أولئك : ﴿ أتحدثونَهُمْ بما فتحَ الله عليكم ليحاجُّوكُمْ بِهِ عندَ ربِّكُمْ ﴾ حال من يكتم النصوص التي يحتج بها منازعه ، حتى أن منهم من يمنع من رواية الأحاديث المأثورة عن الرسول ﷺ ، ولو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه ، لكنهم يكتمون منه وجوه دلالته من العلوم المستنبطة منه ، ويعرضون الناس عن ذلك بما يكتبون بأيديهم ويضيفونه : إلى أنه من عند الله .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٧٥ ـ ٧٩) .

وسئل :

عن معنى قوله : ﴿ ما نَنسخْ من آيةً أو نُنسِها ﴾ [١] والله سبحانه لا يدخل عليه النسيان .

فأجاب :

أما قوله : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ ففيها قراءتان .

أشهرهما : (أو ننسها) أي ننسيكم إياها : أي إذا نسخنا ما أنزلناه ، أو اخترنا تنزيل ما نريد أن ننزله تأنكم بخير منه أو مثله .

والثانية : (أو ننسأها) بالهمز أي نؤخرها ، ولم يقرأ أحد ننساها ، فمن ظن أن معنى ننسأها بمعنى ننساها فهو جاهل بالعربية والتفسير ، قال موسى عليه السلام : ﴿ عِلمُهَا عندَ ربيّ في كتابٍ لا يضِلُّ ربي ولا ينسىٰ ﴾ [٢] و« النسيان » مضاف إلى العبد كما في قوله : ﴿ سنقرئكَ فلا تنسىٰ إلَّا ما شاءَ الله ﴾ [٣] ولهذا قرأها بعض الصحابة : (أو تنساها) أي تنساها يا محمد ، وهذا واضح لا يخفى إلا على جاهل لا يفرق بين ننسأها بالهمز وبين ننساها بلا همز والله أعلم .

قال أبو العباس أحمد بن تيمية
رحمه الله تعالى

في قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلى ﴾ الآية وفيها قولان :

(أحدهما) أن القصاص هو القود ، وهو أخذ الدية [بدل] القتل كما جاء عن ابن عباس أنه كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية فجعل الله في هذه الأمة الدية فقال : ﴿ فمن عُفي لهُ من أخيهِ شيء ﴾ [٤] والعفو هو أن يقبل الدية في العمد ﴿ ذلك تخفيفٌ من ربِّكم ورحمة ﴾ [٥] مما كان على بني إسرائيل ، والمراد على هذا القول أن يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . قال قتادة : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي ، وكان الحي إذا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٦ .

(٢) سورة طه الآية ٥٢ .

(٣) سورة الأعلى الآية ٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

كان فيهم عدد وعدة فقتل عبدهم عبد قوم آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً تعززاً على غيرهم ، وإن قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فنزلت هذه الآية وهذا قول أكثر الفقهاء [1] ، وقد ذكر ذلك الشافعي وغيره .

ويحتج بها طائفة من اصحاب مالك والشافعي وأحمد على أن الحر لا يقتل بالعبد لقوله : ﴿والعبد بالعبد﴾ فينقض ذلك عليه بالمرأة ، فانه قال : ﴿والأنثى بالأنثى﴾ ، وطائفة من المفسرين لم يذكروا إلا هذا القول .

« القول الثاني » أن القصاص في القتلى يكون بين الطائفتين المقتتلتين قتال عصبية وجاهلية فيقتل من هؤلاء ومن هؤلاء أحرار وعبيد ونساء ، فأمر الله تعالى بالعدل بين الطائفتين بأن يقاص دية حر بدية حر ، ودية امرأة بدية امرأة ، وعبد بعبد . فان فضل لإحدى الطائفتين شيء بعد المقاصة فلتتبع الأخرى بمعروف ، ولتؤد الأخرى إليها بإحسان ، وهذا قول الشعبي وغيره ، وقد ذكره محمد بن جرير الطبري وغيره و[على] هذا القول فانه إذا جعل ظاهر الآية لزمته إشكالات ، لكن المعنى [الثاني] هو مدلول الآية ومقتضاه ولا إشكال عليه ، بخلاف القول الأول الذي يستفاد من دلالة الآية كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى ، وما ذكرناه يظهر من وجوه .

(أحدها) أنه قال : ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ و« القصاص » مصدر قاصَّه يقاصُّه مقاصة وقصاصاً ، ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر و﴿القصاص في القتلى﴾ إنما يكون إذا كان الجميع قتلى ، كما ذكر الشعبي فيقاص هؤلاء القتلى بهؤلاء القتلى ، أما إذا قتل رجل رجلا فالمقتول ميت فهنا المقتول لا مقاصة فيه ، ولكن القصاص أن يمكن من قتل القاتل لا غيره .

وفي اعتبار المكافآت فيه قولان للفقهاء ، قيل : تعتبر المكافآت فلا يقتل مسلم بذمي ولا حر بعبد ، وهو قول الأكثرين ، مالك والشافعي وأحمد ، وقيل لا تعتبر المكافآت كقول أبي حنيفة ، والمكافآت لا تسمى قصاصاً .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ وإن أريد بالقصاص المكافآت فتلك لم تكتب ، وإن أريد به استيفاء القود فذلك مباح للولي . إن شاء اقتص وإن شاء لم يقتص فلم يكتب عليه الاقتصاص ، وقد أورد هذا السؤال بعضهم وقال : هو مكتوب على القاتل أن

---

(١) انظر رأي قتادة في تفسير الطبري ٢ / ٦١ (ط بولاق) .

يمكن من نفسه ، فيقال له : هو تعالى قال : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ ، وليس هذا خطاباً للقاتل وحده ، بل هو خطاب لأولياء المقتول بدليل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ﴾ ثم لا يقال للقاتل : كتب عليك القصاص في المقتول فإن المقتول لا قصاص فيه .

و« أيضاً » فنفس انقياد القاتل للولي ليس هو قصاصاً ، بل الولي له ان يقتص وله أن لا يقتص ، وإنما سمى هذا قوداً لأن الولي يقوده ، وهو بمنزلة تسليم السلعة الى المشتري ، ثم قال تعالى : ﴿ الحر بالحر ﴾ فكيف يقال مثل هذا قصده القاتل ، بل هذا خطاب للأمة بالمقاصة والمعادلة في القتل .

والنبي ﷺ إنما قال : « كتاب الله القصاص » لما كسر الربيع سن جارية وامتنعوا عن أخذ الأرش .

فقال أنس بن النضر : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع .

فقال النبي ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم بالأرش .

فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (١) كقوله تعالى ﴿ والجروح قصاص ﴾ يعني « كتاب الله » أن يؤخذ العضو بنظيره ، فهذا قصاص لأنه مساواة ، ولهذا كانت المكافآت في الأعضاء والجروح معتبرة باتفاق العلماء .

وإن قيل القصاص هو أن يقتل قاتله لا غيره فهو خلاف الاعتداء ، قيل : نعم ! وهذا قصاص في الأحياء لا في القتلى .

(الثاني) أنه قال : ﴿ في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ ومعلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد وبالحر ، والأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر ، والحر يقتل بالحر وبالأنثى أيضاً عند عامة العلماء ، وقيل : يشترط أن تؤدى تمام ديته ، وإذا كان كذلك فقوله : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ إنما يدل على مقاصة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به ، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر : أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر فضل ؟ أما في القتل فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين .

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ٢٠٦/٤ . ولفظه أن من عباد الله من لو يقسم على الله لابره .

(الثالث) أنه قال : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء ﴾ لفظ (عفى) هنا قد استعمل متعدياً ، فانه قال : (عفى) (شيء) ولم يقل : (عفا) (شيئاً) وهذا إنما يستعمل في الفعل كما قال تعالى : ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل : العفو ﴾ وأما العفو عن القتل فذاك يقال فيه عفوت عن القاتل ، فولى المقتول بين خيرتين : بين أن يعفو عن القتل ويأخذ الدية فلم يعف له شيء ، بل هو عفا عن القتل وإذا عفا فإما أن يستحق الدية بنفسه أو بغير رضا القاتل على قولين .

وقد قال بعضهم : (من أخيه) أي من دم أخيه أي ترك له القتل ورضي بالدية والمراد القاتل يعني إن القاتل عفى له من دم أخيه المقتول أي ترك له القتل ، فيكون التقدير أن الولي عفى للقاتل من دم المقتول شيئاً ، وهذا كلام لا يعرف . لا يقال : عفوت لك شيئاً ، ولا يقال : عفوت من دم القاتل ، وإنما الذي يقال : أنه عفا عن القاتل ، فأين هذا من هذا ؟

وأما على القول الأول فالمتقاصان إذا تفادى القتلى فمن عفى له أي فضل له من مقاصة أخيه مقاصلة أخرى أي هذا الذي فضل له فضل كما يقال : أبقى له من جهة أخيه بقية ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فهذا المستحق للفضل يتبع المقاص الآخر بالمعروف ، وذلك يؤدي إلى هذا بإحسان ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ من أن كل طائفة تؤدي قتلى الأخرى فان في هذا تثقيلا عظيما له ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ فإنهم إذا تفادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم يبق واحدة تطلب الأخرى بشيء فحي هؤلاء وحي هؤلاء ، بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فإنهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلائق ، كما هو معروف في فتن الجاهلية والاسلام ، إنما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين وإلا فمع التعادل والتناصف الذي يرضى به أولوا الألباب لا تبقى فتنة .

وقوله : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ فطلب من الطائفة الأخرى مالا أو قوما أو أذاهم بسب ما بينهم من الدم ﴿ فله عذاب أليم ﴾ وهذا كقوله : ﴿ وان طائفتانِ من المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا الَّتي تبغي حتى تفيء الى أمر الله، فإنَّ فاءت فاصلِحُوا بينهما بالعدلِ ، وأقسِطُوا إنَّ الله يحبُّ المقسطِينَ ، إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فاصلِحُوا بين أخويكُمْ ﴾ (١) و« الأخوة » هنا كالأخوة هناك وهذا في قتلى الفتن .

وإما إذا قتل رجل رجلا من غير فتنة فهم كانوا يعرفون أن القاتل يقتل ، لكن كانت

---

(١) سورة الحجرات الآيات (٩ ، ١٠) .

الطائفة القوية تطلب أن تقتل غير القاتل ، أو من هو أكثر من القاتل ، أو اثنين بـواحد ، وإذا كان القاتل منها لم تقتل به من هو دونه ، كما قيل : إنه كان بـين قريـظة والنضير ، لكن هـذا لم تثر به الفتن بل فيه ظلم الطائفة القوية للضعيفة ، ولم يكن في الأمم من يقول أن القاتل الـظالم المتعدي مطلقاً لا يقتل ، فهذا لم يكن عليه أحد من بني آدم ، بل كل بني آدم مطبقـون على أن القاتل في الجملة يقتل ، ولكن الظلمة الأقوياء يفرقون بين قتيل وقتيل .

وقول من قال : إن قوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ معنـاه ان القاتـل إذا عرف أنـه يقتل كف فكان في ذلك حياة له وللمقتول يقـال له : هـذا معنى صحيح ولكن هـذا مما يعـرفه جميع الناس ، وهو مغروز في جبلتهم ، وليس في الآدميين من يبيح قتـل أحد من غـير أن يقتل قاتله ، بل كلهم مع التساوي يجوزون قتل القاتل ولا يتصور أن الناس [1] إذا كان كل من قدر على غيره قتله ، هو لا يقتل يـرضى بمال ، وإذا كـان هذا المعنى من أوائـل ما يعـرفه الآدميـون ويعلمـون أنهم لا يعيشون بـدونه صـار هذا مثـل حـاجتهم إلى الـطعـام والشـراب والسكنى ، فـالقرآن أجلّ من أن يكون مقصـوده التعريف بهـذه الأمور البـديهية ، بـل هذا ممـا يدخـل في معناه ، وهو أنه إذا كتب عليهم القصاص في المقتولين أنه يسقط حر بحر ، وعبد بعبد ، وانثى بأنثى ، فجعل دية هذا كدية هذا ودم هذا كـدم هذا متضمن لمسـاواتهم في الدمـاء والديـات ، وكان بهذه المقاصة لهم حياة من الفتن التي توجب هلاكهم ، كما هـو معروف ، وهـذا المعنى مما يستفاد من هذه الآية ، فعلم أن دم الحر وديته كدم الحر ودينه فيقتل به ، وإذا علم أن التقاصّ يقـع للتساوي في الـديات علم أن للمقتـول دية ، ولفظ القصـاص يدل عـلى المعادلـة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والانصاف في أمر القتلى ، من قتـل غير قـاتله فهو ظـالم والمقتول وأولياؤه إذا امتنعوا من إنصاف أولياء المقتول فهم ظالمون ، هؤلاء خارجـون عما أوجبـه الله من العدل ، وهؤلاء خارجون عما أوجبه الله من العدل .

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في قوله : ﴿ ومن قُتل مـظلوماً فقـد جعلنَا لـوليهِ سُلطانَـاً فلا يُسـرِفُ في القتلِ إنَّـهُ كانَ منصـوراً ﴾ [2] وإذا دلت الآية عـلى العدل في القـوة بـطريق اللزوم والتنبيـه ذهب الإشكـال ، ولم يقـل : فلم لا قال : والعبـد بالعبـد والحر بـالحر ؟ فـإنـه لم يكن المقصود أنه يقاص به في القتلى ، ومعلوم أنه إنما يقاص الحر بالحـر لا بالمـرأة ، والمرأة بـالمرأة لا بالحر ، والعبد بالعبد . فظهرت فائدة التخصيص به والمقابلة في الآية .

ودلت الآية حينئذ على أن الحر يقتـل بالحـر ، والعبد بـالعبد ، والأنثى بـالانثى إذا كانـا متساويين في الدم ، وبدله هو الديـة ، ولم ينتف أن يقتل عبـد بحر وأنثى بـذكر ولا لهـا مفهوم

(١) بياض بالأصل . .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٣ .

ينفي ذلك ، بل كما دلت على ذلك بطريق التبيية والفحوى والأولى كذلك تدل على هذا أيضاً ، فإنه إذا قتل العبد بالعبد فقتله بالحر أولى وإذا قتلت المرأة بالمرأة فقتلها بالرجل أولى .

وأما قتل الحر بالبعد والذكر بالانثى فالآية لم تتعرض له لا بنفي ولا إثبات ، ولا لها مفهوم يدل عليه ، لا مفهوم موافقة ولا مخالفة ، فإنه إذا كان في المقاصة يقاص الحر بالحر والعبديالعبد والأنثى بالأنثى لتساوي الديات ، دل ذلك على قتل النظير والأدنى بالأعلى .

يبقى قتل الأعلى الكثير الدية بالأدنى القليل الدية ، ليس في الآية تعرض له ، فانه لم يقصد بها ابتداء القود ، وإنما قصد المقاصة في القتلى لتساوي دياتهم .

فإن قيل : دية الحر كدية الحر ، ودية الأنثى كدية الأنثى ، ويبقى العبيد قيمتهم متفاضلة ؟

قيل : عبيدهم كانوا متقاربين في القيمة ، وقوله : ﴿ العبد بالعبد ﴾ قد يراد به بالعبد المماثل به ، كما يقال : ثوب بثوب . وإن كان أحدهما أغلى قيمة فذاك مما عفى له ، وقد يعفى إذا لم تعرف قيمتهم وهو الغالب فان المقتولين في الفتن عبيدهم الذين يقاتلون معهم ، وهم يكونون تربيتهم عندهم لم يكتروهم ، فهذا يكون مع العلم بتساوي القيمة ومع الجهل بتفاضلها ، فإن المجهول كالمعدوم ، ولو أتلف كل من الرجلين ثوب الآخر ولا يعلم واحد منهما قيمة واحد من الثوبين قيل ثوب بثوب . وهذا لأن الزيادة محتملة من الطرفين : يحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ويحتمل أن يكون ثوب هذا أغلى ؛ وليس ترجيح أحدهما أولى من الآخر ، والأصل براءة ذمة كل واحد من الزيادة ، فلا تشتغل الذمة بأمر مشكوك فيه لو كان الشك في أحدهما . فكيف إذا كان من الطرفين ؟

(بيان ما دلت عليه الآية)

فظهر حكمة قوله : ﴿ والعبد بالعبد ﴾ وظهر بهذا أن القرآن دل على ما يحتاج الخلق إلى معرفته والعمل به ، ويحقن به دماؤهم ويحيون به ، ودخل في ذلك ما ذكره الآخرون من العدل في القود .

ودلت الآية على أن القتلى يؤخذ لهم ديات ، فدل على ثبوت الدية للقاتل ، وأنها مختلفة باختلاف المقتولين ، وهذا مما من الله به على أمه محمد ﷺ حيث أثبت القصاص والدية .

وأما كون العفو هو قبول الدين في العمد وأنه يستحق العافي بمجرد عفوه فالآية لم تتعرض لهذا .

ودلت هذه الآية على أن الطوائف الممتنعة تضمن كل منها ما أتلفته الأخرى من دم ومال

بطريق الظلم لقوله : ﴿ من أخيه ﴾ بخلاف ما أتلفه المسلمون للكفار والكفار للمسلمين .

وأما القتال بتأويل « كقتال أهل الجمل وصفين » فلا ضمان فيه أيضاً بطريق الأولى عند الجمهور ، فإنه اذا كان الكفار المتأولون لا يضمنون فالمسلمون المتأولون اولى أن لا يضمنوا .

ودلت الآية على أن هذا الضمان على مجموع الطائفة يستوي فيه الردء والمباشر لا يقال : انظروا من قتل صاحبكم هذا فطالبوه بديته بل يقال : ديته عليكم كلكم فانكم جميعاً قتلتموه ، لأن المباشر إنما تمكن بمعاونة الردء[1] له ، وعلى هذا دل قوله : ﴿ وإنْ فاتَكم شيءٌ من أزواجكم إلىٰ الكفَّارِ فعاقبتم فآتوا الَّذينَ ذهبت أزواجهُمْ مثلَ ما أنفقُوا ﴾[2] فإن أولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التي ذهبت إليهم ، فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها ، مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها ، فيعطى المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة الذي يستحقه الكفار لكونها أسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها ، وان كان زوج المهاجرة ليس هو الذي تزوج بالمرتدة ، لأن الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضاً صارت كالشخص الواحد .

ولهذا لما قتل من قتل من بني خذيمة وداهم النبي ﷺ من عنده ، لأن خالداً نائبه ، وهو لا يمكنهم من مطالبته وحبسه لأنه متأول . وكذلك عمرو بن أمية وعاقلته خالد بن الوليد ، لأنه قتل هذا على سبيل الجهاد لا لعداوة تخصه .

وقد تنازع الفقهاء في خطأ ولي الامر هل هو في بيت المال أو على ذمته ؟ على قولين :

ولهذا كان ما غنمته السرية يشاركها فيه الجيش وما غنمه الجيش شاركته فيه السرية ، لانه إنما يغنم بعضهم بظهر بعض ، فإذا اشتركوا في المغرم اشتركوا في المغنم ، وكذلك في العقوبة يقتل الردء والمباشر من المحاربين عند جماهير الفقهاء كما قتل عمر رضي الله عنه ربيئة المحاربين ، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد ، وهو مذهب مالك في القتل قوداً ، وفي السراق ايضاً .

وبيان دلالة الآية على ذلك أن المقتولين إذا حبس حر بحر وعبد بعبد وانثى بانثى فالحر من هؤلاء ليس قاتله هو ولي الحر من هؤلاء ، بل قد يكون غيره ، وكذلك العبد من هؤلاء ليس

---

(١) الردء : هو الناصر والمعين ، وفي أساس البلاغة للزمخشري : هو ردء له ينصره ويشد عضده ، وقال موسى عن هارون : اجعله معي ردئاً يصدقني .

(٢) سورة الممتحنة الآية ١١ .

قاتله هو سيد العبد من هؤلاء ، بل قد يكون غيره لكن لما كانوا مجتمعين متناصرين على قتال أولئك ومحاربتهم كان من قتله بعضهم فكلهم قتله ، وكلهم يضمنونه ، ولهذا ما فضل لأحد الطائفتين يؤخذ من مال الاخرى .

فإن قيل : إذا كان مستقراً في فطر بني آدم أن القاتل الظالم لنظيره يستحق أن يقتل ، وليس في الآدميين من يقول إنه لا يقتل . فما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ وكتبنا عَليهم فيها ـ أي في التوراة ـ أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ ﴾[1] الآية . إذا كان مثل هذا الشرع يعرفه العقلاء كلهم ؟ .

قيل لهم : فائدته بيان تساوي دماء بني إسرائيل ، وأن دماءهم متكافئة ليس لشريفهم مزية على ضعيفهم ، وهذه الفائدة الجليلة التي جاءت بها شرائع الأنبياء . فأما الطوائف الخارجون عن شرائع الانبياء فلا يحكمون بذلك مطلقاً بل قد لا يقتلون الشريف ؛ وإذا كان الملك عادلاً فقد يفعل بعض ذلك ، فهذا الذي كتبه الله في التوراة من تكافؤ دمائهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فحكم أيضاً في المؤمنين به من جميع الأجناس بتكافؤ دمائهم فالمسلم الحر يقتل المسلم الحر من جميع الأجناس باتفاق العلماء .

وبهذا ظهر الجواب عن احتجاج من احتج بآية التوراة على أن المسلم يقتل بالذمي لقوله : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ و « شرع من قبلنا شرع لنا » فإنه يقال : الذي كتب عليهم أن النفس منهم بالنفس منهم ، وهم كلهم كانوا مؤمنين ، لم يكن فيهم كافر ، ولم يكن في شريعتهم إبقاء كافر بينهم لا بجزية ولا غيرها ، وهذا مثل شرع محمد ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤ هم ، وليس في الشريعتين أن دم الكافر يكافىء دم المسلم ، بل جعل الايمان هو الواجب للمكافآت دليل على انتفاء ذلك في الكافر ـ سواء كان ذمياً أو مستأمناً ـ لانتفاء الايمان الواجب للمكافأة فيه .

نعم ؟ يحتج بعمومه على العبد . وليس في العبد نصوص صريحة صحيحة كما في الذمي ، بل ما روى « من قتل عبده قتلناه به »[2] وهذا لأنه إذا قتله ظالماً كان الإمام ولي دمه ، لأن القاتل كما لا يرث المقتول إذا كان حراً ، فكذلك لا يكون ولي دمه إذا كان عبداً ، بل هذا أولى . كيف يكون ولي دمه وهو القاتل ؟ بل لا يكون ولي دمه ، بل ورثة القاتل السيد ، لأنهم ورثته وهو بالحياة ولم يثبت له ولاية حتى تنتقل إليهم ، فيكون وليه الإمام . وحينئذ فللامام قتله ، فكل من قتل عبده كان للامام أن يقتله .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٢) ورد الحديث في ابي داود في : (كتاب الديات) والترمذي في (كتاب الديات) ، النسائي في (كتاب القسامة) ، ابن ماجه (الديات) والدارمي في (كتاب الديات) ، وابن حنبل ٥/ ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

و « أيضاً » فقد ثبت بالسنة والآثار أنه إذا مثل بعبده عتق عليه ، وهذا مذهب مالك وأحمد وغيرهما ، وقتله [أشد] أنواع المثل فلا يموت إلا حراً ، لكن حريته لم تثبت في حال الحياة حتى يرثه عصبته ، بل حريته ثبتت حكماً ، وهو إذا كان عتق كان ولاؤه للمسلمين ، فيكون الإمام هو وليه ، فله قتل قاتل عبده .

وقد يحتج بهذا من يقول : ان قاتل عبد غيره لسيده قتله ، وإذا دل الحديث على هذا كان هذا القول هو الراجح ، والقول لآخر ليس معه نص صريح ، ولا قياس صحيح .

وقد قال الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : من قتل ولا ولي له كان الإمام ولي دمه ، فله أن يقتل ، وله أن يعفو عن الدية ، لا مجاناً .

يؤيد هذا أن من قال : لا يقتل حر بعبد يقول : إنه لا يقتل الذمي الحر بالعبد المسلم . قال الله تعالى في كتابه : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ﴾ فالعبد المؤمن خير من الذمي المشرك ، فكيف لا يقتل به ؟ ! والعبد المؤمن مثل الحرائر المؤمنات كما دلت عليه هذه الآية ، وهو قول جماهير السلف والخلف ، وهذا قوي على قول أحمد ، فإنه يجوز شهادة العبد كالحر ، بخلاف الذمي . فلماذا لا يقتل الحر بالعبد وكلهم مؤمنون . وقد قال النبي ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم »(١) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله تعالى : ﴿ يَسأَلونكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٌ فيهِ ﴾(٢) من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلتم . إنهم يقدمون ما بيانه أهم وهم به أغنى ؟ .

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر ، وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمته ، وكان اهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدم في الذكر ، وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وهلا اكتفى بضميره فقال : هو كبير ؟ وأنت إذا قلت : سألته عن زيد هو في الدار كان أوجز من أن تقول أزيد في الدار ؟

قيل : في إعادته بلفظ الظاهر بلاغة بديعة ، وهو تعليق الحكم الخبري باسم القتال فيه

---

(١) ورد الحديث في سنن أبي داود (كتاب الجهاد) ، النسائي في (كتاب القسامة) ابن ماجه (كتاب الديات) ، ابن حنبل ١٩/١ ، ١٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

عموماً ، ولو أتى بالمضمر فقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام .

ونظير هذه القاعدة قوله ﷺ - وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال - : «هو الطهور ماؤه »[1] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : « نعم توضئوا به » لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عن قوله : « نعم توضئوا » إلى جواب عام يقتضي تعليق الحكم والطهور به بنفس مائه من حيث هو ، فأفاد استمرار الحكم على الدوام ، وتعلقه بعموم الأمة وبطل توهم قصره على السبب ، فتأمله فإنه بديع .

فكذلك في الآية لما قال : ﴿ قتال فيه كبير ﴾ فجعل الخبر : ﴿ كبير ﴾ واقعاً عن ﴿ قتال فيه ﴾ . فيتعلق الحكم به على العموم . ولفظ « المضمر » لا يقتضي ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ والَّذينَ يُمَسِّكونَ بالكتابِ وأقاموا الصَّلاةَ إنَّا لا نُضِيعُ أجرَ المصلحِينَ ﴾[2] ولم يقل أجرهم ، تعليقاً لهذا الحكم بالوصف وهو كونهم مصلحين ، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور .

وقريب منه وهو ألطف معنى قوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن المحيضِ قلْ هُوَ أذىً ، فاعتزلُوا النساءَ في المحيضِ ﴾[3] ولم يقل فيه تعليقاً بحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وأنه هو سبب الاعتزال ، وقال : ﴿ قل هو أذى ﴾ ولم يقل : ﴿ المحيض أذى ﴾ لأنه جاء به على الأصل ، لأنه لو كرره لثقل اللفظ به لتكرره ثلاث مرات ، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً ، بخلاف قوله : ﴿ قل هو أذى ﴾ فإنه إخبار بالواقع ، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم به فإنه يعلم بالشرع ، فتأمله .

(مسألة حول نكاح الكتابية)

قال شيخ الإسلام

عن قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركاتِ ﴾[4] وقد أباح العلماء التزويج بالنصرانية

---

(١) ورد الحديث في : ابن حنبل ١/ ٢٧٩ ولفظه : ماء البحر طهور .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

(٤) سروة البقرة الآية ٢٢١ .

واليهودية ، فهل هما من المشركين أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد الله نكاح الكتابية جائز بالآية التي في المائدة قال تعالى : ﴿ وطعامُ الَّذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم ، وطعامكُمْ حلٌّ لهم ، والمحصناتُ مِنَ المؤمناتِ ، والمحصناتُ من الَّذينَ أوتُوا الكتابَ من قبلكُمْ ﴾(1) وهذا مذهب جماهير السلف والخلف من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد روي عن ابن عمر : أنه كره نكاح النصرانية ، وقال : لا أعلم شركاً أعظم ممن تقول أن ربها عيسى ابن مريم .

وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع ، وقد احتجوا بالآية التي في سورة البقرة وبقوله : ﴿ ولا تمسكوا بعصمِ الكوافرِ ﴾(2) .

والجواب من آية البقرة من ثلاثة أوجه .

(أحدها) أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين ، فجعل أهل الكتاب غير المشركين بدليل قوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمنُوا والَّذينَ هَادُوا والنَّصارى والصَّابئينَ مَنْ آمنَ بِالله واليومِ الآخِرِ ﴾(3) .

فإن قيل : فقد وصفهم بالشرك بقوله : ﴿ اتَّخذُوا أحبَارهُمْ ورهبانَهُم أرباباً مِنْ دونِ الله والمسيحَ ابن مريمَ ، وما أُمِرُوا إلاَّ ليعبدُوا إلهاً واحداً ، لا إلهَ إلاَّ هُوَ سبحانَهُ عمَّا يُشركونَ ﴾(4) .

قيل أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك ، فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد فكل ؛ من آمن بالرسل والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك ، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك ، كما قال : ﴿ سبحانهُ وتعالىٰ عمَّا يُشرِكُونَ ﴾ . فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلأجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم يأمر الله به ، وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك .

فإذا قيل : أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ، فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه ، كما إذا قيل : المسلمون وأمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا اتحاد ، ولا رفض ، ولا تكذيب بالقدر ، ولا غير ذلك من البدع وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد

(1) سورة المائدة الآية ٥ .

(2) سورة الممتحنة الآية ١٠ .

(3) سورة البقرة الآية ٦٢ .

(4) سورة التوبة الآية ٣١ .

ابتدع ، لكن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة ، فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد ، بخلاف أهل الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالأسم ، بل قال : ﴿ عما يشركون ﴾ بالفعل ، وآية البقرة قال فيها : ﴿ المشركين ﴾ و ﴿المشركات ﴾ بالاسم ، والاسم أوكد من الفعل .

(الوجه الثاني) أن يقال : ان شملهم لفظ ﴿ المشركين ﴾ في سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفرداً ومقروناً . فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب ، وإذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم ، كما قيل : مثل هذا في اسم الفقير والمسكين ونحو ذلك ، فعلى هذا يقال : آية البقرة عامة ، وتلك خاصة ، والخاص يقدم على العام .

(الوجه الثالث) أن يقال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء ، وقد جاء في الحديث المائدة من[1] . [آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها] .

(مسألة : الصدقة وما يقترن بها من أحوال)

فصل

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

لما ذكر سبحانه ما يبطل الصدقة من المن والأذى ومن الرياء ، ومثله بالتراب على الصنوان إذا أصابه المطر ، ولهذا قال : ﴿ ولا يؤمن باللهِ واليوم الآخر ﴾ لأن الإيمان بأحدهما لا ينفع هنا ؟ بخلاف قوله في النساء : ﴿ ان اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ مختالاً فخوراً ﴾ إلى قوله : ﴿ والَّذينَ ينفقونَ أموالهم رئاءَ النَّاسِ ، ولا يؤمنونَ بالله ولا باليومِ الآخر ﴾ [2] .

فإنه في معرض الذم ، فذكر غايته وذكر ما يقابله وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم .

فالأول الإخلاص .

و« التثبيت » هو التثبت كقوله : ﴿ ولو أنَّهم فعلوا ما يُوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لهم وأشد

---

(١) آخر ما وجد من الأصل ، وتكملة الحديث من : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، والحديث من رواية حبيب وعطية عن الرسول : انظر الدر المنثور ٢/٢٥٢ . تفسير سورة المائدة .

(٢) سورة النساء الآيات (٣٦ - ٣٨) .

تثبيتاً﴾ (١) كقولـه : ﴿ وتبتل إليـه تبتيلا ﴾ ويشبـه ـ والله أعلم ـ أن يكون هـذا من باب قـدم وتقـدم كقولـه : ﴿ لا تقدِّمُـوا بين يـدي اللهِ ورسـولـِهِ ﴾ فتبتـل وتثبت لازم بمعنى ثبت (٢) لأن التثبت هو القوة والمكنة ، وضده الزلزلـة والرجفـة ، فان الصـدقة من جنس القتـال ، فالجبـان يرجف ، والشجاع يثبت ، ولهـذا قال النبي ﷺ « وأمـا الخيلاء التي يحبهـا الله فاختيـال الرجـل بنفسه عند الحرب ، واختياله بنفسه عند الصدقة » (٣) لأنه مقام ثبات وقوة ، فالخيلاء تناسبه ، وإنما الذي لا يحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل . فأما المختـال مع العـطاء أو القتال فيحبه .

وقوله ﴿من أنفسهم﴾ أي ليس المقوى له من خـارج كالـذي يثبت وقت الحرب لإمسـاك أصحابه له ، وهذا كقوله : ﴿ وإذا ما غضبـوا هم يغفرون ﴾ . بـل تثبته ومغفـرته من جهـة نفسه .

وقد ذكر الله سبحانه في البقرة والنساء الأقسام الأربعة في العطاء .

إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم في النساء (٤) .

أو يعطي مع الكراهية والمن والأذى ، فلا يكون بتثبيت وهو المذموم في البقرة (٥) .

أو مع الرياء فهو المذموم في السورتين ، فبقي القسم الـرابع : ابتغـاء رضوان الله وتثبيتـاً من أنفسهم (٦) .

ونـظيره « الصـلاة » إما أن لا يصـلي ، أو يصلي ريـاء أو كسـلان ، أو يصـلي مخلصـاً ، والأقسام الثلاثة الأول مذمومة .

وكـذلك « الـزكاة » ونـظير ذلك « الهجـرة ، والجهاد » فـإن الناس فيهـما أربعة أقسـام ، وكذلك ﴿ إذا لقيتُمْ فئةً فاثبتوا واذكروا اللَّهَ كثيراً ﴾ في الثبات والذكر ، وكذلك : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ . في الصبر والرحمة أربعة أقسام .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٦ .

(٢) هنا كلمات غير متضحة .

(٣) ورد هـذا الحديث بـألفاظ مختلفـة في : النسائي (كتـاب الزكـاة) ، أبي داود في (كتاب الجهـاد) ، ابن حنبل ٤٤٥/٥ ، ٤٤٦ .

(٤) وهو المشار إليه بالآية الكريمة ، « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ويأمرون الناس بـالبخل » الآيـة رقم ٣٦ ، ٣٧ من سورة النساء .

(٥) وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كـالذي ينفق مـاله رئـاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية رقم ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٦) وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثـل جنة بـربوة أصـابها وابل فآتت أكلها ضعفين ﴾ الآية رقم ٢٦٥ من سورة البقرة .

وكذلك ﴿ استعينوا بالصبرِ والصّلاةِ ﴾ فهم في الصبر والصلاة [أربعة أقسام] فعامة هذه الأشفاع التي في القرآن : إما عملان ، وإما وصفان في عمل : انقسم الناس فيها قسمة رباعية ، ثم إن كانا عملين منفصلين كالصلاة والصبر ، والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع أحدهما ولو ترك الآخر .

وإن كانا شرطين في عمل كالاخلاص والتثبت لم ينفع أحدهما ، فان المن والأذى محبط ، كما أن الرياء محبط ، كما دل عليه القرآن ، ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والبر والتقوى والحق والصبر ، وأفضل الإيمان السماحة والصبر .

بخلاف الأشفاع في الذم كالإفك والإثم ، والاختيال ، والفخر ، والشح ، والجبن ، والإثم والعدوان ، فان الذم ينال أحدهما مفرداً ومقروناً ، لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته ، قد لا تحصل المنفعة إلا بتمامه ، والشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر في الجملة غالباً ، ولهذا فرق في الأسماء بين الأمر والنهي ، والإثبات والنفي ، فإذا أمر بالشيء اقتضى كماله ، وإذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه ، ولهذا حيث أمر الله بالنكاح - كما في المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره ، وكما في الإحصان - فلا بد من الكمال بالعقد والدخول ، وحيث نهى عنه كما في ذوات المحارم فالنهي عن كل منهما على انفراده ، وهذا مذهب مالك وأحمد المنصوص عنه إذا حلف ليتزوجن لم يبر إلا بالعقد والدخول ، بخلاف ما إذا حلف لا يتزوج فإنه يحنث بالعقد ، وكذلك إذا حلف لا يفعل شيئاً حنث بفعل بعضه ، بخلاف ما إذا حلف ليفعلنه فان دلالة الاسم على كل وبعض تختلف باختلاف النفي والإثبات .

ولهذا لما أمر الله بالطهارة والصلاة ، والزكاة والحج كان الواجب الإتمام ، كما قال تعالى : ﴿ بكلمات فأتمهن ﴾ وقال : ﴿وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

ولما نهى عن القتل والزنا والسرقة والشرب كان ناهياً عن أبعاض ذلك ، بل وعن مقدماته أيضاً ، وإن كان الاسم لا يتناوله في الإثبات ؛ ولهذا فرق في الأسماء النكرات بين النفي والإثبات ؛ والأفعال كلها نكرات ، وفرق بين الأمر والنهي بين التكرار وغيره ، وقال ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ؛ وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » (١) .

---

(١) ورد في هذا الحديث في : البخاري ٩/٩٤ - ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة - باب الاقتداء برسول الله ﷺ) ، وفي مسلم مع خلاف في اللفظ ٢ - ٩٧٥ (كتاب الحج . باب فرض الحج مرة في العمر) ، النسائي ٨٣/٥ (كتاب المناسك . باب وجوب الحج) ، ابن ماجة ٣/١ (المقدمة . اتباع سنة رسول الله ﷺ) .

وإنما اختلف في المعارف المنفية على روايتين ، كما في قوله : لا تأخذ الدراهم ولا تكلم الناس .

قال شيخ الإسلام
أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه .
فصل

في قوله تعالى : ﴿ وإنْ تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخْفُوه يحاسِبكُمْ بهِ الله ، فيغفر لمنْ يشاءُ ويعذِّب من يشاءُ ، والله علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ﴾ قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : لما أنزل الله : ﴿ إنْ تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخفُوه يحاسِبكُمْ بهِ الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب ، وقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من العمل ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها ﴿ آمنَ الرَّسولُ بما أُنزِلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنونَ ، كلٌّ آمَن باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ ، لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؛ وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانكَ ربَّنا وإليكَ المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلَّا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبتْ ، ربَّنا لا تؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : نعم ! ﴿ ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملتهُ على الَّذينَ من قبلنا ﴾ قال : نعم ! ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم . ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : نعم [(١)] .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه وقال : قد فعلت ، قد فعلت ، بدل نعم [(٢)] .

---

(١) ورد هذا الحديث من طرق عدة فرواه مسلم عن يزيد بن وكيع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه الإمام أحمد بنفس الإسناد في مسنده ، كما رواه الإمام أحمد أيضاً عن وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي ذكر « قد فعلت » بدلا من « نعم » عقب كل دعاء . وذكره ابن جرير في تفسير الآية المذكورة . انظر البخاري ٥/٤٠ - (كتاب التفسير ، باب قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم) ، مسلم (كتاب التفسير) ابن كثير ١/٣٣٨ - ٣٤٠ .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسير هذه الواقعة عن ابن عباس من طرق عدة وفيها « قد فعلت » بدلا من « نعم » انظر التفسير ١/٣٣٨ .

(أقوال السلف في الآية)

ولهذا قال كثير من السلف والخلف : إنها منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين وسعيد بن جبير وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي ، وابن زيد [1] ، ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة ، بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم ، فيأخذ من يشاء ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر ، والحسن واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى ، وقالوا : هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ [2] .

(رأي ابن تيمية في نسخ الآية)

و« فصل الخطاب » : أن لفظ « النسخ » مجمل ، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه ، من عموم أو إطلاق أو غير ذلك ، كما قال من قال : إن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ﴿ وجاهِدُوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ ﴾ نسخ بقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وليس بين الآيتين تناقض، لكن قد يفهم بعض الناس من قوله : ﴿ حق تقاته ﴾ ﴿ وحق جهاده ﴾ الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا ، كما ينسخ الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . وإن لم يكن نسخ ما أنزله ، بل نسخ ما ألقاه الشيطان ، إما من الأنفس أو من الأسماع أو من اللسان .

وكذلك ينسخ الله ما يقع في النفوس من فهم معنى ، وإن كانت الآية لم تدل عليه لكنه

---

(١) ذكر البخاري في صحيحه : أخبرنا روح . أخبرنا شعبة عن خالد الحذَّاء عن مروان الأصفر . عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - يقول البخاري أحسبه ابن عمر - وإن تبدو ما في انفسكم أو تخفوه قال : نسختها الآية بعدها » انظر البخاري ٥/٤١ (كتاب التفسير) ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : وهكذا روي عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ، ومحمد بن كعب القرظي ، وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة ، إنها منسوخة بالآية التي بعدها .

وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم السنّة من طريق قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » انظر ابن كثير ١/٣٣٩ .

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن عباس أن هذه الآية لم تنسخ ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله : (يحاسبكم به الله) يقول يخبركم . وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب .

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه .

وعن الحسن البصري أنها محكمة لم تنسخ . واختار ابن جرير هذا واحتج لرأيه بأنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر ، وقد يحاسب ويعاقب . انظر تفسير الطبري لهذه الآية وانظر كذلك ابن كثير ١/٣٤ .

محتمل ، وهذه الآية من هذا الباب ، فإن قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم ﴾ الآية إنما تدل على أن الله يحاسب بما في النفوس لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس ، وقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ يقتضي أن الأمر إليه في المغفرة والعذاب لا إلى غيره .

ولا يقتضي أنه يغفر ويعذب بلا حكمة ولا عدل ، كما قد يظنه من يظنه من الناس ، حتى يجوزوا أنه يعذب على الأمر اليسير من السيئات مع كثرة الحسنات وعظمها ، وأن الرجلين اللذين لهما حسنات وسيئات يغفر لأحدهما مع كثرة سيئاته وقلة حسناته ، ويعاقب الآخر على السيئة الواحدة مع كثرة حسناته ، ويجعل درجة ذاك في الجنة فوق درجة الثاني .

وهؤلاء يجوزون أن يعذب الله الناس بلا ذنب . وأن يكلفهم ما لا يطيقون ويعذبهم على تركه ، والصحابة إنما هربوا وخافوا أن يكون الأمر من هذا الجنس فقالوا : لا طاقة لنا بهذا ، فإنه إن كلفنا ما لا نطيق عذبنا . فنسخ الله هذا الظن وبين أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون أنه يكلف العبد ما لا يطيقه ، ويعذبه عليه ، وهذا القول لم يعرف عن أحد من السلف والأئمة ، بل أقوالهم تناقض ذلك حتى أن سفيان بن عيينة سئل عن قوله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال : إلا يسرها ، ولم يكلفها طاقتها . قال البغوي : وهذا قول حسن ، لأن الوسع ما دون الطاقة وإنما قاله طائفة من المتأخرين لما ناظروا المعتزلة في : « مسائل القدر » وسلك هؤلاء مسلك الجبر جهم واتباعه ، فقالوا هذا القول وصاروا فيه على مراتب ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

قالت ابن الأنباري في قوله : ﴿ولا تحملنا ما لا طاقةَ لنا به﴾ أي لا تحملنا ما يثقل علينا اداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه . قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ، فان الرجل منهم يقول للرجل ما أطيق النظر إليك وهو مطيق لذلك ، لكنه ثقيل عليه النظر إليه ، قال : ومثله قوله : (ما كانوا يستطيعون السمع) .

قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم ، بل هذا مما اتفق عليه العقلاء .

و« الاستطاعة في الشرع » هي ما لا يحصل معه للمكلف ضرر راجح كاستطاعة الصيام والقيام ، فمتى كان يزيد في المرض او يؤخر البرء لم يكن مستطيعاً لأن في ذلك مضرة راجحة ، بخلاف هؤلاء فانهم كانوا لا يستطيعون السمع لبغض الحق وثقله عليهم : إما حسداً لقائله ، وإما اتباعاً لهوى ورين الكفر والمعاصي على القلوب ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد الا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

والمقصود أن السلف لم يكن فيهم من يقول : إن العبد لا يكون مستطيعاً إلا في حال فعله ، وأنه قبل الفعل لم يكن مستطيعاً ، فهذا لم يأت الشرع به قط ، ولا اللغة ، ولا دل عليه عقل ، بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والرب تعالى يعلم أن العبد لا يفعل مع أنه مستطيع له ، والمعلوم أنه لا يفعله ، ولا يريده لا أنه لا يقدر عليه ، والعلم يطابق المعلوم ، فالله يعلم ممن استطاع الحج والقيام والصيام أنه مستطيع ، ويعلم أن هذا مستطيع يفعل مستطاعه ؛ فالمعلوم هو عدم الفعل لعدم إرادة العبد ، لا لعدم استطاعته . كالمقدورات له التي يعلم أنه لا يفعلها لعدم إرادته لها لا لعدم قدرته عليها ، والعبد قادر على أن يفعل ، وقد علم أنه لا يفعل مع القدرة ، ولهذا يعذبه لأنه إنما أمره بما استطاع لا بما لا يستطيع ومن لم يستطع لم يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لا يفعل فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله .

قيل : هذه مغلطة ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يلزم فيها تغيير العلم وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه ، لا عدم وقوعه ، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعرف علم الله إلا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بشيء يغير العلم ، بل هو قادر على فعل ما لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا انه لا يقع .

وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك ، بل العبد يقدر على وقوعه ، وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذ وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فاذا وقع كان الله عالماً أنه سيقع ، وإذا لم يقع كان الله عالماً بأنه لا يقع البتة فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال .

ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء إلا الرب ، فإن الأمور نوعان :

« نوع » علم الله أنه سيكون .

و« نوع » علم الله أنه لا يكون .
فـ« الأول » لا بد من وقوعه .

و« الثاني » لا يقع البتة فما علم الله أنه سيقع يعلم أنه يقع بمشيئته وقدرته ، وما علم أنه لا يقع يعلم أنه لا يشاؤه ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما « المعتزلة » فعندهم أنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، وأولئك «المجبرة» في جانب ، وهؤلاء في جانب ، وأهل السنة وسط .

وما يفعله العباد باختيارهم يعلم سبحانه أنهم فعلوه بقدرتهم ومشيئتهم ، وما لم يفعلوه مع قدرتهم عليه يعلم أنهم لم يفعلوه لعدم إرادتهم له ، لا لعدم قدرتهم عليه ، وهو سبحانه الخالق للعباد وقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وكل ذلك مقدور للرب ، وليس هذا مقدوراً بين قادرين بل القادر المخلوق هو وقدرته ومقدوره مقدور للخالق مخلوق له .

و« المقصود هنا » أن قوله تعالى : ﴿ وأن تُبدوا ما في أنفسكُمْ أو تخفوهُ يحاسِبْكُم به الله ﴾ حق ، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه فمن فهم أن الله يكلف نفساً ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه .

ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه ، فقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ رد للأول ، وقوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ رد للثاني ، وقوله : ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ كقوله في آل عمران : ﴿ ولله ما في السَّمواتِ وما في الأرض يغفر لمن يشاءُ ويعذب من يشاءُ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (١) وقوله : ﴿ ألم تعلم أنَّ الله لهُ ملكُ السَّمواتِ والأرضِ يُعذب مَنْ يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ والله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾(٢) ونحو ذلك .

وقد علمنا أنه لا يغفر أن يشرك به ، وأنه لا يعذب المؤمنين ، وأنه يغفر لمن تاب ، كذلك قوله : ﴿ وإن تُبدُوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخفُوهُ ﴾ الآية .

ودلت هذه الآية على أنه سبحانه يحاسب بما في النفوس ، وقد قال عمر : زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . و« المحاسبة » تقتضي أن ذلك يحسب ويحصى .

وأما « المغفرة ، والعذاب » فقد دل الكتاب والسنة على أن من في قلبه الكفر وبغض الرسول وبغض ما جاء به إنه كافر بالله ورسوله وقد عفى الله لهذه الأمة ـ وهم المؤمنون حقاً ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٠ .

الذين لم يرتابوا ـ عما حدثت به أنفسها مالا تتكلم به أو تعمل ، كما هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس ، وروى عن النبي ﷺ « إن الذي يهم بالحسنة تكتب له ، والذي يهم بالسيئة لا تكتب عليه حتى يعملها »[1] إذا كان مؤمناً من عادته عمل الحسنات وترك السيئات إن ترك السيئة لله كتبت له حسنة ، فإذا أبدى العبد ما في نفسه من الشر بقول أو فعل صار من الأعمال التي يستحق عليها الذم والعقاب ، وان أخفى ذلك وكان ما أخفاه متضمناً لترك الإيمان بالله والرسول مثل الشك فيما جاء به الرسول أو بغضه كان معاقباً على ما أخفاه في نفسه من ذلك ، لأنه ترك الإيمان الذي لا نجاة ولا سعادة إلا به ، وأما إن كان وسواساً والعبد يكرهه فهذا صريح الإيمان ، كما هو مصرح به في الصحيح[2] .

(معنى الوسوسة والوسع)

وهذه « الوسوسة » هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان ، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ .

و« الوسع » فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلفها ما تضيق عنه فلا تسعه ، وهو المقدور عليه المستطاع ، وقال بعض الناس : ان « الوسع » اسم لما يسع الانسان ولا يضيق عليه . وليس كذلك ، بل ما يسع الإنسان هو مباح له ، وما لم يسعه ليس مأموراً به ، فما يسعه قد يؤمر به وأما ما لا يسعه فهو المباح يقال : يسعني أن أفعل كذا ، ولا يسعني أن أفعل كذا ، والمباح هو الواسع ، ومنه باحة الدار ، فالمباح لك أن تفعله . هو يسعك ولا تخرج عنه ، ومنه يقال : رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها الى البدعة : أي فيما أمر الله به وما أباحه ما يكفي المؤمن المتبع في دينه ودنياه لا يحتاج ان يخرج عنه الى ما نهى عنه .

وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله ، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعك هو . وقد

---

(١) أورد البخاري هذا الحديث في صحيحه ١٢٨/٨ (كتاب الرقائق باب من هم بحسنه أو سيئة)وهو من رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة ، وانظر أيضاً مسلم (كتاب الإيمان)، الترمذي (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام) ، الدارمي (كتاب الرقاق) ، ابن حنبل ١ ـ ٢٢٧ .

(٢) روى مسلم في صحيحه من حديث مغيرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال « تلك محض الايمان » انظر : مسلم « كتاب الإيمان » حديث رقم ٢١١ .
وانظر ابن كثير ٣٤١/١ وفيه : تلك صريح الايمان .

يقال : لا يسعني تركه ، بل تركه محرم وقد قال تعالى : ﴿ تلكَ حدودُ الله فلا تقربوهَا ﴾[1] وهو أول الحرام وقال : ﴿ تلكَ حدودُ الله فلاَ تعتدُوها ﴾[2] وهي آخر الحلال ، وقال : ﴿ ذلكَ بأنَّ الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3] وهذا التغيير نوعان :

(أحدهما) : أن يبدو ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتب عليه الذم والعقاب .

و(الثاني) أن يغيروا الإيمان الذي في قلوبهم بضده من الريب والشك والبغض، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله ، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور ، وهناك على فعل المحظور .

وكذلك ما في النفس مما يناقض محبة الله - والتوكل عليه والإخلاص له والشكر له - يعاقب عليه ، لأن هذه الأمور كلها واجبة ، فإذا خلا القلب عنها واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات .

وبهذا التفصيل تزول شبه كثيرة ، ويحصل الجمع بين النصوص ، فانها كلها متفقة على ذلك ، فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم ، بل أضمرت الكفر ، قال تعالى : ﴿ يقولونَ بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾[4] وقال : ﴿ في قُلوبهم مرضٌ ﴾[5] وقال : ﴿ أُولئكَ الَّذينَ لم يُرِدِ الله أَنْ يُطَّهر قلوبهُمْ ﴾[6] فالمنافق لا بد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره . كما قال عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى عن المنافقين : ﴿ ولوْ نَشاءُ لأريناكَهُمْ فلعرفتهم بسيماهُمْ ﴾[7] ثم قال : ﴿ ولتعرفنهم في لحنِ القولِ ﴾ وهو جواب قسم محذوف أي : والله لتعرفهم في لحن القول ! فمعرفة المنافق في لحن القول لا بد منها ، وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة .

ولما كانت هذه الآية : ﴿ إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوهُ ﴾ خبراً من الله ، ليس فيها إثبات إيمان للعبد ، بخلاف الآيتين بعدها ، كما قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .

(٣) سورة الرعد الآية ١١ .

(٤) سورة الفتح الآية ١١ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٠ .

(٦) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٧) سورة محمد الآية ٣٠ .

من قرأهما في ليلة كفتاه »[1] متفق عليه ، وهما قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسول بما أنزلَ اليهِ من ربّه والمؤمنونَ ﴾ إلى آخرها .

وكلام السلف يوافق ما ذكرناه ، قال ابن عباس : هذه الآية لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يقول : أني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم تطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يقول : يخبركم به الله ، وأما أهل الشرك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب ، وهو قوله : ﴿ يغفر لمنْ يشاءُ ويعذِّبُ من يشاء ﴾[2] .

وقد روي عن ابن عباس : أنها نزلت في كتمان الشهادة ، وروى ذلك عن عكرمة والشعبي .

وكتمان الشهادة من باب ترك الواجب ، وذلك كأظهار العيب الذي يجب كتمانه[3] ، وكتمان العلم الذي يجب إظهاره .

وعن مجاهد أنه الشك واليقين ، وهذا أيضاً من باب ترك الواجب ، لأن اليقين واجب .

وروى عن عائشة : ما أعلنت فإن الله يحاسبك به ، وأما ما أخفيت فما عجلت لك به العقوبة في الدنيا . وهذا قد يكون مما يعاقب فيه العبد بالغم ، كما سئل سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال : هو ذنب هممت به في سرك ولم تفعله فجزيت هماً به ، فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر : والعلانية بالعلانية .

وروى عنها مرفوعاً قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ إنْ تُبدُوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخْفوهُ يحاسِبُكُمْ به الله ﴾ فقال يا عائشة ! هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة والحمى ، حتى الشوكة والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها فيجدها في جيبه ، حتى إن

---

(١) ورد هذا الحديث في : البخاري ٢٣١/٩ ـ ٢٣٢ (كتاب التفسير . فضل سورة البقرة) ، وقد ذكر ابن كثير في فضل الآيتين من آخر سورة البقرة أحاديث كثيرة ، وأورده بينها هذا الحديث وعلق عليه بقوله « . . . وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش بإسناده مثله ، وهو في الصحيحين من طريق الثوري عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن ، ومن طريق الثوري عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن ، ومن طريق ابن مسعود أيضاً ، كما رواه بن حنبل في مسنده .
انظر ابن كثير ٣٤٠/١ ـ ٣٤٣ .

(٢) روى ابن كثير هذا الأثر في تفسيره عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . . . الخ . كما روى نحوه عن ابن جرير والضحاك ومجاهد ، والحسن البصري . وهؤلاء جميعاً على أن الآية لم تنسخ .

(٣) في س : ككتمان العيب الذي يجب اظهاره .

المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير »(١) .

قلت : هذا المرفوع هو - والله أعلم - بيان ما يعاقب به المؤمن في الدنيا : وليس فيه أن كل ما أخفاه يعاقب به . بل فيه أنه إذا عوقب على ما أخفاه عوقب بمثل ذلك ، وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة .

وقد روى الروياني في مسنده من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر امسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة »(٢)، وقد قال تعالى : ﴿ فأثابكُمْ غما بغم لكيلا تحزنُوا على ما فاتكُمْ ولا ما أصابكُمْ والله خبيرٌ بما تعملون، ثم أَنْزَلَ عليكُمْ مِنْ بعدِ الغَمِّ أمنَةً نُعاساً يغشىٰ طائفةً منكُمْ وطائفةٌ قد أهمتهُمْ أنفُسُهم ، يظُنُّونَ بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ ، يقولُونَ هل لنا مِنَ الأمرِ شيءٌ﴾ ﴿يقولونَ لو كانَ لنا منَ الأمرِ شيءٌ ما قُتلنَا ههنا ، قُلْ : لو كنْتُمْ في بيوتكُمْ لبَرَزَ الَّذين كُتِبَ عليهِمُ القتلُ إلىٰ مضاجعِهِم ، وليبتلى الله ما في صدوركُمْ ، وليمحِّصَ ما في قلوبكُمْ والله عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ﴾(٣) .

فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظناً ينافي اليقين بالقدر ، وظناً ينافي ان الله ينصر رسوله ، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك ، وظن الجاهلية ، ومثل هذا كثير .

(علاقة الجزاء بالنية)

ومما يدخل في ذلك نيات الأعمال ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى و« النية » هي مما يخفيه الإنسان في نفسه ، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب ، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب ، كما قال تعالى : ﴿ فويلٌ للمصلين الَّذينَ هم عن صلاتهم ساهونَ الَّذين هم يراؤ ون ﴾(٤) . وقال : ﴿ وَإذا قامُوا الىٰ الصَّلاة

---

(١) أورد ابن كثير هذا الحديث في تفسيره عن علي بن زيد عن أبيه قال : سالت عائشة عن هذه الآية « وإن تبدوا ما أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فقالت : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقالت : هذه مبايعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كمه فيفقدها فيفزع لها ثم يجدها في خبته حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر ، يقول ابن كثير : كذا رواه الترمذي وابن جرير من طريق حماد بن سمحة ، وقال الترمذي : غريب لا نعرفه الا من حديثه .

كما ضعف ابن كثيرَ علي بن زيد وقال عنه ، ضعيف يغرب في رواياته وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله عن عائشة . وليس لها عنها في الكتب سواه . أي سوى هذا الحديث .

انظر : ابن كثير ١/٣٤٠ ، ابن حنبل ٦/٢١٨ .

(٢) ورد الحديث بروايات مختلفة وبالفاظ متقاربة في : الترمذي (كتاب الزهد) ابو داود (كتاب الأدب)، ابن حنبل ٥/ ٢٦ .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٥٣ - ١٥٤) .

(٤) سورة الماعون (٤ - ٦) .

قامُوا كُسالىٰ يراؤ ونَ النَّاسَ ﴾[١] .

وفي حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال : عالم قارىء. والذي قاتل ليقال جرىء وشجاع . والذي تصدق ليقال جواد كريم [٢] فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم ، وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم ، لم يقصدوا بذلك وجه الله ، وإن كانت صور أعمالهم صوراً حسنة ، فهؤلاء اذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب ، كما في الحديث : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس اليه فله من عمله النار »[٣] وفي الحديث الآخر : « من طلب علماً مما لا يبتغي به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »[٤] .

وفي « الجملة » القلب هو الأصل ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك الأعضاء والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده ، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب »[٥] فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده ، فيكون هذا مما أبداه مما لا أخفاه .

وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب فانه الأصل وإن وجب على غيره تبعاً ، فالعبد المأمور المنهى إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه ، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب ، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به ، كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر ، وقصد الامتثال كان أول المعصية منه ، بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك ، ولهذا قال في حق الشقي : ﴿ فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ﴾[٦] الآيات ، وقال في حق السعداء : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ في غير موضع .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٢ .

(٢) جاء هذا الحديث في سنن الترمذي (كتاب الزهد) .

(٣) ورد هذا الحديث في الترمذي (كتاب العلم) ، أبو داود (المقدمة) ، ابن ماجه (مقدمة) ، ابن حنبل ١ / ١٦٠ .

(٤) أورده ابن ماجه في المقدمة رقم ٣٣.

(٥) ورد هذا الحديث في البخاري ١ / ٢٠ (كتاب الايمان باب فضل من استبرأ لدينه) وهو برواية النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحلال بين والحرام بين وبينها مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك ان يواقعه الا وان لكل ملك حمى . ألا أن حمى الله في أرضه محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » وانظر أيضاً : مسلم (كتاب المساقاة) ابن ماجه (كتاب الفتن)، الدارمي (كتاب البيوع) .

(٦) سورة القيامة الآية ٢٢.

والمأمور نوعان :

« نوع » هو عمل ظاهر على الجوارح ، وهذا لا يكون إلا بعلم القلب وإرادته ، فالقلب هو الأصل فيه ، كالوضوء والاغتسال . وكافعال الصلاة : من القيام ، والركوع ، والسجود ، وافعال الحج : من الوقوف ، والطواف ، وإن كانت أقوالاً فالقلب أخص بها ، فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله ، أو بما يقول ويقصده .

ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر الا من عاقل يعلم ما يقول ويقصده ، فأما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله كلها لغو في الشرع لا يصح منه إيمان ولا كفر ، ولا عقد من العقود ، ولا شيء من الأقوال باتفاق المسلمين .

وكذلك النائم اذا تكلم في منامه فأقواله كلها لغو ، سواء تكلم المجنون والنائم بطلاق أو كفر أو غيره ، وهذا بخلاف الطفل فان المجنون والنائم إذا أتلف ما لا ضمنه ، ولو قتل نفساً وجبت ديتها كما تجب دية الخطأ .

(اقوال العلماء في حكم افعال السكران)

وتنازع العلماء في السكران مع اتفاقهم انه لا تصح صلاته لقوله ﷺ : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[1] وهو معروف في السنن .

وتنازعوا في عقود السكران كطلاقه ، وفي أفعاله المحرمة ، كالقتل والزنا هل يجري مجرى العاقل ، أو مجرى المجنون ، أو يفرق بين أقواله وأفعاله وبين بعض ذلك وبعض ؟ على عدة أقوال معروفة .

والذي تدل عليه النصوص والأصول وأقوال الصحابة : أن أقواله هدر ـ كالمجنون ـ لا يقع بها طلاق ولا غيره ، فان الله تعالى قد قال : ﴿ حتى تعلمُوا ما تقولُونَ ﴾ فدل على أنه لا يعلم ما يقول .

والقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه ، فإذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادراً عن القلب ، بل يجري مجرى اللغو ، والشارع لم يرتب المؤاخذة الا على ما يكسبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة ، كما قال : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾[2] ولم يؤاخذ على أقوال وأفعال لم يعلم بها القلب ولم يتعمدها ، وكذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه الا بما قاله أو فعله .

---

(١) ذكره الترمذي في سننه في (كتاب المواقيت) بلفظ مختلف .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥ .

وقـال قوم : إن الله قـد أثبت للقلب كسباً فقـال : ﴿ بمـا كسبت قلوبكم ﴾ . فليس لله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه ، أو هم في قلبه الا يخبره الله به ويحاسبه عليه ، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبصر والفؤادَ كـلُّ أولئكَ كـانَ عنهُ مسئـولاً ﴾[1] وهذا القول ضعيف شاذ ، فان قـولـه : ﴿ يؤاخـذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ إنمـا ذكره لبيـان أنه يؤاخذ في الأعمال بما كسب القلب لا يؤاخذ بلغو الأيمان ، كما قال : ﴿بما عقدتم الايمان ﴾ . فالمؤاخذة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجـوارح . فامـا ما وقـع في النفس ، فإن الله تجاوز عنه ما لم يتكلم به أو يعمل ، وما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب وعلمه فإنه لا يؤاخذ به .

و« ايضاً » فإذا كان السكران لا يصح طلاقـه والصبي المميز تصـح صلاتـه ثم الصبي لا يقع طلاقه فالسكران أولى،وقد قال النبي ﷺ « لماعز » لما اعترف بالحد: « أبك جنون؟قال: لا »[2] ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكـراناً ، فـدل على أن إقـرار السكران بـاطل ، وقضيـة ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر ، فإن الخمر حرمت سنة ثلاث بعـد أحد بـاتفاق النـاس ، وقد ثبت عن عثمان وغيره من الصحابة كعبدالله بن عباس أن طـلاق السكران لا يقـع ، ولم يثبت عن صحابي خلافه .

والذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذاً ضعيفـاً ، وعمدتهم أنـه عاص بـإزالة عقله ، وهذا صحيح يوجب عقوبتـه على المعصيـة التي هي الشرب فيحـد على ذلـك وأما الـطلاق فلا يعـاقب به مسلم عـلى المعصية ؛ ولـو كان كـذلك لكـان كل من شـرب الخمر أو سكـر طلقت امرأته ، وإنما قال من قال : إذا تكلم به طلقت ، فهم اعتبـروا كلامـه لا معصيته ، ثم إنـه في حال سكره قد يعتق ، والعتق قربة ، فإن صححوا عتقه بطل الفرق ، وإن ألغوه فإلغاء الطلاق أولى ، فإن الله يحب العتق ولا يحب الطلاق .

ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغير مسكر كالبنج ، وهو قـول من يسوي بين البنج والسكران من أصحاب الشافعي وموافقيه كأبي الخطاب ، والأكثـرون على الفـرق ، وهو منصـوص أحمد وأبي حنيفـة وغيرهمـا ، لأن الخمر تشتهيهـا النفس وفيها الحـد ،

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) جاء هذا الحديث في البخاري ٨٦/٩ (كتاب الأحكام. باب من حكم في المسجد) من رواية أبي هريرة قال : أتى رجل الى رسول الله ﷺ وهو في المسجد . . فقال يا رسول الله أني زنيت ، فاعرض عنه فلما شهد على نفسه أربعاً قال أبك جنون ؟ قال لا . قال : اذهبوا به فارجموه » وانظر مسلم (كتاب الحـدود)، أبو داود (كتـاب الحدود) التـرمذي (حـدود) النسائي (جنائز) ابن حنبل ٥٣/٢ .

بخلاف البنج فإنه لا حد فيه ، بل فيه التعزير ، لأنه لا يشتهي كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير فيها التعزير . وعامة العلماء على أنه لا حد فيها إلا قولاً نقل عن الحسن ، فهذا فيمن زال عقله .

وأما إذا كان يعلم ما يقوله ، فإن كان قاصداً لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله ، وإن كان مكرها فإن أكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لغو ، مثل كفره ، وإيمانه ، وطلاقه وغيره ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وأبو حنيفة وطائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ وما لا يقبله . قالوا فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكره كالبيع ، بل يقف على إجازته له ، وما لا يقبل الفسخ كالنكاح والطلاق واليمين فإنه يلزم من المكره .

والجمهور ينازعون في هذا الفرق : في ثبوت الوصف ، وفي تعلق الحكم به فإنهم يقولون : النكاح ونحوه يقبل الفسخ ، وكذلك العتق يقبل الفسخ عند الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد ، حتى إن المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق ويعيدونه عبداً ، والأيمان المنعقدة تقبل التحلة ، كما قال تعالى : ﴿ قد فرضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾[1] .

وبسط الكلام على هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » أن القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال ، فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بد فيه من معرفة القلب وقصده وما أمر به من الأقوال وكل ما تقدم ، والمنهى عنه من الأقوال والأفعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب ، وأما ثبوت بعض الأحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم مخطىء أو ناس ، فهذا من باب العدل في حقوق العباد ليس هو من باب العقوبة .

فالمأمور به كما ذكرنا « نوعان » نوع ظاهر على الجوارح ، ونوع باطن في القلب .

« النوع الثاني » ما يكون باطناً في القلب كالإخلاص ، وحب الله ورسوله والتوكل عليه ، والخوف منه ، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول ، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محله ، وهذا النوع هو أصل النوع الأول ، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول ، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له لا يتم شيء من المأمور به ظاهراً إلا بها ، وإلا فلو عمل أعمالاً ظاهرة بدون هذه كان منافقاً ، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالاً ظاهرة توافقها ، وهي أشرف من فروعها ، كما قال

---

(١) سورة التحريم الآية ٢ .

تعالى : ﴿ لن يَنَالَ الله لحومها ولا دِماؤ ها ، ولكن ينالهُ التقوى منكم ﴾[1] .

وكذلك تكذيب الرسول بالقلب وبغضه وحسده والاستكبار عن متابعته أعظم إثماً من أعمال ظاهرة خالية عن هذا ، كالقتل والزنا والشرب والسرقة ، وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة : كالسجود للأوثان ، وسب الرسول ونحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن ، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً ، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله ، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه ، ولم يظهر منا قوتهم في أول الأمر .

وهنا « أصول » تنازع الناس فيها .

منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح ، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟

فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : أنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن ، وإنما هو كافر .

وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعاً وعقلاً كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وقد كفّر السلفُ كوكيع وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول ، وقد قال النبي ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمناً ، حتى أن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلا بد أن يتكلم مع نفسه وفي السر مع من يأمن إليه ، ولا بد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال عثمان . وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط ، فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان .

وذلك أن الجسد تابع للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه ، وإن لم يظهر كل موجبه لمعارض فالمقتضى لظهور موجبه قائم ،

---

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

والمعارض لا يكون لازماً للانسان لزوم القلب له وإنما يكون في بعض الأحوال متعذراً إذا كتم ما في قلبه كمؤمن آل فرعون ، مع أنه قد دعا إلى الإيمان دعاء ظهر به من إيمان قلبه ما لا يظهر من إيمان من أعلن إيمانه بين موافقيه وهذا في معرفة القلب وتصديقه .

ومنها قصد القلب وعزمه إذا قصد الفعل وعزم عليه مع قدرته على ما قصد ، هل يمكن أن لا يوجد شيء مما قصده وعزم عليه ؟ فيه قولان : أصحهما أنه إذا حصل القصد الجازم مع القدرة . وجب وجود المقدور ، وحيث لم يفعل العبد مقدوره دل على أنه ليس هناك قصد جازم ، وقد يحصل قصد جازم مع العجز عن المقدور لكن يحصل معه مقدمات المقدور .

وقيل : بل قد يمكن حصول العزم التام بدون أمر ظاهر . وهذا نظير قول من قال ذلك في المعرفة والتصديق ، وهما من أقوال اتباع جهم الذين نصروا قوله في الإيمان ، كالقاضي أبي بكر[1] وأمثاله ، فانهم نصروا قوله وخالفوا السلف والأئمة وعامة طوائف المسلمين .

وبهذا ينفصل النزاع في « مؤاخذة العبد بالهمة » فمن الناس : من قال : يؤاخذ بها إذا كانت عزماً .

ومنهم من قال : لا يؤاخذ بها .

والتحقيق : إن الهمة إذا صارت عزماً فلا بد أن يقترن بها قول أو فعل ، فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور .

والذين قالوا : يؤاخذ بها احتجوا بقوله « إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار »[2] الحديث ، وهذا لا حجة فيه ، فإنه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا ، كل منهما يريد قتل الآخر ، وهذا ليس عزماً مجرداً ، بل هو عزم من فعل المقدور ، لكنه عاجز عن اتمام مراده ، وهذا يؤاخذ باتفاق المسلمين ، فمن اجتهد على شرب الخمر وسعى في ذلك بقوله وعمله ثم عجز فإنه آثم باتفاق المسلمين ، وهو كالشارب وإن لم يقع منه شرب ، وكذلك من

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المعروف بالباقلاني أو ابن الباقلاني لم تعرف سنة مولده بالتحديد ، توفي سنة ٤٠٣ هـ ، يعد إمام الأشاعرة بعد أبي الحسن مؤسس المذهب . له مؤلفات كثيرة في علم الكلام ونقد الفلسفة والمنطق . ومن أهمها كتاب الدقائق .

انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٣/١٦٠ - ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري ص ٢١٧ - ٢٢٦ ، وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ - ٤٠١ ، تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ - ٣٨٣ ، الاعلام ٧/ ٤٦ .

(٢) جاء هذا الحديث في : البخاري ١/١٥ (كتاب الإيمان . باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ، رواه الأحنف بن قيس قال : ذهبت لأنصر هذا هذا الرجل فلقيني أبو بكر فقال : أين تريد ؟ . قلت أنصر هذا الرجل . قال : ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا إلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار : فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ . قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، وانظر : النسائي (كتاب الجنائز ، ابن حنبل ٢/٥٣) .

اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله ثم عجز فهو آثم كالفاعل ، ومثل ذلك في قتل النفس وغيره ، كما جعل الداعي إلى الخير له مثل أجر المدعو ووزره لأنه أرادة فعل المدعو ، وفعل ما قدر عليه ، فالارادة الجازمة ؛ مع فعل المقدور من ذلك ، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره وقد قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾[1] الآية.

وفصل الخطاب في الآية أن ﴿ أولى الضرر ﴾ نوعان .

نوع لهم عزم تام على الجهاد ولو تمكنوا لما قعدوا ولا تخلفوا وإنما أقعدهم العذر ، فهم كما قال النبي ﷺ : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر »[2] وهم أيضاً كما قال في حديث أبي كبشة الأنماري « هما في الأجر سواء » وكما في حديث أبي موسى « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً »[3] فأثبت له مثل ذلك العمل ، لأن عزمه تام وإنما منعه العذر .

و(النوع الثاني) من ﴿ أولى الضرر ﴾ الذين ليس لهم عزم على الخروج ، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولوا الضرر العازمون عزماً جازماً على الخروج ، وقوله تعالى : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين في نفي الاستواء ، فإذا فصل الأمر فيهم بين العازم وغير العازم بقيت الآية على ظاهرها ، ولو جعل قوله : ﴿ فضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأَنفسهمْ على القاعدينَ درجةً ﴾[4] عاماً في أهل الضرر غيرهم لكان ذلك مناقضاً لقوله : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ ، فإن قوله : ﴿ لا يستوي القاعدون ﴾ ﴿ والمجاهدون ﴾ إنما فيها نفي الاستواء ؛ فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله : ﴿ غير أولى الضرر ﴾ ، ولزم أنه لا يساوي المجاهدين قاعد ولو كان من أولى الضرر ، وهذا خلاف مقصود الآية .

و « أيضاً » ، فالقاعدون إذا كانوا من غير أولى الضرر ، والجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم ، فإنه لا حرج عليهم في القعود ، بل هم موعدون بالحسنى كأولى

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٢) ورد الحديث في البخاري ٣١/٤ (كتاب الجهاد . باب من حبسه العذر عن الغزو) من رواية أنس رضي الله عنه ، وفي مسلم عن جابر رضي الله عنه ٤٩/٦ (كتاب الإمارة : باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) .

(٣) ورد هذا الحديث في : البخاري ٧٠/٤ (كتاب الجهاد : باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة) وهو عن أبي موسى الأشعري . ولفظه : إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً ، وهو بسند أبي موسى (ط الحلبي ٤١٨/٤) مع اختلاف في اللفظ .

(٤) سورة النساء الآية ٩٥ .

الضرر وهذا مثل قوله : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾[1] الآية ، فالوعد بالحسنى شامل لأولى الضرر وغيرهم .

فإن قيل : قد قال في الأولى في فضلهم ﴿ درجة ﴾ ، ثم قال في فضلهم ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ كما قال : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾[2] .

فقوله : ﴿ أعظم درجة ﴾ كما قال في السابقين ﴿ أعظم درجة ﴾ وهذا نصب على التمييز : أي درجتهم أعظم درجة ، وهذا يقتضي تفضيلاً مجملاً يقال : منزلة هذا أعظم وأكبر ، كذلك قوله : ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ الآيات ، ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم إلا بدرجة ، فإن في الحديث الصحيح الذي يرويهابو سعيد وأبو هريرة : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »[3] الحديث ، وفي حديث أبي سعيد : « من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة » فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله ﷺ : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » فقال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله »[4] فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير أولى الضرر مائة درجة ، وهو يبطل قول : أن الوعد بالحسنى والتفضيل بالدرجة مختص بأولى الضرر ، فهذا القول مخالف للكتاب والسنة .

وقد يقال : إن ﴿ درجة ﴾ منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل ، فضل هذا على هذا منزلاً ومقاماً ، وقد يراد ﴿ بالدرجة ﴾ جنس الدرج ، وهي المنزلة والمستقر ، لا يراد به درجة واحدة من العدد ، وقوله : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات ﴾ منصوب ﴿ بفضل ﴾ لأن التفضيل زيادة للمفضل ،

---

(١) سورة الحديد الآية ١٠ .

(٢) سورة التوبة الآيات (١٩ ـ ٢٠) .

(٣) ورد هذا الحديث في البخاري ٤/١٩ (كتاب الجهاد : باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذه سبيلي) ، (كتاب التوجه) ، وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الإمارة ، الفتن) ، الترمذي (كتاب الجنة) ، النسائي (كتاب الجهاد) ، ابن ماجه (كتاب الاداب) ، الدارمي (مقدمة) ، ابن حنبل ٣/٢٦٥ .

(٤) جاء هذا الحديث في : مسلم (كتاب الإمارة) حديث رقم ١١٦ ، أبو داود (كتاب الوتر) ، النسائي (كتاب الجهاد) .

فالتقدير زادهم عليهم أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة .

فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر والوزر أم لا ؟ وأما في استحقاق الأجر والوزر فلا نزاع في ذلك ، وقوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه وفعل مقدورة ، فكلاهما مستحق للنار ، ويبقى الكلام في تساوي القعودين بشيء آخر .

وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم ، فلا تكون عاقبتهما إلا عاقبة سوء ، الغالب والمغلوب ، فإنه لم يحصل له دنيا ولا آخرة ، كما قال الشعبي : أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أشقياء ، وأما الغالب فإنه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة ، وقد يعجل الله له الانتقام في الدنيا ، كما جرى لعامة الغالبين في الفتن ، فإنهم أصيبوا في الدنيا ، كالغالبين في الحرة ، وفتنة أبي مسلم الخراساني ونحو ذلك .

وأما من قال : إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها »(١) وهذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم ، بل فيه أنه عفى عن حديث النفس إلى أن يتكلم أو يعمل ، فدل على أنه ما لم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ ، ولكن ظن من ظن أن ذلك عزم وليس كذلك ، بل ما لم يتكلم أو يعمل لا يكون عزماً ، فإن العزم لا بد أن يقترن به المقدور وإن لم يصل العازم إلى المقصود ، فالذي يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزماً جازماً لا بد أن يتحرك ولو برأسه ، أو يمشي ، أو يأخذ آلة ، أو يتكلم كلمة ، أو يقول أو يفعل شيئاً فهذا كله ما يؤاخذ به كزنا العين واللسان والرجل ، فإن هذا يؤاخذ به ، وهو من مقدمات الزنا التام بالفرج ، وإنما وقع العفو عما لم يبرز خارجاً بقول أو فعل ولم يقترن به أمر ظاهر قط ، فهذا يعفي عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به ، سواء كان المأمور به في القلب وموجبه في الجسد أو كان المأمور ظاهراً في الجسد وفي القلب معرفته وقصده ، فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفواً مثل هم ثابت بلا فعل ، ومثل الوسواس الذي يكرهونه ، وهم يثابون على كراهته ، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه لله تعالى وخوفاً منه .

(دقائق من خواتيم سورة البقرة)
وقال الشيخ رحمه الله

اعلم أن سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ وبارك ، خواتيم (سورة البقرة) من كنز

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ٣/١٩٠ (كتاب العتق . باب الخطأ والنسيان) من رواية أبي هريرة ولفظه (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم) ، انظر سنن النسائي (كتاب الطلاق) ، ابن ماجه (كتاب الطلاق) ، ابن حنبل ٣/٢٥٥ .

تحت العرش لم يؤت منه نبي قبله (1) ، ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين ، وقواعد الإيمان الخمس ، والرد على كل مبطل ، وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي ﷺ وأمته ، ومحبة الله سبحانه لهم ، وتفضيله إياهم على من سواهم ، فاليهنه العلم ، ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ، ولكن لا بد من كليمات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول :

لما كانت (سورة البقرة) سنام القرآن ، وأكثر سوره أحكاماً ، وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه ، وهي مشتملة على ذكر « أقسام الخلق » : المؤمنين ، والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأعمالهم .

وذكر الأدلة الدالة على إثبات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى وحدانيته ، وذكر نعمه ، وإثبات نبوة رسوله ﷺ ، وتقرير المعاد ، وذكر الجنة والنار ، وما فيهما من النعيم والعذاب .

ثم ذكر تخليق العالم العلوي والسفلي .

ثم ذكر خلق آدم عليه السلام ، وإنعامه عليه بالتعليم وإسجاد ملائكته له . وإدخاله الجنة ، ثم ذكر محنته مع إبليس ، وذكر حسن عاقبة آدم عليه السلام .

ثم ذكر « المناظرة » مع اهل الكتاب من اليهود ، وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم ، ثم ذكر النصارى والرد عليهم ، وتقرير عبودية المسيح ، ثم تقرير النسخ ، والحكمة في وقوعه .

ثم بناء البيت الحرام وتقرير تعظيمه ، وذكر بانيه والثناء عليه ، ثم تقرير الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتسفيه من رغب عنها ، ووصية بنيه بها ، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى آخر السورة ، فختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة ، فقال تعالى : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾ .

فأخبر تعالى : أن ما في السموات وما في الأرض ملكه وحده لا يشاركه فيه مشارك ، وهذا يتضمن انفراده بالملك الحق ، والملك العام لكل موجود ، وذلك يتضمن توحيد ربوبيته وتوحيد إلهيته ، فتضمن نفي الولد والصاحبة والشريك ؛ لأن ما في السموات وما في الأرض إذا كان ملكه وخلقه لم يكن له فيهم ولد ولا صاحبة ولا شريك .

وقد استدل سبحانه بعين هذا الدليل في سورة الأنعام ، وسورة مريم ، فقال تعالى :

---

(1) أشار إلى ذلك الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة .
أنظر على سبيل المثال : مسلم (كتاب الايمان) ؛ الترمذي(كتاب التفسير) . تفسير سورة النجم ؛ النسائي (كتاب الصلاة) ؛ ابن حنبل ١/ ٢٨٧ ، ٤/ ١٤٧ .

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ﴾ (١)وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ وما ينبغي للرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولداً ، إن كلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأرض إلَّا آتِى الرَّحمنَ عبداً ﴾ (٢) ويتضمن ذلك أن الرغبة والسؤال والطلب والافتقار لا يكون إلا إليه وحده ؛ إذ هو المالك لما في السموات والأرض .

ولما كان تصرفه سبحانه في خلقه لا يخرج عن العدل والإحسان ، وهو تصرف بخلقه وأمره ، وأخبر أن ما في السموات وما في الأرض ملكه ، فما تصرف خلقاً وأمراً إلا في ملكه الحقيقي ، وكانت سورة البقرة مشتملة من الأمر والخلق على ما لم يشتمل عليه سورة غيرها ـ أخبر تعالى أن ذلك صدر منه في ملكه قال تعالى : ﴿ وإن تُبدوا ما في أنفسِكُمْ أو تُخفوه يحاسبكُمْ بِهِ الله ﴾ ، فهذا متضمن لكمال علمه سبحانه وتعالى بسرائر عباده وظواهرهم ، وإنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه ، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه ، فعلمه عام وملكه عام .

ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك ، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه ، فتضمن ذلك علمه بهم وتعريفهم إياه ، ثم قال : ﴿ فيغفر لمن يشاءُ ويعذِّبُ من يشاء ﴾ فتضمن ذلك قيامه عليهم بالعدل والفضل ، فيغفر لمن يشاء فضلا ، ويعذب من يشاء عدلا ، وذلك يتضمن الثواب والعقاب المستلزم للأمر والنهي المستلزم للرسالة والنبوة .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ﴾ فتضمن ذلك أنه لا يخرج شيء عن قدرته البتة ، وإن كل مقدور واقع بقدره ، ففي ذلك رد على المجوس الثنوية ، والفلاسفة ، والقدرية المجوسية ، وعلى كل من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته ـ وهم طوائف كثيرون .

فتضمنت الآية إثبات التوحيد . وإثبات العلم بالجزئيات والكليات ، وإثبات الشرائع والنبوات ، وإثبات المعاد والثواب والعقاب ، وقيام الرب على خلقه بالعدل والفضل ، وإثبات كمال القدرة وعمومها ، وذلك يتضمن حدوث العالم بأسره ؛ لأن القديم لا يكون مقدوراً ولا مفعولا .

ثم إن إثبات كمال علمه وقدرته يستلزم إثبات سائر صفاته العلى ، وله من كل صفة اسم حسن ، فيتضمن إثبات أسمائه الحسنى ، وكمال القدرة يستلزم أن يكون فعالا لما يريد ، وذلك يتضمن تنزيهه عن كل ما يضاد كماله ، فيتضمن تنزيهه عن الظلم المنافي لكمال غناه وكمال علمه ؛ إذ الظلم إنما يصدر عن محتاج أو جاهل ، وأما الغنى عن كل شيء العالم بكل

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٣ .

شيء سبحانه ، فإنه يستحيل منه الظلم ، كما يستحيل عليه العجز المنافي لكمال قدرته ، والجهل المنافي لكمال علمه .

فتضمنت الآية هذه المعارف كلها بأوجز عبارة وأفصح لفظ وأوضح معنى .

وقد عرفت بهذا أن الآية لا تقتضي العقاب على خواطر النفوس المجردة ؛ بل إنما تقتضي محاسبة الرب عبده بها ، وهي أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص ، وبعد محاسبته بها يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وعلى هذا فالآية محكمة لا نسخ فيها ، ومن قال من السلف : نسخها ما بعدها فمراده بيان معناها والمراد منها ، وذلك يسمى نسخاً في لسان السلف ، كما يسمون الاستثناء نسخاً .

ثم قال تعالى : ﴿ آمن الرَّسولُ بما أنزل إليهِ من ربِّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ﴾ [(١)] فهذه شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أنزل إليه من ربه ، وذلك يتضمن إعطاءه ثواب أكمل أهل الإيمان ـ زيادة على ثواب الرسالة والنبوة ـ لأنه شارك المؤمنين في الايمان ، ونال منها أعلى مراتبه ، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوة ، وقوله : ﴿أنزل إليه من ربه﴾ يتضمن أنه كلامه الذي تكلم به ومنه نزل لا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ [(٢)] وقال : ﴿ تنزيل من ربِّ العالمينَ ﴾ [(٣)] .

وهذا أحد ما احتج به أهل السنّة على المعتزلة القائلين بأن الله لم يتكلم بالقرآن ، قالوا : فلو كان كلاماً لغير الله لكان منزلا من ذلك المحل لا من الله : فإن القرآن صفة لا تقوم بنفسها ؛ بخلاف قوله : ﴿ وسخَّرَ لكم ما في السَّمواتِ وما في الأرض جميعاً منهُ ﴾ [(٤)] فإن تلك أعيان قائمة بنفسها ، فهي منه خلقاً ، وأما « الكلام » فوصف قائم بالمتكلم ، فلما كان منه فهو كلامه ؛ إذ يستحيل أن يكون منه ولم يتكلم به .

ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم بما آمن به رسولهم،ثم شهد لهم جميعاً بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الإيمان الخمسة التي لا يكون أحد مؤمناً إلا بها ، وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ووسطها وآخرها ، فقال في أولها : ﴿والَّذين يؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزل من قبلكَ وبالآخرةِ هم يُوقنونَ ﴾ فالايمان بما أنزل إليه وما أنزل

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٠٢ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٨٠ .

(٤) سورة الجاثية الآية ١٣ .

من قبله يتضمن الإيمان بالكتب والرسل والملائكة ، ثم قال : ﴿ وبالآخرةِ هم يُوقنونَ ﴾ . والإيمان بالله يدخل في الايمان بالغيب وفي الإيمان بالكتب والرسل ، فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس .

وقال في وسطها : ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ ﴾ ثم حكى عن أهل الايمان أنهم قالوا : ﴿ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ من رسلِهِ ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فلا ينفعنا إيماننا بمن آمنا به منهم كما لم ينفع أهل الكتاب ذلك ؛ بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم ولا نفرق بينهم ، وقد جمعتهم رسالة ربهم فنفرق بين من جمع الله بينهم ، ونعادي رسله . ونكون معادين له . فباينوا بهذا الايمان جميع طوائف الكفار المكذبين لجنس الرسل ، والمصدقين لبعضهم المكذبين لبعضهم .

وتضمن إيمانهم بالله إيمانهم بربوبيته ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وأسمائه الحسنى ، وعموم قدرته ومشيئته ، وكمال علمه وحكمته ، فباينوا بذلك جميع طوائف أهل البدع والمنكرين لذلك أو لشيء منه ؛ فإن كمال الإيمان بالله يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه . وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ، فباينوا بهذين الأمرين جميع طوائف الكفر ، وفرق أهل الضلال الملحدين في أسماء الله وصفاته .

ثم قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ فهذا إقرار منهم بركني الإيمان اللذين لا يقوم إلا بهما ، وهما السمع المتضمن للقبول : لا مجرد سمع الإدراك المشترك بين المؤمنين والكفار ، بل سمع الفهم والقبول . و« الثاني » الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر ، وهذا عكس قول الأمة الغضبية ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم ، وكمال قبولهم ، وكمال انقيادهم ، ثم قالوا : ﴿ غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ لما علموا أنهم لم يوفوا مقام الإيمان حقه مع الطاعة والانقياد الذي يقتضيه منهم ، وأنهم لا بد أن تميل بهم غلبات الطباع ودواعي البشرية الى بعض التقصير في واجبات الإيمان ، وأنه لا يلم شعث ذلك إلا مغفرة الله تعالى لهم ، سألوه غفرانه الذي هو غاية سعادتهم ونهاية كمالهم فإن غاية كل مؤمن المغفرة من الله تعالى ، فقالوا : ﴿ غفرانك ربنا ﴾ .

ثم اعترفوا أن مصيرهم ومردهم إلى مولاهم الحق لا بد لهم من الرجوع إليه فقالوا : ﴿ وإليك المصير ﴾ .

فتضمنت هذه الكلمات إيمانهم به ، ودخولهم تحت طاعته وعبوديته ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم الى مغفرته ، واعترافهم بالتقصير في حقه ، وإقرارهم برجوعهم إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ فنفى بذلك ما توهموه من أنه يعذبهم بالخطرات التي لا يملكون دفعها ، وأنها داخلة تحت تكليفه ، فأخبرهم أنه لا يكلفهم إلا وسعهم ، فهذا هو البيان الذي قال فيه ابن عباس وغيره فنسخها الله عنهم بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمراً ونهياً فهم مطيقون له قادرون عليه ، وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ، وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك .

والله تعالى أمرهم بعبادته ، وضمن أرزاقهم ، فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم ، فتكليفهم يسعونه ، وأرزاقهم تسعهم ، فهم في الوسع في رزقه وأمره ، وسعوا أمره ، ووسعهم رزقه ، ففرق بين ما يسع العبد ؛ وما يسعه العبد ، وهذا هو اللائق برحمته وبره وإحسانه وحكمته وغناه ، لا قول من يقول أنه كلفهم ما لا قدرة لهم عليه البتة ولا يطيقونه ، ثم يعذبهم على ما لا يعلمونه .

وتأمل في قوله عزّ وجلّ : ﴿ إلا وسعها ﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه ، لا في ضيق وحرج ومشقة ، فإن الوسع يقتضي ذلك ، فاقتضت الآية أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق وحرج ، بخلاف ما يقدر عليه الشخص فإنه قد يكون مقدوراً له ولكن فيه ضيق وحرج عليه ، وأما وسعه الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود ، بل لنفسه فيه مجال ومتسع ، وذلك مناف للضيق والحرج : ﴿ وما جعل عليكم في الدّين من حرجٍ ﴾(١) بل ﴿ يريدُ [اللّه] بكم اليسر ولا يريدُ بكم العسرَ ﴾(٢) قال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ إلا وسعها ﴾ إلا يسرها لا عسرها ، ولم يكلفها طاقتها ، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود .

فهذا فهم أئمة الإسلام وأين هذا من قول من قال أنه كلفهم ما لا يطيقونه البتة ولا قدرة لهم عليه (٣) ؟

ثم أخبر تعالى أن ثمرة هذا التكليف وغايته عائدة عليهم ، وأنه تعالى يتعالى عن انتفاعه بكسبهم وتضرره باكتسابهم ، بل لهم كسبهم ونفعه . وعليهم اكتسابهم وضرره ، فلم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ، بل رحمة وإحساناً وتكرماً . ولم ينههم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم ، بل حمية ، وحفظاً ، وصيانة وعافية .

وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها ، ولا تثاب بكسبه ، ففيه معنى قوله :

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) يشير بذلك ابن تيمية الى رأي بعض الأشاعرة في الاستطاعة والقول بتكليف ما لا يطاق .

﴿ وأنْ ليسَ للانسانِ إلاَّ ما سعَى ﴾ [١] ، ﴿ ولا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ﴾ [٢] .

وفيه أيضاً إثبات كسب النفس المنافي للجبر .

وفيه أيضاً اجتماع الحكمة فيه ، فاما كسب خيراً أو اكتسب شراً ، لم يبطل اكتسابه كسبه ، كما يقوله أهل الإحباط والتخليد [٣] فإنهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب ، فالآية رد على جميع هذه الطوائف ، فتأمل كيف أتى فيها لها بالكسب الدال على الاهتمام والحرص والعمل ، فان اكتسب أبلغ من كسب ، نفى ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل ، والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهوداً منه ووصايا ، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، وأن لا يخل بشيء منها ، ولكن غلبات الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى إلى أن يسألوه مسامحته إياهم في ذلك كله ، ورفع موجبه عنهم بقولهم : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينَا أو أخطأنَا ، رَبَّنا ولا تحمِلْ علينَا إصراً كما حملتهُ على الَّذينَ من قبلِنَا ﴾ أي لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا : فإنا أضعف أجساداً وأقل احتمالا .

ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم ، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه ، سألوه التخفيف في قضائه وقدره ! كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا : ﴿ رَبَّنَا ولا تحمِّلنَا ما لا طاقةَ لنَا بهِ ﴾ فهذا في القضاء والقدر والمصائب .

وقولهم : ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ في الأمر والنهي والتكليف فسألوه التخفيف في النوعين .

ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ، فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة ، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها ، وعليها مدار السعادة والفلاح ، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قبلهم ومسامحتهم به ، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم .

بخلاف العفو المجرد ، فان العافي قد يعفو ولا يُقْبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه ،

---

(١) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) أهل الإحباط والتخليد ، هم القائلون بأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار ، من الخوارج ومن تبعهم على هذا الرأي يقول الشهرستاني عنهم أنهم : يجمعون القول بتكفير مرتكب الكبيرة .
انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/١٧٢ .

فالعفو ترك محض ، والمغفرة إحسان وفضل وجود ، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر ، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر ، والفوز بالخير، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه ، وإعلاء كلمته ، وقهر أعدائه ، وشفاء صدورهم منهم ، وإذهاب غيظ قلوبهم ، وحزازات نفوسهم ، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه ، فهو ناصرهم ، وهاديهم ، وكافيهم ، ومعينهم ، ومجيب دعواتهم ، ومعبودهم .

فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت ، وذلت لعزة ربها ومولاها واجابتها جوارحهم ، أعطوا كل ما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا شيئاً منه إلا قال الله تعالى: قد فعلت، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ذلك .

فهذه كلمات قصيرة في معرفة مقدار هذه الآيات العظيمة الشأن ، الجليلة المقدار ، التي خص الله بها رسوله محمد ﷺ وأمته من كنز تحت العرش .

وبعد ففيها من المعارف وحقائق العلوم ما تعجز عقول البشر عن الإحاطة به .

والله المرغوب إليه أن لا يحرمنا الفهم في كتابه إنه رحيم ودود .

والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وآله وصحبه أجمعين .

(فضل دعاء آخر السورة)

فصـــل

وقال رحمه الله :

في الدعاء المذكور في آخر (سورة البقرة) وهو قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ إلى آخرها . قد ثبت في صحيح مسلم : « أنه قال قد فعلت »(١) .

وكذلك في صحيحه في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » . ـ مسلم ج١/٥٥٤

وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة

(١) أورد مسلم هذا الحديث بمعناه في صحيحه ١/٨٠ ـ ٨١ (كتاب الإيمان باب بيان قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ ، وذكره الإمام أحمد في مسنده (ط دار المعارف) ٣/٣٤١ ـ ٣٤٢ رقم ٢٠٧٠ ، ٥/٣٠ ـ ٣١ رقم ٣٠٧١ ، سنن الترمذي ١١/١١٢ ـ ١١٣ (كتاب التفسير . سورة البقرة .) .

المنتهى ، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها ، قال : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » قال : فراش من ذهب قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً .

أعطى الصلوات الخمس :

وأعطى خواتيم سورة البقرة .

وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً إلا المقحمات .

قال بعض الناس إذا كان هذا الدعاء قد أجيب ، فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل ، وهذا لا فائدة فيه ، فيكون هذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال ، وهذا القول قد قاله طائفة في جميع الدعاء أنه إن كان المطلوب مقدراً فلا حاجة إلى سؤاله وطلبه ، وإن كان غير مقدر لم ينفع الدعاء - دعوت أو لم تدع - فجعلوا الدعاء تعبداً محضاً ، كما قال ذلك طائفة أخرى في التوكل .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع ، وذكرنا قول من جعل ذلك أمارة أو علامة بناء على أنه ليس في الوجود سبب يفعل به ، بل يقترن أحد الحادثين بالآخر ، قاله طائفة من القدرية النظار ، وأول من عرف عنه ذلك الجهم بن صفوان ومن وافقه ، وذكرنا أن « القول الثالث » هو الصواب ، وهو أن الدعاء والتوكل والعمل الصالح سبب في حصول المدعو به من خير الدنيا والآخرة ، والمعاصي سبب ، وأن الحكم المعلق بالسبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتفاء الموانع ، فإذا حصل ذلك السبب بلا ريب .

والمقصود هنا الكلام في الدعاء قد علم أنه أجيب ، فقال بعض الناس : هذا تعبد محض لحصول المطلوب بدون دعائنا فلا يبقى سبباً ولا علامة وهذا ضعيف .

(الحكمة في الأمر بالدعاء)

أما أولاً فإن العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به ، وهذا بناء على قول السلف : ان الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة ، كما لم يخلق ولم يأمر إلا لسبب . والذين ينكرون الأسباب والحكم يقولون بل يأمر . بما لا منفعة فيه للعباد البتة ، وإن أطاعوه وفعلوا ما أمرهم به ، كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

والمقصود أن كل ما أمر الله أمر به لحكمة ، وما نهى عنه نهى عنه لحكمة وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة وسلف الأمة وأئمتها وعامتها ، فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع .

نعم ! قد تكون الحكمة في المأمور به ، وقد تكون في الأمر ، وقد تكون في كليهما ، فمن المأمور به ما لو فعله العبد بدون الأمر حصل له منفعة : كالعدل ، والإحسان إلى الخلق وصلة الرحم ، وغير ذلك فهذا إذ أمر به صار فيه (حكمتان) حكمة في نفسه ، وحكمة في الأمر [به] فيبقى له حسن من جهة نفسه ، ومن جهة أمر الشارع ، وهذا هو الغالب على الشريعة ، وما أمر الشرع به بعد أن لم يكن إنما كانت حكمته لما أمر به .

وكذا ما نسخ ، زالت حكمته وصارت في بدله كالقبلة .

وإذا قدر أن الفعل ليست فيه حكمة أصلاً فهل يصير بنفس الأمر فيه حكمة الطاعة ؟ وهذا جائز عند من يقول بالتعبد المحض وإن لم يقل بجواز الأمر لكل شيء ، لكن يجعل من باب الابتلاء والامتحان ، فإذا فعل صار العبد به مطيعاً كنهيهم عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده .

والتحقيق أن الأمر الذي هو ابتلاء وامتحان يحض عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود ، وإن لم يفعله ، كابراهيم لما أمر بذبح ابنه ، وكحديث أقرع وأبرص وأعمى لما طلب منهم إعطاء ابن السبيل فامتنع الأبرص والأقرع فسلبا النعمة ، وأما الأعمى فبذل المطلوب فقيل له أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك وسخط على صاحبيك[1] .

وهذا هو الحكمة الناشئة من نفس الأمر والنهي لا من نفس الفعل ، فقد يؤمر العبد وينهى وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له وبذل للمطلوب، كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حب الله على حبه لابنه حتى تتم خلته به قبل ذبح هذا المحبوب لله ، فلما أقدم عليه وقوى عزمه بإرادته لذلك تحقق بأن الله أحب إليه من الولد وغيره ، ولم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبة الله .

وكذلك أصحاب طالوت ابتلوا بالامتناع من الشرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر .

وأما رمى الجمار والسعي بين الصفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله .

وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله في الحديث الذي في السنن « إنما جعل السعي بين الصفا

---

(١) حديث الأقرع والأبرص والأعمى . متفق عليه وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري ٤/١٧١ ـ ١٧٣ (كتاب الانبياء . حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل) ، وهو في مسلم ٨/٢١٣ ـ ٢١٤ (أول كتاب الزهد والرقائق) . وانظر تحقيق الحديث في جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ص ١٧٩ ت ٢ .

والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله »[1] رواه أبو داود والترمذي وغيرهما . فبين النبي ﷺ ان هذا له حكمة ، فكيف يقال لا حكمة ؛ بل هو تعبد وابتلاء محض .

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة ، والمؤمنون يفعلونه فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم كما نسخ إيجاب الخمسين صلاة إلى خمس .

و « المعتزلة » تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر ، ولهذا لم يجوزوا النسخ قبل التمكن ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم ، كأبي الحسن التميمي وبنوه على أصلهم ، وهو أن الأمر عندهم كاشف عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وأن الأمر لا يكون إلا بحسن .

وغلطوا في المقدمتين فإن الأمر وإن كان كاشفاً عن حسن الفعل فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير الحسن الأول . وإذا كان مقصود الآمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه وينسخه قبل التمكن إذا حصل المقصود من طاعة المأمور وعزمه وانقياده ، وهذا موجود في أمر الله وأمر الناس بعضهم بعضاً .

والجهمية[2] تنكر أن يكون في الفعل حكمة أصلاً في نفسه . ولا في نفس الأمر بناء على أصلهم أنه لا يأمر لحكمة ، وعلى أن الأفعال بالنسبة إليه سواء ليس بعضها حسناً وبعضها قبيحاً ، وكلا الأصلين قد وافقتها عليه الأشعرية ومن أتبعهم من الفقهاء ، كأصحاب الشافعي ومالك وأحمد غيرهم ، وهما أصلان مبتدعان ، فإن مذهب السلف والأئمة أن الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة ، ومذهب السلف والأئمة أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ، ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان ، وان كان قد شاء وجود ذلك ، وقد بسط هذا في موضع آخر .

وقد قال تعالى : ﴿ ادخلو البابَ سُجَّداً ، وقولُوا حِطَّةٌ ﴾[3] فإن نفس السجود خضوع

(١) ورد الحديث في الترمذي (كتاب الحج) ، الدارمي (كتاب الناسك) ابن حنبل ١٤١/٦ ، وانظر ما ذكره البخاري في صحيحه ١٩٣/٢ - ١٩٥ في فضل السعي بين الصفا والمروة .

(٢) الجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان بن أبي محرز مولى بني راسب . تتلمذ على الجعد بن درهم وأخذ عنه القول بخلق القرآن ، كان كاتباً للحارث بن سريح وخرج معه على بني أمية وقتل سنة ١٥٨ هـ بمرو . وابن تيمية يستعمل لفظ الجهمية ويريد به أحياناً نفاة الحكمة والتعليل في الأفعال الإلهية ويقصد بهم الأشاعرة ، كما في هذه القضية . وقد يريد به أحياناً أخرى نفاة الصفات والقائلين بخلق القرآن ، ويقصد بهم المعتزلة . فاللفظ يطلق أحياناً عند ابن تيمية على الاشاعرة ، وأحياناً أخرى على المعتزلة ولكن الجهة مختلفة عنده في الإستعمال . أنظر عن الجهمية مقالات الأشعري ١٣٣/١ - ١٧٩ ، الملل والنحل ١٣٥/١ الخطط للمقريزي ٣٤٩/٢ - ٣٥٠ ، الرسالة التسعينية لابن تيمية .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٨ .

لله ولو فعله الإنسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الأمر بالسجود .

وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء لله وخضوع ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذَا سَألَكَ عبادي عني فإن قَريبٌ أجيبُ دَعوةَ الداعِ إذَا دعانِ﴾(١) . وهذه الأفعال المدعو بها في آخر البقرة أمور مطلوبة للعباد .

(علاقة الدعاء بالإجابة)

وقد أجيب بجواب آخر وهو أن الله تعالى إذا قدر أمراً فإنه يقدر أسبابه والدعاء من جملة أسبابه ، كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ ـ قبل وقوعه ـ أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك إستغاثة النبي ﷺ ودعاؤه ، وكذلك ما وعده به ربه من الوسيلة ، وقد قضى بها له ، وقد أمر أمته بطلبها له(٢) ، وهو سبحانه قدرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء .

وعلى هذا فالداخل في السبب هو ما وقع من الدعاء المأمور به ـ والله أعلم بذلك ـ فيثيب هذا الداعي على ما فعله من الدعاء بجعله تمام السبب ، ولا يكون على هذا الدعاء سبباً في اختصاصه بشيء من ذلك، بل في حصوله لمجموع الأمة لكن هو يثاب على الدعاء لكونه من جملة الأسباب ، وهذا لأن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث :

إما أن يعجل له دعوته ،
وإما أن يدخر له من الخير مثلها ،

وإما أن يكفر عنه من الذنوب مثلها ، وإما أن يدفع عنه من البلاء مثلها ، قالوا يا رسول الله : إذا نكثر ، قال : الله أكثر »(٣) فالداعي بهذا كالداعي بالوسيلة يحصل له من الأجر ما يخصه ، كالداعي للامة ولأخيه الغائب ، ودعاؤه من أسباب الخير التي بها رحمة الأمة ، كما يثاب على سؤاله الوسيلة للنبي ﷺ بأن تحل عليه الشفاعة يوم القيامة .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٢) جاء في كتب السنن أحاديث كثيرة حول الدعاء للرسول بالوسيلة والفضيلة وقضاء الله له بها ، وسؤال الرسول أمته أن يسألوا الله له الوسيلة .

انظر : مسلم (كتاب الصلاة) ، الترمذي (الصلاة) ، النسائي (كتاب الأذان) ، ابن ماجه (كتاب الأذان) ، ابن حنبل ١٦٨/٢ .

(٣) جاء هذا الحديث في سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ١٨/٣ ، ١٢٥/٦ .

وهنا « جواب ثالث » وهو أن كل من دعا بهذا الدعاء حصل له من المدعو المطلوب ما لا يحصل بدون المطلوب من الدعاء ، فيكون الدعاء به كدعائه بسائر مطالبه من المغفرة والرحمة ، وليس هو كدعاء الغائب للغائب ، فإن الملك يقول هناك : ولك بمثله ، فيدعو له الملك بمثل ما دعا به للغائب وهنا هو داع لنفسه وللمؤمنين .

وبيان هذا أن الشرع وإن كان قد استقر بموت النبي ﷺ ، وقد أخبر أن الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان[1] ، وقد أخبر أن الرسول يضع عن أمته إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، وسأل ربه لأمته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطاه ذلك ، لكن ثبوت هذا الحكم في حق آحاد الأمة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله ، فإذا عصى الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وان كانت الشريعة لم تنسخ .

يبين هذا ان في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار ، ومعلوم أن هذا ليس حاصلاً لكل واحد من أفراد الأمة ؛ بل منهم من يدخل النار، ومنهم من ينصر عليه الكفار ، ومنهم من يسلب الرزق لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله فيسلبون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصروا وقول الله : « قد فعلت » يقال فيه شيئان .

(احدهما) أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين في الآية . والإيمان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله . فمن لم يكن كذلك نقص إيمانه الواجب ، فيستحق من سلب هذه النعم بقدر النقص ، ويعوق الله عليه ملاذ ذلك ، ولم يستحق من الجزاء ما يستحقه من قام بالإيمان الواجب .

(الثاني) أن يقال : هذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة ، ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد ، وكلا الأمرين صحيح ، فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمة حاصل ، ولولا ذلك لأهلكوا بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « سألت ربي لأمتي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فاعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[2] ، وقال : يا محمد : إني إذا قضيت قضاء لم يرد » .

وكذلك في الصحيحين : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال النبي ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ

---

(١) كما أخبر بذلك في الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه (كتاب الطلاق) إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

(٢) ورد هذا الحديث في الترمذي (كتاب الفتن) .

بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هاتان أهون »[1] .

وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة ، ولا بد أن يختلفوا ، فإن هذا من لوازم الطبع البشري ، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك ، ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها ، بل هي أفضل الأمم ، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية ، وهو في غيرها أكثر وأعظم ، وخير غيرها أقل ، والخير فيها أكثر ، والشر فيها أقل ، فكل خير في غيرها فهو فيها أعظم ، وكل شر فيها فهو في غيرها أعظم .

وأما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم حصوله لكل عاص لأنه لم يقم بالواجب ، ولكن قد يحصل للعاص من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالى . أما حصول المغفرة والعفو والرحمة بحسب الإيمان والطاعة فظاهر ، لأن هذا من الأحكام القدرية الخلقية من جنس الوعد والوعيد ،وهذا يتنوع بتنوع الإيمان والعمل الصالح .

واما دفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان . ودفع الآصار ، فان هذا قد يشكل لأنه من باب الأحكام الشرعية أحكام الأمر والنهي .

فيقال : الخطأ والنسيان المرفوع عن الأمة مرفوع عن عصاة الأمة ، فان العاصي لا يأثم بالخطأ والنسيان ، فإنه اذا أكل ناسياً أتم صومه سواء كان مطيعاً في غير ذلك أو عاصياً ، فهذا هو الذي يشكل ، وعنه جوابان .

(أحدهما) ان الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فان الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ، ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً ، لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ، إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ، كمن يبطل الصوم بالنسيان ، وآخرون بالخطأ ، وكذلك الإحرام ، وكذلك الكلام في الصلاة ، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو مخطئاً ، فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وخفى ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة الا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان ، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلاً في حقه لعدم العلم ، لا لنسخ الشريعة .

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع كقوله :

---

(1) جاء الحديث في صحيح البخاري ٦ ، ٧١ (كتاب التفسير . تفسير سورة الانعام) من رواية جابر رضي الله عنه . ولفظه « . . هذا أهون . أو هذا أيسر) وذكره البخاري أيضاً في (كتاب الاعتصام) ، الترمذي (كتاب التفسير ، وتفسير سورة الأنعام) ، ابن حنبل ٣/٢٠٩ .

﴿ وقولهم قلوبُنَا غلفٌ ، بل طبعَ الله عليها بكفرهم ﴾(١) وقـال : ﴿ وقالـوا قلوبنا غلف ، بـل لعنهم الله بكفـرهم ﴾(٢) وقال : ﴿ ومـا يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنـون ، ونقلِّبُ أفئـدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنُـوا به أولَ مـرة ﴾(٣) وقال : ﴿ في قلوبهم مـرضٌ فزادهم الله مـرضاً ﴾(٤) وقال : ﴿ فلما زاغُوا أزاغَ الله قلوبَهُمْ ﴾(٥) .

وهذا كما أنـه حرم عـلى بني إسرائيـل طيبات أحلت لهم لأجـل ظلمهم وبغيهم فشريعـة محمد لا تُنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا ، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا بان يحرموا الطيبات ، أو بتحريم الطيبات .

إما تحريماً كونياً بأن لا يوجد غيثهم ، وتهلك ثمارهم ، وتقطع الميرة عنهم .

أو أنهم لا يجدون لذة مأكل ولا مشرب ، ولا منكح ولا ملبس ونحـوه كما كـانوا يجـدونها قبل ذلك ، وتسلط عليهم الغصص وما ينغص ذلك ويعوقه . ويجـرعون غصص المال والولـد والأهل ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنَّمـا يريـدُ الله ليعذِّبهُمْ بهـا في الحياةِ الدُّنيا ﴾(٦) وقال : ﴿ أيحسبونَ أن ما نمدهم به من مالٍ وبنينَ. نُسارِعُ لهم في الخيراتِ ؟ بل لا يشعـرونَ ﴾(٧) وقال : ﴿ إنَّمـا أموالكُمْ وأولادُكُم فتنـة ﴾(٨) فيكون هـذا كابتـلاء أهـل السبت بالحيتان .

وإما أن يعاقبوا باعتقاد تحريم ما هو طيب حلال لخفاء تحليـل الله ورسولـه عندهم ، كـما قـد فعل ذلـك كثير من الأمـة اعتقدوا تحريم أشياء تـروج عليهم بما يقعـون فيه من الأيمـان والطلاق ، وإن كان الله ورسوله لم يحرم ذلك ، لكن لما ظنوا أنها محرمة عليهم عـوقبوا بحـرمان العلم الذي يعلمون به الحل ، فصارت محرمـة عليهم تحريمـاً كونيـاً ، وتحريمـاً شرعيـاً في ظاهـر الأمر ، فان المجتهد عليه أن يقول ما أدى إليه اجتهاده ، فإذا لم يؤد اجتهاده إلا إلى تحريم هذه الطيبات لعجزه عن معرفة الأدلة الدالة على الحل كان عجزه سبباً للتحريم في حق المقصرين في طاعة الله .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٠

(٤) سورة البقرة الآية ٤٠

(٥) سورة الصف الآية ٥ .

(٦) سورة التوبة الآية ٨٥.

(٧) سورة المؤمنون الآيات (٥٥ ـ ٥٦) .

(٨) سورة التغابن الآية ١٥ .

وكـذلك اعتقـدوا تحريم كثـير من المعامـلات التي يحتاجـون اليهـا كضمـان البسـاتـين ، والمشاركات وغيرها ، وذلك لخفاء أدلة الشرع ، فثبت التحريم في حقهم بما ظنـوه من الأدلة ، وهذا كما أن الإنسان يعاقب بأن يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الـطيب ما هـو موجـود وهو مقدور عليه لو علمه ، لكن لا يعرف بذلك عقوبة لـه ، وأن العبد ليحـرم الرزق بـالذنب يصيبه ، وقد قال تعالى : ﴿ ومن يتقِّ الله يجعلْ لهُ مخرجاً ، ويـرزقهُ من حيثُ لا يحتسب ﴾[1] فهو سبحانه إنما ضمن الأشياء على وجهها واستقامتها للمتقين . كما ضمن هذا للمتقين .

فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمـة قد يؤاخـذون بالخطأ والنسيان ، ومن غـير نسخ بعد الرسول ، لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ، ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ، ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفرقصراً] يرى الفطر في السفـر حرامـاً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة ، لكنه ممـا يكفر الله بـه من خطاياه ما يكفره ، كما يكفر خطايا المؤمنين بسائر مصائب الدنيا .

وكـذلك منهم من يعتقـد التربيـع في السفر واجبـاً فيـربـع ، فيبتـلى بـذلـك لتقصيـره في الطاعة .

ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالاتفاق وبعضها متنازع فيه ، لكن الرسـول لم يحرمـه ، فهؤلاء الذين اعتقـدوا وجـوب مـا لم يوجبـه الله ورسولـه ، وتحـريم ما لم يحـرمه ، حمـل عليهم إصراً ، ولم تـوضع عنهم جميـع الآصار والأغـلال وإن كـان الرسول قد وضعها ، لكنهم لم يعلموها .

وقد يبتلون بمطاع يلزمهم ذلك ، فيكون آصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم : مثل حاكم ، ومفت ، وناظر وقف ، وأمير ينسب ذلك الى الشرع ، لاعتقاده الفـاسد أن ذلـك من الشرع ، ويكون عدم علم مطاعهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ، كما لـو قدر أنـه سار بهم في طريق يضرهم ، وعـدل بهم عن طريق فيـه الماء والمـرعى لجهله ، لا لتعمده مضـرتهم ، أو أقام بهم في بلد غالي الأسعار مع إمكان المقام ببلد آخر .

وهذا لأن الناس كما قد يبتلون بمـطاع يظلمهم ويقصـد ظلمهم يبتلون أيضاً بمـطاع يجهل مصلحتهم الشرعية والكـونية ، فيكـون جهل هـذا من أسباب عقـوبتهم كما أن ظلم ذلـك من أسبـاب مضرتهم ، فهؤلاء لم تـرفع عنهم الآصـار والأغلال لـذنـوبهم ومعـاصيهم ، وإن كـان الرسول ليس في شرعه آصار وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم ، وتساق إليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلـك من الآصار والأغـلال التي لم ترفـع عنهم ، مع

---

(١) سورة الطلاق الآيات (٢ ـ ٣) .

عقوبات لا تحصى ، وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم ، وتمكن المعاصي ، وحب الشهوات فيها ، فإذا قالوا ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ دخل فيه هذا .

وأما قوله : ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ فعلى قولين :

قيل : هو من باب التحميل القدري ، لا من باب التكليف الشرعي أي : لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلى الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ، أو حب أو عشق لا يطيقه ، ويكون سبب ذلك ذنوبه .

وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

وقوله : ﴿ مَنْ يعمل سوءاً يجزَ بهِ ﴾ [1] ، و﴿ من يعمل مثقال ذرة خيراً يرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يرهُ ﴾[2] قول حق ، وقال تعالى في قصة قوم لوط : ﴿ وتركنَا فيها آية للذين يخافونَ العذابَ الأليم ﴾[3] .

فما من أحد يبتلى بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم ، حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان ، وإن قويت حتى صارت غراماً وعشقاً زاد العذاب الأليم ، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه ، فان كان عاجزاً فهو في عذاب أليم من الحزن والهم والغم ، وإن كان قادراً فهو في عذاب أليم من خوف فراقه ، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه ، فان نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب ، وإن صار الى غيره استبدالاً به أو مشاركة قوى عذابه ، فان هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل في عشق البغايا وما يحصل مثله في الحلال ، وإن حصل في الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره وكان ذلك سبب ذنوب أخرى .

فإن دعا الإنسان بهذا الدعاء يخص نفسه ويعم المسلمين فله من ذلك أعظم نصيب ، كيف لا وقد قال النبي ﷺ : « الآيتان من آخر سورة البقرة ما قرأ بهما أحد في ليلة إلا كفتاه» وكيف لا تكفيانه وما دعا به من ذلك لم يحصل له إلا ما حصل لسائر المؤمنين الذين لم يقرؤ وهما فإن الداعي بهذا الدعاء له منه نصيب يخصه كسائر الأدعية .

ومما يبين ذلك أن الصحابة إنما استجيب لهم هذا الدعاء لما التزموا الطاعة لله مطلقاً بقولهم : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ثم أنزل هذا الدعاء فدعوا به فاستجيب لهم .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ ، وكانوا فيها على عهد أبي بكر

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات (٧ - ٨) .

(٣) سورة الذاريات الآية ٣٧.

خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم ، كمنعهم من متعة الحج ، وكايقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ، وكان أطوعهم لله وأزهدهم مثل أبي عبيدة ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره ، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها ، حتى تنازعوا فيها ، وهم مؤتلفون متحابون كل منهم يقر الآخر على اجتهاده .

فلما كان في آخر خلافة «عثمان» زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان ، فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الَّذين ظلموا منكُمْ خاصةً ﴾[1] أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط ، بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم ، كما قال النبي ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[2] وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات .

وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر . فطائفة تمنع المتعة مطلقاً كابن الزبير .

وطائفة تمنع الفسخ كبني أمية وأكثر الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع .

وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ، بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحا رجلان فرجعت ، ولعل ذلك أن يكون خيراً لكم »[3] أي قد يكون إخفاؤها خيراً لكم لتجتهدوا في ليالي العشر كلها، فإنه قد يكون إخفاء بعض الأمور رحمة لبعض الناس .

والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض الى شر عظيم من خفاء الحكم ولهذا صنف رجل كتاباً سماه « كتاب الاختلاف » فقال أحمد : سمه « كتاب السعة » وأن الحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه لما في ظهوره من الشدة عليه ، ويكون من باب قوله تعالى : ﴿ لا تسألُوا عن اشياءَ إنْ تُبدَ لكم تسُؤكم ﴾[4]

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٢) جاء هذا الحديث في : ابن ماجه (كتاب الفتن)، ابن حنبل ١/ ٢ .

(٣) ورد الحديث في البخاري ١٩/١ (كتاب الايمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) وذكره البخاري في (ليلة القدر)، الدارمي (كتاب الصوم)، ابن حنبل ٢٥٩/١ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٠١ .

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوباً ، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك كان كله لـه حلالاً لا إثم عليـه فيه بحـال ، بخلاف مـا إذا علم ، فخفاء العلم بمـا يوجب الشـدة قد يكـون رحمة ، كـما أن خفاء العلم بمـا يوجب الـرخصة قـد يكـون عقوبة ، كما أن رفع الشك قد يكـون رحمة وقـد يكون عقـوبة . والـرخصة رحمـة ، وقد يكـون مكروه النفس أنفع كما في الجهاد : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خـيرٌ لكم ، وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ﴾(١) .

والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه ، بل يكـون سبباً لنسيان ما علم ، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك .

والله سبحانه كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما : ﴿ وَكُلا مِنهـا رغداً حيثُ شئتـما ولا تقربَا هَذِه الشَّجرةَ فتكونَا من الـظَّالمينَ ، فـازلَّهما الشيـطان عنها ، فـأخرجهُـمَا ممَّا كـانا فيـهِ ، وقُلنَا : اهبِطُوا بعضُكُم لبعضٍ عدوٌ ﴾(٢) فكل عـداوة كانت في ذريتهـما وبلاء ومكـروه وتكون الى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى .

فالانسان اذا كان مقيماً على طاعة الله باطناً وظاهراً كان في نعيم الإيمـان والعلم وارد عليه من جهاته ، وهو في جنة الدنيا ، كما في الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فـارتعوا . قيـل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر »(٣) . وقال : ﴿ ما بين بيتي ومنبري روضة من ريـاض الجنة ﴾(٤) فانه كان يكون هنا في رياض العلم والإيمان .

وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعـلى ، فلا يـزال في علو ما دام كذلك ، فإذا أذنب هبط قلبه الى أسفل ، فلا يزال في هبوط مـا دام كذلـك ، ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة ، فان أراد الله به خيراً ثاب وعمل في حال هبوط قلبه الى أن يستقيم فيصعد قلبه ، قال تعـالى : ﴿ لنْ ينالَ الله لُحـومهَا ولا دِمـاؤُها ، ولكن ينـالُهُ التَّقـوىٰ منكُمْ ﴾(٥) فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال : ﴿ اليه يصعدُ الكلمُ الطيِّب والعمل الصَّالحُ يرفعهُ ﴾(٦) فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فانها لا تنال الله .

و« الباطنية » المنكرون لخلق العالم في ستـة أيام ، ومعـاد الأبدان ، الـذين يجعلون للقرآن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٦.

(٣) ورد هذا الحديث في : الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ٢/١٥٠ .

(٤) جاء هذا الحديث في : ابن حنبل ٢/٦٤ .

(٥) سورة الحج الآية ٣٧.

(٦) سورة فاطر الآية ١٠ .

تأويلا يوافق قولهم ، عندهم ما ثم « جنة » إلا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة ، وما ثم «نار » إلا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والأخلاق الذميمة السيئة ، فنار النفوس ألمها القائم بها كحسراتها لفوات العلم ، أو لفوات الدنيا المحبوبة لها ، وحجبها إنما هي ذنوبها .

وهذا الكلام مما يذكره أبو حامد (١) في « المضنون به على غير أهله » لكن قد يقول هذا : ليس هو عذاب القبر المذكور في الأجسام ، بل ذاك أمر آخر مما بينه اهل السنة . ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ، ولهذا ، ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب .

وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً ، فان الناس في الدنيا يثابون ويعاقبون بأمور منفصلة عنهم ، فكيف في دار الجزاء ، ولكن الذي أثبتوه من هذا وهذا [منه] ما هو حق ، ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله ، فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن الا في جنة العلم ، وهبوطه انخفاض درجته في العلم ، وهذا كذب ، ولكن ما أثبتوه من الحق حق ، وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذي تسميه الصوفية الاشارة، لا أنه هو المراد بالآية ، لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على أن من كذب بالحق عوقب بأن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم ، أو لا يفهم المراد منه ، وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلاً ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ وضُربت عليهم الذِلة والمسكَنَةُ ذلك بما عصُوا وكانُوا يعتدونَ ﴾(٢) .

ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات ، و « اللذة » التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له ، وهو الإيمان ، وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق .

---

(١) هو الإمام أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ولد سنة ٤٥٥ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ . صاحب التصانيف الكثيرة في الأصول والفروع ، تلقى مبادىء علوم القرآن والحديث بمسقط رأسه (طوس) من مدن خراسان . ثم انتقل إلى جرجان حيث تلقى مبادىء علم أصول الدين تتلمذ على إمام الحرمين الجويني ولازمه حتى توفى سنة ٤٧٧ . إشتغل مدرساً بنظامية بغداد سنة ٤٨٤ ثم بمدرسة نيسابور ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه والفلسفة والتصوف ، ولعل أكثر مؤلفاته شهرة هو كتابه « إحياء علوم الدين » أما كتاب « المضنون به على غير أهله » الذي أشار إليه ابن تيمية . فان كثيراً من الباحثين يشكك في صحة نسبة هذا الكتاب الى الغزالي لما فيه من أفكار اسماعيلية باطنية يرى بعضهم أنها مدسوسة على الغزالي ، ولكن الغزالي قد أشار في بعض مؤلفاته الى أن له كتاباً بعنوان المضمون به على غير أهله وأنه قد أودع هذا الكتاب بعض الأسرار التي ينبغي صونها عمن لا يعيها . انظر مثلاً ، جواهر القرآن ص ٢٧ ـ ٢٨ ، مشكاة الأنوار .

وأنظر عن الغزالي : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ ، طبقات الشافعية ١٠١/٤، شذرات الذهب ١٠/٤، الوافي بالوفيات ٢٧٧/١ ، مفتاح السعادة ١٩١/٢، تبيين كذب المفتري ص ٢٩١ ـ ٣٠٦ ، وفي اللباب ٢٧٠/٢ أن الغزالي بتخفيف الزاي خلاف المشهور ، الاعلام ٢٤٧/٧ ـ ٢٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦ .

وأيضاً فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادته له بل كان مع حب لغيره كائناً من كان ، فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة وهم لا يجعلون كمال اللذة إلا في نفس العلم و « أيضاً » فاقتصارهم على اللذة العقلية خطأ .

والنصارى زادوا عليهم السمع والشم ، فقالوا : يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنغمات المطربة ، ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح ـ وهي لذة اللمس ـ والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات: سمعاً ، وبصراً ؛ وشماً ، وذوقاً ، ولمساً ، للروح والبدن جميعاً ، وكان هذا هو الكمال ؛ لا ما يثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية .

وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه ، كما في الحديث الصحيح : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »[1] وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ، وأطيب ما في الآخرة النظر إليه سبحانه ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا .

وأبو حامد يذكر في كتبه هو وأمثاله « الرؤية » وأنها أفضل أنواع النعيم ويذكر كشف الحجب ، وأنهم يرون وجه الله[2] ، ولكن هذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة ، فإن « الرؤية » عندهم ليست إلا العلم ، لكن كما أن الإنسان قد يرى الشيء بعينيه ، وقد يمثل له خياله إذا غاب عنه فهكذا العلم ، ففي الدنيا ليس عندهم من العلم إلا مثال كالخيال في الحساب ، وفي الآخرة يعلمونه بلا مثال ، وهو[3] عندهم « وجود لا داخل العالم ولا خارجه » ، و « كشف الحجاب » عندهم رفع المانع الذي في الانسان من الرؤية ، وهو أمر عدمي فحقيقته جعل العبد عالماً ، وهذا كله مما تقول به الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء إنما يأمرون بالزهد في الدنيا لينقطع تعليق النفس بها وقت [فراق] النفس ، فلا تبقى النفس مفارقة لشيء تحبه ، لكن أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط ، بل يقول قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار .

وأما هؤلاء فالواصل عندهم إلى العلم المطلوب قد يبحون له محظورات الشرائع حتى الفواحش والخمر وغيرها إذا كانوا ممن يعتقد تحريم الخمر ، وإلا فغالب هؤلاء لا يوجبون

---

(١) هذا جزء من حديث ذكره مسلم في (كتاب الإيمان حديث رقم ٢٩٧ ، وانظر كذلك الترمذي (كتاب الجنة) ، ابن ماجه في المقدمة .

(٢) انظر شرح الغزالي للحديث : إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه نصره » (مشكاة الأنوار الفصل الثالث) ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧ ط الجندي . وانظر أيضاً ما قرره الغزالي حول هذه القضية في المضنون (الركن الأول . في علم الربوبية) ص ٣٠٣ ط الجندي (مجموعة القصور العوالي) .

(٣) الضمير هنا يعود إلى الله . والمعنى أن الله عندهم وجود مطلق ، لا يقال عليه أنه داخل العالم ولا خارجه .

شريعة الإسلام بل يجوزون التهود والتنصر ، وكل من كان من هؤلاء واصلا إلى علمهم فهو سعيد .

وهكذا تقول الاتحادية منهم : كابن سبعين[1] ، وابن هود[2] والتلمساني[3] ونحوهم ، ويدخلون مع النصارى بيعهم ، ويصلون معهم إلى الشرق ويشربون معهم ومعه اليهود الخمر ، ويميلون إلى دين النصارى أكثر من دين المسلمين لما فيه من إباحة المحظورات ، ولأنهم أقرب إلى الاتحاد والحلول ، ولأنهم أجهل فيقبلون ما يقولونه أعظم من قبولهم لقول المسليمن ، وعلماء النصارى جهال إذا كان فيهم متفلسف عظموه ، وهؤلاء يتفلسفون .

والواحد من هؤلاء يفرح إذا قيل له لست بمسلم ، ويحكي عن نفسه ـ كما كان أحمد المارديني وهو من أصحاب ابن عربي يحكي عن نفسه ـ أنه دخل إلى بعض ديارات النصارى ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه ، فأخذ بعضهم يتكلم في المسلمين ، ويقول : يقولون : كذا وكذا ، قال له آخر : لا تتكلم في المسلمين فهذا واحد منهم . فقال ذلك المتكلم : هذا وجهه وجه مسلم ؟ أي ليس هذا بمسلم فصار يحكيها المارديني أن النصراني قال عنه ليس : هذا بمسلم ، ويفرح بقول النصراني ويصدقه فيما يقول ، أي ليس هو بمسلم .

---

(١) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين ، ولد سنة ٦١٣ هـ وتوفي سنة ٦٦٩ من أعلام المتصوفة المتفلسفين ، به ميل إلى مذهب وحدة الوجود . وله مجموعة رسائل في التصوف والفلسفة والحكمة طبعت أخيراً بتحقيق د . عبد الرحمن بدوي بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م .

انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٣٢٩/٥ ـ ٣٣٠ ، طبقات الشعراني ١٧٧/١ ،لسان الميزان ٣٩٢/٣ ، فوات الوفيات ٥١٦/١ ـ ٥١٨ ، نفح ٣٩٥/٢ ـ ٤٠٦ ، الإعلام ٥/١ .

(٢) هو الحسن بن عضد الدولة أخو المتوكل على الله ملك الأندلس بن يوسف بن هود الجذامي المرسي أبو علي ، فيلسوف متصوف ، من بيت عرف بالمجد ، ولد بمرسية سنة ٦٣٣ هـ وكان أبوه نائباً للسلطان فيها ، تصوف واشتغل بالطب والحكمة ، حج وأقام بالشام مدة حيث مات ودفن بدمشق سنة ٦٦٩ هـ ، كان يصيبه نوع من الذهول فيغيب عن وعيه ، وكان يقرىء اليهود كتاب دلالة الحائرين لموسى بن ميمون . وله شعر غريب عبر فيه عن مذهبه الصوفي في قصيدة طويلة مطلعها :

علم قوم بي جهل ... إن شاني لاجل
أنا عبد أنا رب ... إنا عز أنا ذل
أنا دنيا أنا أخرى ... أنا بعض أنا كل
أنا معشوق لذاتي ... لست عنه الدهر أسلو

وصفه الذهبي بالحلول والضلال .

أنظر عنه وعن مذهبه : شذرات الذهب ٤٤٦/٥ ، فوات الوفيات ١٢٧/١ وفيها أنه توفي سنة ٦٩٧ هـ ، الإعلام ٢٢١/٢ .

(٣) هو سليمان بن عبد الله بن علي الكوفي المعروف بعفيف الدين التلمساني نقل صاحب (فوات الوفيات) ٣٦٣/١ ـ ٣٦٦ أنه كان يدعى العرفان ، وكان به ميل إلى النصيرية . لم أقف على تاريخ مولده أو وفاته . أنظر البداية والنهاية ٣٢٦/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٩/٨ ـ ٣١ ، فوات الوفيات ٣٦٣/١ ـ ٣٦٦ الإعلام ١٩٣/٣ .

والمتفلسفة يصرحون بهذا . يقولون : قلنا : كذا وكذا ، وقال المسلمون : كذا وكذا ، وربما قالوا قلنا : كذا وقال المليون : أي أهل المال الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وكتبهم مشحونة بهذا ، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل أن يكون على دينهم .

لكن دخولهم في هذا كدخولهم في سياسة الملوك ، كما كانوا مع الترك الكفار وكانوا مع « هولاكو » ملك المغول الكفار ، ومع « القان » الذي هو أكبر منه خليفة « جنكيز خان » ببلاد الخطا ، وانتساب الواحد منهم هناك إلى الإسلام انتساب إلى إسلام يرضاه ذلك الملك بحسب غرضه ، كما كان « النصير الطوسي »(١) وأمثاله مع « هولاكو » ملك الكفار ، وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها ، وأخذ كتب الناس : ملكها ووقفها ، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه ، وأفسد الباقي ، وبنى الرصد ووضعها فيه ، وكان يعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية ، ويعطي في رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب أضعاف ما يعطي الفقيه ، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان ، ولا يصلون .

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم يشرب أحدهم الخمر نهار رمضان ، وتارة يصلون وتارة لا يصلون ، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم ، بل يقولون : هذا للعامة والأنبياء ، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء ، ويحكون عن بعض الفلاسفة أنه قيل له : قد بعث نبي : قال : لو كان الناس كلهم مثلي ما احتاجوا إلى نبي . ومثل هذه الحكاية يحكيها من يكون رئيس الأطباء ، ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات ، وقيل لرئيسهم الأكبر في زمن موسى عليه السلام : ألا تأتيه فتأخذ عنه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا نحتاج إلى من يهدينا .

وأما ما ذكروه من حصول اللذة في القلب والنعيم بالإيمان بالله والمعرفة به فهو حق ، وهو سبب دخول الجنة ، وقد قال ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين »(٢) . وما ذاك إلا لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى

---

(١) هو محمد بن محمد (نصير الدين الطوسي) الفيلسوف ، الشهير بخواجا نصير الدين توفي سنة ٦٠٢ هـ . ذاعت شهرته في العقليات كالفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، عرف له هولاكو قدره فكان ينزل على رأيه ويستشيره في مهام الأمور ، كانت لديه مكتبة كبيرة أعطاها له هولاكو من مكتبات بغداد التي نهبت على يد المغول، شرح إشارات ابن سينا ولخص محصل أفكار المتقدمين للرازي ، انظر عنه : فوات الوفيات ١٤٩/٢ ، والوافي بالوفيات ١٧٩/١ ، تاريخ ابن الواردي ٢٣٣/٢ ، شذرات الذهب ٣٣٩ ، مفتاح السعادة ٢٦١/١ البداية والنهاية ٢٦٧/١٣ الفهرس التمهيدي ٤٧٢ ، نشرة دار الكتب ٥١/١ ، الاعلام ٢٥٧/٧ ـ ٢٥٨ .

(٢) ورد هذا الحديث في : النسائي (كتاب الصيام : باب فضل شهر رمضان) ١٢٦/٤ ، ١٢٨ ، وذكره مسلم في (كتاب الصيام) ، الترمذي (كتاب الصوم) ابن ماجه (كتاب الصيام) ، الدارمي (كتاب الصوم) ، الموطأ (كتاب الصوم) ابن حنبل ٢٦٢/٣ .

الخير والأعمال الصالحة التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة ، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار ، وتصفد الشياطين فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار ، فإن المصفد هو المقيد لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات ، فإذا كفوا عن الشهوات صفدت الشياطين .

والجنة والنار التي تفتح وتغلق غير ما في القلوب ، ولكن ما في القلوب سبب له ، ودليل عليه ؛ وأثر من آثاره ، وقد قال تعالى : ﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾[1] وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم »[2] فقيل : يأكلون ويشربون ما سيصير ناراً ، وقيل : هو سبب النار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني إن شاء الله

---

(١) سورة النساء الآية ١٠ .

(٢) ذكر البخاري هذا الحديث ١٤٦/٧ ضمن مجموعة كبيرة من الأحاديث التي تنهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة ، والحديث من رواية أبي بكر رضي الله عنه عن أم سلمة زوج الرسول ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه في نار جهنم » ، وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الكباسي) ، ابن ماجه (كتاب الاشربة) ، الدارمي (كتاب الاشربة) ، الموطأ (صفة الزي) ، ابن حنبل ٩٨/٦ .

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثاني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وصفيّه من خلقه وحبيبه سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين .

وبعد

فهذا هو الجزء الثاني من دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية اقتصرت فيه على جمع دقائق ابن تيمية من سورتي آل عمران والنساء فقط . وكان هدفي من وراء ذلك أن أضع أمام القارىء قضيتين أساسيتين عنى بهما ابن تيمية واحتلت كل منهما مكانة هامة في تراثه .

١ ـ القضية الأولى : موقف سورة آل عمران من أهل الكتاب وخاصة النصارى .

٢ ـ القضية الثانية : موقف ابن تيمية من النفس وطبيعتها ـ أحوالها ـ أمراضها ـ علاجها .

في القضية الأولى تناول ابن تيمية موقف النصارى من الإسلام ورسوله ، خلال تفسيره لآيات سورة آل عمران ، ولقد عني ابن تيمية في هذه القضية بجمع آراء فرق النصارى القديم منها والحديث ، وناقش دعاواهم في طبيعة المسيح ، وهل هي طبيعة لاهوتية أو ناسوتية أو هي مزيج بين اللاهوت والناسوت ، وتدل مناقشة ابن تيمية لآراء النصارى على خبرة ودراية بأقوالهم وأصول آرائهم ، فكان يتناول أقوالهم بالتحليل والمقارنة والنقد ، ويضع المقدمات ليخرج منها بنتائج ما كانت لتخطر على ذهن أحد لو لم ينبه اليها ابن تيمية .

كما ناقش دعاواهم في أن المسيحية هي آخر الأديان السماوية نزولاً ، وافتراءهم على

الحق بقولهم إن محمداً بعث إلى العرب خاصة ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه بقولهم المسيح ابن الله ، أو هو ثالث ثلاثة .

كما أوضح القول في بداية ظهور الفرق النصرانية من ملكانية ويعاقبه ونساطره وناقش مذاهب هذه الفرق وبين ما في أقوالهم من زيف وتضليل وكان دقة ابن تيمية وأمانته في نقل آراء النصارى وموضوعيته في مناقشة أقوالهم محل اهتمام الباحثين من المستشرقين في الجامعات الأمريكية ، فلقد تناول بعض أساتذة جامعة شيكاغو من الآباء اليسوعيين المهتمين بعلوم مقارنة الأديان ـ موقف ابن تيمية من المسيحية في مؤلفاته المختلفة وخاصة كتابه العظيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وكانت الدهشة واضحة على وجه هذا المستشرق بعد قراءة تراث ابن تيمية وحين وجد الحقيقة التي فرضت نفسها عليه بلا لبس ولا التواء فتقبلها هذا المستشرق بأمانة المنصف ونزاهة الباحث . لقد صرح لي هذا المستشرق الذي أعفى نفسي من ذكر اسمه الآن بأن ابن تيمية «قد أوضح له بعض المفاهيم التي ورثها عن سلفه غامضة بلا معنى ، وصحح له نقولاً ورثها عن السابقين خاطئة وكان ابن تيمية أصدق تعبيراً عن المسيحية من المسيحيين أنفسهم » . . . الخ ما قال لي هذا المستشرق الذي عمل معي ما يقرب من شهرين بكلية دار العلوم باحثاً ومتلمساً حقيقة موقف الفرق النصرانية من طبيعة المسيح ، وكاد الرجل أن يعلن براءته من تضليل النصارى وضلالهم .

لقد شملت مواقف أهل الكتاب في سورة آل عمران قرابة نصف هذا الجزء تقريباً . كما كانت محل اهتمام ابن تيمية وعنايته فصرف جهده إليها وأهمل ما عداها من بقية الموضوعات التي عرضت لها سورة آل عمران .

أما القضية الثانية التي شغلت بقية هذا الجزء ، فهي تلك الدراسة النفسية المتعمقة التي قدمها شيخ الإسلام في تفسيره للآية الكريمة ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ . وتتسم دراسة ابن تيمية وطبيعتها بعمق النظرة في أحوال النفس وأمراضها وعلاجها فكان يجمع في الموقف الواحد بين الآية والحديث والأثر الوارد في النفس .

كما كان يوضح النتائج السيئة التي تترتب على ابتعاد النفس عن المنهج القرآني في السلوك والتربية ـ إنني أوجه نظر الباحثين إلى أهمية تلك الآراء التي قدمها لنا ابن تيمية حول النفس وطبيعتها وأمراضها وعلاجها ، إن هذه الآراء تشكل في مجموعها ما يمكن أن يُسمى بعلم النفس القرآني . الذي تكشف لنا هذه الآراء عن أصوله وقواعده وتلفت نظرنا إلى منهج دراسته وطريقة تناوله وعرضه على الدارسين .

وإذ أقدم هذا السفر العظيم الى المهتمين بتراث السلف ورجاله فأود أن أنبه القارىء الكريم إلى أن هذا الجزء الثاني من دقائق التفسير يشكل الحلقة الثالثة من سلسلة التراث

السلفي التي بدأتها ـ بعون من الله تعالى وتوفيقه . بالجزء الأول . من هذا التفسير ، ثم كانت الحلقة الثانية من هذه السلسلة هي : «كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله » ولا يفوتني هنا أن أنوه بالشكر الجزيل للحاج أسعد سيد أحمد صاحب دار الأنصار على ما أولاه الله من توفيقه فتفضل مشكوراً بتولي مهام نشر وتوزيع هذا التفسير الكبير الذي يرى النور لأول مرة فجزاه الله خير الجزاء .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم وأن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما هو أعلم به منا . إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة

٥ ذو القعدة سنة ١٣٩٨ هـ

٧ أكتوبر سنة ١٩٧٨ م

محمد الجليند

سورة آل عمران *

سبب النزول(*)

. . . .

(*) ذكر غير واحد من المفسرين سبب نزول هذه السورة ، ورغم اختلافهم في رواية وفد نجران على الرسول ﷺ إلا أنهم مجمعون على أن صدر هذه السورة نزل في وفد نجران بسبب مجادلتهم الرسول في أمر المسيح وألوهيته ، والرواية التي أخذ بها ابن تيمية في سبب النزول قد ذكرها ابن جرير الطبري في تفسيره ٣/١٠٧ ـ ١٠٨ غير أن ابن تيمية قد اختصر الرواية فلم يذكر مقدمتها التي حدد فيها ابن إسحاق عدد الوفد والذين يؤول إليهم أمر الوفد منهم . وقد ذكرها ابن إسحاق وأخذها عنه الطبري كاملة فقال : حدّثنا محمد بن حميد ، قال : حدّثنا سلمة بن الفضل ، قال حدّثني محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر قال :

قال قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ، ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، في الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول اليهم أمرهم ، العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو أبي بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه . قال ابن إسحاق : ثم ذكر الطبري بقية الرواية كما أوردها ابن تيمية .

وذكر النيسابوري في (أسباب النزول) نفس الرواية مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وأشار اليها السيوطي في (لباب النقول في أسباب النزول) باختصار شديد فأخرج عن ابن أبي حاتم أن النصارى أتوا الى النبي ﷺ فخاصموه في عيسى ، فأنزل الله «الم ، الله لا إلـهَ الاّ هُوَ الحيُّ القيوم » إلى بضع وثمانين آية منها . وذكر رواية ابن إسحاق وقال : أخرجه البيهقي في الدلائل : وسوف نقابل بين النص عند ابن تيمية وابن إسحاق ونشير الى الفروق بينهما .

أنظر : تفسير الطبري ٣/١٠٧ ـ ١٠٨ ، أسباب النزول للنيسابوري ص ٥٣ ، لباب النقول للسيوطي ص ٤٣ ، وانظر رواية ابن إسحاق التي اعتمدها ابن تيمية في تاريخ ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد طصبيح ٢/٤١٢ ـ ٤١٥ .

رواية ابن اسحاق :

قال ابن إسحاق : حدثني[1] محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على[2] رسول الله ﷺ فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ، جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب[3] قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ : ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ (يصلون)[4] فقال رسول الله ﷺ[5] : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق .

قال ابن إسحاق وكان[6] تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح . والسيد وهو الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر[7] بن وائل . وأوس . والحارث . وزيد . وقيس . ويزيد وبنية وخويلد وعمرو . وخالد . وعبد الله . ويحنس . في ستين راكباً . فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة . والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد . وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم في أمرهم[8] يقولون ، هو الله ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول[9] النصارى .

فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ، ويبرىء الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً[10]، وذلك كله بأمر الله (تبارك وتعالى)[11] ، وليجعله آية للناس[12] .

ويحتجون في قولهم إنه ولد الله ، إنهم يقولون لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم (قبله) .

---

(١) جاءت هذه القصة كاملة في تاريخ ابن إسحاق ٢/٤١١ - ٤١٣ . وسوف نقارن بينهاوبين رواية ابن تيمية ونشير الى الفرق بينهما .

(٢) قدموا على : في ابن إسحاق . لما قدموا على .

(٣) بني الحارث بن كعب . في الطبري بلحرث بن كعب .

(٤) زيادة من ابن إسحاق .

(٥) رسول . . وسلم : ناقصة بالأصل وزيدت من ابن اسحاق .

(٦) وكان : في ابن إسحاق ، فكانت .

(٧) أخو بكر : في ابن إسحاق ، أخو بني بكر ، الطبري : أخو أبي بكر . ولعلها الأصوب .

(٨) مع اختلافهم في أمرهم : في ابن إسحاق ، مع اختلاف من أمرهم .

(٩) قول : في ابن إسحاق : يقول .

(١٠) طيراً : في ابن إسحاق طائراً .

(١١) ما بين القوسين ليست بالأصل . وهي في ابن إسحاق .

(١٢) قبله : ليست بالأصل : وهي في ابن اسحاق .

ويحتجون في قولهم (إنه)[1] ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت . ولكنه هو وعيسى ومريم ، ففي كل ذلك من أقوالهم[2] قد نزل القرآن[3] فلما كلمه الحبران قال لهما الرسول ﷺ : « أسلما » .

قالا : قد أسلمنا .

قال : «إنكما لم تسلما فأسلما » .

قالا : بلى[4] قد أسلمنا قبلك .

قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام كما دعوا لله ولداً ، وعبادتكما صليب ، وأكلكما الخنزير .

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما ، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم[5] كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية .

رواية الطبري :

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد ، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره[6] قال : حدّثنا[7] المثنى ، حدّثنا إسحاق ، حدّثنا ابن أبي جعفر - يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي - عن أبيه عن الربيع في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ * الله لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القيوم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١، ٢] قال : إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلاَّ هُوَ لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

فقال لهم النبي ﷺ : «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلا وهو يشبه أباه ؟

قالوا: نعم ![8] .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

---

(١) إنه : ليست بالأصل : وهي في ابن إسحاق .

(٢) أقوالهم : في ابن إسحاق : قولهم .

(٣) أضاف الطبري بعد قوله : قد نزل القرآن - العبارة الآتية : وذكر الله لنبيه ﷺ فيه قوله . . . وهي ليست في ابن إسحاق .

(٤) في الأصل : بل ، والصواب ما أثبتناه كما في ابن إسحاق ، والطبري .

(٥) في ابن إسحاق والطبري : واختلاف امرهم .

(٦) ذكرها الطبري في تفسيره لسورة آل عمران ٣/١٠٨ - ١٠٩ ط بولاق بالقاهرة سنة ١٣٣٥ هـ . وسوف نقابل بين الروايتين ونشير الى الفرق بينهما .

(٧) في الطبري : حدّثني .

(٨) في الطبري . بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون بأن الله لا يخفى [1] عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء (فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا : بلى)[2] .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث .

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يتغذى[3] الصبي ، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ .

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا،كما زعمتم ؟.

قال : فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً » فأنزل الله[4] ﴿ آلم * الله لا إله إلاَّ هُوَ الحيُّ القيوم ﴾ .

وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسكم ﴾[5] دعا رسول الله ﷺ عليّا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي .

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران الى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعده ، قالا : إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً فلا تبعث معنا

---

(١) في الطبري . إن الله عز وجل لا يخفي .

(٢) ما بين القوسين ناقص بالأصل ، وأكملناها من الطبري .

(٣) في الطبري : يغذي .

(٤) في الطبري ، الله عز وجل .

(٥) سورة آل عمران الآية ٦١.

إلا أميناً ، قال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين . قال فاستشرق لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال الرسول ﷺ . «هذا أمين هذه الأمة »[1] .

وفي سنن أبي داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامي حدّثنا يونس - يعني ابن بكير - حدّثنا أسباط بن نصير الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي ، عن ابن عباس قال : صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة : النصف في صفر والنصف في رجب ، يؤدونها الى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات غدر . على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا .

قال إسماعيل : فقد أكلوا الربا . قال أبو داود : إذاً نقضوا بعض ما شرط عليهم ، فقد أحدثوا[2] .

وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم . وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الأموال» ذكره من طريقين .

قال أبو عبيد رحمه الله حدّثنا أبو أيوب الدمشقي قال حدثني سعدان بن يحيى عن عبد الله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي : أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران[3] فكتب لهم كتاباً[2] : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة[4] ورقيق وأفضل[5] عليهم وترك ذلك لهم ، ألفي حلة : في كل صفر ألف حلة ، وفي كل رجب ألف حلة ، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب ، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع

---

(١) اورده البخاري مختصراً ٤/٣٢ (كتاب المناقب . باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح) ، وأخرجه مسلم أيضاً برواية زفر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ابعث إلينا رجلاً أميناً . . . الحديث . انظر مسلم ١٥/١٩٢ ط المصرية بالأزهر بشرح النووي ط ١ الأولى سنة ١٩٣٠ م .

(٢) ذكره ابو داود في كتاب الإمارة .

(٣) أورد أبو عبيد بن سلام هذه المعاهدة في كتابة «الأموال» ص ٢٧٢ - ٢٧٦ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٦ م بتحقيق محمد خليل هراس وسوف نقابل بين النصين فيما يلي .

(٤) في الأصل : فكتب له . والصواب ما أثبتناه . وهو ما ذكره أبو عبيد في الأموال .

(٥) صفراء وحمراء أو ثمرة : حمراء وصفراء وثمرة .

(٦) هي من الفضل والتفضل : والمعنى أنه يتفضل عليهم بترك أموالهم لهم بعد أن كان له الحكم عليهم في هذه الأموال .

أخذ منهم بالحساب(١) ، وعلى أهل نجران أن يقروا رسلي(٢) عشرين ليلة فما دونها، وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة(٣) ، وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضامن على رسلي حتى يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها(٤) ، ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملّتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ، ولا واقهاً من وقيهاه(٥) ولا راهباً من رهبانيته وعلى أن لا يحشروا(٦) ولا يعشروا . ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل(٧) منهم حقاً فالنصف بينهم ، وهذا لنجران على أن لا يأكلوا الربا ، فمن أكل الربامن ذي قبل فذمتي منه بريئة ، وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف(٨) عليهم . شهد (بذلك(٩) عثمان بن عفان ومعيقيب) .

قال أبو عبيد : الواقة ولي العهد في لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه .

قال أبو عبيد : قال أبو أيوب ، وحدّثني عيسى بن يونس ، عن عبد الله بن أبي حميد ، عن أبي المليح عن النبي ﷺ مثل ذلك وزاد في حديثه قال : فلما توفي رسول الله ﷺ، أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب كتاباً نحواً من كتاب رسول الله ﷺ ، فلما ولي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أصابوا الربا في زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم : أما بعد : فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من خراب الأرض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم ، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية .

قال أبو عبيد : وهي قرية بالكوفة ، وكتب عثمان الى الوليد بن عقبة : أما بعد : فإن

---

(١) بالحساب : في (الأموال) بحساب .

(٢) أن يقروا : في (الأموال) مقرى . والمعنى أن على أهل نجران أن يقدموا للرسل الموفدين إليهم واجبات (القرى) من مأكل ومسكن خلال المدة التي نصبها الرسول لهم .

(٣) في الأصل : معذرة . والصواب ما أثبتناه . والمعنى : أنه اذا حصل غدر من أهل اليمن واحتاج المسلمون أن يستعيروا هذه الأشياء المذكورة في المعاهدة للحرب فعلى أهل نجران أن يعيروها للمسلمين . وعلى المسلمين أن يردوها اليهم بعد الحرب ، وما تلف منها فإن على المسلمين أن يضمنوه بقيمته .

(٤) المراد بالحاشية أتباعهم من كل ما يلزمهم الدفاع عنه ،

(٥) في النهاية لابن الأثير أن الواقة يروى هكذا بالقاف ، وإنما هو بالفاء «ولا وافه عفى وفهيته» والوافة هو القيم على البيت الذي فيه صليب النصارى بلغة أهل الجزيرة ، وتروى أيضاً : واهف .

(٦) في الأصل : يخسروا . والصواب ما أثبتناه . والمعنى ألايجلوا عن أرضهم . ولا يؤخذ منهم العاشر .

(٧) في الأصل : ملك والصواب ما أثبتناه .

(٨) معسوف : في «الأموال» معنوف .

(٩) ليست بالأصل . وزيدت من كتاب الأموال لتوضيح المعنى .

العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله ﷺ وأروني شرط عمر - رضي الله عنه - وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأني[1] (أنه كان قد بحث عن ذلك فوجده صار للدهاقين، فنزعهم عن أرضهم)، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتي حلّة لوجه الله، وعقبى لهم من أرضهم وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة.

قال أبو عبيد: وحدثنا عثمان بن صالح عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ وسلم، كتب لأهل نجران من محمد النبي رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحو هذه النسخة.

(إلا أنهما اختلفا في حروف في حديث ابن لهيعة فكان قوله: «وأفضل عليهم»، «قضى عليهم» وفي موضع قوله «كل حلّة أوقية»: «كل حلّة وافية». ولم يذكر سقيفاه ولا وقيهاه)[2].

وليس في حديثه قصة أبي بكر وعمر (وعثمان)[3] رضي الله عنهما، وفي آخر حديث ابن لهيعة[4]، شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نضر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

قال أبو عبيد حدّثني سعيد بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب قال: أول من أعطى الجزية أهل نجران، وكانوا نصارى[5].

فإن قيل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نشركَ بهِ شيئاً ﴾[6].

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدة هدنته للمشركين، وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم، وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي ﷺ[7]، وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدلّ ذلك أن على هذا الكتاب كان قبل الفتح،

(١) وردت هذه الجملة في كتاب الأموال هكذا: فانبأني أنه كان قد بحث عن ذلك فوجده ضارا للدهاقين ليردعهم عن أرضهم. والرواية كما أثبتها ابن تيمية هي الصواب، لأن عثمان بن حنيف إنما كان يبحث عن مصير الأشياء التي نص عليها في المعاهدة، وأنه وجدها قد صارت الى الدهاقين. وليس المراد هل هي ضارة بهم أو ليست بضارة، ويبدو أن الناسخ قد خلط بين كلمة صار، ضار.

(٢) ما بين القوسين ساقط من الأصل.

(٣) ناقصة بالأصل.

(٤) في الأصل: وفي آخره. انظر في ذلك كتاب الأموال ٢٨٢ - ٢٧٦.

(٥) أورده أبو عبيد ص ٣٩.

(٦) سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٧) ذكره البخاري ٦/٤٣ - ٤٥ (كتاب التفسير. باب تفسير سورة آل عمران)، ٤/٥٤ - ٥٦ (كتاب الجهاد. باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة)، وأورد مسلم هذا الحديث مطولاً عن ابن عباس. وكان دحية الكلبي هو المرسل بالكتاب =

ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع ، فدّل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة ، وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة ـ قد علم يقيناً أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران ـ والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران ، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل .

ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها ، فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية . وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة ، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية .

قال الزهري : أهل نجران أول من أدى الجزية (١) ، وقوله تعالى ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾ بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله ﴿ يا أهْلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ الله وأنتم تشهدون ؟* يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلْبِسونَ الحقَّ بالباطِلِ وتكتمونَ الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾(٢) ، فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله ، وجمع بينها للمناسبة كما في نظائره ، فإن الآيات كانت إذا نزلت بأمر النبي ﷺ أن يضعها في مواضع تناسبها ، وإن كان ذلك مما تقدم .

ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾ لفظها يعم اليهود والنصارى ، كذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء للطائفتين ، وأن النبي ﷺ دعا بها اليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم ، فإن دعاء اليهود كان قبل نزول آية الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ، ولكن لما بعث معاذاً لليمن ـ وكان كثير من أهلها يهوداً ـ أمر أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله مغافر وهذا كان متأخراً بعد غزوة تبوك ، وتوفي النبي ﷺ ومعاذ باليمن . قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدّثنا أبي ، حدّثنا هشام بن عمار ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن حوشب وغيْره ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى (إليون) طاغية الروم قال فيما أنزل الله على محمد ﷺ : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ ـ يعني اليهود والنصارى ـ تعالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾(٣) .

وروى بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿تعالَوْا إلىٰ كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم﴾ قال: بلغني أن النبي ﷺ دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم ، وكذلك سائر الآيات التي فيها

= الى هرقل ، فدفعه الى عظيم بصرى ثم دفعه عظيم بصرى الى هرقل . انظر مسلم (كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي الى هرقل) ٥/١٦٣ ـ ١٦٥ ط . دار الطباعة العامة بمصر . سنة ١٣٢١ هـ .

(١) وأشار الى ذلك أيضاً أبو عبيد في كتابة (الأموال) انظر ص ٣٩.

(٢) سورة آل عمران الآيات (٧٠ ـ ٧١).

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤.

خطاب للطائفتين ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تحاجّونَ في إبراهيمَ وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلّا من بعدِهِ أفلا تعقلون ❁ ها أنتم هؤلاء حاجَجْتم فيما لكم به علمٌ فلمَ تحاجّون فيما ليسَ لكم به علمٌ والله يعلمُ وأنتم لا تَعلمون ❁ ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً وما كانَ مِنَ المشركين ﴾(١) .

ومما ينبغي أن يعلم ، أن أهل نجران المذكورة ، نجران اليمن لا نجران الشام ، وأهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة ، وكان منهم مسلمون ـ وهم الأكثرون ـ والنبي ﷺ بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء ، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء ، كما أخرجاه في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ لكلِّ أمةٍ أميناً وإنَّ أمينَنا أيها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »(٢) .

وعن أنس أيضاً : أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلاً أميناً يعلمنا السنّة والإسلام ، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح فقال : «هذا أمين هذه الأمة »(٣) .

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أيا رسول الله ابعث إلينا رجلاً أميناً فقال : «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين » قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث أبا عبيدة بن الجراح(٤) .

وللبخاري عن حذيفة قال : جاء السيد والعاقب صاحبا نجران الى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما للآخر : لا تفعل فوالله لأن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ، فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ «هذا أمين هذه الأمة » .

وكذلك استعمل النبي ﷺ عليهم عمرو بن حزم وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن ، وقد رواه النسائي بطوله وروى الناس بعضه مفرقاً ، ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان ، فدل على أن قدومهم كان متأخراً ، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجمع بين خبر اليهود والنصارى ، وذكر في سنة

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٦٥ ـ ٦٧) .

(٢) ذكره البخاري في (كتاب المناقب . . مناقب أبي عبيدة بن الجراح) انظر البخاري ٥/٣٢ .

ومسلم (الفضائل . فضائل أبي عبيدة) برواية أبي قلابة عن أنس م ١٥/١٩١ بشرح النواوي .

(٣) أورده مسلم في (كتاب الفضائل . فضل أبي عبيدة بن الجراح) ١٥/١٩١ .

(٤) أورده مسلم في كتاب (الفضائل . فضل أبي عبيدة) ١٥/١٩١/١٩٢ .

عشر فتح نجران وإرسال النبي ﷺ خالد بن الوليد ، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته ﷺ بأربعة أشهر ، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام ، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك ، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى .

وقال شيخ الإسلام

أبو العباس تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه ونوّر ضريحه .

فصـــــل

في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، والملائكةُ ، وأولوا العِلمِ ، قائماً بالقسطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ ، إِنّ الدِّينَ عندَ الله الإِسلامُ ﴾[1] .

أقوال المفسرين في معنى : شهد

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ (شهد) فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة : أي حكم وقضى[2] .

وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج : أي بيّن .

وقالت طائفة : أي أعلم .

وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الإخبار والإعلام ، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار .

وعن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر ، فقال :﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو﴾.

وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة ، وذلك أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به ، وهذا قد يكون مع ان الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره ، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه . فهذه أولى مراتب الشهادة .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١٧ ـ ١٨) .

(٢) علق الطبري على هذا الرأي فقال : فأما من قال أنه عنى بقوله شهد : قضى فما لا يعرف في لغة العرب ولا العجم ، لأن الشهادة معنى والقضاء غيرها . أنظر ١٤١/٣ ط بولاق ، وروى الواحدي في سبب نزول الآية أن حبرين من الشام وفدا على رسول الله ﷺ فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم : قالا : إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك . فقال لهما : سلاني . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿ الآية : شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا . انظر أسباب النزول للواحدي ص ٥٤ ط الحلبي .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك ، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له ، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به . سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجَعَلوا الملائكةَ الَّذينَ هم عبادُ الرحمنِ إناثاً ، أشَهدوا خَلْقَهُمْ سَتُكتبُ شهادتُهم ويُسألون ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وما شَهِدْنا إلَّا بما عَلِمْنَا ﴾[2] الآية . ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبراً مجرداً ، وقد قال : ﴿ واجْتَنِبوا قولَ الزورِ ، حُنفاءَ لله غيرَ مشركينَ بِهِ ﴾[3] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عدلت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية »[4] وإنما في الآية :﴿ اجتنبوا قولالزور ﴾وهذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان ، وعلى أي صفة وجد ، فلا يقوله العبد ولا يخطره ولا يسمعه من قول غيره ، و«الزور» هو الباطل الذي قد ازورّ عن الحق والاستقامة أي تحوّل ، وقد سماه النبي ﷺ شهادة الزور ، وقد قال في المظاهرين من نسائهم ﴿ وإنهم ليقولونَ منكراً مِنَ القولِ وزُوراً ﴾[5] .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس »[6] وهؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك ، ولم يقولوا : نشهد عندك ، فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ في التحديث وإن كان أحدهم قد ينطق به ، ومنه قولهم في ماعز ، فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبي ﷺ[7] ولفظه كان إقراراً ولم يقل : أشهد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كُونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ لله ، ولَوْ على أنْفُسِكم[8] ﴾ وشهادة المرء على نفسه هي إقراره ، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء وإنما تنازعوا في الشهادة عند الحكام ، هل يشترط فيها لفظ أشهد ؟ على قولين في مذهب أحمد ، وكلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك ، وكذلك مذهب مالك و«الثاني» يشترط ذلك كما يحكى عن مذهب أبي حنيفة والشافعي .

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٢) سورة يوسف الآية ٨١ .

(٣) سورة الحج الآية ٣٠ .

(٤) ذكره الترمذي في (كتاب الشهادات) ولفظه : وعدلت شهادة الزور إشراكاً بالله . وأنظر أيضاً : أبو داود (كتاب الأقضية)، ابن ماجه (كتاب الأحكام)، ابن حنبل ١٧٨/٤ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٢ .

(٦) ذكر البخاري هذا الحديث في ١٥٢/١ ط الشعب (كتاب الصلاة . باب الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس). وذكره ابن ماجه (كتاب الإقامة).

(٧) أورد مسلم هذه القصة بروايات مختلفة ومن طرق عدة: (أنظر: مسلم ٤٩/٢ ـ ٥٣ ط. الحلبي كتاب الحدود . باب من اعترف على نفسه بالزنى) ، ابن ماجه (كتاب الحدود)، الدارمي (الحدود)، ابن حنبل ٩٩/٥ .

(٨) سورة النساء الآية ١٣٥ .

و«المقصود هنا» الآية . فالشهادة تضمنت مرتبتين :

«أحداهما» تكلم الشاهد . وقوله . وذكره لما شهد في نفسه به .

و«الثانية» إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ، فمن قال : حكم وقضى فهذا من باب اللازم ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر .

ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم ، فقال : ﴿ وقَضَى ربُّك ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ ﴾[1] .

وقال: ﴿ أَنْ أَنْذِروا أنّهُ لا إلَهَ إلاّ أنا فاتّقُون ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمّةٍ رسولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ ﴾[3] الآية .

وقال تعالى ﴿ وقالَ الله : لا تَتّخذوا إلَهينِ اثْنَينِ ، إنما هُوَ إلَهٌ واحدٌ فإيّاي فارْهبون ﴾[4] .

وقال : ﴿ وما أُمِروا إلاّ ليعبُدوا إلَهاً واحداً لا إلَهَ إلاّ هُوَ سبحانَهُ عمّا يُشركون ﴾[5] ﴿ وما أُمِروا إلاّ ليعبُدوا الله مُخْلصين لَهُ الدّين حُنفاء ﴾[6] .

وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ، ويحرم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى : أنه لا إله إلا هو .

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ، وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد ، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة ، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه ، فان النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفتٍ ، هذا هو المفتي ، ففيه نهي عن استفتاء الأول ، وأمر وإرشاد الى استفتاء الثاني .

وكذلك إذا تحكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، فقيل له : ليس هذا حاكماً ولا هذا سلطاناً ، هذا هو الحاكم وهذا هو السلطان ، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك أن الطالب إنما يطلب ممن عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً فقيل له :

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٤) سورة النحل الآية ٥١ .

(٥) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٦) سورة البينة الآية ٥ .

ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده (من) عند هذا دون ذاك .

والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله إنما الإله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمرا بعبادته .

و«أيضاً» فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا «بالإله» من عبده عابد بلا استحقاق ، فإن هذه الآلهة كثيرة ، ولكنّ تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل، كما قال تعالى : ﴿ إنْ هي إلاّ أسماءٌ سميتُمُوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزلَ الله بها مِنْ سُلطان ﴾[1]وقال : ﴿ ذلك بأنَّ الله هُوَ الحقُّ وأَنّ ما يدعُون من دونِهِ الباطِلُ ﴾[2] .

فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يُألّهه ويعبده «تعسَ عبدُ الدّينارِ وعبدُ الدّرهمِ »[3] فإن بعض الناس قد ألّه ذلك محبة وذلاً وتعظيماً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يُعبد إلا إياه .

و«أيضاً» فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال : للجمل الخبرية قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبته ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

فصل

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ﴿ يُنَزِّلُ

---

(١) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٢) سورة لقمان الآية ٣٠ .

(٣) هذا جزء من حديث شريف أورده ابن ماجه في ١٣٨٦/٢ (كتاب الترهيب) حديث رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣١، وأورده البخاري في (كتاب الجهاد) ٤١/٤ وقال البخاري : لم يرفعه إسرائيل ومحمد بن جحادة عن أبي حصين .

الملائكةَ بالرُّوح مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إلَه إلَّا أنا فـاتّقون ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبـروا عن الله أنه شهـد ويشهد أن لا إلـه إلا هو بقوله وكلامه : وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه ، ولهذا قـال تعالى : ﴿ أمِ اتّخَذُوا مِنْ دونِهِ آلِهَةً ، قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكم ، هَذا ذِكرُ مَنْ مَّعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾[2] .

وأمـا شهادتـه بفعله فهو مـا نصبه من الأدلـة الـدالـة عـلى وحدانيته التي تعلم دلالتهـا بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشـاد ، فإن الدليل (يبين) المدلول عليـه ويظهـره ، فهو بمنـزلة المخبـر به الشـاهد بـه ، كما قيـل : سل الأرض من فجّر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلهـا ، وأوضح نهارها ، فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

وهو سبحانه شهد بمـا جعلها دالّـة عليه ، فـإن دلالتها إنمـا هي بخلقه لهـا ، فإذا كـانت المخلوقات دالّة على أنه لا إله إلا هو سبحانه الذي جعلها دالّة عليه ، فإن دلالتها إنما هي بخلقه ، وبيّن ذلك ، فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو ، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة .

قال ابن كيسان : ﴿شهد الله﴾ بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمـة عند خلقـه أنه لا إلـه إلا هو .

فصـــــل

وقوله : ﴿ قائماً بالقِسْطِ ﴾ هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :

قيل : هو حال من (شهد) : أي شهد قائماً بالقسط .

وقيل : (حال) من (هو) أي لا إله إلا هو قائماً بالقسط كما يقال : لا إله إلا هو وحـده ، وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿قائماً بالقسط﴾ يجوز أن يعمـل فيه كـلا العاملين عـلى مذهب الكـوفيين ، في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله : ﴿ هـاؤمُ اقرَأُوا كتـابِيَه ﴾[3] ﴿وآتُـوني أُفْرِغْ قِطْراً ﴾[4] و ﴿ عنِ اليمينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعيدٌ ﴾ ونحو ذلك .

---

(١) سورة النحل الآية : ٢ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٢٤ .

(٣) سورة الحاقة الآية ١٩ . وكتابيه نصب على أنه معمول للعاملين : هاؤم ، اقرؤ وا .

(٤) سورة الكهف الآية ٩٦ وقوله آتوني ، أفرغ قد عمل كل منهما في قطرا . على رأي الكوفيين . وابن تيمية يستشهد بالآيتين على أن «قائماً» قد عمل فيه كل من شهد ، هو ، على هذا الرأي .

وسيبويه وأصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً ، ويقولون حذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليه .

وقول الكوفيين أرجح ، كما قد بسطته في غير هذا الموضع .

وعلى المذهبين فقوله :﴿بالقسط﴾ يخرج على هذا ، إما كونه يشهد قائماً بالقسط ، فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله ﴿كونُوا قَوّامِينَ بالقِسْطِ﴾(١) فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول العدل ، ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد (قائماً بالقسط): أي : متكلّماً بالعدل مخبراً به آمراً به: كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

(سبب نزول الآية)

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك .

فذكر ابن السائب : أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة ، فقالا : أنت محمد ؟

قال : نعم .

قالا : وأحمد ؟

قال : نعم .

قالا : نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنا بك .

فقال : سلاني .

فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله ، فنزلت هذه الآية(٢) .

معنى قائماً بالقسط :

ولفظ «القيام بالقسط» كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ، فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله :﴿قائماً

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٢) ذكر ذلك النيسابوري في أسباب النزول ص ٥٤ ط الحلبي سنة ١٩٦٨ الطبعة الثالثة .

بالقسط﴾تنبيهاً على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ؟﴾[١] .

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية (شهد الله قائماً بالقسط) ومعنى قوله: ﴿قائماً بالقسط﴾أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان أي يدبره ويتعاهد أسبابه ، وقائم بحق فلان أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : «لا إله إلا هو قائماً بالقسط» أي هو وحدة الإله قائماً بالقسط ، فيكون وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحداً أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ، فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، مع أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط :

و«الوجه الأول» لا يدل على هذا ، ولأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ، ويعمل بالعدل ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كلمةُ ربِّك صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[٢] وقال هود: ﴿ إنَّ رَبِّي على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٣] فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

وقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يأمرْ بالعدلِ وهُوَ على صِراطٍ مُستقيم ؟﴾[٤] وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُركائِكم مَنْ يَهدي الى الحقِّ قلِ الله يُهدي للحقِّ ؟﴾[٥] الآية ، وقال : ﴿ أفمن يَخْلُقُ كمن لا يَخْلق ؟!﴾[٦] الآيات . إلى قوله :﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾فأخبر أنه خالق منعم عالم ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً ولا تنعم بشيء ، ولا تعلم شيئاً ، وأخبر أنها ميتة ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه ؟ ولهذا كان أعظم الظلم والإفك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمدُ لله ، وَسَلامٌ على عبادِهِ الذين اصْطَفَى آللهُ خير أمّا يُشركُون ؟﴾[٧] فقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدِرُ على شيءٍ ،

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥ .
(٣) سورة هود الآية ٥٦ .
(٤) سورة النحل الآية ٧٦ .
(٥) سورة يونس الآية ٣٥ .
(٦) سورة النحل الآية ١٧ .
(٧) سورة النمل الآية ٥٩ .

وَمَنْ رزقناهُ منّا رِزقاً حسَناً فَهُوَ يُنفِقُ منهُ سرّاً وجهراً ، هـل يَستوونَ ؟ الحمـدُ لله بَلْ أكثـرُهم لا يَعلمونَ . وضَربَ الله مثلاً رجلَيْنِ : أَحَدُهُما أبْكَمُ لا يَقدِرُ عـلى شيءٍ وهُوَ كَـلٌّ على مَـوْلاهُ أَينَما يُوَجِّهْهُ لا يأتِ بِخَيْرٍ ، هل يستوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعـدْلِ وَهُوَ عـلى صِراطٍ مستقيمٍ ﴾[1] كـلاهما مثل بيّن الله فيه أنه لا يستوي هو وما يشركون به ، كـما ذكر نـظير ذلك في غـير موضـع ، وإن كان هذا الفرق معلوماً بالضرورة لكـل أحد ، لكنّ المشـركون مـع اعترافهم بـأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المحبة والدعاء ، والعبادة ونحو ذلك .

و« المقصـود هنا » أن الـرب سبحانـه على صـراط مستقيم ، وذلك بمنـزلة قـوله : ﴿قائماً بالقسط﴾ فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط .

ولهـذا أمرنـا الله سبحانـه أن نسألـه أن يهدينـا الصـراط المستقيم ، صـراط الـذين أنعم عليهم : من النبيـين ، والصدّيقـين ، والشهداء والصـالحين ، صـراطهم هو العـدل والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بـطاعته وتـرك معاصيـه ، فالمعـاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل ، والله سبحانه أعلم .

فصـــل

ثم قال تعالى : ﴿لا إلَـه إلاّ هُوَ العـزيزُ الحكيمُ﴾ ، ذكـر عن جعفر بن محمـد أنه قـال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . أي قوله . ﴿ لا إلـه إلاّ هُوَ العـزيز الحكيم ﴾ . ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها ، فقال : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلَـهَ إلاّ هُوَ﴾ والتـالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هـو والملائكـة وأولوا العلم ، وليس في ذلـك شهادة من التـالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي . فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو. فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه ، وهذه خبر عن الله بالتوحيد .

وختمهـا بقولـه : ﴿العزيـز الحكيم﴾ والعزة تتضمن القـدرة والشدة والامتنـاع والغلبة . تقول العرب : عَزَّ يَعَزُّ بفتح العين إذا صلب . وَعَزَّ يَعِزُّ بكسـرها إذا امتنـع . وَعَزَّ يَعُـزُّ بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال . وهو غالب لا يغلب .

والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقـوله ويفعله ، فـإذا أمر بـأمر كـان حسناً ،

---

(١) سورة النحل الآيات (٧٥ ، ٧٦) .

وإذا أخبر بخبر كان صدقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله .

فصـــــل

(الأصول التي تضمنتها الآية)

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم ، فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك ، وتضمنت عدله المنافي للظلم ، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه ، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ، ففيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة .

والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم : لكن فيها حجة عليهم ، وعلى خصومهم الجبرية أتباع الجهم بن صفوان(1) الذين يقولون : كل ما يمكن فعله فهو عدل ، وينفون الحكمة فيقولون : يفعل لا لحكمة ، فلا حجة فيها لهم ، فإنه أخبر أنه لا إله إلّا هو ، وليس في ذلك نفي الصفات وهم يسمون نفي الصفات توحيداً ، بل الإله هو المستحق للعبادة ، والعبادة لا تكون إلا مع محبة المعبود .

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، فدلّ ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأندادهم فعلم أن الله محبوب لذاته ، ومن لم يقل بذلك لم يشهد في الحقيقة ان لا إله إلّا هو .

والجهمية والمعتزلة يقولون : إن ذاته لا تحب ، فهم في الحقيقة منكرون إلهيته وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا إله إلا هو ، فذكر ذلك على أنه لا يمثله أحد في شيء من أموره .

والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين ، فما كان عدلاً من المخلوفين كان عدلاً من الخالق ، وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق ، وذلك قدح في أنه لا إله إلا هو .

---

(1) الجهم بن صفوان : كان معاصراً لواصل بن عطاء ، ولد سنة ٨٠ هـ ، تتلمذ على الجعد بن درهم ، أخذ عنه القول بخلق القرآن ونفى الصفات ، وأتباع الجهم الذين يعنيهم ابن تيمية هم الأشاعرة الذين أخذوا عن الجهم القول بالجبر ، وأحياناً يستعمل ابن تيمية الجهمية ويريد بهم المعتزلة وذلك في مقام حديثه عن النقاة والمتأولة للقرآن انظر عن الجهم . مقالات الأشعري ١٣٢/١ ، ٢٢٩، الملل والنحل ١٣٥/١ . ١٣٧ الفرق بين الفرق ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، الخطط للمقريزي ٣٤٩/٢ ـ ٣٥١، لسان الميزان ١٤٢/٢ ـ ١٤٣، وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٥٧ ح (٢)

والجهمية عندهم أي شيء أمكن وقوعه كان قسطاً ، فيكون قوله :﴿قائماً بالقسط﴾ كلاماً لا فائدة فيه ولا مدح ، فإنه إذا كان كل مقدور قسطاً كان المعنى أنه قائم بما يفعله ، والمعنى أنه فاعل لما يفعله ، وليس في هذا مدح ، ولا هو المفهوم من كونه قائماً بالقسط ، بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالعلم مع قدرته عليه ، لكنه سبحانه مقدس منزه أن يظلم أحداً ، كما قال : ﴿ ولَا يَظْلِمُ ربُّكَ أَحداً ﴾[1] وقد أمر عباده أن يكونوا قوامين بالقسط ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾[2] فهو يقوم عليه بكسبها لا بكسب غيرها ، وهذا من قيامه بالقسط وقال : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ﴾[3] الآية .

وأيضاً فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفسٍ بما كسبت : أنه لا يظلم مثقال ذرة كما قال : ﴿ فمَنْ يَعْمَل مِثْقالَ ذرّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾[4] إلى آخرها .

والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة ، وتحبط إيمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب ، وهذا مما تفردوا به من الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه ، فهم ينسبون الله الى الظلم لا إلى العدل، والله أعلم .

فصل

وقوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيمُ﴾ إثبات لعزته وحكمته ، وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية [5] ، فإن الجبرية ـ اتباع جهم ـ ليس له عندهم في الحقيقة حكمة ، ولهذا لما أرادت الأشعرية أن تفسر حكمته ففسروها إما بالقدرة ، وإما بالعلم ، وإما بالإرادة .

ومعلوم أنه ليس في شيء من ذلك إثبات لحكمته ، فإن القادر والعالم والمريد قد يكون حكيماً وقد لا يكون ، والحكمة أمر زائد على ذلك ، وهم يقولون إن الله لا يفعل لحكمة ، ويقولون أيضاً . العمل لغرض إنما يكون ممن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وذلك ، منفي عن الله .

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٢) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٤) سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٥) لا توجد فرقة بعينها تسمى القدرية ، ويطلق ابن تيمية هذه الصفة على المعتزلة ومن شاركهم القول في أن العبد يفعل فعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وهذا اللفظ قد تبرأت منه جميع الفرق الكلامية مع أن كل هذه الفرق كانت ترمي غيرها به ، وتتهم غيرها بأنها قدرية وتبرىء نفسها من هذه الصفة ، فالمعتزلة يتهمون به الأشاعرة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة وتحاول كل فرقة أن تقدم الأدلة التي تراها لدفع التهمة عنها والصاقها بالفرقة الأخرى .

انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عن الجبار ص ٧٧٢ ـ ٧٨٣، التعريفات للجرجاني .

والمعتزلة أثبتوا أنه يفعل لحكمة ، وسموا ذلك غرضاً . هم وطائفة من المثبتة ، لكن قالوا : الحكمة أمر منفصل عنه لا يقوم به ، كما قالوا في كلامه وإرادته ، فاستطال عليهم المجبرة بذلك ، فقالوا : الحكيم من يفعل لحكمه تعود إلى نفسه ، فإن لم تعد إلى نفسه لم يكن حكيماً ، بل كان سفيهاً .

فيقال للمجبرة ما نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفي الإرادة من المتفلسفة ونحوهم ، قالوا : الإرادة لا تكون إلا لمن ينتفع ويتضرر ، ويتألم ويلتذ ، وإثبات إرادة بدون هذا لا يعقل ، وأنتم تقولون : نحن موافقون للسلف وسائر أهل السنة على إثبات الإرادة ، فما كان جواباً لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر أهل السنة لكم حيث أثبتم إرادة بلا حكمة يراد الفعل لها ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين ما في لفظ هذه الحجة من الكلمات المجملة والله اعلم .

فصل

وإثبات شهادة أولي العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين ، الملائكة والبشر . وهذا متفق عليه ، يشهدون أن لا إله إلا الله . ويشهدون بما شهد به لنفسه .

وزعم طائفة من الاتحادية أنه لا يوجد أحد (إلا) الله وأنشدوا :

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد

وهؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح ، يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد ، فيكون الحق هو المناطق على لسان العبد ، والله الموحد لنفسه لا العبد . وهذا في زعمهم هو السر الذي كان الحلاج[1] يعتقده ، وهو بزعمهم قول خواص العارفين ، لكن لا يصرحون به .

وحقيقة قولهم : أنهم اعتقدوا في عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى في المسيح ، لكن لم يمكنهم إظهاره ، فإن دين الإسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة . فصاروا يشيرون إليه ، ويقولون : إنه من السر المكتوم ، ومن علم الأسرار الغيبية فلا يمكن أن يباح به ، وإنما هو قول

(١) هو الحسين بن منصور (أبو مغيث) من كبار فلاسفة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، يعتبره البعض من ملاحدة المتصوفة . نشأ بواسط وانتقل الى البصرة . توفي سنة ٣٠٩ هـ ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ . كان يتنقل بالبلاد لينشر مذهبه متخفياً . ادعى حلول الإله فيه . مال إلى التشيع . أمر الخليفة العباسي المقتدر بالقبض عليه وقتله صبراً . أنظر عنه : الفهرست ١٩٠/١ ، روضات الجنات ص ٢٣٦ . طبقات الصوفية ٣٠٧ ، البداية والنهاية ١٣٢/١١ تاريخ بغداد ١١٢/٨ - ١٤١ ، وقد نشر له نيكلسون كتاب الطواسين .

ملحد ، وهو شر من قولِ النصارى ، فإن النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح . لم يقولوه في جميع الصالحين .

وقد بسط الكلام على ذلك في غير موضع ، إذ المقصود التنبيه على ما في هذه الآية من أصول الإيمان ، والتوحيد وإبطال قول المبتدعين .

فصــل

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد به لنفسه ، فلا بد أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ، ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة .

ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادةً عندَهُ من الله ﴾[1] أي عنده شهادة من الله وكتمها ، وهو العلم الذي بيّنه الله ، فإنه خبر من الله وشهادة منه بما فيه .

وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته ، وكتموا إسلامهم ، وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ ، وبصفته وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ إنّ الّذينَ يكتمونَ ما أنزلْنا مِنَ البيناتِ والهُدى ، من بعدِ ما بيّناهُ للناسِ في الكتابِ ، أولئكَ يَلعَنُهُمْ الله ويَلعَنُهُمُ اللاعنونَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ الّذين آتيناهُمُ الكتابَ يَعرفونَهُ كما يَعرفونَ أبناءَهم ، وإنّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقَّ وهمْ يعلمونَ ﴾[3] .

والشهادة لا بد فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه ، لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ، ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامِينَ بالقِسْطِ شُهَداء لله ، ولَوْ على أنفسِكُمْ ، أو الوالدَيْنِ والأقربَيْنْ ، إنْ يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتّبِعوا الهوى أنْ تَعدِلوا . وإن تَلووا أو تُعرِضوا فإنّ الله كانَ بما تَعملونَ خبيراً ﴾[4] .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال : «البِّيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(٤) سورة النساء : ١٣٥ .

صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذّبا وكتما مُحقت بركة بيعهما»[1] .

فصـــــل

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ، ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين : بالسمع والبصر .

فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرف العباد خيره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ، فخبره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله يبين حكمته .

فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ، وذلك قد عرفه بآياته التي أيدّ بها الأنبياء ودلّ بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال : ﴿ لقدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالْبيِّناتِ ﴾[2] أي بالآيات البينات .

وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قبلِكَ إلاّ رجالاً نُوحي إليهم، فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكر إنْ كنتم لا تعلمون ، بالبيِّناتِ والزُّبرِ وأَنْزَلْنا إليكَ الذكرَ لِتُبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّل اليهم ، ولَعَلَّهُم يَتفكّرون ﴾[3] .

وقال: ﴿ قُلْ قَدْ جاءكم رُسلٌ مِنْ قَبْلي بالبيِّنَاتِ وبالّذي قلتم ﴾[4] .

وقال : ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاءوا بالبَيِّناتِ ، والزُّبُرِ ، والكتابِ المنيرِ ﴾[5] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله

---

(١) ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه ٧٦/٣ (كتاب البيوع . باب إذا بين البيعان ولم يكتما) . وفيه : فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما .
كما أورده مسلم في ٦٦٤/١ (كتاب البيوع . باب الصدق في البيع) وانظر أيضاً أبو داود (البيوع) الترمذي (البيوع)، النسائي (البيوع)، ابن ماجه (تجارات) . وابن حنبل ٤/٣ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٤ .

إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

فالآيات والبراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دلّ بها العباد . وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به ، ولهذا قال بعض النظار ، أن المعجزة تصديق الرسول ، وهي تجري مجرى المرسل ، صدقت فهي تصديق بالفعل ، تجري مجرى التصديق بالقول ، إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه ، وتصديقه إخبار بصدقه ، وشهادة له بالصدق ، وشهادة له بأنه أرسله ، وشهادة له بأن كل ما يبلغه عنه كلامه .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو في أحد التفسيرين المصدق ، الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دلّ بها على صدقة .

الطريق الثاني :

وأما الطريق العياني فهو أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أَنْفُسِهِمْ ، حتى يتبينَ لهم أنّه الحقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بربِّك أنه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ ؟﴾[2] أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ، فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دلّ بها على صدق الرسول ، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج ان ينظر الآيات المشاهدة التي تدلّ على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى ، وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال : ﴿ ولا تُجَادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتّي هيَ أحسنُ ، إلّا الذينَ ظَلَمُوا منهم ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ إلّا الظالمون ﴾[3] فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به .

وقوله : ﴿ في صدورِ الذينَ أُوتوا العِلْم ﴾[4] سواء أريد به أنه بين في صدورهم ، أو أنه

---

(١) جاء هذا الحديث في البخاري ٦/٢٢٤ (كتاب فضائل القرآن) برواية سعيد المقري عن أبي هريرة . وفيه : ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر » الحديث . وانظر كذلك مسلم (كتاب الإيمان) ابن ماجه (كتاب الزهد ، ابن حنبل ٣/٢٤١) .

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات (٤٦ - ٤٩) .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٩ .

محفوظ في صدورهم ، أو أريد به الأمران وهو الصواب ، فإنه محفوظ في صدور العلماء ، بين في صدورهم ، يعلمون أنه حق ، كما قال : ﴿ وَيرى الّذين أوتوا العلمَ الّذي أُنْزِل إليكَ من ربك هـوَ الحقُّ ﴾[1] وقال : ﴿ أفمن يَعلمُ أنّما أُنْزِلَ إليـكَ من ربكَ هـوَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾[2] ﴿ وليَعْلَم الذينَ أُوتوا العِلْمَ أَنهُ الحقُّ من ربكَ فيُؤ مِنُـوا بهِ ، فَتُخْبِتَ لـهُ قلوبُهُم . وإنّ الله لهادِ الّذينَ آمنوا إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَقالوا لَوْلا أُنزلَ عليه آياتٌ من ربهِ ، قُلْ إنما الآياتُ عندَ الله ، وإنّما أنـا نذيرٌ مبينٌ ، أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنزَلْنا عليكَ الكتابَ يُتْلى عليهم ، إنّ في ذلك لرحمةً وذِكـرى لقومٍ يُؤْمنُونَ ، قلْ كفى بـالله بيني وبينَكم شهيداً ، يَعلَمُ مـا في السمواتِ والأرضِ ، والـّذين آمنوا بـالباطـلِ وكفروا بـالله أولئكَ هُمُ الخـاسرون ﴾[4] . فيهـا بيان مـا يوجب السعـادة للمؤمنـين وينجيهم من العذاب .

ثم قال : ﴿ قُلْ كفى بالله بيني وبينَكم شهيداً يَعْلَمُ ما في السمـواتِ والأرضِ ﴾ فإنـه إذا كان عالماً بالأشياء ، كانت شهادته بعلم ، وقد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول ، ومنها القرآن والله أعلم .

فصـــــل

وأما كونه سبحانه صادقـاً فهذا معلوم بـالفطرة الضـرورية لكـل أحد ، فـإن الكذب من أبغض الصفـات عند بني آدم ، فهـو سبحانـه منزه عن ذلـك ، وكـل إنسـان محمـود يتنـزه عن ذلك ، فإن كل أحد يذم الكذب ، فهو وصف ذم على الإطلاق .

وأما عدم علم الإنسـان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكـل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كـالكذب ، فلهذا يبين الـرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد . وأحسن حكماً ، وأصدق قيلاً ، لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كـل أحد ﴿ولهُ المَثَلُ الأعـلى في السمواتِ والأرضِ﴾[5] وهـو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته .

و﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾[6] وهم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبيـاء قبل

---

(١) سورة سبأ الآية ٦ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٣) سورة الحج الآية ٥٤ .

(٤) سورة العنكبوت الآيات (٥٠ ـ ٥١) .

(٥) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٦) سورة الرعد الآية ٤٣ .

محمد ، فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به ، كالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته ، وكتابه ، وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي ﷺ ، وهي الآيات والبراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : ﴿ قلْ كَفَى بالله شهيداً بيني وبينَكم ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾ فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ﴿ قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً ؟ قُلِ : الله شهيدٌ بيني وبينَكم ﴾[1] فقوله ﴿ قل الله ﴾ فيها وجهان :

قيل : هو جواب السائل ، وقوله ﴿ شهيدٌ ﴾ خبر مبتدأ : أي هو شهيد .

وقيل : هو مبتدأ ، وقوله: ﴿ شهيدٌ ﴾ خبره ، فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام .

و«الأول» على قراءة من يقف على قوله ﴿قل الله ﴾ .

و«الثاني» على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح : لكن الثاني أحسن وهو أتمّ.

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾؟ علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له ﴿قل: الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ولما قال : ﴿ الله شهيد بين وبينكم ﴾ كان في هذا ما يغني عن قوله : إنّ الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ﴿أكبر شهادة﴾ بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ، فإن هذا مما لا يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَأُوْحِىَ إليَّ هذا القرآن لأنذِركُمْ بهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[2] فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق ، وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وقوله في هذه الآية : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٩.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٩.

شهيداً بيني وبينكم ﴾[1] ، وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم ، شهيداً ﴾[2] ، وكذلك قوله : ﴿ هُوَ أعلمُ بما تُفيضونَ فيهِ ، كَفَى بهِ شهيداً بيني وبينَكُمْ ﴾[3] . فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم ، ولم يقل : شاهد علينا ، ولا شاهد لي ، لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه ، والمبطل بما يستحقه .

وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ، ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وهوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ ، لِيظهَرهُ على الدّينِ كلِّهِ ﴾[4] فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ، ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أَرْسلنا رُسلنَا بالبيناتِ ، وأنزَلْنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقسطِ ، وأَنزلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ﴾[5] فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ﴿ شهد الله ﴾ .

قال مُجاهد والفراء وأبو عبيدة ﴿شهد الله﴾ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله ﴿ بيني وبينكم ﴾ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر . فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة لما بيننا ، فالله يشهد بما أنزله ويقوله ، وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد بتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن. والله أعلم .

فصـــل

وكذلك قوله : ﴿ لكن الله يشهدُ بما أُنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ ، والملائكةُ يشهدونَ ، وكَفَى بالله شهيداً ﴾[6] فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبراً عمن دونه ، وهذا كقوله : ﴿ فإن لمْ يستجيبوا

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٢ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٨ .

(٤) سورة الفتح الآية ٢٨ .

(٥) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٦) سورة النساء الآية ١٦٦ .

لكُمْ فاعْلموا أنّما أُنْزِلَ بِعلمِ الله ﴾[1] وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له ، فإن جميع الأشياء معلومة له ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق ، لكن المعنى : ﴿ الذي ﴾ أنزله ، فيه علمه ، كما يقال فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ، فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ﴿ قلْ أنزَلَهُ الذّي يَعلمُ السِّرَّ في السمواتِ والأرضِ ﴾[2] ولم يقل تكلم به بعلمه ، لأن ذلك لا يتضمن نزوله الى الأرض .

فإذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ تضمن أن القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله ، كما قال : ﴿ فَمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِنْ بعد ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾[3] وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم ـ ونفسه هي ذاته المقدسة ـ إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح عليه السلام : ﴿ تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ إنَّك أنتَ عَلاَّمُ الغيوبِ ﴾[4] .

وقالت الملائكة : ﴿ لا علْمَ لنا إلّا ما علَّمْتنا ﴾[5] .

وقال : ﴿ ولا يحيطونَ بشيءٍ منْ عِلْمِهِ إلّا بما شاءَ ﴾[6] .

وقال : ﴿ فلا يُظْهِر على غيبهِ أحداً ، إلّا مَنِ ارتضى من رسولٍ ﴾[7] فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به .

وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء ، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه ، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل هذا (مما) قد أظهر عليه من شاء من خلقه ، وهو سبحانه قال : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾[8] فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه ، وأن الرسول صادق .

وكذلك قال في هود : ﴿ فائْتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفترياتٍ ، وادْعوا مَنِ اسْتَطعْتُمْ من دونِ

---

(١) سورة هود الآية ١٤ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٦١ .
(٤) سورة المائدة الآية ١١٦ .
(٥) سورة البقرة الآية ٣٢ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٧) سورة الجن الآية ٢٦ .
(٨) سورة النساء الآية ١٦٦ .

الله إنْ كنتُمْ صادقينَ ﴾[1] لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله : ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثلِهِ ﴾[2] ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله .

وقوله : ﴿ قُلْ أنزَلَهُ الذي يَعْلمُ السِّرَّ في السمواتِ والأرض ﴾[3] لأن فيه (من) الأسرار التي لا يعلمها الا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الإخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله فمن هنا تستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر ، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمور هي سر عند أصحابها كما قال ﴿ وإذْ أسرَّ النبيُّ الى بعضِ أزواجِهِ حديثاً ﴾[4] إلى قوله : ﴿ نبّأني العليمُ الخبيرُ ﴾ فقوله : ﴿ أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ استدلال بأخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال : هو ﴿ إفكٌ افْتراهُ ، وأعانهُ عليهِ قومٌ آخرون ﴾[5] وقوله : ﴿ أنزله ﴾ استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي ، وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله .

فصـــل

ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن من ذلك كما في الصحيح أن النبي ﷺ مُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال : «وجبت ، وجبت » ومُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً ، فقال : «وجبت ، وجبت » قالوا : يا رسول الله ؟ ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال . «هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم

(١) سورة هود الآية ١٣ .

(٢) سورة الطور الآية ٣٤.

(٣) سورة الفرقان الآية ٦ .

(٥) سورة التحريم الآية ٣.

(٦) سورة الفرقان الآية ٤ .

عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الأرض »[1] قوله : «شهداء الله » أضافهم الى الله تعالى .

والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له . وإلى من يشهد عنده ، فتقبل شهادته كما يقال : شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ، ليؤديها عند غيره ، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريرهم .

فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله وفعله ، ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته .

وقد قال تعالى : ﴿ لهمُ البُشرى في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ﴾[2] وفسر النبي ﷺ البشرى بالرؤيا الصالحة ، وفسرها بثناء الناس وحمدهم ، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى . والله سبحانه أعلم .

وسئل رحمه الله

عن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ﴾[3] .

المراد به أمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان ؟ أم المراد به إذا أحدث حدثاً لا يقتص منه ما دام في الحرم ؟

فأجاب : التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلداً آمناً قدراً وشرعاً ، فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم ، فإذا دخلوا الحرم ، أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمته ، ففي الإسلام كذلك وأشد .

لكن لو أصاب الرجل حدّاً خارج الحرم ثم لجأ إليه فهل يكون آمناً لا يقام عليه الحد فيه أم لا ؟ فيه نزاع . وأكثر السلف على أنه يكون آمناً ، كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما ، وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما .

---

(١) أورد البخاري هذا الحديث برواية أنس بن مالك ١٢١/٢ (كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت) ، كما أورده مسلم في «كتاب الجنائز . باب فيمن يثنى عليه خيراً أو شراً » ٣٧٩/١، وأنظر أيضاً : النسائي «كتاب الجنائز »، وأبو داود «جنائز »، الترمذي «جنائز» ابن حنبل ٢٦١/٣ .

(٢) سورة يونس الآية ٦٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

وقد استدلـوا بهذه الآيـة وبقول النبي ﷺ : « إن الله حـرّم مكة يـوم خلق الله السموات والأرض ، وإنها لم تحل لأحد قبـلي ، ولا تحل لأحـد بعدي ، وإنمـا أُحِلَتّ لي ساعـة من نهار ، وقد عادت حرمتها . فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إنما أحلّهـا الله لرسـوله ولم يحلّها لك »[1] .

ومعلوم أن الرسول إنما أبيح له فيها دم من كان مباحاً في الحل ، وقـد بين أن ذلـك أبيح له دون غيره .

والمراد بقوله ﴿ ومن دخله ﴾ الحرم كله .

وأمـا عرض الأديـان وقت الموت فيبتـلى به بعض النـاس دون بعض ، ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام ، كما جاء في الحديث «من ملك زاداً وراحلة تبلغه الى بيت الله ثم لم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً »[2] والله أعلم .

وللشيخ رحمه الله

في قـوله تعـالى : ﴿ إنما ذلكُمُ الشّيـطانُ يُخوِّفُ أوْليـاءَهُ فلا تَخافـوهُمْ وخَـافـونِ إنْ كنتُمْ مؤمنينَ ﴾[3] هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين : كـابن عباس ، وسعيـد بن جبير ، وعكرمة ، والنخعي ، وأهـل اللغة كـالفراء وابن قتيبـة ، والزجـاج ، وابن الأنباري ، وعبـارة الفراء : يخوفكم بأوليائه ، كما قال . ﴿ لِينذرَ بأساً شديداً من لَدُنْهُ ﴾[4] ببأس شديد . وقوله : ﴿ لِينذرَ يومَ التّلاقِ ﴾[5] وعبارة الزجاج : يخوفكم من أوليائه .

[أقوال العلماء في الآية :]

قـال ابن الأنباري : والـذي نختاره في الآيـة يخوفكم أوليـاءه . تقول العـرب : أعطيت الأموال : أي أعطيت القوم الأموال ، فيحـذفون المفعـول الأول ويقتصرون عـلى ذكر الشـاني . وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفاً مطلقاً ، ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة ،

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ١٨/٣ (كتاب الحج ، باب لا ينفر صيد الحرم) كما أورده البخارى جزءاً من حديث الـرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ١٨/٣ ، وأنظر ايضاً الترمذي (كتاب الحج)،

(٢) أورده الترمذي في (كتاب الحج) والدارمي في (المناسك).

(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢ .

(٥) سورة غافر الآية ١٥ .

فحذف الأول ليس مقصوداً ، وهذا يسمى حذف اختصار ، كما يقال : فلان يعطي الأموال والدراهم .

وقد قال بعض المفسرين : يخوف أولياءه المنافقين ، ونقل هذا عن الحسن والسدي وهذا له وجه سنذكره ، لكن الأول أظهره ، لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، كما قال قبلها (الذّينَ قالَ لهمَ الناسُ إنّ الناسَ قَدْ جَمَعوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزادهُمْ إيماناً ﴾(١) الآيات . ثم قال : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس وقد قال : ﴿ يخوف أولياءه ﴾ ثم قال : ﴿ فلا تخافوهم ﴾ والضمير عائد الى أولياء الشيطان الذين قال فيهم : ﴿ فاخشوهم ﴾ قبلها .

وأما ذلك القول فالذي قاله فسرها من جهة المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه بالمؤمنين ، لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائماً ، فالمخاوف منصبة إليهم محيطة بقولهم ، وإن كانوا ذوي هيئات وعدد وعُدد فلا تخافوهم .

وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار ، أو أنهم أرادوا المفعول الأول : أي يخوف المنافقين أولياءه ، وإلا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين ، ولو أنه أريد أنه يخوف أولياءه : أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : ﴿ فلا تخافوهم ﴾ .

وأيضاً فهذا فيه نظر . فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذْ زيّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ ، وَقالَ : لا غالب لكُمُ اليومَ مِنَ النّاسِ ، وإني جارٌ لكُمْ ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ يعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ، وما يَعِدُهُمْ الشّيطانُ إلاّ غُروراً ﴾(٤) .

ولكن الكفار يُلقي الله في قلوب الرعب من المؤمنين ، والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : ﴿ لأنتم اشدُّ رهبةً في صدورِهِمْ منَ الله ﴾(٥) وقال : ﴿إذ يُوحي ربُّكَ الى الملائكةِ أني مَعَكُمْ فثَبِّتوا الّذين آمنوا ، سأُلقي فيقلوبالذِّينَ كفَروا الرُّعْبَ ﴾(٦) وقال : ﴿ سَنُلقي في قلوبِ الذّين كفروا الرُّعْبَ بما أشرَكوا بالله ﴾(٧) . وفي حديث قرطبة أن جبريل قال «إني ذاهب اليهم فمزلزل بهم الحصن » فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٤) سورة النساء الآية ١٢٠ .

(٥) سورة الحشر الآية ١٣ .

(٦) سورة الأنفال الآية ١٢ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٥١ .

ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام ، فهم يوالوا العدو ، فصاروا بذلك منافقين ، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى : ﴿ ويَحْلِفون بالله إنّهم لَمِنكم وما هم منكم ولكنهم قومٌ يفرقون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوفُ رأيتَهُمْ ينظرونَ اليكَ تدورُ أعينُهم ، كالذي يُغشى عليهِ مِنَ الموْتِ﴾ الآيات . إلى قوله : ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أنهم بادونَ في الأعْرابِ يسألون عنْ انبائكُمْ ﴾[2] فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ، لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه سياق الآية ولفظها . والله أعلم .

وإذا جعلهم الشيطان مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم فجعله خائفاً .

فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم . ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس . كما قال تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوا الناسَ واخْشَوْنِ ﴾[3] بل يجب عليه أن يخاف الله ، فخوف الله أمر به ، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه .

وقال تعالى: ﴿ لئِلّا يكونَ للناسِ عليكُمْ حجةٌ ، إلّا الذينَ ظَلَموا مِنْهُمْ فلا تَخْشوهُمْ واخْشوْنِ ﴾[4] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، والذين يبلغون رسالات الله يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وقال : ﴿فإيّايَ فارْهَبُون ﴾ .

وبعض الناس يقول : يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهذا كلام ساقط لا يجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحداً لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله ، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه ، والله أعلم .

فصل

قال شيخ الإسلام

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في هذه السورة المكية[5] التي أنزلها في أول الأمر بمكة في

(١) سورة التوبة الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآيات (٩ ـ ٢٠) .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٥٠ .

(٥) الإشارة هنا إلى سورة مريم . حيث ذكر فيها قصة المسيح وأمه بالتفصيل .

السور التي ذكر فيها أصول الدين التي اتفق عليها الأنبياء ، ثم ذكرها في سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل عِمرانَ على العالمينَ * ذرية بعضُها مِنْ بعضٍ والله سميعٌ عليمٌ * إذْ قالتِ أمرأتُ عِمْرانَ ربِّ إني نَذرتُ لكَ ما في بطني محرراً فتقبلْ مني إنَّكَ أنتَ السميعُ العليمَ * فلمّا وضعتها قالتْ ربِّ إني وضعتُها أنثى والله أعلمُ بما وضعتْ وليس الذكرُ كالأنثى وإني سميتُها مريمَ وإني أعيذُها بك وذريتَها مِنَ الشيطان الرجيم ﴾[1] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخاً من الشيطان إلا مريم وابنها» . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿وإني أعيذُها بِكَ وذريتَها مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ فتقبَّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا كلّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجدَ عندهَا رزقاً قالَ يا مريمُ أنّى لكِ هذا ؟ قالت هُوَ مِنْ عندِ الله إنّ الله يرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ ﴾ .

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هنالكَ دعا زكَريّا ربَّه قالَ ربِّ هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذريةً طيبةً إنّكَ سميعُ الدعاءِ * فنادَتْهُ الملائكةُ وهوَ قائمٌ يصلي في المحرابِ أنّ الله يُبَشِّرُكِ بيَحْيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ مِنَ الله وَسَيِّداً وَحَصوراً ونبياً مِنَ الصالحينَ * قالَ ربِّ أنى يكونُ لي غلامٌ وقد بَلَغني الكبرُ وامرأتي عاقرٌ ؟ قالَ كذلكَ الله يفعلُ ما يَشاءُ * قالَ ربِّ اجعلْ لي آية قال آيتكْ ألّا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثة أيامٍ إلاّ رَمْزاً واذْكُرْ ربَّك كثيراً وسبِّحْ بالعَشِيِّ والإبكار * وإذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله اصطفاكِ وطَهّركِ واصْطَفاكِ على نساءِ العالمينَ * يا مريمُ اقنتي لربِّكِ واسْجُدي واركعي مَعَ الراكعين * ذلكَ من أنباء الغيبِ نُوحيهِ إليكَ وما كُنْتَ لديهم إذ يلقونَ أقلامَهُمَ أيُّهم يَكْفُلُ مريمَ وما كُنْتَ لديهِمْ إذ يختصِمونَ * إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله يُبَشِّرِكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرةِ وَمِنَ المقرّبينَ * ويُكَلِّمُ الناسَ في المهدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصالحينَ * قالَتْ ربِّ أنىّ يكونُ لي

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٣٣ - ٣٦) .

(٢) أورده مسلم ٢ - ٣٤١ «كتاب الفضائل . باب فضائل عيسى بن مريم» وفيه : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه .

وأنظر كذلك : ابن حنبل ٢ - ١٢ وفيه : كل بني ادم يطعنه الشيطان في جنبيه إلا ابن مريم .. الخ .

غلامٌ ولم يمْسَسْني بشرٌ قالَ كَذَلكَ الله يَخْلُق ما يشاءُ إذا قَضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كُنْ فيكونُ * ويُعلِّمهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جِئْتُكُمْ بآيةٍ مِنْ ربِّكم أني أخلقُ لكم مِنَ الطين كهيئةِ الطَّيْر فانْفخ فيهِ فيكونُ طيراً بإذنِ الله ، وأُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ وأُحْيي الموتى بإذنِ الله ، وأُنبِئُكم بما تأكلونَ وما تدَّخِرونَ في بيوتِكم إن في ذلك لآيةً لكم إنْ كنتم مُؤْمِنينَ * ومُصَدِّقاً لما بَيْنَ يديَّ مِنَ التوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم وَجِئتُكم بآيةٍ مِنْ ربِّكم فاتّقوا الله وأطيعون * إنّ الله ربي وربُّكم فاعْبُدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ * فلما أحسَّ عيسى منهُم الكفر قالَ مَنْ أنصاري الى الله ؟ قالَ الحواريّونَ : نحنُ أنصارُ الله آمَنّا بالله واشْهَدْ بأنّا مُسْلِمونَ * ربّنا آمَنّا بما أنزلْتَ واتّبعْنا الرسولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشاهِدَينْ * ومَكروا ومَكَر الله والله خيرُ الماكِرين * إذْ قالَ الله يا عيسى إني مُتَوفّيكَ ورافِعُك إليّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذينَ كفَروا وَجاعِلُ الذينَ اتّبعوكَ فوقَ الذين كفَروا إلى يوم القيامَةِ ، ثم إليّ مَرْجِعُكم فأَحْكُمُ بينكم فيما كنتم فيهِ تختلفونَ * فأمّا الذينَ كَفَروا فأُعذِّبُهُمْ عذاباً شديداً في الدنيا والآخرةِ وما لهم من ناصِرينَ * وأما الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ فيُوفيهِمْ أُجورهم والله لا يُحِبُّ الظالمينَ * ذلكَ نَتْلوهُ عليكَ مِنَ الآياتِ والذكر الحكيم * إنّ مثلَ عيسى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثمّ قال لهُ كُنْ فيكونُ * الحقُّ مِنْ ربِّكَ فلا تَكُنْ مِنَ المترينَ * فَمَنْ حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جَاءكَ مِنَ العِلْمِ فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسنَا وأنفسكم ثم نَبْتَهِلْ فنَجْعَل لعنت الله على الكاذبينَ * إنّ هذا لهوَ القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلهٍ إلا الله وإنّ الله لهوَ العزيزُ الحكيمُ * فإنْ تَوَلَّوْا فإنّ الله عليمٌ بالمفسدين * قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْنَنا وبينَكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضاً أرْباباً مِنْ دونِ الله ، فإنْ تولَّوْا فقولوا اشْهَدوا بأنا مُسْلِمونَ * يا أهلَ الكتابِ لم تُحاجّوْنَ في إبراهيم وما أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلا مِنْ بعْدِهِ أفلا تعقِلونَ * ها أنتم هؤلاءِ حاجَجْتُمْ فيما لكم به علمٌ فلمَ تُحاجّوْنَ فيما ليسَ لكُم به عِلْمٌ والله يَعلمُ وأنتم لا تَعلمونَ * ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نَصْرانيّاً ولكنْ كانَ حنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المشركينَ * إنّ أوْلى الناسِ بإبراهيمَ للّذينَ اتّبعوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمَنوا والله وليّ المؤمنين ﴾(١) .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين .

إحداهما: مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ، وهي سورة كهيعص .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٣٨ ـ ٦٨).

والثانية : مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت في «براءة» مجاهدتهم ، فأخبر في السور المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً . فقالت : ﴿إني أعوذُ بالرحمن مِنْكَ إن كنتَ تقيًّا ﴾(١) .

قال أبو وائل : علمت أن المتقي ذو نهيه ، أي : تقواه ينهاه عن الفاحشة ، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أعوذُ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقياً ﴾ ، أي : تتقي الله ، وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : ﴿ إنّما أنا رسول ربِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلاماً زكياً ﴾ .

وفي القراءة الأخرى : ﴿ ولأهب لك غلاماً ذكياً ﴾ فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً أنه رسول ربها ، فدّل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام ، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئاً من صفاته ابناً ، وهذا أحد ما تبين به ضلال النصارى وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : (عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس). فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابناً ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته ابناً ، ولا يسمونه نفسه ابناً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى المكرم ابناً ، وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت إبني بكري . أي : بني إسرائيل . وروح القدس : يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم فسماه أباً للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الابن ، ولا يوجد عندهم لفظ الإبن إلا اسماً للمصطفى المكرم لا اسماً لشيء من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون

---

(١) سورة مريم الآية ١٨ .

أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية ، ولا بروح القدس حياة الله . بل المراد بالابن ناسوت المسيح وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي أنزل به ، فيكون قد أمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله والملك الذي نزل به وبهذا الذي نزل به ، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم ، وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت ، لكن ظهر فيه نور الله . وكلام الله وروح الله . كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل .

ومعلوله أن غيره أيضاً - فيما ينقلونه عن الأنبياء - يسمى ابنا وروح القدس حلت فيه . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضاً ، وأنه ليس مع النصارى حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه . وعندهم في الإنجيل أنه قال : «إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده» فبين أن الابن لا يعلم الساعة . فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني .

فصل

موقف الأمم من الرسل

وأما قوله تعالى : ﴿ يا عيسى إني متوفِّيك ورافعُك إليَّ ومطهرُكَ من الذين كفروا وجاعلُ الذينَ اتّبعوك فوقَ الذينَ كفروا إلى يوم القيامةِ ﴾[1] .

فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به الى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً ﷺ بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إنا معاشر

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي »[1] .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصّى بهِ نوحاً والذي أوحَيْنا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تتفرّقوا فيهِ كَبُرَ على المشركين ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الرسُلُ كُلوا من الطَّيِّبات واعملوا صالحاً إني بما تعمَلونَ عليمٌ * وإنّ هذهِ أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون * فتَقَطَّعوا أمرَهُمْ بينَهُمْ زُبُراً كلُّ حِزبٍ بما لَدَيهِمْ فرِحونَ ﴾[3] ، فكل من كان أتم إيماناً بالله ورسله ، كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ إنّا لنَنْصرُ رُسُلنا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ ﴾[4] .

وقال في كتابه : ﴿ ولقدْ سبقَتْ كلمَتُنا لعبادِنا المرسلينَ * إنّهم لَهُمُ المنصورون * وإنّ جندنا لَهُمُ الغالبون ﴾[5] .

(اليهود كذبوا الرسل)

واليهود كذبوا المسيح ومحمداً ﷺ كما قال الله فيهم : ﴿ بِئْسَما اشتَرَوا بهِ انفسَهُمْ أنْ يكفروا بما أنزلَ الله بغياً أن ينزِّلَ الله مِنْ فضلِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ فباءوا بغضبٍ على غضبٍ ﴾ .

فالغضب الأول : تكذيبهم المسيح ، والثاني : محمداً ﷺ . والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قولوا آمنّا بالله وما أُنزلَ إلَيْنا وما أُنْزِلَ الى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفرِّق بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمونَ ﴾[7] .

وقال تعالى : ﴿ آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليهِ مِنْ ربِّه والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ

---

(١) ورد الحديث في : مسلم بلفظ مختلف من رواية أبي هريرة ، وفيه أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال الأنبياء إخوة من علات ، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد . فليس بيننا نبي » أنظر مسلم ٢ ـ ٣٤١ «كتاب الفضائل باب عيسى ابن مريم » .

(٢) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٣) سورة المؤمنون الآيا (٥١ ـ ٥٣) .

(٤) سورة غافر الآية ٥١ .

(٥) سورة الصافات (١٧١ ـ ١٧٣) .

(٦) سورة البقرة الآية ٩ .

(٧) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

ورُسُلِهِ لا نُفرِّق بين أحدٍ منْ رسلِهِ وقالوا سمِعْنا وأطعْنا غفرانكَ ربَّنا وإليك المصيرُ ﴾[١] .

المسلمون أتباع جميع الرسل

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة »[٢]. وقال أيضاً : «سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها[٣] . . . الحديث» فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

فصـــــل

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وهُمْ يسجُدُونَ * يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْن عن المنكرِ ويُسارعونَ في الخيرات وأولئكَ منَ الصالحينَ ﴾[٤] ، فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخْرجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ بالله ، ولَوْ آمنَ أهل الكتابِ لكانَ خيراً لَهُمْ منهم المؤمنون وأكثرهُمُ الفاسقونَ * لنْ يَضُروكُمْ إلاّ أذىً وإنْ يقاتلوكُمْ يولُّوكُم الأدبارَ ثمّ لا يُنصرونَ * ضُربتْ عليهِمُ الذِّلة أينما ثُقِفوا إلاّ بحبلٍ مِنَ الله وحبل مِنَ الناسِ وباؤوا بغضبٍ منَ الله وضُربَتْ عليهِم المسكنةُ ذلك بأنهُمْ كانوا يكفرونَ بآياتِ الله وَيقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذَلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ ﴾[٥] ، ثم قال : ﴿ ليسوا سواءً من أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ ﴾[٦] . ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله : ﴿ ذلك بأنّهم كانوا يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ﴾ صفة لليهود ، وكذلك قوله :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) ورد هذا الحديث في البخاري ٩ ـ ١٦٧ «كتاب التوحيد » باب قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ .

(٣) ورد هذا الحديث في مسلم بروايات مختلفة عن ثوبان . وفيه : (وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد . إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى انفسهم يستبيح بيضتهم حتى لو اجتمع عليهم من بأقطارها . . الحديث) . أنظر مسلم ٥٥٢/٢ (كتاب الفتن . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) ، وانظر كذلك : أبو داود (كتاب القدر) .

(٤) سورة آل عمران الآيات (١١٣ـ ١١٤) .

(٥) سورة آل عمران الآيات (١١٠ ـ ١١٢) .

(٦) سورة آل عمران الآية ١١٣ .

﴿ ضُربتْ عليهُم الذلةَ والمسكنةُ ﴾ .

فقوله : عقب ذلك (من أهل الكتاب أمة قائمة) لا بد أن يكون متناولاً لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود كفروا بالمسيح ومحمد ﷺ ، ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ . والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود والله تعالى إنما أثنى على من آمن أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وإنّ مِنْ أهلِ الكتابِ لَمَنْ يؤمنُ بالله وما أُنزِلَ إليكُمْ وما أُنزِلَ اليهم خاشعين لله لا يَشترونَ بآياتِ الله ثمناً قليلاً ، أولئكَ لهمُ أجرُهُمْ عندَ ربِّهم إنّ الله سريعُ الحسابِ ﴾(١) .

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران ، نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلدة نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام ، وقد قيل : إن النبي ﷺ إنما صلى عليه لما مات ، لأجل هذا. فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلي المسلمون على جنائزهم .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ بمنزلة من يؤمن بالنبي ﷺ في بلاد الحرب ، ولا يتمكن من الهجرة الى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الاسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ فإنْ كانَ من قومٍ عدوٍ لكم وهوَ مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ﴾(٢)، فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار ، وهو في الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتُم إيمانَهُ أَتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربيَّ الله وقد جاءَكم بالبيناتِ مِنْ ربِّكم وإنْ يَكُ كاذباً فعَليهِ كَذِبهُ وإنْ يكُ صادقاً يُصِبْكم بعضَ الذي يعِدُكُمْ إنّ الله لا يهْدِي مَنْ هو مُسْرِفٌ كذّابٌ * يا قومِ لكُمُ الملكُ اليومَ ظاهِرينَ في الأرضِ فمَنْ ينصُرنا مِنْ بأسِ الله إنْ جاءَنا ؟ قالَ فِرْعَوْنُ : ما أُريكم إلا ما أرى وما أَهْدِيكم إلا سبيلَ الرشادِ * وقالَ الذي آمَنَ : يا قومِ إني أخافُ عليكم مثل يومِ الأحزاب * مِثْلَ دَأْبِ قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود والذينَ مِن بعدِهِم وما الله يريدُ ظُلماً للعبادِ * ويا قومِ إني أخافُ عَلَيْكم يومَ التّنادِ * يومَ تُوَلّونَ مُدبرينَ ما لكم مِنَ الله مِنْ عاصمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فما لَهُ مِنْ هادٍ * ولقدْ جاءَكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ فما زلتم في شكٍ مما جاءَكم بهِ حتى إذا هَلَكَ قُلْتُم لنْ يَبعثَ الله مِنْ بعدِهِ رسولاً كذلكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسرفٌ مُرتابٌ * الذين يُجادِلون في آياتِ

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٢.

الله بغير سلطانٍ أتاهم كبُرَ مقْتاً عندَ الله وعندَ الذينَ آمنوا كذلكَ يطْبَعُ الله على كلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ جَبّارٍ * وقالَ فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صرْحاً لعلي أبلغ الأسبابَ * أسبابَ السمواتِ فأطَّلِعُ الى إلهِ موسى وإني لأظُنُّهُ كاذباً وكذلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وصُدَّ عن السبيلِ وما كيدُ فرعون إلا في تبابٍ * وقالَ الذي آمن يا قومِ اتّبِعوني أَهْدِكم سبيلَ الرشادِ * يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنّ الآخرة هي دارُ القرارِ * مَنْ عَمِلَ سيئةً فلا يُجْزى إلا مثلَها وَمَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذكرٍ أو أنثى وهوَ مؤمنٌ فأولئك يَدْخلون الجنةَ يرْزَقونَ فيها بغيرِ حسابٍ * ويا قومِ مالي أدْعوكم الى النجاةِ وتَدْعونني الى النارِ * تَدْعونني لأكفر بالله وأُشْرِكَ بهِ ما ليس لي به عِلْمٌ وأنا أدْعوكم الى العزيزِ الغفارِ * لا جَرَم أنّ ما تَدْعونني إليهِ ليسَ لَهُ دَعْوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأنّ مَرَدَّنا إلى الله وأنّ المسرفينَ هم أصحابُ النارِ * فستَذْكرون ما أقولُ لكم وأُفَوِّضُ أمري الى الله إنّ الله بصيرٌ بالعبادِ * فوَقاهُ الله سيئاتِ ما مَكَروا وحاقَ بآلِ فرعَوْنَ سوءُ العذاب * النارُ يعْرَضونَ عليها غُدُوّا وعَشِياً ويومَ تقومُ الساعةُ أدْخِلوا فِرْعَوْنَ أشدَّ العذابِ ﴾[1] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب . وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر . وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون . هؤلاء . قال تعالى : ﴿ وضَرَبَ الله مثلَ الذينَ آمنوا امرأةَ فرعَوْن إذْ قالتْ ربِّ ابن لي عِنْدَكَ بيتاً في الجنةِ ونَجِّني مِنْ فرْعونَ وعَمَلِهِ ونَجِّني مِنَ القومِ الظالمينَ ﴾[2] .

وامرأة الرجلمن آلهبدليل قوله : ﴿ إلاّ آل لوطٍ إنا لمَنّجوهم أجمعينَ * إلاّ امرأتَهُ قدّرنا إنها لِمَنْ الغابرين ﴾[3] .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسعَها ﴾ وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشي ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن : إما يهودي ، وإما مشرك وإما معطل .

كذلك في أهل الكتاب والمشركين ، من هو في الظاهر منهم ، وهو في الباطن أهل الإيمان

---

(١) سورة غافر الآيات (٢٨ ـ ٤٦) .

(٢) سورة التحريم الآية ١١ .

(٣) سورة الحجر الآيات (٥٩ ـ ٦٠) .

بمحمد ﷺ ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشي قال النبي ﷺ : «استغفروا لأخيكم » ، فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، يموت بأرض الحبشة ؟ فنزلت : ﴿ وإنّ منْ أهلِ الكتابِ لمنْ يؤْمِنُ بالله وما أُنزلَ إليكُمْ ﴾(١) ، ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكر حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال : « استغفروا لأخيكم النجاشي » فذكر مثله .

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة ، واسمه أصحمة . وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو؟ قال : النجاشي » فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع ، وزاد بعضهم : وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، وقال لأصحابه : « استغفروا له » . فقال المنافقون : أبصروا الى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط ، وليس على دينه ! فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾(٢) .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فآمن به ، كما نقل ذلك عن عطاء .

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم (٣) .

والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به ، وهو من أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين ، وإن كان قبل ذلك مشركاً يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٩.

(٢) ذكر البخاري ٥/٦٤ - ٦٥ (كتاب الهجرة الى الحبشة . باب موت النجاشي) أحاديث كثيرة عن جابر وأبي هريرة أن الرسول ﷺ نعى للمسلمين النجاشي صاحب الحبشة يوم وفاته وقال لهم : استغفروا لأخيكم ، وعن جابر أيضاً بأنه صلى الله عليه وسلم : صلى على أصحمة النجاشي فكبر عليه أربعاً ، وفي رواية أخرى عن جابر أيضاً أن جابراً كان ممن صلى مع الرسول على النجاشي ، وأن جابراً كان في الصف الثاني أو الثالث . والرواية التي أخذ بها ابن تيمية قد اعتمدها الطبري قبله وأخذ بها في تفسير الآية المذكورة وأنها نزلت في النجاشي وقد مات بأرض غير أرض المسلمين ، وهي رواية جابر ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، انظر تفسير الطبري (سورة آل عمران) ٤/١٤٦ ط بولاق .

(٣) وهذا رأي مجاهد ، ومال إليه الطبري في تفسيره ٤/١٤٧ ط بولاق .

وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ، ولا غيرهم ، أن يصلي على واحد منهم ، بخلاف من هو في الظاهر منهم ، وفي الباطن من المؤمنين . وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم . إما مطلقاً وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية ـ فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله ، فيمنعونهم من الإيمان بمحمد ﷺ .

وأما قوله : ﴿ مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وهُمْ يسجدونَ * يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنْهُونَ عنِ المنكرِ ويُسارعونَ في الخيراتِ وأولئكَ مِنَ الصالحينَ ﴾[1] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قومِ موسى أمةٌ يهدون بالحقِّ وبهِ يعدِلونَ ﴾[2] ، هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ، ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ .

وهذا الكلام تفسير سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروف وَتَنْهُونَ عنِ المنكرِ وتُؤمنونَ بالله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولَوْ آمنَ أهلُ الكتابِ لكان خَيراً لَهُمْ منهمُ المؤمنونَ وأكثرهُمُ الفاسقون ﴾[3] فقد جعلهم نوعين : نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ يتناول من كان مؤمناً قبل مبعث محمد ﷺ كما يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا في قلوب الذينَ اتّبعوهُ رأفةً ورحمةً ـ إلى قوله ـ وكثيرٌ منهُمْ فاسقُون ﴾[4] وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولقدْ أرسلنَا نوحاً وابراهيم وجعلْنا في ذريتهما النبوة والكتابَ فمنهُمْ مهتدٍ وكثيرٌ منهُمْ فاسقون ﴾[5] .

وقوله عن إبراهيم الخليل : ﴿ وباركنا عليهِ وعلى إسحاق ومَنْ ذريتهما مُحْسنٌ وظالمٌ لنفسهِ مبينٌ ﴾[6] . ثم قال : ﴿ وأكثرُهُم الفاسِقونَ ﴾[7] قال : ﴿ لَنْ يَضروكُمْ إلا أذىً وإنْ يقاتلوكُمْ

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١١٣ ـ ١١٤) .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠ .
(٤) سورة الحديد الآية ٢٧ .
(٥) سورة الحديد الآية ٢٦ .
(٦) سورة الصافات الآية ١١٣ .
(٧) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

يولوكُمُ الأدبار ثمّ لا ينصرونَ * ضُرِبَتْ عليهُم الذلةُ أينَ ما ثُقفوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ وباؤ وا بغضبٍ من الله وضُربتْ عليهُم المسكنةُ ذلك بأنّهُمْ كانوا يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذلكَ بما عصَوْا وكانوا يَعتدونَ ﴾[1] وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤ هم بغضب من الله ـ الآية ـ وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإذْ قُلتم يا موسى لَنْ نصبر على طعامٍ واحدٍ فادْعُ لنا ربَّكَ يُخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرضُ مِنْ بَقلِها وقثّائِها وفُومِها وعَدَسِهَا وبَصَلِها قال : أتستبدلونَ الذي هُوَ أدنى بالذيَ هُوَ خيرٌ اهْبِطوا مصراً فإنّ لكُمْ ما سألْتُمْ وضُرِبَتْ عليهُم الذلةُ والمسكنةُ وباؤ وا بغضبٍ من الله ذلكَ بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله وَيَقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ ﴾ ـ ثم قال بعد ذلك : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئينَ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فلهُمْ أجرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ ولا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ ﴾[2] .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر ، قال : ﴿ ليْسوا سواء منْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وهُمْ يسجدونَ * يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ويأْمرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْن عنِ المنكرِ ويسارعونَ في الخيراتِ وأولئكَ مِنَ الصالحين ﴾[3] .

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال في الأعراف : ﴿ وَمِنْ قومِ موسى أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلِونَ * وقطّعناهُمْ في الأرضِ أمماً منهُم الصالحونَ ومنهمْ دونَ ذلك وبلوْناهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلّهم يرجعونَ * فخلفَ مِنْ بعدِهِمْ خلْفٌ ورثوا الكتابَ يأخذونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقولون سَيُغْفر لنا وإن يأتِهم عرضٌ مثلُهُ يأخذوه ألم يُؤْخذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ أنْ لا يقولوا على الله إلّا الحق ودَرَسوا ما فيهِ والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتّقون أفلا تعقلونَ * والذينَ يمسِّكونَ بالكتابِ وأقاموا الصَّلاة إنا لا نُضِيعُ أجر المصلحين ﴾[4] .

وقد قال تعالى مطلقاً : ﴿ وممّنْ خلقْنا أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلونَ ﴾[5] .

(١) سورة آل عمران الآيات (١١١ ـ ١١٢) .

(٢) سورة البقرة الآيات (٦١ ـ ٦٢) .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١١٣ ـ ١١٤) .

(٤) سورة الأعراف الآيات (١٦٨ ـ ١٧٠) .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٨١ .

فهذا خبر من الله عمن كان متصفاً بهذا الوصف قبل مبعث محمد ﷺ ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ ، فآمن به كان له أجره مرتين .

فصـــل

في ﴿إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كمثلِ آدمَ﴾

(دعوى النصارى في المسيح)

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كمثلِ آدمَ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ﴾[1] فأعنى بقوله : ﴿مثل عيسى ﴾ إشارة إلى الناسوت المؤخوذ من مريم[2] الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح ، إنما ذكر عيسى فقط .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة ، فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة .

وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت .

وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلاً إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل .

وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي ، إذ يقول : (أليس هذا الأب الذي خلقك وبرأك واقتناك) ، قيل : وعلى لسان داود النبي : (روحك القدس لا تنزع مني) ، وأيضاً على لسان داود النبي : (بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع أفواههن)، وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ، ونطقه ، أي كلمته ، وروحه ، أي حياته .

الرد عليهم

حقيقة القول في عيسى

والجواب من وجوه :

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩.

(٢) في نسخة أخرى : إشارة الى البشرية المأخوذة من مريم .

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إنّ مثلَ عيسى عندَ الله كَمَثَلِ آدمَ خلقَهُ من ترابٍ ثمّ قالَ لَهُ كُنْ فيكونُ ﴾ كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته .

فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا ﴾ .

وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى .

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم .

وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟

وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له : كن فيكون ، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتاً وناسوتاً ، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي ﷺ نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمهم له .

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فمن حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جاءَكَ مِنَ العلمِ فقلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسنا وأنفسكُمْ ثمَّ نبتَهِلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبينَ * إنّ هذا لهوَ القصصُ الحقُّ وما مِنْ إلهٍ إلا الله وإنّ الله لهوَ العزيزُ الحكيمُ * فإن تَولَّوا فإنّ الله عليمٌ بالمفسدينَ * قلْ يا أهلَ الكتاب تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننَا وبينَكم ألاّ نَعبدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ الله فإن تَولَّوا فقولوا اشْهدوا بأنّا مُسْلمونَ ﴾[1] .

وقد امتثل النبي ﷺ قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٦١ ـ ٦٤) .

لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبي ﷺ الى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا﴾ إلى آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله : ﴿قولوا آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلَيْنا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهُمْ ونحنُ له مُسلمونَ ﴾[1] .

وهذا كله يبين أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم ، وقد أمر أن يباهل من قال أنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ، ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذباً حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق [2] .

والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة : وقد قال عقب ذلك : ﴿ إنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ ، وما مِنْ إلهٍ إلاّ الله ﴾ تكذيباً للنصارى الذين يقولون : هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال أنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت ؟

وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار الى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة ، لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط ، فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ ما المسيحُ ابن مريمَ إلا رسولٌ قدْ خلَتْ من قبلِهِ الرُّسُلُ ﴾[3] فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس هو بإله ، وأنه ابن مريم والذي هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إنما المسيحُ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦ .

(٢) المباهلة : الملاعنة ، نبتهل ندعو باللعنة على الكاذب منا ولقد ذكر كثير من المؤرخين والمفسرين قصة المباهلة بين الرسول والنصارى في أمر المسيح ولقد أمر الله رسوله أن يدعو النصارى الى المباهلة ليبين لهم حقيقة أمر المسيح وأن يتوجه الفريقان باللعنة على الكاذب في ذلك . يقول ابن اسحاق : فلما أتى رسول الله الخبرُ من الله عنه والفصل والقضاء بينه وبينهم . . . ودعاهم الى ذلك . فقالوا له يا أبا القاسم . دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا اليه . فانصرفوا عنه . وخلوا بالعاقب . فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ . فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم إن محمداً لنبي مرسل . ولقد جاء بالخبر الفصل من أمر صاحبكم . ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم . ولا نبت صغيرهم وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا الى بلادكم . فأتوا الرسول . . وقالوا له «قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا » وامتنعوا عن الملاعنة . انظر تاريخ ابن اسحاق ٢/٤٤٢ ـ ٤٢٣ ط الحلبي وانظر أيضا : تفسير الطبري ٣/٢١٠ ـ ٢١١ ط بولاق .

(٣) سورة المائدة الآية ٧٥.

عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمَتُهُ ألقاها الى مريمَ ورُوحٌ مِنْهُ فآمِنوا بالله ورسولِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ لهُ ما في السمواتِ وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربونَ ومَنْ يستنكف عن عبادتِهِ ويستكبْر فسيحشرُهُمْ إليه جميعاً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وقالتِ النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلكَ قولُهُمْ بأفواهِهِمْ يُضاهئونَ قولَ الذينَ كفروا من قبلُ قاتَلَهُمْ الله انى يُؤفكونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لقدْ كفرَ الذينَ قالوا إنَّ الله هُوَ المسيحُ ابن مريمَ قلْ فَمَنْ يملكُ مِنَ الله شيئاً إنْ أرادَ أنْ يُهلكَ المسيحَ ابن مريمَ وأمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً ﴾[3] .

الوجه الثاني

أن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين ، إن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفي في مقابلتها المنع .

الوجه الثالث

ولكن نقول في الوجه الثالث : إنهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم .

ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس ، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذي ادعوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

---

(١) سورة النساء الايات (١٧٠ ـ ١٧٢).

(٢) سورة التوبة الآية ٢٠.

(٣) سورة المائدة الآية ٧٢.

الوجه الرابع

أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً يبشر في جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا في وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين ، وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول : «إلهي إلهي لم تركتني » وهم يقولون الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ، ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة ، وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضاً فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً وإما أن يكون مستغاثاً به ، وإما أن يكون داعياً وإما أن يكون مدعواً ، فإذا قالوا : إن الداعي هو غير المدعو لزم أن يكون اثنين لا واحداً وإذا قالوا : هما واحد فالداعي هو المدعو .

الوجه الخامس

أن يقال لا يخلو الأمر ان يقولوا : إن اللاهوت كان قادراً على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون رب العالمين مقهوراً مأسوراً مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين وهذا أعظم من قولهم : إن لله ولداً ، وإنه بخيل وإنه فقير ، ونحو ذلك مما سبّ به الكفار رب العالمين .

وإن قالوا : كان قادراً ، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : (إلهي إلهي لماذا تركتني) وإن كان هو قد فعل ذلك مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ؟ بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو ، لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما

وافقه على أنه يجعل الصوامع في رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه ، لما ظهر الصوامع في رحلة ؟ كما جزع إخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح ، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس

قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم ، لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع

قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضاً في موضع آخر قائلاً : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله في القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبَشِّرك بكلمةٍ مِنْهُ اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومنَ المقربين * ويُكَلِّمُ الناسَ في المهدِ وكهلاً ومِنَ الصالحين * قالتْ ربِّ أنّى يكون لي ولدٌ ولَمْ يمسَسْني بشرٌ قالَ كذلك الله يخلقُ ما يشاءُ إذا قضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ ﴾[(١)] .

ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى . منها أنه قال : (بكلمة منه) وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارى .

ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وقال تعالى في سورة كهيعص : ﴿ ذلكَ عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيهِ يمترونَ * ما كانَ لله أنْ يتَّخذ مِنْ ولدٍ سبحانَهُ إذا قضى أمراً فانما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ ﴾[(٢)] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٤٥ ـ ٤٧) .

(٢) سورة مريم الآية ٣٤ .

فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه ، وقال اسمه المسيح عيسى بن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفة مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك ، وقالت مريم : ﴿ أنى يكون لي ولد ؟ ﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم . لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال في سورة النساء : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينِكُمْ ولا تَقولوا على الله إلاّ الحقَّ إنما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ فآمِنوا بالله وَرُسُلِهِ ولا تَقولوا ثلاثةٌ انتهُوا خيراً لَكُمْ إنما الله إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لنْ يستنكفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبداً لله ولا الملائكة المقربون وَمَنْ يستنكفْ عن عبادتِهِ ويَستكبِرْ فسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جميعاً * فأمّا الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيوفيهِمْ أجورَهُمْ ويَزيدُهُمْ مِنْ فضلِهِ وأمّا الذينَ اسْتنكفوا واسْتكبَروا فيُعذِّبُهُمْ عذاباً أليماً ولا يجدونَ لهُمْ مِنْ دونِ الله ولياً ولا نصيراً ﴾[1] .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم ، وأن يقولوا على الله غيرَ الحق ، وبين أن ﴿ المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ، فبين أنه رسوله ، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ، ثم قال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع ذلك البيان الواضح الجلي ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله : ﴿ وروح منه ﴾ المراد به أنه حياته أو روح منفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ«كن» وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقاً لقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ ويقال : درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدراً ، والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة .

كقوله تعالى : ﴿ وكانَ أمرُ الله قدراً مقدوراً ﴾ وقوله : ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجِلوه ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآيات (١٧١ ـ ١٧٢) .

وقال النبي ﷺ : « يقول الله للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، ويقول للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي »[1] وقال : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة فيها تتراحم الخلق ويتعاطفون ، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه الى تلك ، فرحم بها الخلق »[2] ، ويقال : للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أي معلومه ، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد في (كتاب الرد على الجهمية) ـ وذكره غيره ـ أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة ، فقالت النصارى : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية : المسيح كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقاً .

وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاماً ، فإن المسيح إنسان ، وبشر مولود من امرأة ، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ، ولا مولود من امرأة ، ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟

وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها الى مريم إلا يعلم أن المراد: [لا] أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام الله وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة، وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقاً ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة ، وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره ، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بروح منه ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله كقوله تعالى : ﴿ وسَخَّرَ لكُمْ ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً منه ﴾[3] .

---

(١) ورد هذا الحديث في مسلم (كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون . والجنة يدخلها الضعفاء) ٥٣٦/٢ ، البخاري ١٦٤/٩ (كتاب التوحيد . باب إن رحمة الله قريب من المحسنين) ، ابن حنبل ٢٧٦/٣ .

(٢) ورد الحديث في مسلم ٤٩٣/٢ (كتاب التوبة ـ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه)، البخاري ١٢٣/٨ (كتاب الرقاق ـ باب الرجاء مع الخوف) ، ابن حنبل ٤٢٢/٣ .

(٣) سورة الجاثية الآية ١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نعمةٍ فمنَ الله ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ما أصابكَ من حسنةٍ فمنَ الله و ما أصابكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ الذين كفروا من أهلِ الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتِيَهُمُ البينةُ * رسولٌ مِنَ الله يَتلو صحفاً مطهرةً فيها كتبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[3] .

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم ، وهي مخلوقة .

فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً ، قال تعالى : ﴿ فأرسَلْنا اليها رُوحنا فتمثّل لها بشراً سوّياً * قالتْ إني أعوذُ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقيّاً * قالَ إنما أنا رسولُ ربِّك لِأَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً ﴾[4] .

وقد قال تعالى : ﴿ ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنَتْ فرْجَها فنفخْنا فيهِ مِنْ رُوحِنا ﴾[5] .

وقال : ﴿ والتّي أحصنَتْ فَرْجَها فنفخْنا فيها مِنْ روحِنا وجَعَلْناها وابنَها آيةً للعالمينَ ﴾[6] ، فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه ، وقد بين أنه أرسل إليها روحه .

﴿ فتمثّل لها بشراً سوياً ، قالتْ : إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيّاً ، قال : إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِأَهَبَ لكِ غُلاماً زكياً ، قالتْ : أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بَغِيّاً ، قالَ : كذلكَ ، قالَ ربُّكِ هو عليّ هَيِّنٌ ولنجعلَهُ آيةً للناسِ ورحمةً مِنّا وكانَ أمراً مَقْضِيّاً فحمَلَتْهُ ﴾[7] .

فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق ، وهو روح القدس الذي خُلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقاً فكيف الفرع الذي حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وروح منه ﴾ خص المسيح بذلك لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأنها حبلت

---

(١) سورة النحل الآية ٥٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٣) سورة البينة الآيات (١ ـ ٣) .

(٤) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ١٩).

(٥) سورة التحريم الآية ١٢ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

(٧) سورة مريم الآيات (١٧ ـ ٢٢).

به من نفخ الروح ، فلهذا سمي روحاً منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين : روح منه ، أي رسول منه فسماه باسم الروح (الذي هو) الرسول الذي نفخ فيها ، فكما يسمى «كلمة» يسمى «روحا» لأنه كون بالكلمة ، لا كما يُخلق الآدميون غيرهُ ، ويسمى روحاً ، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها لم تحبل من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ، ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضي أربعة أشهر .

والنصارى يقولون في أمانتهم[1] . (تجسد من مريم ، ومن روح القدس) ولو اقتصروا على هذا ، وفسروا روح القدس بالملك الذي نفخ فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقاً لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله ، وجعلوه ربا وتناقضوا في ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومان . أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

---

(١) يشير ابن تيمية بذلك إلى نص «الأمانة» التي وضعها أساقفة المجمع المسيحي بنيقية سنة ٣٢٥ م ، ذلك أن الخلاف كان قد احتدم بين أساقفة المسيحية حول شخص السيد المسيح ، أهو رسول من عند الله فقط ؟ أم أن له صلة خاصة بالله تجعله أكثر من رسول . بمنزلة الابن مثلاً ؟ لأنه خلق من غير أب . وهل هذه الصلة تنفي عنه أنه مخلوق محدث وتجعله قديماً كالأب .؟ وهكذا تباعدت الآراء واختلفت حول هذه القضية ، وكل يزعم أن رأيه هو المسيحية الصحيحة التي جاء بها السيد المسيح ، كان هذا الخلاف هو السبب العام في عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ثم كان هناك سبب مباشر وهو ظهور ما يسمى في المسيحية ببدعة «آريوس» الذي أنكر فكرة تأليه المسيح ونادى بأنه مخلوق مصنوع وأن المعبود يجب أن يكون واحداً ، فحارب المسيحيون هذه الدعوة واعتبروها بدعة يجب القضاء عليها ، وقام لمناهضته بطريرك الإسكندرية الذي ادعى أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه ولما تولى أمر الكنيسة البطريرك إسكندر أراد معالجة الخلاف بشيء من الحيلة والتعقل فتدخل قسطنطين إمبراطور الرومان الذي جمع من البطاركة والأساقفة ٢٠٤٨ أسقفاً ولم يجتمع هؤلاء على رأي واحد فيما بينهم . ورأى قسطنطين أن هناك ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً يقولون بألوهية المسيح . فمال قسطنطين الى هذا الرأي .

واجتمع أصحاب هذا الرأي ووضعوا نصاً أسموه «الأمانة» أوضحوا فيه عقيدتهم في المسيح ونص هذه الأمانة التي اعتقدوها ما يلي :

«أؤمن بإله واحد أب ماسك للكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور . إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر الذي فيه خلق كلا ، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب عنا على عهد بلاطس النبطي ، وتألم ودفن ، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً يأتي بجسده ليدين الأحياء والأموات ، الذي ليس لملكه نهاية ، وبالروح القدس الرب المحيي الذي من الأب انبثق ، الذي مع الأب والابن يسجد له ويمجد ، الناطق بالأنبياء في كنيسة واحدة جامعة رسولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأترجى قيامه الموتى وحياة الدهر المؤتنف آمين .

أنظر في ذلك : رسالة بول الأنطاكي أسقف صيدا ضمن كتاب بولص الأنطاكي في أصول العقيدة المسيحية ص ٨٢ ط بيروت ، النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربي الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧ ص ١٤٦ ـ ١٥٠ اقانيم النصارى . لأحمد حجازي السقا : ط دار الأنصار بالقاهرة ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وهم يقولون ، ليس فيه ألا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة ، يسمى «روحاً» لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال في القرآن ﴿ والذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَعلمونَ أنَّهُ مُنزلٌ مِنْ ربِّكَ ﴾ ، وقال : ﴿ تَنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيمِ ﴾ .

وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم : (القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ) وقال: في المسيح (وروح منه) قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقاً ، وإن كان صفة مضافة الى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك ما منه إن كان عيناً قائمة أو صفة قائمة تعين بغيرها كما في السموات والأرض والنعم والروح الذي أرسلها الى مريم وقال : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ كان مخلوقاً ، وإن كان صفة لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقاً ، فإن ذلك قائم بالله ، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقاً .

والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة في سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هُوَ الذي أنزَل عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ فأمّا الذينَ في قلوبِهِمْ زَيْغٌ فيَتَّبِعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاء وابتغاءَ تأويلهِ ﴾ ، والآية نزلت في النصارى فهم مرادون منَ الآية قطعاً ، ثم قال : ﴿ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلّا الله ، والراسخون في العلمِ يقولونَ آمنّا بِهِ كلٌ مِنْ عندِ ربِّنا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول : الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنَا بِهِ كلٌ مِنْ عندِ ربِّنا ﴾(١) . ويقول : (الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه) وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤ وا مِنْ بعدِهِمْ يقولونَ ربَّنا أغْفر لنا ولإخواننا ﴾(٢) . أي قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ، ومعرفة معانيه .

والراسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصري : لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيماذا نزلت ، وما عني بها ؟وقد يعني بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر ، وقت الساعة ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧.

(٢) سورة الحشر الآية ١٠.

فهذا التأويل لا يعلمه الا الله ، وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهرة الى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل في كتاب الله عز وجل .

ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهرة كقوله تعالى : ﴿ هلْ ينظرونَ إلاّ تأويلَهُ يومَ يأْتي تأويلُهُ يقولُ الذينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق . ﴿ هذا تأويل رؤيايَ مِنْ قبْلُ ﴾ وكقوله : ﴿ إلاّ نَبأتُكما بِتَأْوِيلهِ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾[2] وهذا مبسوط في موضع آخر [3] .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا في ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

والكلمة عندهم هي جوهر ، وهي رب لا يخلق بها الخالق ، بل هي الخالقة لكل شيء ، كما قالوا في كتابهم : [إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم] والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها الى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لا يلقيه شيء ، بل هو يلقي غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشيء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم الى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تَقولوا لِمَنْ ألقى إلَيْكُمُ السّلامَ لستَ مؤمناً ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهُمْ قالوا ربَّنا هؤلاء شُركاؤنا الذينَ كنّا ندعوا من دونكَ فألْقوا إليهمُ القولَ إنّكم لكاذبونَ * وألْقَوْا إلى الله يومئذٍ السَّلم ﴾[5] .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٧ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) انظر في معاني التأويل : مقدمة في معنى التفسير والتأويل من الجزء الأول .

(٤) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٥) سورة النحل الآيات (٨٦ ـ ٨٧) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتخِذوا عدّوي وعدوَّكُمْ أَوْلياءَ تُلقونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ ﴾[1] .

وأما لقّيته القول فتلقّاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه ، فإن هذا بقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها ، هي قول «كن» لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلّت في مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل منكم فيمن يلقي إليه كلامه .

فصل
[في الرد على أن في عيسى طبيعتين]

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان :

طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التي أخذها من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف مناقض ، وليس لهم في ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ، ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولاً ، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء ، ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ، ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها ، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك .

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١ .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفاً ، وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل ذلك الناقل قولها ، والقول الذي يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه كما نقلوا عنهم ما ذكره أبو المعالي ، وصاحبه أبو القاسم الأنصاري وغيرهما أن القديم واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، وأنهم يعنون بالأقنوم . الوجود ، والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين ، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر ، قالوا : ولو مثل مذهبهم بمثال لقيل : إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض ، قال : وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالابن المسيح والكلمة ، وربما سموا العلم كلمة ، والكلمة علماً ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابناً ، بل المسيح عندهم مع ما تدرع به ابن ، قالوا : ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت ثم اختلفوا في معنى الاتحاد .

فمنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية ، قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئاً واحداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً ، قالوا : وصارت شرذمة من كل صنف الى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت ، كظهور الصورة في المرآة ، والنقش في الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من هذه الطوائف الى أن المراد بالاتحاد الحلول .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبتغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ ﴾[1] يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غير ممن لم يأتهم بما جاء به .

فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

كاذب مفتر عليه ، وإن كان المكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا ، فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علماً ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم علماً ضرورياً أنه أراد العموم ؟ فإن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾ صيغة عامة وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمل مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرهُ * وَمَنْ يَعمل مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يرهُ ﴾[(١)] .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي ﷺ وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً ، وفيهم السيد ، والأيهم ، والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها .

وقد قال قبل هذا الكلام يذم دين النصارى الذين ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المعنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ما كانَ لبشرٍ أنْ يُؤتيَهُ الله الكتابَ والحُكمَ والنبوةَ ثُمَّ يقول للناسِ كونوا عباداً لي مِنْ دونِ الله ولكنْ كونوا رَبَّانيينَ بما كنتُم تُعلِّمونَ الكتابَ وبما كنتم تدرسونَ * ولا يأمُركُمْ أنْ تتَّخِذوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً أيأمُركُمْ بالكفرِ بعد إذْ انتمْ مسلمونَ ﴾[(٢)] .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتَّخذوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً مِنْ دون الله والمسيحَ بنَ مريمَ وما أُمروا إلاّ ليعبُدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هوَ سبحانهُ عمّا يشركون ﴾[(٣)] .

ثم قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وإذْ أخذَ الله ميثاقَ النبيينَ لما آتيْتُكُمْ مِنْ كتاب

---

(١) سورة الزلزلة الآيات (٧ ، ٨).

(٢) سورة آل عمران الآيات (٧٩ ، ٨٠) .

(٣) سورة التوبة الآية ٣١.

وحكمةٍ ثم جاءَكُم رسولٌ مصدقٌ لما مَعكُمْ لتؤْمُنُنَّ بهِ ولتنصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُم وأخذتمْ على ذلِكُمْ إصري ؟ قالوا : أقْرَرْنا ، قال : فاشْهَدُوا وأنا معكُمْ مِنَ الشاهدينَ ﴾[1] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه[2] . والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين ـ يتناول جميع النبيين ـ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ .

وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم ، واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم ، كقوله تعالى : ﴿ لئِنْ أُخْرِجوا لا يَخرجونَ مَعَهُمْ ولَئِنْ قوتلوا لا ينصرونَهُمْ ولئِنْ نصروهُمْ ليُوَلُّنَّ الأدبار ثمَّ لا يُنصرونَ ﴾[3] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهمْ مَنْ عاهدَ الله لَئِنْ آتانا مِنْ فضلِهِ لنَصَّدَّقنَّ ولَنَكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ ﴾[4] . وقوله : ﴿ وأَقسموا بالله جَهْد أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءتْهُمْ آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها ﴾[5] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيخرُجُنَّ قل لا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفةٌ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وأَقْسَموا بالله جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لئن جاءَهُمْ نذيرٌ ليكونُنَّ أهدى مِنْ إحدى الأُمَمِ ﴾[7] ومنه قوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضَ لَيقولُنَّ الله ﴾[8] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيقولُنَّ إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ ﴾[9]، وقوله : ﴿ لئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا ربُّنا ويَغْفِرْ لنا لنَكونَنَّ مِنَ

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨١ .

(٢) ذكر الطبري هذا الأثر على خلاف في اللفظ عن ابن عباس ، وهو مروي عن غيره من علماء السلف ، فعن ابن أبي أيوب عن علي بن أبي طالب قال في تفسير هذه الآية :

لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه . وكذلك قال قتادة والسدى والحسن . انظر تفسير الطبري ٢٣٦/٣ ـ ٢٣٧ ط بولاق .

(٣) سورة الحشر الآية ١٢ .

(٤) سورة التوبة الآية ٧٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٠٩ .

(٦) سورة النور الآية ٥٣ .

(٧) سورة فاطر الآية ٤٢ .

(٨) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٩) سورة التوبة الآية ٦٥ .

الخاسرينَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنافقونَ والذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ والمُرجِفونَ في المدينةِ لَنُغرينَّكَ بِهِمْ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ولَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبنَّ بالذي أَوْحَيْنا إليكَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وإنْ لَمْ يَنتهوا عمّا يقولونَ ليَمَسَّنَّ الذينَ كَفروا مِنْهُمْ عذابٌ أليمٌ ﴾[4] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمرُهُ لَيُسجنَنَّ وَلَيكوناً مِنَ الصّاغِرينَ ﴾[5] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بآيةٍ لَيَقولَنَّ الذين كَفروا إنْ أنتمْ إلاّ مُبطِلونَ ﴾[6] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ جاءَ نصرٌ مِنْ ربِّكَ ليقولُنَّ إنّا كنّا مَعَكُمْ ﴾[7] . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرنا عنهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ليقولَنَّ ما يَحْبِسُهُ ﴾[8] .

ومثل هذا كثير ، وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام : (ـ والله ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ـ والله ـ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) .

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ، لا سيا فيها يكثر استعماله كالقسم ، وقوله : ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ هي ما الشرطية والتقدير : أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ . وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى : ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[9] ثم قال تعالى : ﴿ أفغَيْرَ دينِ الله يَبْغُوْن ولهُ أسلمَ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً وإليهِ يُرجعُونَ ﴾[10]. ثم قال

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٤٩ .

(2) سورة الأحزاب الآية ٦٠ .

(3) سورة الإسراء الآية ٨٦ .

(4) سورة المائدة الآية ٧٣

(5) سورة يوسف الآية ٣٢ .

(6) سورة الروم الآية ٥٨ .

(7) سورة العنكبوت الآية ١٠ .

(8) سورة هود الآية٨ .

(9) سورة آل عمران الآية ٨٢ .

(10) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[2] .

قالت طائفة من السلف : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى ، نحن مسلمون . فقال تعالى : ﴿ ولله على الناسِ حجُّ البيتِ مَنِ استطَاع اليهِ سبيلاً ﴾[3] . فقالوا لا نحج . فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ كفَر فإنَّ الله غنيٌّ عَنِ العالمينَ ﴾[4] .

فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دلّ عليه القرآن . واليهود ، والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روي في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ : «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً وإن شاء نصرانياً »[5]. وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس : الشهادتين ، والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فإنه كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إله إلاّ هُوَ والملائكة وأولو العلمِ قائماً بالقِسْطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدينَ عندَ الله الإسلامُ وما اختلف الذين أوتوا الكتابَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بغياً بينَهُمْ وَمَنْ يَكْفر بآياتِ الله فإنّ الله سريعُ الحسابِ * فإنْ حاجّوكَ فقلْ أسلمتُ وجهيَ لله وَمَنِ اتّبعنِ وقلْ للذين أوتوا الكتابَ والأميّين أأسلمتُمْ فإنْ أسلموا فقد اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنّما عليكَ البلاغُ والله بصيرٌ بالعبادِ ﴾[6] . فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . أن يقول أسلمت وجهي لله ، ومن

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

وذكر كثير من المفسرين أن أهل مكة كانوا يدعون أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية . فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من سنة الإسلام الحج فامتنعوا ، فأدحض الله بذلك حجتهم ، وروي عن عكرمة قال : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً . . . الآية . قالت اليهود : نحن المسلمون . فانزل الله عز وجل لنبيه ﷺ إن لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً الآية . قالت اليهود نحن لا نحج وحج المسلمون وقعد الكفار .

انظر تفسير الطبري ٣/٢٤١ .

(٥) أورد الترمذي هذا الحديث في باب الحج .

(٦) سورة آل عمران الآيات (١٨ ـ ٢٠) .

اتبعن . وأن يقول للذين أوتوا الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتم فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما من سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ . فقد أمر اهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : إنما عليك البلاغ . أي : تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم ، فدلّ بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الى هرقل ملك النصارى : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية يالاسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [1] .

(الإسلام دين جميع الأنبياء)

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح ، وإبراهيم ، ويعقوب ، وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلِ مِنْهُ ﴾ ، وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله الى الأرض : ﴿ واتلُ عليْهِمْ نَبأَ نوحٍ إذْ قالَ لِقومِهِ يا قومِ إنْ كانَ كَبُرَ عليكُمْ مَقامي وَتَذكيري بآياتِ الله فعَلَى الله توكلتُ فَأَجْمِعُوا أَمرَكُمْ وشُركاءَكم ثم لا يكنْ أَمرُكم عليْكُمْ غُمَّةً ثمّ اقْضوا إليَّ ولا تُنظِرونَ * فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فما سألتُكُمْ مِنْ أجرٍ إنْ أجريَ إلاّ على الله وأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ ﴾[2] .

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

---

(١) انظر نص الخطاب الذي أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل في البخاري ٦/٤٤ ـ ٤٥ (كتاب التفسير ، تفسير سورة آل عمران) ط الشعب .

(٢) سورة يونس الآيات (٧١ ـ ٧٢) .

وأما الخليل فقال تعالى : ﴿ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربّنا تقبّل منّا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ * ربّنا واجعلْنا مسلمَيْن لكَ ومِنْ ذريّتِنا أمةً مسلمةً لكَ وأرِنا مناسكنا وتُبْ علَيْنا إنكَ أنتَ التوابُ الرّحيمُ ﴾(1) . ﴿ وَمَنْ يرغبُ عَنْ ملّةِ إبراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نفسَهُ ولقدْ اصطفَيْناهُ في الدنيا وإنّهُ في الآخرةِ لَمِنَ الصّالحينَ * إذْ قالَ لَهُ ربُّهُ أسْلِمْ قالَ أسلمتُ لربِّ العالمينَ ، وَوَصّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ يا بَنِيَّ إنّ اللهَ اصطفى لكمُ الدينَ فلا تَموتُنَّ إلاّ وأنتمْ مُسلمونَ ﴾(2) .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون .

وقال تعالى : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ، ولَكِنْ كانَ حنيفاً مُسلماً وما كانَ مِنَ المُشركينَ * إنّ أَوْلى الناسِ بإبراهيمَ للّذين اتّبعوهُ ، وهذا النبيُّ والذينَ آمنوا واللهُ وليُّ المؤمنينَ ﴾(3) .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ ربِّ قدْ آتَيْتَني من المُلْكِ وعَلّمْتَني مِنْ تأويلِ الأحاديثِ فاطرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرة تَوَفّني مُسْلِماً وأَلْحِقْني بالصالحين ﴾(4) .

وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ فعليهِ تَوَكّلوا إنْ كنتمْ مسلمِينَ ﴾(5) .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قالوا لا ضَيْرَ إنّا إلى ربِّنا مُنقلبونَ * إنّا نطمعُ أَنْ يَغفِرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنّا أَوّلَ المؤمنِينَ ﴾(6) .

وقال تعالى :﴿وما تنقم منّا إلا أن آمنّا بآياتِ ربِّنا لمّا جاءَتْنا ربَّنا افْرغْ علَينا صبراً وتوفّنا مُسلمينَ ﴾(7) .

قال تعالى في قصة سليمان : ﴿ إنّهُ مِنْ سُليمانَ وإنّهُ بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرحيم * ألاّ تَعْلُوا

---

(1) سورة البقرة الآيات (127 ـ 128).

(2) سورة البقرة الآيات (130 ـ 132).

(3) سورة آل عمران الآيات (67 ـ 68) .

(4) سورة يوسف الآية 101 .

(5) سورة يونس الآية 84.

(6) سورة الشعراء الآيات (50 ـ 51).

(7) سورة الأعراف الآية 126 .

عليَّ وأتوني مسليمينَ ﴾ [1] .

و﴿قال يا أيُّها الملأُ أيُّكُمْ يأتيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مُسلمِينَ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وَأُوتينا العِلْمَ مِنْ قبلِها وكنّا مُسلمِينَ ﴾ [5] .

وقال تعالى عن بلقيس التي آمنت بسليمان : ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلَمْتُ مع سليمان لله ربِّ العالمينَ ﴾ [4] .

وقال عن أنبياء بني إسرائيل : ﴿ إنّا أنزَلْنا التوراةَ فيها هُدىً ونورٌ يحكمُ بها النبيونَ الذينَ أسلموا للذينَ هادوا ﴾ [5] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذا أوحيتُ الى الحواريّين أنْ آمِنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشْهَدْ بأنّنا مُسلمونَ ﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿ ربنا آمنّا بما أنزلَتْ واتبْعنا الرسول فاكْتُبْنَا مع الشّاهدينَ ﴾ [7] .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين ، وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [8] . وقوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ احسنُ ديناً مِمّنْ أسلمَ وجههُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ واتّبَعَ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً واتّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾ [9] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ يَدخل الجنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هوداً أو نصارى تلكَ امانيُّهُمْ قلْ هاتوا برهانَكُمْ إنْ كنتمْ صادقينَ * بلَى مَنْ أسلمَ وجهَهُ لله وهُوَ مُحسنٌ فلهُ أجرُهُ عند ربهِ ولا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ ﴾ [10] .

---

(١) سورة النمل الآيات (٣٠ ـ ٣١).
(٢) سورة النمل الآية ٣٨.
(٣) سورة النمل الآية ٤٢.
(٤) سورة النمل الآية ٤٤.
(٥) سورة المائدة الآية ٤٤.
(٦) سورة المائدة الآية ١١١.
(٧) سورة آل عمران الآية ٥٣.
(٨) سورة آل عمران الآية ٨٥.
(٩) سورة النساء الآية ١٢٥.
(١٠) سورة البقرة الآيات (١١١ ـ ١١٢).

سورة النساء

وقال شيخ الإسلام

فصـــــل

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ويريدُ الذينَ يتّبعونَ الشهواتِ أنْ تَميلوا مَيْلاً عظيماً ﴾[1] فذكر ما يتعلق بشهوات الآدميين من سائر ما تشتهيه أنفسهم حتى النساء والمردان . وقال : العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من ذلك أن يجاهد نفسه وهواه ، وتكون مجاهدته لله تعالى وحده .

ثم قال : وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم ، وقد يبتلى كثير منه بالميل إلى الذكران كالمردان ، وإن لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة ، وإن لم تكن كان بالنظر ، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس .

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلي المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا الجهاد ، وليس هو أمراً حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه . بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه ، فتكون المجاهدة للنفس في طاعة الله ورسوله .

وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد عند ابن عباس مرفوعاً «مَنْ عشِقَ فعَفَّ وكتَمَ وصبَرَ ثم ماتَ فهوَ شهيدٌ » .

(في الحديث نظر)

وأبو يحيى في حديثه نظر ، لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة ، فإن الله أمره بالتقوى والصبر ، فمن التقوى أن يعف عن كل ما حرم الله من نظر بعين ، ومن لفظ بلسان ، ومن حركة بيد ورجل ، والصبر أن يصبر عن شكوى ما به الى غير الله فإن هذا هو الصبر الجميل .

وأما الكتمان فيراد به شيئان :

«أحدهما» أن يكتم بثه وألمه ، ولا يشكو إلى غير الله ، فمتى شكى الى غير الله نقص صبره ، وهذا أعلى الكتمانين ، لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد ، بل كثير من الناس يشكو ما به ، وهذا على وجهين :

---

(١) سورة النساء الآية ٢٧ .

فإن شكى ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفق ، وهذا حسن ، وإن شكى الى من يعينه على المحرم فهذا حرام ، وإن شكا الى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشكي مصيبته الى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ، ولا الاستعانة على معصية ، فهذا ينقص صبره ، لكن لا يأثم مطلقاً إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي ينسخط .

و«الثاني» أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس ، لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة ، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتتيمت ، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعياً إلى الفعل ، والنساء متى رأين البهائم تنزو الذكور منها على الإناث ملن الى الباءة ، والمجامعة ، والرجل إذا سمع من تفعل مع المردان والنساء أو رأى ذلك أو تخيله في نفسه دعاه ذلك الى الفعل ، وإذا ذكر الإنسان طعاماً اشتهاه ومال اليه ، وإن وصف له ما يشتهيه من لباس أو امرأة أو مسكن أو غير ذلك مالت نفسه إليه ، والغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه .

فكلما كان في نفس الإنسان محبته إذا تصوره تحركت المحبة والطلب ، إلى ذلك المحبوب المطلوب ، إما الى وصفه ، وإما الى مشاهدته ، وكلاهما يحصل به تخيل في النفس ، وقد يحصل التخيل بالسماع والرؤية ، أو التفكر في بعض الأمور المتعلقة به ، فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت إلى تخيلة أخرى فتحركت داعية المحبة ، سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة .

ولهذا تتحرك النفوس الى الحج إذا ذكر الحجاز ، وتتحرك بذكر الأبرق والأجرع والعلى ونحو ذلك ، لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهباً إلى المحبوب فصار ذكرها يذكر المحبوب وكذلك اذا ذكر رسول الله ﷺ تذكر به ، وتحركت محبته .

فالمبتلى بالفاحشة والعشق . إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك ، لأن النفوس مجبلة على حب الصور الجميلة ، فإذا تصورت جنس ذلك تحركت الى المحبوب ، ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة .

فصل

وسئل الشيخ رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿واللاتي تَخافونَ نشوزَهُنَّ فعِظوهُنَّ ، واهْجُروهُنَّ في المضاجِعِ واضْرِبوهُنَّ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيلَ انشزوا فانْشُزوا ﴾[2] إلى قوله تعالى ﴿ والله بما

(1) سورة النساء الآية ٣٤.

(2) سورة المجادلة الآية ١١.

تعملون خبيرٌ ﴾ يبين لنا شيخنا هذا النشوز من ذاك ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين « النشوز » في قوله تعالى : ﴿ تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ﴾ هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش ، أو تخرج من منزله بغير إذنه ، ونحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته .

وأما النشوز في قوله : ﴿ إذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ فهو النهوض والقيام والارتفاع ، وأصل هذه المادة هو الارتفاع والغلظ ، ومنه النشز من الأرض وهو المكان المرتفع الغليظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وانظُرُ إلى العظامِ كيفَ نُنْشِزُها ﴾ أي نرفع بعضها الى بعض ، ومن قرأ ﴿ ننشرها ﴾ أراد نحييها ، فسمى المرأة العاصية ناشزاً لما فيها من الغلظ والارتفاع عن طاعة زوجها ، وسمى النهوض نشوزاً ، لأن القاعد يرتفع عن الأرض ، والله أعلم .

وقال :

فصـــل

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُختالاً فخوراً ، الذينَ يَبخلونَ ويَأمرونَ الناسَ بالبُخلِ ﴾[١] في النساء ، وفي الحديد إنه ﴿ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ، الذينَ يبخلونَ وَيَأْمرونَ الناسَ بالبُخلِ ﴾[٢] قد تؤولت في البخل بالمال والمنع ، والبخل بالعلم ونحوه ، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك ، كما تأولوا قوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ النفقة من المال والنفقة من العلم . وقال معاذ في العلم : تُعلمه لمن لا يعلمه صدقة . وقال أبو الدرداء : ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها . أو كما قال . وفي الأثر نعمت العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها الى أخ له ، أو كما قال .

وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء ولهذا كان الله ، وملائكته وحيتان البحر ، وطير الهواء ، يصلون على معلم الناس الخير ، كما أن كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون ، وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده .

والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به ، فالبخيل به الذي منعه ، والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله ، وإما أن يختال على بعض الناس فلا يبذله ، وهذا كثيراً ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم ، ويختال به . وأنه يختال عن

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

أن يتغذى من غيره ، وضد ذلك التواضع في طلبه ، وبذله ، والتكرم بذلك .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــل

(سر الجمع بين الخيلاء والبخل في موضع وبين العطاء والتقوى في موضع)

قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل ، كما في قوله : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ في النساء والحديد وضد ذلك الإعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع ، كما قال : ﴿ فأمّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ﴾[1] وقال : ﴿ إنَّ الله معَ الذينَ اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحسنونَ ﴾[2] وهذان الأصلان هما جماع الدين العام ، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع ، وذلك أصل التقوى ، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم ، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة ، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له ، والتواضع له ، والذل له ، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر ، والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم ، وذلك مضاد للبخل .

ولهذا وغيره كثر القران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاء له ، كما قال عبد الله بن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق ، وهذا المعنى ـ وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع ـ هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة ، كصلاة القائم والقاعد والمضطجع . والقارىء ، والأمي ، والناطق والأخرس ، وإن تنوعت حركاتها وألفاظها ، فإن إطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطؤ المنافي للاشتراك والمجاز ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ، ومنهم من ادعى المجاز ، بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي ، أو مزيدة ، أو على غير ذلك ، وليس الأمر كذلك ، بل اسم الجنس العام المتواطىء المطلق إذا دل على نوع أو عين ، كقولك هذا الإنسان وهذا الحيوان ، أو قولك :

---

(١) سورة الليل الآية ٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٨ .

هات الحيوان الذي عندك وهي غنم ، فهنا اللفظ قد دل على شيئين : على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد ، وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين . فاللفظ المشترك الوجود في جميع التصاريف على القدر المشترك ، وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلاً أو غيرها دل على الخصوص والتعيين ، وكما أن المعنى الكلي المطلق لا وجود له في الخارج ، فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة .

فإن الكلام إنما يفيد بعد العقد والتركيب ، وذلك تقييد وتخصيص كقولك أكرم الإنسان ، أو الإنسان خير من الفرس . ومثله قوله ﴿أقم الصلاة﴾ ونحو ذلك ، ومن هنا غلط كثير من الناس في المعاني الكلية ، حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود . والتحقيق : أنه لا يوجد المعنى الكلي المطلق في الخارج إلا معيناً مقيداً ، ولا يوجد اللفظ الدال عليه في الاستعمال الا مقيداً مخصصاً ، وإذا قدر المعنى مجرداً كان محله الذهن ، وحينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود في الاستعمال مجرداً .

و«المقصود هنا » أن اسم الصلاة فيه عموم وإطلاق ، ولكن لا يستعمل إلا مقروناً بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا ، وصلاة الملائكة ، والصلاة من الله سبحانه وتعالى : وإنما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا ، مع علمهم بأن هذا ليس مثل هذا ، فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته ، وأن بينهما قدر متشابه ، كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم .

ومن هذا الباب أسماء الله وصفاته التي يسمى ويوصف العباد بما يشبهها ، كالحي والعليم والقدير ونحو ذلك .

وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «كل معروف صدقة»[1] ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «على كل مسلم صدقة»[2] وأما الزكاة المالية المفروضة فإنما تجب على بعض المسلمين في بعض الأوقات ، والزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبي ﷺ ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قالوا : فإن لم يستطع ؟ قال : «يعين صانعاً أو يصنع

---

(١) ورد الحديث في البخاري (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة) ٨/١١ برواية جابر ، وفي مسلم عن حذيفة ٨٢١٣ (كتاب الزكاة . . باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف)، وانظر أيضاً : أبو داود (كتاب الأدب)، الترمذي (كتاب البر)، ابن حنبل ٣/٢٤٤ .

(٢) ورد الحديث في البخاري ٢/١٤٣ (كتاب الزكاة . باب على كل مسلم صدقه فمن لم يجد فليعمل بالمعروف)، وفي مسلم (كتاب الزكاة) والنسائي (كتاب الزكاة) والدارمي (كتاب الرقاق) وابن حنبل ٤/٢٩٥ .

لأخرق» قالوا فإن لم يستطع ؟ قال : «يكف نفسه عن الشر »[1] .

وأما قوله في الحديث الصحيح حديث أبي ذر وغيره : «على كل سلامي من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة »[2] فهذا ـ إن شاء الله ـ كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق ، فإنه بمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى ، فيكون ذلك من الصدقة على الخلق .

ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ، ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقة ؟ وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضاً ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح . «ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً ، كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل »[3] .

وقال

فصل

قول الناس : الآدمي جبار ضعيف ، أو فلان جبار ضعيف ، فإن ضعفه يعود إلى ضعف قواه ، من قوة العلم والقدرة ، وأما تجبره فإنه يعود إلى اعتقاده وإرادته . أما اعتقاده فإن يتوهم في نفسه أنه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك ، وهذا هو الاختيال والخيلاء . والمخيلة ، وهو أن يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ، ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظماً ونثراً وطلبه للمدح الباطل ، فإنه يورث هذا الاختيال .

وأما الإرادة فإرادة أن يتعظم ويعظم ، وهو إرادة العلو في الأرض والفخر على الناس ، وهو أن يريد من العلو ما لا يصلح له أن يريده ، وهو الرئاسة والسلطان ، حتى يبلغ به الأمر إلى مزاحمة الربوبية كفرعون ، ومزاحمة النبوة ، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد والأمراء وغيرهم .

وكل واحد من الاعتقاد والإرادة يستلزم جنس الآخر ، فإن من تخيل أنه عظيم أراد ما

---

(١) ورد الحديث في البخاري عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وفيه . . . فإن لم يجد ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف . . الخ الحديث انظر البخاري ١٤٣/٢ (كتاب الزكاة . باب على كل مسلم صدقة) .

(٢) ورد الحديث في البخاري بلفظ مختلف جاء فيه : كل سلامي من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة ، انظر البخاري ٢٤٥/٣ (كتاب الصلح بين الناس . باب فضل الاصلاح بين الناس والعدل بينهم) وانظر كذلك مسلم (كتاب الزكاة) ، أبو داود (كتاب التطوع) ، ابن حنبل ٢٣٦/٣ .

(٣) ورد الحديث في: أبو داود (كتاب الوتر . باب الدعاء بظهر الغيب) وانظر كذلك الترمذي (كتاب البر)، ابن ماجه (كتاب المناسك) .

يليق بذلك الاختيال ، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره ، حتى يطلب ذلك ، ففي الإرادة يتخيله مقصوداً ، وفي الاعتقاد يتخيله موجوداً ، ويطلب توابعه من الإرادات .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يُحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ﴾(١) وقال ﷺ : «الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٢) فالفخر يشبه غمط الناس ، فإن كليهما تكبر على الناس . وأما بطر الحق - وهو جحده ودفعه - فيشبه الاختيال الباطل ، فإنه تخيل أن الحق باطل بجحده ودفعه .

ثم هنا وجهان :

«أحدهما» أن يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو أن يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها ، فيجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها ، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الإرادات ، فإن الفاخر يريد أن يرفع نفسه ويضع غيره ، وكذلك غامط الناس .

ويؤيد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : «إنه أوحي إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »(٣) فبين أن التواضع المأمور به ضد البغي والفخر ، وقال في الخيلاء التي يبغضها الله : «الاختيال في الفخر والبغي » فكان في ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ، إن كانت بغير حق فهي بغي : إذ البغي مجاوز الحد . وإن كانت بحق فهي الفخر ، لكن يقال على هذا ، البغي يتعلق بالإرادة ، فلا يجوز أن يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الإرادة ، بل البغي كأنه في الأعمال والفخر في الأقوال ، أو يقال : البغي بطر الحق والفخر غمط الناس .

«الوجه الثاني » أن يكونا جميعاً متعلقين بالاعتقاد والإرادة ، لكن الخيلاء غمط الحق يعود إلى الحق في نفسه ، الذي هو حق الله وإن لم يكن يتعلق به حق آدمي ، والفخر وغمط الناس يعود إلى حق الآدميين ، فيكون التنويع لتمييز حق الآدميين مما هو حق لله لا يتعلق (بحق)(٤) الآدميين ، بخلاف الشهوة في حال الزنا وأكل مال الغير . فلما قال سبحانه : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ والبخل منع النافع . قيد هذا

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٢) ورد الحديث في مسلم كتاب الإيمان .

(٣) أورده مسلم في كتاب الجنة ، وأبو داود في كتاب الأدب وابن ماجه في كتاب الزهد .

(٤) ليست بالأصل .

بهذا ، وقد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق . الكلام في التواضع والإحسان والكلام التكبر والبخل [1] .

وقال شيخ الاسلام

قوله : ﴿ ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ فمنَ الله ﴾[2] الآية بعد قوله : ﴿ كلٌ مِنْ عندِ الله ﴾[3] لو اقتصر على الجميع أعرض العاصي عن ذم نفسه ، والتوبة من الذنب ، والاستعاذة من شره ، وقام بقلبه حجة إبليس ، فلم تزده إلا طرداً ، كما زادت المشركين ضلالاً حين قالوا : ﴿ لو شاءَ الله ما أشرَكْنَا ﴾ .

ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والإيمان بالقدر ، واللجاء إلى الله في الهداية ، كما في خطبته ﷺ : «الحمد لله نحمده ونستغفره » فيشكره ويستعينه على طاعته ، ويستغفره من معصيته ، ويحمده على إحسانه . ثم قال : «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » إلى آخره . لما استغفر من المعاصي استعاذه من الذنوب التي لم تقع . ثم قال : «ومن سيئات أعمالنا » أي ومن عقوباتها . ثم قال «من يهد الله فلا مضل له » الخ . شهادة بأنه المتصرف في خلقه ، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد ، هذا كله مقدمة بين يدي الشهادتين ، فإنما يتحققان بحمد الله وإعانته ، وإستغفاره واللجاء إليه ، والإيمان بأقداره . فهذه الخطبة عقد نظام الإسلام والإيمان [4] .

الحسنة من الله لوجوه

وقال : كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه :

«الأول» أن النعم تقع بلا كسب .

«الثاني» أن عمل الحسنات من إحسان الله إلى عبده ، فخلق الحياة وأرسل الرسل وحبب

---

(١) لعل ابن تيمية يشير هنا إلى ما كتبه في: التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

(٢) سورة النساء الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء الآية ٧٨.

(٤) روى هذه الخطبة الإمام أحمد في مسنده ٥/٢٧١ (ط دار المعارف) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال علمنا خطبة الحاجة : الحمد لله نحمده ونستعينه . . . الخ وقال الأستاذ المحقق الشيخ شاكر : إن هذا الحديث رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم . وانظر كذلك الأذكار للنووي ص ٢٥٠، سنن ابن ماجه ١/٦٠٩-٦١٠ وانظر تحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم للحديث في جامع الرسائل ص ١١٧ تعليق ٣ .

إليهم الإيمان . وإذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك ، وإذا علمت أن الشر لا يحصل إلا من نفسك تبت فزال .

«الثالث» أن الحسنة تضاعف .

«الرابع » أن الحسنة يحبها ويرضاها ، فيجبن أن ينعم ويجب أن يطاع ، ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم إليه والشر إلى محله ، كما قال إمام الحنفاء : ﴿الذي خَلَقَني فهو يَهْدِين﴾ إلى قوله : ﴿وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفين﴾ .

«الخامس» أن الحسنة مضافة إليه . لأنه أحسن بها بكل اعتبار ، وأما السيئة فما قدرها إلا لحكمة .

«السادس» أن الحسنات أمور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة ، لأنها إما فعل مأمور أو ترك محظور ، والترك أمر وجودي . فتركه لما عرف أنه ذنب وكراهته له ومنع نفسه منه أمور وجودية ، وإنما يثاب على الترك على هذا الوجه .

وقد جعل النبي ﷺ البغض في الله من أوثق عرى الإيمان ، وهو أصل الترك . وجعل المنع لله من كمال الإيمان وهو أصل الترك . وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركاً محضاً ، بل صادراً عن بغض وعداوة . وأما السيئات فمنشؤها من الظلم والجهل . وفي الحقيقة كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو تم العلم بها لم يفعلها ، فإن هذا خاصة العقل ، وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة والغفلة ، والشهوة أصل الشر ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تُطِع مَنْ أَغْفَلْنا قلبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواهُ ﴾ الآية .

«السابع» أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه .

«الثامن» أن ما يصيبه من الخير والنعم لا تنحصر أسبابه من إنعام الله عليه ، فيرجع في ذلك إلى الله ، ولا يرجو إلا هو ، فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره ، وإنما يستحق من الشكر جزاء على ما يسره الله على يديه ، ولكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله ، فإنه المنعم بما لا يقدر عليه مخلوق ، ونعم المخلوق منه أيضاً ، وجزاؤه على الشكر والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فإذا عرف أن ﴿مَا يفتحُ الله للناسِ مِنْ رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكُ فلا مُرْسَلَ لَهُ مِنْ بعْدِهِ﴾[1] صار توكله ورجاؤه إلى الله وحده ، وإذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له ، والشر انحصر سببه في النفس ، فعلم من أين يؤتى فتاب واستعان بالله ، كما قال

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

بعض السلف : لا يَرْجُونْ عبدٌ إلاّ ربَّهُ ، ولا يخافُ إلاّ ذَنْبَهُ . وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره : إن ما أصابهم يوم أحد مطلقاً كان بذنوبهم لم يستثن أحد ، وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

«التاسع» أن السيئة إذا كانت من النفس والسيئة خبيثة : كما قال تعالى ﴿الخبثاتُ للخبيثين﴾ الآية . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثات للخبيثين وقال :﴿ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ﴾ وقال :﴿إليه يصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ والأقوال والأفعال صفات للقائل الفاعل ، فإذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها ، فمن أراد أن يجعل الحيات يعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح ، بل إذا كان في النفس خبث طهرت حتى تصلح للجنة ، كما في حديث أبي سعيد الذي في الصحيح ، وفيه : «حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة »(١) .

فإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمح في السعادة التامة مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ فَمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذرةٍ خَيراً يَرَهُ ﴾ إلخ ، وعلم أن الرب عليم حكيم ، رحيم عدل ، وأفعاله على قانون العدل والإحسان ، كما في الصحيح «يمين الله ملآى » إلى قوله :«والقسط بيده الأخرى »(٢) وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل .

إلى أن قال : ومن سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر والنهي أن يقول - كما نقل - عن الشاذلي - يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما في حزب الشاذلي . وآخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر وكافر ، ويقولون : هذه موهبة ، ويظنونها من الكرامات وهي من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان ، كما قال تعالى :﴿ولمّا جاءَهُمْ رسولٌ مِنْ عندِ الله مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿هاروتَ وماروتَ﴾(٣) ، وصح قوله ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » (٤) .

---

(١) رواه البخاري (في كتاب الرقاق . باب القصاص يوم القيامة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال . . . الحديث وفيه : يخلص المؤمنون من النار فيسحبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا إذن لهم في دخول الجنة . . الخ انظر البخاري ١٣٨/٨ - ١٣٩ ، ابن حنبل ١٣/٣ ، ٦٣ .

(٢) جزء من حديث صحيح أورده البخاري في تفسير سورة هود بلفظ مختلف وفيه «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سماء الليل والنهار . . . الخ لفظ البخاري ٩٢/٦ : (كتاب التغير . تغير سورة هود)، مسلم (كتاب الزكاة) ٣٩٩/١، والترمذي (كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة)، ابن ماجه المقدمة، ابن حنبل ٣١٣/٢ .

(٣) سورة البقرة الآيات (١٠٠ - ١٠٢).

(٤) جزء من حديث صحيح أورده البخاري ١٠٣/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من =

فعدل كثير من المتنسبين إلى الإسلام إلى أن نبذ القرآن وراء ظهره ، واتبع ما تتلو الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ونهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من يأتي ببعض الخوارق .

ثم منهم من يعرف أنه من الشياطين ، لكن يعظمه لهواه ، ويفضله على طريقة القرآن ، وهؤلاء كفار ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً من الكتابِ ، يُؤمنون بالجِبْتِ والطّاغوتِ ﴾ الخ .

قال : وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ نَفْسِكَ ﴾ من الفوائد : إن العبد لا يطمئن إلى نفسه ، ولا يشتغل بملام الناس وذمهم ، بل يسأل الله أن يعينه على طاعته ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه دعاء الفاتحة ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، ويدخل فيه من أنواع الحاجات ما لا يمكن حصره ، ويبينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة في القرآن إلا لنعتبر ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، فلولا أن في النفوس ما في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال تعالى : ﴿ما يُقالُ لكَ إلّا ما قَدْ قِيلَ للرسل مِنْ قبلكَ ﴾ وقوله : ﴿أتواصوا به؟ ﴾ وقوله : ﴿تَشابهَتْ قلوبُهُمْ﴾ ، ولهذا في الحديث : « لتسلكن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به ، وطلب أن يكون شريكاً له ، وكلا هذين وقع .

وقال بعضهم ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسداً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى ، ولهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله ألا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

= كان قبلكم) وانظر أيضاً : مسلم (كتاب العلم - باب اتباع سنن اليهود والنصارى)، ابن حنبل (المسند) ط الحلبي ٣٢٧/٢ ، ابن ماجه ١٣٢٢/٢ ط فؤاد عبد الباقي الترمذي ٢٦/٩ - ٢٨ (كتاب الفتن . باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

فصـــــل

في قولـه تعـالى : ﴿ مـا أصـابَـكَ من حسنـةٍ فمِنَ الله ، ومـا أصـابَـكَ مِنْ سيِّئـةٍ فمِنْ نَفْسِكَ ﴾[1] وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .

(السياق العام للآية)

هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا خُذوا حَذِرَكُمْ ، فانفِروا ثُباتٍ ، أو انْفِروا جميعاً - الآيات ﴾[2] إلى أن ذكـر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الـرسول ، والتحـاكم إلى الله وإلى الرسـول ، وردّ ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات : تبيينا للإيمان والرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حتى يُحَكِّمـوكَ فيـما شجـرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسِهِمْ حـرجـاً ممـا قَضَيْتَ ، ويُسَلِّمـوا تَسليماً ﴾[3] .

وهذا جهاد عـما جاء بـه الرسـول ، وقد قـال تعالى : ﴿ إنمـا المؤمنونَ الـذينَ آمَنوا بـالله ورسولهِ ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيلِ الله ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كـانَ آباؤكُمْ وأبنـاؤكُمْ وإخوانُكُمْ وأزواجُكُمْ وعشيـرتُكُمْ وأموالُ اقتـرفتموهـا ، وتجارةٌ تَخْشَـوْنَ كسادَهَا ، ومساكنُ تَرْضَوْنَها : أحبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الله ورسولِهِ ، وجهادٍ في سبيلِهِ ، فتـربّصوا حتى يأتي الله بأمرهِ ، والله لا يَهدي القومَ الفاسِقينَ ﴾[5] .

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجِ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ كَمَنْ آمَنَ بالله واليـومِ الآخرِ ، وجـاهَدَ في سبيـلِ الله ؟ لا يَستوونَ عنـدَ الله ، والله لا يَهدي القـومَ الـظالمـينَ ، الـذينَ آمنـوا وهـاجَروا وجـاهَـدوا في سبيـلِ الله بـأمـوالِهِمْ وأنفسِهِمْ أعـظم درجـةً عنـد الله ، وأولئـك هُمُ الفائزونَ ، يبشرُهُمْ ربُّهم برحمةٍ منهُ ورضوانٍ وجناتٍ . . الآية ﴾[6] .

---

(١) سورة النساء الآية ٧٤.

(٢) سورة النساء الآية ٧١.

(٣) النساء الآية ٦٥.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٥) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٦) سورة التوبة الآيات (١٩ - ٢١).

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا هَلْ أدلُّكُم على تجارةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عذابٍ أليم ؟ تُؤمنونَ بالله ورسولِهِ ، وتُجاهدونَ في سبيلِ الله بأموالِكُمْ وأنفسكُمْ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ ، يغفرْ لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ، ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ : ذلكَ الفوزُ العظيمُ ، وأخرى تُحبونها : نصرٌ مِنَ الله وفتحٌ قريبٌ . وبشّرِ المؤمنينَ ، يا أيُّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله ، كما قالَ عيسى ابن مريمَ للحواريينَ : مَنْ أنصاري إلى الله ؟ قالَ الحواريونَ : نحنُ أنصارُ الله ، فآمنَتْ طائفةٌ مِنْ بني إسرائيلَ ، وكفرتْ طائفةٌ فأيّدنا الذين آمنَوا على عدوِّهِمْ فأصبحوا ظاهرينَ ﴾[1] .

وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراده الله ، ونهيه عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم . وذم من شاق الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء ـ إلى أن بين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بعمل الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ واتخذَ الله إبراهيمَ خليلاً ﴾[2] .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبدالله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبين أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ قيلَ لَهُمْ : كُفّوا أيديكُمْ ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاةَ فلما كُتِبَ عليهِمُ القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشونَ الناسَ كخَشيةِ الله ، أو أشدَّ خشيةً . وقالوا : ربَّنا ، لم كتبْتَ علينا القتال ؟ لولا أخَّرْتنا إلى أجلٍ قريبٍ ؟ قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ . والآخرةُ خيرٌ لمنْ اتّقى . ولا تُظلَمونَ فتيلاً ﴾[3] .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جبن وفشل . فكان في قلوبهم مرض . كما قال تعالى : ﴿ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ محكَمةٌ ، وذُكِرَ فيها القتالُ : رأيْتَ الذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المغشيِّ عليهِ مِنَ

(١) سورة الصف الآيات (١٠ ـ ١٤).

(٢) انظر في تفصيل ذلك : الآيات من ١٠٥ ـ ١٢٥ من سورة النساء .

(٣) سورة النساء الآية ٧٧.

الموتِ فأوْلى لَهُمْ ، طاعةٌ وقَوْلٌ معروفٌ الآية ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقونَ والذين في قلوبِهِمْ مرضٌ : ما وَعَدَنا الله ورسولهُ إلا غُروراً ﴾[2] .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال: ﴿ أينما تكونوا يدرِكْكُمُ الموتُ ولَوْ كنتم في بروجٍ مشيَّدةٍ ، وإن تُصْبهُمْ حسنةٌ يقولوا : هذهِ مِنْ عندِ الله ، وإن تُصبهُمْ سيئةٌ يقولوا : هذهِ مِنْ عِنْدِكَ . قلْ : كلٌ مِنْ عندِ الله . فما لهؤلاء القومِ لا يَكادون يفقهونَ حديثاً ؟ ﴾[3] .

فالضمير في قوله : ﴿وإن تصبهم﴾ يعود الى من ذكر ، وهم : الذين ﴿ يخشون الناس ﴾ أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعم كل من كان كذلك ، ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذم هؤلاء ، فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى .

(قد يراد بالحسنة والسيئة النعم والمصائب)

والذي عليه عامة المفسرين : أن «الحسنة» و«السيئة» يراد بهما النعم والمصائب ، ليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

ولفظ «الحسنات» و«السيئات» في كتاب الله يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يفرحوا بها ، وإنْ تَصبروا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة يسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وبَلَوْناهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلّهم يرجعون ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وإنا إذا أذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً فرحَ بها ، وإنْ

---

(١) سورة محمد الآيات (٢٠ ـ ٢١).

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٨.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .

(٥) سورة التوبة الآية ٥٠ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

تُصِبْهُمْ سيئةٌ بما قدّمَتْ أيدِيهِمْ ، فإنّ الإنسانَ كفور ﴾[1] وقال تعالى - في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه : ﴿ فإذا جاءَتْهُمْ الحسنةُ قالوا : لنا هذه . وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يطَّيَّروا بموسى وَمَنْ مَعَهُ ﴾[2] ذكر هذا بعد قوله : ﴿ ولقد أخَذْنا آلَ فِرعَوْنَ بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلّهم يذّكرون ﴾[3] .

(وقد يراد بها الطاعة والمعصية)

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهي عنها ، ففي مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ خيرٌ منها ، وَمَنْ جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذين عَمِلوا السيئاتِ إلاّ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ذلكَ ذكرى للذاكرينَ ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ فأولئكَ يُبَدِّلُ الله سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، وكانَ الله غفوراً رحيماً ﴾[6] .

وهنا قال : ﴿ ما أصابَكَ من حسنةٍ فمِنَ الله ، وما أصابَكَ من سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت كما قال : ﴿ وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيدِيكم ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصونَ بنا إلاّ إحدَى الحسنيين ؟ ونحنُ نتربّصُ بكم ، أن يصيبَكُمْ الله بعذابٍ من عندِهِ أو بأيدينا ﴾[9] . وقال تعالى : ﴿ ولَا يزالُ الذينَ كَفروا تُصيبُهم بما صَنَعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارهِمَ ﴾[10]. وقال تعالى : ﴿ فأصابَتْكم مصيبةُ الموتِ ﴾[11]. وقال تعالى : ﴿ وبشِّر الصّابِرينَ الذينَ إذا أصابَتْهُمْ مصيبةٌ قالوا : إنّا لله وإنّا إليهِ راجِعُونَ ﴾[12].

فلهذا كان قوله : ﴿وما أصابك من حسنة﴾و﴿من سيئة﴾متناولاً لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .
(٤) سورة القصص الآية ٨٤ .
(٥) سورة هود الآية ١١٤ .
(٦) سورة الفرقان الآية ٧٠ .
(٧) سورة الشورى الآية ٣٠ .
(٨) سورة المائدة الآية ٥٢ .
(٩) سورة التوبة الآية ٥٢ .
(١٠) سورة الرعد الآية ٣١ .
(١١) سورة المائدة الآية ١٠٩ .
(١٢) سورة البقرة الآية ١٥٦ .

(أقوال السلف في هذه الآية)[1]

فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية :﴿إن تُصِبْهُمْ حسنةٌ يقولوا : هذه من عندِ الله﴾ قال : هذه في السراء ﴿وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا : هذهِ من عندِكَ » قال : وهذه في الضراء .

وقال السدي :﴿ إن تصبهم حسنة قالوا ﴾ والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان﴿قالوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة قالوا﴾ ـ والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشاؤماً بمحمد ـ «قالوا : هذه من عندك﴾ يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله﴿قلْ كلٌّ من عندِ الله﴾ الحسنة والسيئة﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟﴾قال : القرآن .

وقال الوالبي عن ابن عباس : «ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : ما فتح الله عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس : «من حسنة» قال ما أصاب من الغنيمة والفتح فمن الله ، قال : «والسيئة » : ما أصابه يوم أحد ، إذ شج في وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقال : أما «الحسنة» فأنعم الله بها عليك : وأما «السيئة» فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح «فمن نفسك﴾قال : فبذنبك ، وأنا قدرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشخير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ ؟ أي من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر ، وقد أمروا به ، وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس :﴿إن تصبهم حسنة ﴾ الخصب والمطر﴿وإن تصبهم سيئة» الجدب والبلاء .

---

(١) انظر في هذه النصوص التي تحكي أقوال السلف في تفسير معنى الحسنة والسيئة : تفسير الطبري ١٠٣/٦ ـ ١٠٥ ط الميمنية بمصر ، ولقد ذكر الطبري هذه الأقوال باسنادها إلى السلف ، ابن عباس ، الوالبي ، السدى ، ابن عيينة .

وقال ابن قتيبة﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله : (ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن «الحسنة » : ما فتح الله عليهم يوم بدر ، و«السيئة» ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة ـ وهو الوالبي : عن ابن عباس .

قال : والثاني : «الحسنة» الطاعة . و«السيئة»: المعصية ، قاله أبو العالية .

والثالث : «الحسنة » : النعمة ، و«السيئة»: البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه وهو أصح .

(رأي ابن تيمية)

قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الداري عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثاني : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ، لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهي تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثاني : فليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة في حقه من الله أصابته ، وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التي عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذي أوجب الجزاء ، أولى أن يكون من نفسه ، فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ «فمن نفسك، وأنا قدرتها عليك » .

فصل

(قد تكون المعصية عقوبة على معصية سابقة)

والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة على المعصية الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي ﷺ - في الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : «عليكم بالصدق ، فإن الصدق ، يهدي إلى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] .

(والحسنة ثواب على حسنة سابقة)

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً وإذاً لآتيناهُمْ من لدُنّا أجراً عظيماً ، ولَهَديناهم صراطاً مستقيماً ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سُبلنَا ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهُم ، سيهديهم ويُصلحُ بالَهُمْ ، ويدخلُهم الجنةَ عرَّفها لهم ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ ثم كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤ وا : السُّوأى ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من اتّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رحمَتِهِ ، ويَجْعَلْ لكم نوراً تمشون به ، ويَغْفِرْ لكم ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ وفي نُسختِها هدىً ورحمةٌ للذين هم لربِّهم يَرهبونَ ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتّقينَ ﴾[9] .

---

(١) ورد الحديث في: مسلم ٢/٤٣٨ - ٤٣٩ (كتاب البر والآداب والصلة ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله) ، وانظر كذلك : أبو داود (كتاب الأدب)، الترمذي [كتاب البر]. ابن ماجه (المقدمة) ابن حنبل ١/٢ .

(٢) سورة النساء الآيات (٦٦ - ٦٨).

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

(٤) سورة محمد الآيات (٤ - ٦) .

(٥) سورة الروم الآية ١٠ .

(٦) سورة المائدة الآية ١٦ .

(٧) سورة الحديد الآية ٢٨ .

(٨) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية ١٣٨ .

وقال تعالى : ﴿ قلْ هُوَ للذينَ آمنَوا هدىً وشفاءٌ والذينَ لا يؤْمِنونَ في آذانِهم وَقْرٌ وهو عليهم عمىً ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين اتَّقوْا إذا مسَّهمْ طائفٌ منَ الشيطان تذَكّروا فإذا هم مُبْصرونَ . وإخوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثم لا يقْصِرونَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ كذلكَ لنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ ، إنهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلصينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ولما بَلَغَ أَشُدَّهُ آتيناه حُكْماً وعِلْماً ، وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ولما بلغَ أشُدَّهُ واسْتوى آتَيْناهُ حُكْماً وعِلْماً وكذلك نَجْزي المحسنينَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ الذينَ كفَروا وصَدْوا عن سبيلِ الله أضلَّ أعمالَهُمْ . والذينَ آمنَوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمَنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ ـ وهوَ الحقُّ مِنْ ربِّهِمْ ـ كفَّرَ عنهم سيئاتِهم واصْلَحَ بالَهُم ، ذلكَ بأنَّ الذينَ كفروا اتّبَعُوا الباطل ، وأنَّ الذينَ آمنوا اتّبَعُوا الحقَّ مِنْ ربِّهم ، كذلكَ يضرِبُ الله للناس أمثالهم ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يُصْلِحُ لكم أعمالكُمْ ويَغْفِر لكم ذنوبَكُمْ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإنْ تولَّوا فإنما عليهِ ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلْتُمْ ، وإن تُطيعوهُ تَهْتَدوا ، وما على الرسول إلا البلاغُ المبينُ ﴾[8] .

قال أبو عثمان النيسابوري : من أمّر السنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإنْ تُطيعوهُ تَهْتَدوا ﴾ .

(استطراد في هذه القضية)

قلت : وقد قال في آخر السورة ﴿ فلْيَحْذَرِ الذينَ يُخالِفونَ عَنْ أمرِهِ ، أَنْ تُصيبهُمْ فتنةٌ أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ ﴾[9] . وقال تعالى : ﴿ وما يُشْعِرُكُمْ أنَّها إذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ، ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤْمِنُوا به أوّلَ مَرّةٍ ﴾[10] وقال تعالى : ﴿ إن الّذِينَ تَوَلّوْا منكم يومَ

(١) سورة فصلت الآية ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ـ ٢٠٢) .
(٣) سورة يوسف الآية ٢٤ .
(٤) سورة يوسف الآية ٢٢ .
(٥) سورة القصص الآية ١٤ .
(٦) سورة محمد الآيات (١ ـ ٣) .
(٧) سورة الأحزاب الآيات (٧٠ ـ ٧١) .
(٨) سورة النور الآية ٥٤ .
(٩) سورة النور الآية ٦٣ .
(١٠) سورة الأنعام الآيات (١٠٩ ـ ١١٠) .

التقى الجمعان إنما اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ ببعض ما كسَبوا ، ولقدْ عفَا الله عنهم ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ موسى لقومِهِ : يا قومِ لمْ تُؤْذونَني ؟ وقدْ تعلمونَ أني رسولُ الله إِلَيْكُمْ ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبَهم والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ ـ إلى قولـه ـ وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افْترى على الله الكَذِبَ وهوَ يُدعى الى الإسلام ؟ والله لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ وقـالوا : قلوبنا غُلْفُ . بلْ لعَنَهُمْ الله بِكُفْرِهم . فقَّليلاً ما يُؤمِنونَ ﴾[3] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وقولِهِمْ قلوبُنَا غُلْفٌ . بلْ طبـعَ الله عَلَيْها بِكُفْـرِهِمْ . فلا يُؤْمِنـونَ إلّا قليـلاً ﴾[4] وقال تعـالى : ﴿ فبُهِتَ الذي كَفَـرَ . والله لا يَهدي القَـومَ الظالمـينَ ﴾[5] وقـال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكم كَثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً . وضاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ . ثم وَلَّيْتُمْ مُـدْبِرينَ ، ثم أنـزل الله سكينَتَهُ عـلى رسولـهِ وعلى المؤمنـينَ وأنـزلَ جُنـوداً لم تَرَوْها . وَعذَّبَ الذينَ كفَروا ﴾[6] .

وقـال تعالى في النـوعين : ﴿ إذ يـوحى ربُّـك إلى المـلائكـةِ . أني معكم . فثَبِّتـوا الـذينَ آمَنوا . سأُلقي في قلوبِ الذين كفَروا الـرعبَ . فاضْـرِبوا فـوْقَ الأعناقِ ، واضْـربوا منهم كـلَّ بنـان . ذلكَ بـأنّهم شاقّـوا الله ورسولَـهُ ﴾[7] وقال تعـالى : ﴿ سنُلقي في قلوب الـذين كَفَـروا الرعبَ بما أشرَكوا بالله ما لم يُنزِّل به سُلْطاناً ، ومأواهُمُ النارُ . وبئس مثْوى الظالمين ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ هو الذي أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارهم لأوَّلِ الحشرِ ، ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يخرجوا وظنّوا أنهم مانِعَتُهُمْ حصونهم مِنَ الله فأتاهُمُ الله مِنْ حيثُ لم يحتسِبوا وقذفَ في قلوبِهِمُ الرعبَ ، يُخْربونَ بيوتَهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنينَ ، فاعْتَبِروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كَتبَ الله عليهِمُ الجلاء لَعَذّبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النارِ ، ذلكَ بأنّهم شاقّوا الله ورسولَهُ، ومَنْ يُشاقِّ الله فإن الله شديدُ العقابِ ﴾[9] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥ .

(٢) سورة الصف الآيات (٥ ـ ٧) .

(٣) سورة البقرة الآية ٨٨.

(٤) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٦) سورة التوبة الآيات (٢٥ ، ٢٦) .

(٧) سورة الأنفال الآيات (١٢ ، ١٣).

(٨) سورة آل عمران الآية ١٥١ .

(٩) سورة الحشر الآيات (٢ ـ ٤).

وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرّوكم إلا أذىً، وإن يُقاتِلوكم يُوَلّوكم الأدبارَ ، ثمّ لا يُنْصَرونَ ، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلّةُ أينما ثُقِفوا ، إلا بحبلٍ مِنَ الله وحبلٍ مِنَ الناسِ ، وباؤ وا بغضبٍ مِنَ الله وَضُرِبَتْ عليهمُ المسكنةُ ، ذلكَ بأنهم كانوا يكفُرونَ بآياتِ الله ، وَيَقْتُلون الأنبياءَ بغيرِ حقّ ، ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعتدونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولّون الذينَ كفروا ، لبِئْسَ ما قدَّمَتْ لهُمْ أنفسهم : أنْ سَخِطَ الله عليهِمْ ، وفي العذاب هُمْ خالِدونَ ، ولَوْ كانوا يُؤْمنون بالله والنبيِّ وما أُنْزِلَ إليهِ ما اتّخَذُوهُمْ أولياءَ ، ولكنّ كثيراً مِنْهُمْ فاسقون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ولَتجِدَّن أقْربَهُمْ مودّةً للذين آمَنوا الذينَ قالوا إنّا نصارى . ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ قِسّيسينَ وَرُهْباناً . وأنهم لا يَسْتَكْبِرونَ ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكُمْ ؟ أولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ الله ! فأصَمَّهُمْ وأعْمَى أبْصارهُمْ ، أفلا يَتدبّرونَ القرآن ! أمْ على قلوبٍ اقفالُها ؟ إن الذينَ ارْتَدّوا على أدبارِهِمْ ، مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهُمُ الهدى : الشيطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وأمْلى لهم . ذلكَ بأنّهم قالوا للذينَ كَرِهوا ما نَزَّلَ الله : سنُطيعُكم في بعضِ الأمرِ : والله يَعْلَمُ إسْرارهُمْ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ الله لئِنْ آتانا مِنْ فضلِهِ لنَصَّدَّقنَّ ، ولَنَكونَنَّ مِنَ الصالحينَ . فلما آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بخلُوا بِهِ ، وَتَوَلّوْا وَهُمْ مُعْرِضونَ . فأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً في قلوبِهِمْ إلى يومِ يَلْقَوْنَهُ ، بما أَخْلَفوا الله ما وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكذبونَ ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ فإنْ رجَعَكَ الله إلى طائفةٍ مِنْهُمْ فاسْتأذَنوكَ للخروجِ ، فقُلْ : لَنْ تخرجوا معي أبداً ، ولَنْ تُقاتلوا معي عَدُوّاً ، إنّكم رَضِيتُمْ بالقُعودِ أوّلَ مَرّةٍ ، فاقعدوا مَعَ الخالِفينَ ﴾[6]. وقال تعالى : في ضد هذا : ﴿وعدكُمُ الله مُغانِمَ كثيرةً تأخُذُونَها ، فعَجَّلَ لكم هذه ، وكفَّ أيديَ الناسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكونَ آيةً للمؤمِنينَ ، ويَهْدِيكُمْ صِراطاً مُستقيماً - إلى قوله - ولو قاتَلَكُمُ الذينَ كَفَرُوا لوَلّوُا الأدبا ر ، ثمّ لا يَجِدون ولياً ولا نصيراً ، سُنَّةَ الله التي قدْ خلتْ مِنْ قبْلُ ، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً ﴾[7] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١١١ ، ١١٢).

(٢) سورة المائدة الآيات (٨٠، ٨١).

(٣) سورة المائدة الآية ٨٢.

(٤) سورة محمد الآيات (٢٢ - ٢٦).

(٥) سورة التوبة الآيات (٧٥ - ٧٧).

(٦) سورة التوبة الآية ٨٣.

(٧) سورة الفتح الآيات (٢٠ - ٣٢) .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم وهذا باب واسع .

فصل

(ذنب الإنسان من نفسه وهو مقدر عليه)

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت ـ وهي مضرة ـ جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات ، وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه ، وإن كانت مقدرة عليه ، فإنه إذا كان الجزاء ـ الذي هو مسبب عنها من نفسه ـ فعمله الذي هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي ﷺ يقول في خطبته : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » (١) .

وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء فقال «قل : اللهم فاطر السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ، أشهد أن لا إله إلا أنتَ . أعوذُ بك من شرِّ نفسي ، وشرِّ الشيطان وشركِهِ ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجرَّه الى مسلم ـ قله إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » .

فقد بين أن قوله «فمن نفسك» يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن الكل بقدر الله .

فصل

(في إبطال احتجاج المعتزلة بالآية)

وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه : (٢)

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ـ حسنة كان ، أو سيئة ـ هو منه ـ لا من الله ، بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ، لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة بها السيئات ، وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

---

(١) جزء من حديث كان الرسول ﷺ يقوله في خطبة الحاجة وأوله : الحمد لله نستعينه ونستغفره . . الخ رواه الإمام أحمد في سنده انظر : ط دار المعارف ٥/ ٢٧١ حديث رقم ٣٧٢٠ ، وذكره ايضاً الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم .

(٢) يريد بالقدرية هنا المعتزلة وأسلافهم من القائلين بأن الانسان خالق أفعاله بقدرته المستقلة عن قدرة الله .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

ولكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاء كما يقوله أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله ، ولا كل السيئات بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال : « كلٌ من عندِ الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال . بل في الجزاء .

وقوله بعد هذا : ﴿ ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة ﴾ مثل قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله :﴿وإن تصبهم سيئة ﴾.

(ولا حجة فيها للمجبرة أيضاً)

الثالث : أن الآية اريد بها : النعم ، والمصائب ـ كما تقدم وليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب ، فإن قوله :﴿كل من عند الله ﴾هو النعم والمصائب ، ولأن قوله :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ حجة عليهم وبيان أن الانسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات ـ عملها وجزائها ـ فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله ـ فالنعم من الله ، سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء ـ وهي من الله ـ: فالعمل الصالح الذي كان سببها : هو أيضاً من الله أنعم بها الله على العبد ، وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه ـ لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي ، عن الله ـ: «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنّ إلا نفسه »(١) وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمّا أصابَتْكُمْ مصيبةٌ قَدْ أصبْتُمْ مِثْلَيْها . قلتم : أنّى هذا ؟ قلْ : هُوَ مِنْ عندِ أنفسِكم ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وإنْ تَصبهُمْ سيئةٌ بما قدّمَتْ أيديهِم إذا هم يَقنطونَ ﴾(٣) . وقال

---

(١) هذا جزء من حديث قدسي أوله . يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي . . . الحديث ، والحديث برواية أبي ذر رضي الله عنه ، أورده مسلم ١٦/٨ ـ ١٨ (كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم)، سنن ابن ماجه ١٤٢٢/٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة) وانظر جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم ص ١٤٨ تعليق ١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

تعالى : ﴿ ظهرَ الفسادُ في البر والبحر بما كسَبَتْ أيدي الناسِ ، ليُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعَّلهم يَرجِعُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظَلَمُوا أنفسهم ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ وما ظلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا هُمُ الظالمينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ لأمـلأنَّ جهنَم منكَ وممن تَبِعكَ منهم أجمعين ﴾[4] وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ ولكنّ الله حبَّبَ إليكمُ الايمانَ وزيَّنهُ في قلوبِكم . وكرَّهَ اليكمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئكَ هُمُ الراشدون ﴾[5] وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة : ﴿ اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ . صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ ، غيرِ المغضوبِ عليهِم ولا الضّالينَ ﴾ .

فصـــل

(ليس في الآية تناقض)

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالاً ، أو تناقضاً في الظاهر ، حيث قال﴿كل من عند الله﴾ ثم فرق بين الحسنات والسيئات ، فقال :﴿ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية .

وليس في الآية تناقض ، لا في ظاهرها ، ولا في باطنها ، لا في لفظها ولا معناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد ما ذكره بقوله : ﴿أينما تكونوا يدْرِكْكُمْ الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدةٍ ، وإن تصبْهم حسنةٌ يقولوا : هذه من عندِ الله ، وإن تصبْهم سيئةٌ يقولوا هذه من عندِك ﴾[6] هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هي المصائب ، والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب : هو امرهم بها .

وقولهم﴿من عندك﴾تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد .

وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطير ، أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه وكما قال أهل القرية للمرسلين . ﴿ إنا

---

(١) سورة الروم الآية ٤١ .

(٢) سورة هود الآية ١٠١ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٧٦.

(٤) سورة ص الآية ٨٥.

(٥) سورة الحجرات الآية ٧.

(٦) سورة النساء الآية ٧٨.

تطيَّرْنا بكم ﴾[1] وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه . ﴿ أطَّيَرْنـا بِكَ وَبِمَنْ مَعَـكَ ﴾[2] فكانوا يقولون عـما يصيبهم ـ من الحرب والـزلزال والجـراح والقتل ، وغـير ذلك مما يحصل من العدو ـ: هو منك ، لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك ، ويقـولون عن هـذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ، أي بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك . أصابتنا هـذه المصائب ، كـما قال تعالى : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يعبدُ الله على حَرْفٍ ، فـإنْ أصابَـهُ خيرٌ اطْمـأَنَّ بِهِ وإنْ أصـابَتْهُ فتنةٌ انْقلبَ على وجْهِهِ ، خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾[3] .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث بـه ، مسبباً لشـر اصابـه . إما من السماء ، وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون . لم يقولوا :﴿هذا من عندك﴾ بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسـول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك ، ولم يكن قـولهم «من عندك﴾خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ .

ومن فهم هذا تبين له أن قوله : «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئـة فمن نفسك﴾لا يناقض قوله : «كل من عند الله » بل هو محقق لـه ، لأنهم ـ هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة ـ يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمـل : به سببـاً لما قـد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمـر الله به ، ولـو كان ممـا أمر الله به لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ، لكن يقدحون في القضية المعينة . فيقولون هذا بسوء تدبير الـرسول ، كما قال عبد الله بن ابي بن سلول يوم أحـد ـ إذ كان رأيـه مع رأي النبي ﷺ : أن لا يخرجوا من المدينة ـ فسأله ﷺ ناس ممن كان لهم رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيتـه ولبس لأمته ، فلما لبس لأمتـه ندمـوا . وقالـوا للنبي ﷺ : «أنت أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينـزعها ، حتى يحكم الله بينـه وبين عدوه »[4] يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج . لا يجوز ترك مـا شرع فيـه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحج .

---

(١) سورة يس الآية ١٨ .

(٢) سورة النمل الآية ٤٧ .

(٣) سورة الحج الآية ١١ .

(٤) أنظر تصيل موقف عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله ﷺ في واقعه أحد ومـوقف بعض الصحابـة في : ابن إسحاق ٥٨٢/٣ ـ ٥٨٤ . ط الحلبي ، وقد ذكر ابن إسحاق موقف الصحابة بالتفصيل وجاء فيه : قالوا يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد . . . فقال لهم الرسول ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

فصـــل

والمفسرون ذكروا في قوله :﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال : بسوء تدبيرك - يعني كما قاله عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد - وهم كالذين ﴿ قالوا لإخوانِهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾[1] .

فبكل حال : قولهم :﴿من عندك﴾هو طعن فيما أمر الله به ورسوله من الإيمان والجهاد ، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم ، فيقول الكافرون . هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين :﴿إنا تطيرنا بكم﴾ وكما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ فإذا جاءَتْهم الحسنةُ ، قالوا . لنا هذه . وإن تصبْهم سيئةٌ يطَّيروا بموسى ومن معه ، ألا إنّما طائرهُم عندَ الله ، ولكنَّ أكثرهم لا يَعلمونَ ﴾[2] وقال تعالى عن قوم صالح : ﴿ قالوا اطَّيّرْنا بكَ وبِمَنْ مَعَكَ . قالَ : طائركم عندَ الله . بلْ أنتم قومٌ تُفْتَنونَ ﴾[3] .

ولما قال أهل القرية : ﴿ إنا تطَّيرْنا بكُمْ ، لئِنْ لم تَنْتَهُوا لنَرْجُمَنَّكُمْ ، ولَيَمَسَّنَّكم منا عذابٌ أليمٌ ، قالوا . طائركم معكم . أئن ذُكِّرتم ، بل أنتم قومٌ مُسرفونَ ﴾[4] .

قال الضحاك، في قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله﴾يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابكم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديكم . وقال ابن أبي طلحة . عن ابن عباس «معايبكم» وقال قتادة . «عملهم عند الله » .

وفي رواية غير علي : عملكم عند الله «ولكنكم قوم تفتنون » أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبي حاتم وغيره .

وعن أبي إسحاق قال : قالت الرسل . «طائركم معكم » أي أعمالكم .

فقد فسروا «الطائر» بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون . إنما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه : أن طائرهم - وهو الأعمال وجزاؤ ها - هو عند الله وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم . كما قال تعالى : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألـزَمْنَاهُ طائرةُ في

---

(١) انظر أقوال السلف في تفسير الطبري ١٠٣٥ - ١٠٥ ط الميمنية .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣١ .

(٣) سورة النمل الآية ٤٧ .

(٤) سورة يس الآيات (١٨ - ١٩).

عُنقِهِ ﴾(1) وهو من الله . لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل واتباعهم .

وفي هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال في هذه الآية ـ لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا ـ بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبه تلك المصائب ، وعلى من انتسب الى الإيمان بالرسول ، ونسبها الى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها الى ما جاء به الرسول .

فصـــل

والمقصود : أن قوله : ﴿إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله﴾ فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله ، لا من عند محمد ، محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا : ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟﴾ .

قال السدي وغيره : هو القرآن ، فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه تبين لهم أنه إنما أَمَرَهم بالخير ، والعدل والصدق، والتوحيد ، لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب ، فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنة ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك أنه قال : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن

---

(1) سورة الإسراء الآية ١٣ .

نفسك ﴾ قال بعدها : ﴿وأرسلناك للناس رسولاً . وكفى بالله شهيدا ﴾ فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : «ما من غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكَ بأنه لا يُصيبهُم ظَمأٌ ، ولا نصبٌ ، ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ الله ولا يَطَؤُونَ مَوْطئاً يغيظُ الكفارَ ولا يَنالونَ من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، إنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنِينَ ﴾(١) .

وشواهد هذا كثيرة .

فصـــل

والمقصود : أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه ، والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى : ﴿ وتلكَ الأيامُ نُداولُها بينَ الناسِ ، وليَعْلَم الله الذينَ آمَنوا ، ويتخذَ منكم شهداء ، والله لا يحبُ الظالمين . وليُمحِّصَ الله الذينَ آمَنوا ، ويَمْحَقَ الكافرين ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وليَبْتَلَى الله ما في صدورِكُمْ . وليُمَحِّصَ ما في قلوبكُمْ ﴾(٣) ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه :﴿طائرُكم عندَ الله ، بل أنتم قومٌ تُفتنون﴾ .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشبه التي هي عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته والله تعالى قد شهد له :

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٤٠ ـ ١٤١) .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

أنه أرسله للناس رسولاً . فكان ختم الكلام بهذا إبطالاً لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿مَنْ يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله . ومَنْ تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ .

فصل

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم[1]، من يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .

والقرآن لم يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهي حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاه القدر : إنما قال في الحسنة «هي من الله» وفي السيئة «هي من نفسك» لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه . وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية ، فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا «الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك» أرادوا : من عندك يا محمد ، أي بسبب دينك ، فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب ، وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : أن الطاعة والمعصية ـ مما قد قيل ـ كان قوله﴿كل من عند الله﴾ حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾لا ينافي ذلك . بل «الحسنة» أنعم الله بها وبثوابها . و«السيئة» هي من نفس الإنسان ناشئة ، وإن

---

(١) يقصد ابن تيمية بالجهمية المجبرة هنا الأشاعرة : وخاصة من يقول منهم أن الله يفعل لا لحكمة ، وأنه قد يثيب العاصي ويعذب الطائع .

كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى ﴿ من شر ما خلق ﴾[1] فمن المخلوقات ما له شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

فصل

(الحسنة من الله)

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة فما الفرق بين الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عبادة تقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر . وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشيء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً ، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل ، وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعلمه .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الحمدُ لله الذي هَدانا لَهذا . وما كنّا لنهتدي لولا أنْ هَدانا الله ﴾[2] .

وفي الحديث الصحيح : «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[3] .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته ، ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به ، هو من نعمته ، وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته ، كما قال تعالى : ﴿ ولكنّ الله حَبّبَ اليكمُ الايمانَ ، وزَيَّنهُ في قلوبِكُمْ . وكَرَّه إليكمُ

---

(١) سورة الفلق الآية ٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٣) جزء من حديث قدسي أوله «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي». وسبق تحقيق الحديث .

الكفر والفُسوقَ والعِصيانَ أولئك همُ الراشدونَ. فضلاً مِنَ الله ونعمةً ﴾[1] .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله «ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما «السيئة» فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصـــــل
(الاستعاذة من شر النفس)

فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله ، فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان ﷺ يقول في خطبته : «الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول : «نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول : «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستغيذ به من الشر الذي في النفس ، ومن عقوبة عمله ، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه ، فيستعيذ بالله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانة على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ؛ بعد أن جمع بينهما في قوله :﴿ قل كلٌّ مِنْ عندِ الله ﴾ .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في ﴿ من عند الله ﴾ .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم ،

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧.

وهذا الشر من ذنوبكم . فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وما كانَ الله ليُعَذِّبهُمْ وأنت فيهم . وما كان الله مُعذبهُمْ وهم يستغفِرون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ آلر كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ، ثمّ فصِّلت مِنْ لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ أن لا تعبدوا إلا الله . إنّني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ، وأن اسْتَغْفروا ربَّكُمْ ثم توبوا إليه ، يُمَتِّعْكُمْ متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ، ويُؤْتِ كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَهُ ﴾[2] .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره ، وإذا أصر واحتج بالقدر: فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول : «اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو اجره الى مسلم » .

فيستغفر مما مضى ، ويستعيذ مما يستقبل ، فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله ـ الجزاء والعمل ـ سأله أن يعينه على فعل الحسنات ، بقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وبقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله: ﴿ ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هَدَيْتنا ﴾[3] ونحو ذلك :

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من هذه التسوية ، إعراض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه : أن يحتج على الله بالقدر ، وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فبما أغْوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ ﴾[4] وقال : ﴿ ربِّ بما أغْوَيْتَني لأزيِّنَنَّ لهمْ في الأرضِ ولأغوِيَنَّهُمْ أجمعين ﴾[5] .

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لو أن الله هداني لكنتُ من المتّقينَ ﴾[6] . وكالذين

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣.

(٢) سورة هود الآيات (١ ـ ٣).

(٣) سورة آل عمران الآية ٨.

(٤) سورة الأعراف الآية ٦ .

(٥) سورة الحجر الآية ٣٩.

(٦) سورة الزمر الآية ٥٧.

قالوا : ﴿ لَوْ شاء الله ما أشركنا ولا آباؤ نا ولا حرَّمْنا من شيءٍ ﴾[1] .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصـــل

(الله يضاعف الحسنة من كل وجه)

الفرق الثالث ـ أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على الهمّ بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهمّ بها ، فيعطي صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل . وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أمْثالها ، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجْزَى إلا مِثْلها ، وهُمْ لا يُظلمونَ ﴾[2] .

الفرق الرابع ـ أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة اليه . وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه . فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح : «والخير بيديك ، والشر ليس إليك »[3] فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير ، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئي إضافي ، فإما شر كلي . أو شر مطلق ، فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

وأما الشر الجزئي الإضافي : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر اليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله : ﴿ وخلقَ كلَّ شيءٍ ﴾[4] .

وإما أن يضاف الى السبب كقوله : ﴿ مِنْ شرِّ ما خَلَقَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٠ .

(٣) دعاء الاستفتاح رواه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب ٢/١٨٥ . (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه) : وفيه : لبيك وسعديك . الخير بيديك والشر ليس إليك » وأنظر كذلك : مسند ابن حنبل ١/١٣٤ (ط دار المعارف) حديث رقم ٨٠٢ ـ ٨٠٥ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٢ .

(٥) سورة الفلق الآية ٢ .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمَنْ في الأرضِ ، أم أراد بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾(١) .

* * *

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل :

فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة ، بل قالت إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة وما ثم فعل تنزه عنه ، بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله وجوزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذب الأنبياء ، وينعم [على] الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول. قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرحوا السيئاتِ : أَنْ نَجعلهُمْ كالذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سواءً مَحياهُمْ وَمَماتُهُمْ ؟ ساء ما يَحكمونَ ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرمينَ ؟ ما لكم كيفَ تحكمونَ ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرض ، أَمْ نَجعَلُ المتَّقينَ كالفُجّار ﴾(٤) ونحو ذلك ، يوجب أن يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما ، فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ، يكون شراً كلياً عاماً ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خير ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضي : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

---

(١) سورة الجن الآية ١٠ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢١ .

(٣) سورة القلم الآيات (٣٥ ، ٣٦).

(٤) سورة ص ا الآية ٢٨ .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم . خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها الى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول ـ أي يدعي ـ أنه نبي : فلو أيده الله تأييد الصادق ، للزم ان يسوي بينه وبين الصادق ، فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبؤون الكاذبون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم ، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ ولَوْ تَقَوَّل علينا بعض الأقاويلِ ، لأخذْنا منهُ باليمين ، ثم لَقَطَعْنا منهُ الْوَتِينَ ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ أَمْ يقولونَ افْتَرَى على الله كَذِباً . فإنْ يَشَإِ اللهَ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾(٢) فأخبر أنه ـ بتقدير الإفتراء ـ لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس ، فاستدلت القدرية النفاة(٣) والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة امره ، جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الإضافي والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

---

(١) سورة الحاقة الآيات (٤٤ ـ ٤٦).

(٢) سورة الشورى الآية ٢٤ .

(٣) يقصد بالنفاة المعتزلة وموقفهم من قضية العدل الإلهي والحكمة الإلهية .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة[1] : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص ، وإنما يعلم أنه لا يفعل ما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل ، بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها الى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجزة فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم - مع الكفر بالأنبياء - أن لا يعلم الفرق ، لا يسمع ولا يعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها ، بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالإضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع وبين خطأ الطائفتين ، وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الخبر - ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها . هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول ، كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل

(الشر لا يضاف الى الله إلا على وجوه)

والمقصود هنا : الكلام على قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وأن هذه تقتضي : أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف الى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة الأقسام الثلاثة ، هو سبحانه : الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء . وفي الصحيح

---

(١) يقصد بهم الأشاعرة وموقفهم من قضية القدرة والإرادة الإلهية .

وعن النبي ﷺ «أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها»(١) وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ﴾(٢) .

وقد قال سبحانه : ﴿ نبِّىءْ عِبادي : أنّي أنا الغفُور الرحيمُ ﴾(٣) ثم قال : ﴿ وأنّ عذابي هُوَ العذابُ الأليمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أنّ الله شديدُ العقابِ وأنَّ الله غَفُورٌ رحيمٌ ﴾(٤) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ، فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

وقوله﴿وما اصابك﴾إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله ﴿ يا أيُّها الإنسانُ ، ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريمِ ﴾(٥) .

لكن هذا ضعيف ، فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه ، وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه ، فلو أريد ذكرهم لقيل : «ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم ، وإذا كان هذا حكمة كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى ، كما في مثل قوله : ﴿ اتّقِ الله ولا تُطِعَ الكافِرينَ والمنافقينَ ﴾(٦)

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٨/٨ (كتاب الأدب . باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) وفيه : قدم على النبي ﷺ سبي ، فإذا أمرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى إذا وجدت صبياً في السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ﷺ : أترون هذه طارحة ولدها في النار .؟ قلنا : لا . وهي تقدر على ألا تطرحه : فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها . وانظر أيضاً سنن ابن ماجه ١٤٣٦/٢ ، جامع الرسائل ص ١٢٧ تعليق ١ .

(٢) سورة النحل الآية ٥٣.

(٣) سورة الحجر الآيات (٤٩ - ٥٠).

(٤) سورة المائدة الآية ٩٨.

(٥) سورة الانفطار الآية ٦ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٢ .

وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ اشركْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أَنْزَلْنا إليك فأسألِ الذين يقرؤ ون الكتابَ مِنْ قبلِكَ ﴾ (٢) .

(خطاب القرآن نوعان)

ثم هذا الخطاب نوعان . نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله : ﴿ يا أَيُّها النبيُّ لم تُحَرِّمْ ما أحلَّ الله لكَ ، تبتغي مرضاةَ أزواجِكَ ﴾ ثم قال : ﴿ قدْ فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانِكُمْ ﴾ (٣) .

ونوع : قد يكون خطابه به خطاباً لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين ، الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه ما نهي عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمر للأمير : سافر غداً الى المكان الفلاني . أي أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ الخطاب له ﷺ وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله : ﴿وأرسلناك للناسِ رسولاً﴾ فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب كما قال ﷺ : «بلِّغوا عني وَلَوْ آيةً »(٤). وقال : «نضَّرَ الله امرءاً سمِعَ منّا حديثاً فبلَّغهُ إلى مَنْ لم يَسْمَعْهُ »(٥) ، وقال : «لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ »(٦)، وقال: «إنّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ »(٧)، وقد قال تعالى في القرآن : ﴿ وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾(٨) .

* * *

والمقصود هنا : أن «الحسنة» مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و«السيئة» مضافة إليه

(١) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٢) سورة يونس الآية ٩٤.

(٣) سورة التحريم الآيات (١، ٢).

(٤) ورد الحديث في البخاري (كتاب الأنبياء) باب الترمذي (كتاب العلم)، الدارمي في المقدمة ، ابن حنبل ١٠٤/٣.

(٥) رواه ابن ماجه في المقدمة وفي (كتاب المناسك) .

(٦) ورد الحديث في البخاري ٢٦/١، ٣٧ (كتاب العلم . باب قول النبي رب مبلغ أوعى من سامع)، مسلم (كتاب الحج) ، ترمذي (كتاب الحج)، النسائي (الحج) ، ابن ماجه (مقدمة) . ابن حنبل ٥٢١/٤.

(٧) ورد الحديث في البخاري ٢٦/١ ، ٢٧ (كتاب العلم . باب العلم قبل القول والعمل) .

(٨) سورة الأنعام الآية ١٩.

لأنه خلقها كما خلق «الحسنة» فلهذا قال :﴿كل من عند الله﴾ . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : ﴿ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة﴾ النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه ـ لأنه أذنب ـ فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب ، وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله :﴿كل من عند الله » كما تقدم ، لأنها لا تضاف الى الله مفردة ، بل إما في العموم ، كقوله :﴿كل من عند الله﴾

وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا «الضار النافع ، المعطي المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ إنّا مِنَ المجرمينَ منتقمون ﴾[1] .

وكل ما خلقه ـ مما فيه شر جزئي إضافي ـ ففيه من الخير العام الحكمة والرحمة أضعاف ذلك .

مثل : إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والإعتبار بقصة فرعون ـ ما هو إلا خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به . كما قال تعالى : ﴿ فلمّا آسفُونا انْتقَمْنا منهم فأغْرقْناهُمْ أجمعينَ . فجعلناهُم سلفاً ومَثَلاً للآخِرينَ ﴾[2] وقال تعالى : بعد ذكر قصته : ﴿ إنّ في ذلك لعبرةً لَمَنْ يخشى ﴾[3] .

وكذلك محمد ﷺ . شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ، ولكن سعد بها أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقي به من أهل الكتاب كانوا مبدلين مجرمين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ ، فأهلك الله بالجهاد طائفة ، واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ، لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٢ .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٥٥،٥٦) .

(٣) سورة النازعات الآية ٢٦ .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي ، لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً ، إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالأضافة .

فصل

(الثواب على فعل الحسنة حبّا لها)

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته الحسنة وقدرته وخلقه ، ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودي ، وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهي عنه والترك : أمر وجودي . فترك الإنسان لما نهي عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هوِيَته ، وأشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات ـ كالعدل والصدق ـ حسنة وفعله لها أمور وجودية .

(وعلى ترك السيئة كرهاً لها)

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبّاً لها بنية . وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها قال تعالى : ﴿ ولكنّ الله حبّب إليكُمُ الايمانَ ، وزَّينهُ في قلوبِكُمْ ، وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك همُ الراشدونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وأمّا منْ خافَ مقامَ ربِّه ونَهَى النّفس عنِ الهَوَى فإنّ الجنةَ هيَ المَأْوَى ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إنّ الصلاةَ تَنْهَى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ ﴾[3] .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧٧.

(٢) سورة النازعات الآية ٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكرهُ أن يرجعَ في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكرهُ أن يُلقى في النار »(١) .

وفي السنن عن البـراء بن عازب عن النبي ﷺ : «أوثق عـرى الإيمـان : الحب في الله ، والبغض في الله »(٢) .

وفيهـا عن أبي أمامـة عن النبي ﷺ : «من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنـع لله ، فقد استكمل الإيمان »(٣) .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «من رأى منكم منكـراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(٤) .

وفي الصحيـح من حـديث ابن مسعـود رضي الله عنـه ـ لما ذكـر الخلوف ـ قـال : «من جـاهدهم بيـده فهو مؤمن ، ومن جـاهدهم بلسـانه فهـو مؤمن ، ومن جـاهـدهم بقلبـه فهـو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »(٥) .

وقـد قال تعالى : ﴿ قدْ كـانَتْ لكم أسوةٌ حسنـةٌ في إبراهيمَ والـذينَ معَـهُ . إذا قـالـوا لقـومِهِمْ : إنّا بُـرآءُ منكم ومما تَعبـدون مِنْ دونِ الله . كفَرْنـا بكم . وبدا بَيْنَنـا وَبَيْنَكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحدَهُ ، إلّا قولَ إبراهيمَ لأبيهِ : لَأستغفـرنَّ لكَ ، ومـا أمْلكُ لكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ﴾(٦) .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إنني بَراءٌ مّمّا تعبدونَ ، إلّا الذي فَطَرني ، فإنه سَيَهدينِ ﴾(٧)
وقال : ﴿ أَفرَأيْتُمْ ما كنتم تعبدونَ أنتم وآباؤكم الأقدمونَ ؟ فإنهم عدوٌ لي، إلّا ربَّ العالمينَ ﴾(٨)

---

(١) ورد الحديث في البخاري ١/ ١٠ (كتاب الإيمان ، بـاب حـلاوة الإيمـان) ، مسلم (كتـاب الإيمـان)، النسـائي (كتـاب الإيمان) .

(٢) رواه ابو داود في (كتاب السنة) .

(٣) ورد الحديث في : أبو داود (كتاب السنة) الترمذي (كتاب القيامة) ابن حنبل ٣/ ١٢٨ .

(٤) ورد الحديث في مسلم ١/ ٣٩ (كتاب الإيمان ، كون النهي عن المنكر من الإيمان) ، أبـو داود (الملاحم) التـرمذي (كتـاب الرؤيا)، النسائي (الإيمان) ابن حنبل ٣/ ٤ .

(٥) ورد الحديث في : البخاري في مواضع مختلفة انظر مثلاً ١/ ٢٢ (كتاب العلم)، مسلم ١/ ٣٩ ـ ٤٠ (كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان) والترمذي (كتاب الرؤيا)، النسائي (كتاب الإيمان) ، الدرامي (كتاب الرؤيـا) الموطأ (كتاب الرؤيا) ، ابن حنبل ٣/ ١٠٤ والحديث من رواية أبي رافع عن عبد الله بن مسعود عن الرسول ﷺ .

(٦) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٧) سورة الزخرف الآيات (٢٦ ، ٢٧) .

(٨) سورة الشعراء الآية ٧٥ .

وقال : ﴿ فلمّا أَفَلَتْ ، قالَ : يا قومِ إني بريءٌ مما تُشركونَ . إني وجَّهْتُ وَجْهي للذي فطَر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المشركينَ ﴾ (١) .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ، ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه : أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول : «لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلاً صادقاً . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلا يعبد إلا الله . ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره . ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ويبغض المتوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب وهي الحسنات التي يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحبها ولا يبغضها - فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات ، ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها ، فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لا ثواب ولا عقاب .

لكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

(تنازع العلماء في الترك)

وقد تنازع الناس في الترك . هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة - كأبي هاشم ابن الجبائي - إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه ويسمون «الذمية» لأنهم رتبوا الذم على العدم لمحض .

والأكثرون يقولون : الترك أمر وجودي ، فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع ، فهذا الامتناع أمر وجودي . ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل

---

(١) سورة الأنعام الآيات (٧٨ ، ٧٩) .

عـن عبادة الله وحده بعبادة غيره فيعاقب على ذلك .

(الانسان إما موحد وإما مشرك)

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أنه يكون عابداً لغيره ، يعبـد غيره فيكـون مشـركاً . وليس في بني آدم قسم ثالث ، بـل إما مـوحد ، أو مشـرك ، أو من خلط هذا بهـذا كالمبدلين من أهل الملل . النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام . قـال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم . إنهُ ليس لهُ سلطانٌ على الذين آمنوا ، وعلى ربِّهم يتوكلونَ إنما سلطانُهُ على الذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ والذينَ هُمْ بِهِ مُشـركونَ ﴾[1] . وقـد قـال تعالى : ﴿ إنَّ عبـادي ليسَ لكَ عليهِمْ سلطانٌ إلّا من اتّبعَـكَ مِنَ الغاوينَ ﴾[2] . لمـا قال إبليس ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لهُمْ في الأرضِ ، ولأُغْـوِيَنَّهُمْ أجمعـينَ . إلّا عبـادَكَ منهُم المخلَصـينَ ﴾ قـال تعالى : ﴿ إن عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ إلّا من اتّبعكَ منَ الغاوينَ ﴾[3] .

فـإبليس لا يغوي المخلصـين . ولا سلطان له عليهم . إنمـا سلطانـه عـلى الغـاوين وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ صفتـان لموصـوف واحد فكـل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُمْ يا بني آدمَ : أنْ لا تَعبدوا الشيطانَ ؟ إنَّهُ لكُمْ عدوٌ مبينٌ . وأَنْ أعْبُدوني . هذا صراطٌ مستقيمٌ ﴾[4] .

وكل من عبد غير الله فأنما يعبد الشيـطان ، وإن كان يـظن أنه يعبـد الملائكـة والأنبياء . وقال تعالى : ﴿ ويومَ يحشرُهمْ جميعاً ، ثمّ يقولُ للملائكةِ: أهَؤُلاء إياكُم كانوا يَعْبدونَ ؟ قالوا : سُبحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا من دونِهِمْ . بل كانوا يعبدونَ الجنَّ ، أكثرهُم بهم مؤمنونَ ﴾[5] .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم فيظنون أن الـذي خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكاً من الملائكـة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكـة ،

---

(١) سورة النحل الآيات (٩٨ ـ ١٠٠).

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢.

(٣) سورة الحجر الآيات (٣٩ ـ ٤٠) .

(٤) سورة يس الآيات (٦٠ ـ ٦١).

(٥) سورة سبأ الآيات (٤٠ ، ٤١).

مثل ميططرون وغيره . إنما هي أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء الأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبي . أو الصالح الذي دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجري لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به في صورة آدمي راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث أنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أو رقيقته تشكل ، أو يقول إنه ملك جاء على صورته . وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه ، فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن انه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك . وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً في كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن ، وإما عباد للشيطان . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ، وإنهم ليَصُدّونَهُمْ عن السبيلِ ويَحسبونَ أنَّهُمْ مُهتدون . حتى إذا جاءَنا قال : يا ليتَ بَيْني وبيْنَكَ بُعْدَ المشرقَيْنِ . فبئسَ القرينُ . ولنْ ينفعكُمْ اليومَ إذْ ظلمْتُمْ أنكُمْ في العذاب مُشتركون ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنُوا والذين هادوا والصابئينَ والنصارى والمجوسَ والذينَ أشرَكوا ، إنّ الله يفصِلُ بينهُمْ يومَ القيامَةِ إنّ الله على كلِّ شيءٍ شهيدٍ ﴾(٢) .

فبنو آدم منحصرون في الأصناف الستة ، وبسط هذا له موضع آخر .

فصـــل

(الثواب أو العقاب يكون على أمر وجودي)

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ؛ كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك ـ أمر وجودي .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

(٢) سورة الحج الآية ١٧ .

وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله - أمر وجودي .

قال تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنَةِ فَلَهُ خيرٌ منها ، وَمَنْ جاءَ بالسيئة فلا يُجزى الـذينَ عملوا السيئـاتِ إلاّ ما كـانـوا يَعْملون ﴾[١] . وقـال تعـالى : ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم . وإن أسأتُمْ فلَهَا ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ مَنْ عملَ صالحاً فلنفسِهِ وَمَنْ أسـاءَ فَعَلَيْهَا ﴾[٣] وقـال تعالى : ﴿ للذينَ أحسنوا الحسنى وزيادةٌ . ولا يَرْهَقُ وجوهَهُمْ قترٌ ولا ذِلّةٌ . أولئك أصحاب الجنـةِ هُمْ فيها خالدون . والذينَ كَسَبوا السيئـاتِ جزاءُ سيئـةٍ بمثلها . وَتَـرْهَقُهُمْ ذِلّةٌ - إلى قـوله - أولئـك أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدونَ ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ ثمّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤ وا : السُّوأى ، أن كذَّبوا بآياتِ الله . وكانوا بِهِ يستهزؤ ونَ ﴾[٥] .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملاً ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمـات ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزيـر ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصـول الآخر وفـروعه - فـإذا آمن ولم يفعل هـذه المحرمـات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده: أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلـك - مع دعـاء النفس إليه - أثيب ثواباً آخر ، كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهـاها كـالصائم الـذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التي هي ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فـالحسنات التي يثـاب عليها كلهـا وجوديـة ، نعمة من الله تعـالى ، وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذي حبب الإيمان الى المؤمنين ، وزينة في قلوبهم . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

---

(١) سورة القصص الآية ٨٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧.

(٣) سورة فصلت الآية ٤٦.

(٤) سورة يونس الآية ٢٦، ٢٧ .

(٥) سورة الروم الآية ١٠.

فصــــل
(منشأ السيئات عدم العلم النافع)

وأما السيئات : فمنشؤها الجهل والظلم ، فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه اليها .

ولا يترك حسنة واجبة الا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفي الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع الى الجهل ، وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك : لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ، ومن لم يعلم أن هذا يضره ، كالصبي ، والمجنون ، والساهي ، والغافل ـ فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره ـ مع علمه بما فيه من الضرر عليه ـ فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن وإما في المظنون ، كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح . فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

كذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق ، وكذلك الزاني : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن ، والشارب يختلف حاله . فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ، ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي الى القتل . إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث . كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً . فيبقى غافلاً غير مستحضر للتحريم ، والغفلة من أضداد العلم [١] .

---

(١) لعل في شرح ابن تيمية لمنشأ السيئات ، وارتكاب المعصية ما يلفت نظر القائمين على شؤون العالم الإسلامي وحكوماته إلى ما في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية من قيم اجتماعية هي عماد البنيان الاجتماعي السليم . وإن كان الشرع قد صاغها في أسلوب ديني فإن ذلك يؤكد لنا مرة أخرى ما ندعو إليه وهو أن الإسلام كدين يحتضن في شموليته المجتمع ومصالحه فيسهر على أمره ويضع له من القوانين ما يكفل له المصلحة أفراداً وجماعات دنيا ودين . فلو أن السارق أو قاطع الطريق أيقن أن الحد سوف يناله لا محالة لما أقدم أي منهم على جريمته .

فصـــل

(مصدر الشر . . الجهل . . . واتباع الهوى)

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قـال تعالى : ﴿ ولا تُـطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قلبَـهُ عَنْ ذكرنـا واتَّبَعَ هـواهُ . وكانَ أمـرُهُ فُرُطـاً ﴾[1] والهوى وحـده لا يستقل بفعـل السيئات إلا مـع الجهـل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصـرفت نفسه عنـه بالـطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى ، وذو حجى .

ولهـذا كان البـلاء العظيم من الشيـطان ، لا من مجرد النفس ، فـإن الشيطان يـزين لهـا السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن ، التي هي منافع لا مضـار . كما فعـل إبليس بآدم وحواء . فقال : ﴿ يا آدمُ هلْ أَدُلُّك عـلى شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْـلى . فأكـلا منها فَبَدَتْ لهما سَوْآتُهُما ﴾[2] ﴿ وقالَ : ما نَهاكُـما ربُّكُما عَنْ هـذِهِ الشجرةِ إلاَّ أَنْ تَكـونا مَلَكَـيْنِ ، أَوْ تكونا مِنَ الخالدينَ ﴾[3] .

لهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذكرِ الـرحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شيـطاناً فهـوَ لهُ قـرينٌ ، وإنّهم لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيلِ ويَحسبـونَ أَنَّهُمْ مُهتدونَ ﴾[4] وقـال تعالى : ﴿ أَفمَنْ زُيِّنَ لَـهُ سُوءُ عَمَلِهِ فرآهُ حَسَناً ؟﴾[5] وقال تعالى : ﴿ ولا تسُبُّوا الذين يَدْعوْن مِنْ دَونِ الله ، فيَسُبُّوا الله عَدْواً بغيرِ علمٍ . كـذلـكَ زيَّنّـا لِكُـلِّ أمـةٍ عَمَلَهُمْ . ثم إلى رَبِّهِمْ مَـرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُمْ بمـا كـانـوا يَعملونَ ﴾[6] .

وقـوله : ﴿زينا لكل أمـة عملهم﴾ هو بتـوسيط تزيـين الملائكـة ، والأنبيـاء ، والمؤمنين للخير . وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وَكَـذلك زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركـينَ

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة طه الآيات ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٣١ .

(٥) سورة فاطر الآية ٨ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

قَتْلَ أولادهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ . وَلِيَلْبِسوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾[1] .

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم : « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إنما التوبةُ على الله للذينَ يَعملونَ السوءَ بجهالةٍ . ثم يتوبونَ مِنْ قريبٍ ﴾[2] كقوله : ﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يؤمِنُونَ بآياتِنا فقُلْ : سلامٌ عَلَيْكُمْ . كَتَبَ ربُّكُمْ على نفسِهِ الرحمَةَ : أنهُ مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ . ثم تاب مِنْ بعدِهِ وأصلحَ . فإنّهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[3] . ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

(اقوال السلف)

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ؟ . ﴿ إنما التوبةُ على الله للذينَ يعملون السوء بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قريبٍ ﴾ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال «أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن : كل من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ـ من شيخ ، أو شاب ـ فهو بجهالة ، وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثماً عمداً : فهو جاهل حتى ينزع منه ، وراهن ابن أبي حاتم . ثم قال : روي عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً » .

وروي عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن من جهالته : حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٣٧ .

(٢) سورة النساء الآية ١١.

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤.

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم ، قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منه ، فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك : قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ مِنْ عبادهِ العلماءُ ﴾[1] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته . فهو عالم . كما قال تعالى : ﴿أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً ؟ يحذرُ الآخرةَ ، ويرجو رحمةَ ربِّه . قُلْ هَلْ يَستوي الذين يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ﴾[2] .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : «كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول في الثاني . وهو مطرد ، وحصر الثاني في الأول نحو قوله : ﴿ إنما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبعَ الذِكرَ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ ﴾[3] وقوله : ﴿ إنما أنتَ منذرُ منْ يخشاها ﴾[4] وقوله : ﴿ إنما يُؤْمِنُ بآياتنا الذينَ إذاذكِّروا بها خرّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بحمد ربِّهِمْ وَهُمْ لا يَستكبِرونَ تَتَجافى جنوبُهُمْ عَنِ المضاجعِ ﴾[5] .

ومن ذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم ، وهذا كالاستثناء فإنه من النفي : إثبات عند جمهور العلماء . كقولنا﴿لا إله إلا الله﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولايشفعونَ إلاّ لِمَنْ ارْتَضى ﴾[6] وقوله : ﴿ ولا تنفعُ الشفاعةُ عندَهُ إلاّ لِمَنْ أَذِنَ لهُ ﴾ وقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ما ذكر ، ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى : فيقولون : نفى الخشية عن العلماء ، ولم يثبتها لهم .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

(٣) سورة يس الآية ١١ .

٤) سورة النازعات الآية ٤٥ .

(٥) سورة السجدة الآيات ١٥، ١٦ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٨ .

والصواب : قول الجمهور : إن هذا كقوله : ﴿إنما حَرّمَ ربِّي الفـواحش ما ظَهـر منها ومـا بطنَ ، والإثمَ والبغي بغير الحقِّ ﴾[1] فإنه ينفي التحـريم عن غير هـذه الأصناف ويثبتهـا لها . لكن أثبتها للجنس . أو لكل واحد ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحـج الا مسلم. وذلك أن المستثنى هـل هو مقتضٍ أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتض ، فهو عام ، فإن العلم بما أنذرت به الرسـل يوجب الخوف ، فإذا كـان العلم يوجب الخشيـة الحاملة عـلى فعل الحسنـات ، وترك السيئـات . وكل عاص فهو جـاهل . ليس بتـام العلم . يبين مـا ذكرنـا من أن أصل السيئـات الجهل ، وعـدم العلم . وإذا كـان كذلـك . فعدم العلم ليس شيئـاً موجـوداً . بل مثـل عدم القـدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لا فاعل له . وليس هـو شيئاً . وإنمـا الشيء الموجـود . والله تعالى خـالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه الى الحسنات وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة ، فإنها حية . والإرادة والحركة الإراديـة من لوازم الحيـاة . ولهذا قـال النبي ﷺ في الحديث الصحيـح : «أصـدق الأسـماء حـارث وهمـام » فكـل آدمي حـارث وهمام . أي عامل كاسب ، وهو همام . أي يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقـد جاء في الحديث : «مثل القلب: مثل ريشة ملقاة بأرض فـلاة ، وللقلب أشد تقلبـاً من القدر إذا استجمعت غلياناً »[2] .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها ، فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها وما يضرها فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصـــــل

(نوعا الهداية : الفطرة ، الوحي)

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين . هما أصل السعادة .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣.

(٢) ورد الحديث في: ابن حنبل ٤/ ٤١٩.

أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟» ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدين حنيفاً . فطرةَ الله التي فطَرَ الناسَ عَلَيْها لا تبديلَ لخَلْقِ الله . ذلكَ الدينُ القيِّمُ ﴾[2] .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى : خلقت عبادي حنفاء . فاجتالهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً »[3] .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدم مِنْ ظُهورهِمْ ذُرِّيتَهُمْ . وأشهدَهُمْ على أنفسِهِمْ ، ألستُ بربِّكم ؟ قالوا : بلى ، شَهِدْنا . أنْ تقولوا يومَ القيامة : إنا كنّا عَنْ هذا غافلينَ ، أو تقولوا . إنما أشركَ آباؤ نا من قبلُ ، وكنّا ذُرِّيَّةً مِنْ بعدِهِم . أَفَتُهْلِكُنَا بما فعل المبطلون ؟»[4] .

وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى : ﴿ اقرأ

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري ١٣٥/٢ . (كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين) كما ذكره البخاري أيضاً بروايات مختلفة طولاً وقصراً في (كتاب التفسير . تفسير سورة الروم) ، (كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين) مسلم ٥٢/٨ ـ ٥٤ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة)، أبو داود ٣١٦/٤ ـ ٣١٨ (كتاب السنة ، باب في ذراري المشركين) ، الترمذي (كتاب القدر)، المسند (ط دار المعارف) ١٦٩/١٢ ـ ١٧٠ حديث رقم ٧٩٦٨.
وانظر منهاج السنة النبوية ٢٣٥/٢ هامش ١ . وفيه قال الأستاذ المحقق :
أما قوله ﷺ : كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ فأكثر أهل اللغة على أن الفعل «نتج» لا يكون إلا مبنياً للمجهول وقال النووي في شرح مسلم: ٢٠٩/١٦ . (جمعاء) بالمد : أي مكتملة الأعضاء سليمة من نقص لا يوجد فيها : (جدعاء) بالمد : وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ، ومعناه : إن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها : وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) ورد الحديث في : مسلم ٥٤٢/٢ ـ ٤٣ ص (كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) ط الحلبي والحديث من رواية عياض المجاشعي عن الرسول ﷺ .

(٤) سورة الأعراف الآيات (١٧٢ ، ١٧٣).

باسم ربِّك الذي خلقَ . خلقَ الإنسانَ مِنْ علقٍ . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علّمَ بالقلمِ . علّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلمْ ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ الرحمنُ علّم القرآنَ . خلقَ الإنسانَ علّمَهُ البيانَ ﴾ [2] قال تعالى : ﴿ سبِّحْ اسم ربِّكَ الأعلى . الذي خَلقَ فسوّى . والذي قدَّرَ فهَدى ﴾ [3] .وقال تعالى : ﴿ وهَدَيْنَاهُ النّجْدينِ ﴾ [4] .

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل في فطرته محبة لذلك . لكن قد يعرض الإنسان ـ بجاهليته وغفلته ـ عن طلب علم ما ينفعه .

وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عدمي ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

(النفس لا بدّ لها من مراد تطلبه)

لكن النفس ـ كما تقدم ـ الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها . فلا هي حية متنعمة بالحياة ، ولا هي ميتة مستريحة من العذاب . قال تعالى : ﴿ فذكِّرْ إنْ نَفعَتِ الذِّكرى. سيَذَّكرُ مَنْ يخشى . ويَتَجَنَّبُها الأشقى . الذي يصلى النار الكُبرى . ثم لا يموتُ فيها ولا يحيى ﴾ [5] فالجزاء من جنس العمل . لما كان في الدنيا : ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به . والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة لم يحصل له مقصود الحياة . فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس اللازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همام . فإن

(١) سورة العلق الآيات (١ ، ٥).
(٢) سورة الرحمن الآيات (١ ، ٣).
(٣) سورة الأعلى الآيات (١ ، ٣).
(٤) سورة البلد الآية ١٠ .
(٥) سورة الأعلى الآيات (٩ ، ١٣).

عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته . فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف الى فاعل . ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره ، وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

(السيئة لا تضاف الى الله لوجهين)

والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول . أي قابلاً لأن يريد هذا وهذا .

وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله . وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء وهو الذي ألهم النفس ـ التي سواها ـ فجورها وتقواها .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً الى الله تعالى ، لوجهين .

من جهة علته الغائية .
ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هي باعتبارها خير ، لا شر ـ وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم . أن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد ، لا لحكمة ولا رحمة ، والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل ، محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض . كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلاً ، وإذا قيل . يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك . كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس

إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمـومة . فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة ؛ كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل . إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحـد ، ولا له فيهـا حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب . لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولاثناء عليه ، بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول في بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقـد بينا بعض مـا في خلق جهنم وإبليس من السيئات . من الحكمـة والرحمـة . ومـا لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغـافرين . ومـالك يـوم الدين . الأحد الصمد . الـذي لم يلد ولم يولـد ، ولم يكن له كفـواً أحد . الـذي لا يحصي العباد ثنـاء عليـه ، بل هـو كما أثنى عـلى نفسه ، الـذي له الحمـد في الأولى والآخـرة ، ولـه الحكم وإليـه يرجعون . الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له في نفسه من المحامد والإحسـان إلى عباده ، هـذا حمد شكـر ، وذاك حمد مطلقاً .

* * *

وقد ذكرنا ـ في غير هذا الموضـع ـ ما قيـل من أن كل مـا خلقه الله فهـو نعمة عـلى عباده المؤمنين. يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه،وهو من الآية. ولهذا قال في آخر سورة النجم ﴿ فبأيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى ؟ ﴾[1] وفي سورة الرحمن يذكـر : ﴿ كلّ مَنْ عليهـا فانٍ ﴾[2] ونحـو ذلك . ثم يقول عقب ذلك ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربكما تُكذِّبانِ ؟ ﴾ .

وقال آخرون : منهم الزجاج[3] وأبو الفرج بن الجوزي[4] : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

---

(١) سورة النجم الآية ٥٥ .

(٢) سورة الرحمن الآيات ٢٦ ، ٢٨ .

(٣) هو إبراهيم بن السوس بن سهل « أبو اسحاق الزجاج » النحوي اللغوي المعروف المتوفى سنة ٧١١ هـ له مؤلفات كثيرة في اللغة والنحو والتفسير . ومن أشهرها « معاني القرآن » ، أنظر تـرجمته في : وفيـات الأعيان ١ /٣١ ـ ٣٣ معجم الأدبـاء ١ /١٣٠ ـ ١٥١ ، أنباء الرواة ١/ ١٥٩ ؛ الأعلام ١ /٣٣ .

(٤) هو عبد الـرحمن بن علي بن الجـوزي ، الإمام العـلامة صـاحب المؤلفات الكثيـرة في الفقه والكـلام والتفسير ، تـوفي سنة ٥٩٧ هـ ومن كتبه الشهيرة « زاد المسير في علم التفسير » ويوجد منـه نسخة خـطية ، انـظر ترجمتـه في : وفيات الأعيـان ٢ /٤٢١ ـ ٤٢٢ ؛ تاريخ ابن الـوردي ٢ /١١٨ ، الذي عـلى طبقات الحنـابلة لابن رجب ١ /٣٣٩ ـ ٤٢٣ ، الكامـل لابن الأثير (ط الحلبي) ١٠ /٢٢٨ ، الأعلام ٤ /٨٩ ـ ٩٠ .

أي من الأشياء المذكورة ؛ لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته . وفي رزقه إياكم ما به قوامكم .

وهذا قالوه في سورة الرحمن .

وقالوا في قوله : ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى؟ ﴾ فبأي نعم ربك التي تدلّ على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟ .

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التماري تفاعل من المراء . يقال : تمارينا في الهلال . والمراء في القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم قال « تتمارى » أين يتمارون ، ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للإنسان . قيل للوليد بن المغيرة . فإنه قال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ الذي وفّى : أنْ لا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾[1] ثم التفت إليه فقال﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ تكذبان . كما قال ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ كالفخارِ . وخلقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ . فبأيِّ آلاءِ ربكما تُكَذِّبانِ ؟ ﴾[2] .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالثقلين المخاطبين بقوله﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟﴾ من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التي بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم ـ كما ذكره في سورة النجم ﴿ وأنَّهُ أهلكَ عاداً الأولى وثمودَ ، فما أبقى . وقومَ نوحٍ مِنْ قبلُ ، إنهم كانوا هُمْ أظلَم وأطغى . والمؤتفكةَ أهْوَى . فَغَشّاها ما غَشّى ﴾[3] يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ هذا نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى ﴾ قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيرا . فقال في رسول الله ﴿ إنْ أنا إلّا نذيرٌ وبشيرٌ

---

(١) سورة النجم الآيات (٣٦ ـ ٣٨) .

(٢) سورة الرحمن الآيات (١٤ ـ ١٦) .

(٣) سورة النجم الآيات (٥٠ ـ ٥٣) .

لقوم يُؤمِنونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومبشِّراً ونذيراً ﴾[2] وقال تعالى في القرآن ﴿ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يَعلمونَ . بشيراً ونذيراً ﴾[3] وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أي من جنسها . أي رسول من الرسل المرسلين .

ففي المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

فأفضل النعم : نعمة الإيمان ، وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى : ﴿ لقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألبابِ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وذكرى لكل عبدٍ مُنيبٍ ﴾[5] .

(الصبر والشكر على السّراء والضّراء)

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينه . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ وَعَسى أنْ تَكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكم . وَعَسَى أنْ تُحِبّوا شيئاً وهوَ شرٌ لكم . واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلَمُونَ ﴾[6] .

وقد قال في الحديث : « والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً[7] له إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج إلى الصبر

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٢) سورة الفتح الآية ٤٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢ .

(٤) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٥) سورة ق الآية ٨ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٧) ذكره ابن حنبل : ٣ ـ ١١٧ .

على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى »[(١)] .

والفقر يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج الى الصبر والشكر ، لكن لما كان في السراء : اللذة . وفي الضراء الألم . اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثم نَزَعْناها مِنْهُ ، إنَّهُ لَيَؤوسٌ كَفورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نعماءَ بعدَ ضراءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عني ، إنهُ لَفَرِحٌ فخورٌ . إلا الذينَ صَبَروا وَعَمِلوا الصالحاتِ ، أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾[(٢)] ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر . فإنّ صبْرَ هذا وشكْرَ هذا واجبٌ إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذي هو حسنات ـ يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء ، لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر مما يغفر له ، لما يأتي به من الصبر ، فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا . أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الإبتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الانسان ، فهي من نفسه . ومع هذا فهي ـ مع حسن العاقبة ـ نعمة وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان أحسن الدعاء قوله : « اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني » .

---

(١) جزء من حديث استعاذة الرسول من فتنة الغنى والفقر . ذكره البخاري في : ٨ ـ ١٠٠ (كتاب الدعوات . باب التعوذ من فتنة الغنى) والحديث من رواية هشام عن أبيه عن خالته عن الرسول ﷺ .

(٢) سورة هود الآيات (٩ ـ ١١) .

وفي دعاء القرآن : ﴿رَبَّنا لا تجعلنا فِتنَةً للقومِ الظالمينَ﴾[1] ﴿رَبَّنا لا تجعلنا فتنةً للذينَ كَفَرُوا﴾[2] كما فيه ﴿واجعلْنا للمتقينَ إماماً﴾[3] أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و« الآلاء » في اللغة : هي النعم ، وهي تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة ـ سورة الرحمن ـ نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتا ؟ الجن كان أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ـ فبأي آلاء ربكما تكذبان ـ إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[4] .

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى ، وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد ؛ فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول :

الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة .

والشكر أعم من جهة أنواعه ، فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

---

(١) سورة يونس الآية ٨٥ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٥ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٧٤ .

(٤) ورواه مسلم أيضاً في : كتاب ـ المسافرين ، الترمذي في (كتاب ثواب القرآن) ، الراوي في : (المناسك) وابن حنبل ٣ ـ ٣٢ .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما تم إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل ما لا ينتفع به أحد ، فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام إذ كان عندهم يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين ، وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولو العلمِ قائماً بالقِسْطِ . لا إلَه إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾(١) فله الوحدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته .

والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر فهو أول الشكر .

والحمد ـ وإن كان على نعمته وعلى حكمته ـ فالشكر بالأعمال : هو على نعمته وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذا كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد ـ الذي هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد ، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد ، والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .

وقد قال تعالى : ﴿ فادْعوه مخلصينَ لهُ الدينَ . الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ﴾[1] .

وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل في الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

(الحمد أحق ما قال العبد)

وفي الصحيح : أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2] هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » .

وهذا ليس لفظ الرسول ، وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى : ﴿ فالحقُّ والحقَّ أقولُ ﴾[3] .

ولكن لفظة « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ . أي أحق ما قال العبد ، أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد .

ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح

---

(١) سورة غافر الآية ٦٥ .

(٢) ورد هذا الدعاء في : مسلم ١ /١٩٨ (كتاب الصلاة . باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع وفي إعتداله) ، وانظر الاذكار للنووي ص ٥٢ ـ ٥٣ (باب ما يقول في رفع رأسه من الركوع وفي اعتداله) ولفظ الحديث كما في صحيح مسلم ١ /١٩٨ (ط الحلبي) وكما في رواية أبي سعيد الخدري . كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال . ربنا لك الحمد . ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، وقد أورد مسلم روايات مختلفة للحديث تختلف فيما بينها طولاً وقصراً ، غير أنها تتفق كلها على أن اللفظ المذكور هو « أحق » وليس « حق ما قال العبد » كما قال المؤلف .

(٣) سورة ص الآية ٨٤ .

به الفاتحة ، وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ؛ أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان الى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده ؛ وهو ـ مع هذا ـ يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة ـ ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية ـ ؛ لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضي هذا ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى : ﴿ وما ظَلَمْناهُمْ ولكن كانوا هُمُ الظالمينَ ﴾(1) وقوله : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظَلموا أَنْفُسَهُمْ ﴾(2) وقوله : ﴿ وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبيد ﴾(3) .

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم الى بعض ، أو قصر في حقه لكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك بدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه إحتجاجاً بالقدر فكيف

---

(1) سورة الزخرف الآية ٧٦ .

(2) سورة هود الآية ١٠١ .

(3) سورة فصلت الآية ٤٦ .

يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . وهذا مبسوط في غير هذا الوضع .

فقوله : «أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل الا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

(طبيعة النفس الحركة)

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم [لم] يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان . وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها مَنْ يُفْسدُ فيها وَيَسْفِكُ الدماء ؟ ﴾[1] ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعاً ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[3] .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة . فكان ذلك خيراً ورحمة ، وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثاني من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس ، فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه ، لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات ـ من شياطين الإنس والجن ـ مالت إلى ذلك ،

---

(1) سورة البقرة الآية ٣٠.

(2) سورة المعارج الآيات (١٩ ، ٢١).

(3) سورة الأنبياء الآية ٣٧.

وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات مركباً من عدم ما ينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خيروها . والعدم لا يضاف الى الله .

وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذي لا خير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف الى الله . فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شيء . كانت السيئات منها باعتبار ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها ـ مع عدم ما يصلحها ـ تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقرّ بأن الله خالق أفعاله فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه وإن لم يهده فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصِرّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك ، خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهي عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب ـ سبحانه ـ محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ، ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه الى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ، لأن حكمه عدل ، لا يفعل إلا خيراً وعدلاً . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : «إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه ـ من المجد والثناء ـ ولأنه محسن الى المؤمن .

(تفسير ابن تيمية للحديث)

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قال : «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث ، إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله : ﴿ ما أصابَكَ مَنْ حسنةٍ فَمِنَ الله وما أصابكَ من سيئةٍ فمِنْ نَفْسِكَ ﴾[1] . ولهذا قال : «إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ،

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٩ .

فكان خيرا له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا اشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا ، فقد قال النبي ﷺ : «من سرته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ، فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ، وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيراً له ، والرسول ﷺ قال : «لا يقضي الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه ، فيكون حسنة ، كما قد جاء في عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته اليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن ـ بسبب الذنب ـ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفِّر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفِّر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : «أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيارتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أي : محبهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين «وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفرِّ عنهم المعائب » .

(طلب الهداية من الله)

وفي قوله تعالى : ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته . وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع الى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له

كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج الى الهدى في كل لحظة : وهو الى الهدى أحوج منه الى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟
وإن المراد بسؤال الهدى : الثبات أو مزيد الهداية .
بل العبد محتاج الى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفي مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً الى الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .
فليسوا الى شيء أحوج منهم الى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله ـ بفضله ورحمته ـ جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

(وجوب مخالفة المكذبين للرسل)

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا اليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين في المقتضى للحكم ، فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا

حاجة الى الاعتبار بمن لا نشبهه قط، ولكن الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ ما يُقال لكَ إلّا ما قَدْ قيلَ للرُسُل مِنْ قَبْلِكَ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ كذلكَ ما أتى الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رسُولٍ ، إلّا قالوا : ساحرٌ أو مجنونٌ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ كذلكَ قالَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ يضاهِئونَ قَوْلَ الذينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ ﴾[4] .

ولهذا قال النبي ﷺ : «لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟»[5] .

وقال : «لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟» وكلا الحديثين في الصحيحين .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة ـ يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس : «يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجْعَلْ لنا إلهاً كما لَهُمْ آلهة . إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكه ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى وقال : ﴿ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيري ﴾[6] و﴿قال أنا ربُكُمُ الأعلى ﴾[7] وقال لموسى : ﴿ لئِنِ اتّخَذْتَ إلهاً غيري لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونينَ ﴾[8] . و﴿ اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فأطاعوهُ ﴾[9] .

---

(١) سورة فصلت الآية ٦٠.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١١٨.

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٥) ورد الحديث في البخاري ١٢٦/٩ (ط الشعب) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم) ، مسلم ٤٦٢/٢ (ط الحلبي) (كتاب العلم ، باب اتباع اليهودي والنصارى) وفي المسند لابن حنبل ٣٢٧/٢، ابن ماجه ١٣٢٢/٢ (كتاب الفتن ، بال اقتراف الفتن) الترمذي ٢٦/٩ ـ ٢٨ (كتاب الفتن . باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

(٦) سورة القصص الآية ٣٨.

(٧) سورة النازعات الآية ٢٤ .

(٨) سورة الشعراء الآية ٢٩ .

(٩) سورة الزخرف الآية ٥٤.

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفي نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الإنسان اذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم ، رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده ما يهواه ويريده ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟﴾[1]. والناس عنده في هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون «يا رباعي » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً . ومن لم يوافق هواهم كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء ـ وإن كانوا يقرون بالصانع ـ لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ، ويكون من طاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً ـ أو شيخاً ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلين فيها ، كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو الى مثل ما دعا اليه موسى . قال تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لهم : آمنوا بما أنزلَ الله . قالوا : نؤمِنُ بما أُنْزل عَلَيْنا ،ويكفرونَ بما وراءَهُ ، وهُوَ الحقُّ مُصدِّقاً لما مَعَهُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما تفرَّق الذين أوتوا الكتابَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنَةُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وما تفرَّقوا إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[3] .

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون : ﴿ إن فِرْعَونَ علا في الأرض ، وَجَعَلَ أهلَها شِيَعاً . يَسْتَضْعِفُ طائفةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ ، وَيَسْتَحِيْ نِساءَهُمْ ، إنَّهُ كانَ مِنَ المفسدين ﴾[4] وقال تعالى عنهم : ﴿ وقَضَيْنا إلى بني إسرائيلَ في الكتابِ : لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً ﴾[5] ولهذا قال تعالى : ﴿ تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُها للذينَ لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً ﴾[6] .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ، ويشكروه ، ويعبدوه ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى : ﴿ وَما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنهُ لا إله إلا أنا فاعْبُدونِ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرسلنا مِن قَبْلِكَ مِنْ رُسُلنا : أَجَعَلْنا مِنْ دونِ الرحمنِ آلهةً يعبدونَ ؟ ﴾[8] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال : ﴿ إنّ هذه أُمَّتُكُم أمّةً واحدةً . وأنا ربُّكُمْ فاعبُدُون ﴾[9] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسلُ كُلُوا مِنَ الطيباتِ واعْمَلوا صالحاً ، إني بما تعْمَلونَ عليمٌ . وإنّ هذه أُمَّتُكم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون . فتقَطَّعوا أمرهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً ، كُلُّ حِزبٍ بما لَدَيْهِمْ فرحونَ ﴾[10] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٩١ .

(٢) سورة البينة الآية ٤ .

(٣) سورة الشورى الآية ١٤ .

(٤) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٤ .

(٦) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٨) سورة الزخرف الآية ٤٥ .

(٩) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

(١٠) سورة المؤمنون الآيات (٥١ - ٥٣) . وانظر في هذا الآية : تفسير الطبري .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس «إنّ هذه أمّتكم أمّةً واحدةً » أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروي عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك ، وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

و«الأمة» الملة والطريقة ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ قالوا إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مهتدونَ ﴾ ـ مُقتدون ـ[1] كما يسمى «الطريق» إماماً ، لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و«الأمة» أيضاً معلم الخير ، يأتم به الناس . كما أن «الامام» هو الذي يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كان أمة ﴾[2] .

(دين الأنبياء واحد)

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد »[3] . وقد قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لكُمْ منَ الدينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً ، والذي أَوْحَيْنا إليكَ ، وما وصَّيْنا به ابراهيم وموسى وعيسى : أنْ أقيموا الدين ، ولا تَتَفَرّقوا فيه ﴾[4] . ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً . لا يختلفون مع تنوع شرائعهم .

فمن كان من المطاعين ـ من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك ـ متبعاً للرسل ، أمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحب من دعا الى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ، فيحب ما يحبه الله تعالى ، وهذا قصده نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٢٢ ، ٢٣).

(٢) سورة النحل الآية ١٢٠.

(٣) هذا جزء من حديث صحيح ذكره ابن تيمية بتمامه في الجواب الصحيح ٥/١ (ط المدني)، والحديث من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ وتمامه : إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي ، ولابن تيمية رسالة مستقلة في «إن دين الأنبياء واحد» حققها ونشرها الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم في جامع الرسائل لابن تيمية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ . والحديث ورد بألفاظ متقاربة في البخاري ١٦٧/٤ (كتاب الأنبياء) باب «واذكر في الكتاب مريم » مسلم ١٦٧/٧ (كتاب الفضائل . باب فضل عيسى بن مريم)، أبو داود ٣٠٢/٤ (كتاب السنة . باب في التمييز بين الأنبياء). وانظر جامع الرسائل ص ٢٨٢ تعليق ١ .

(٤) سورة الشورى الآية ١٣ .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله ، فهذا حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله ، فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد الا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله ؟

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم الى أي شيء .

ولهذا فرضت عليه قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور ، ولم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فإن فيها : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ .

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين ، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إنّمَا نُطْعِمُكم لوجهِ الله ، لا نُريدُ منكم جزاء ولا شُكوراً ﴾[1] ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه إذ استعمله في الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص ، فعليه هو أن يشكر الله ، إذ يسره لليسر ، وعلى ذلك أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه ، أو يردّ الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمنّ عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا ، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأذى ، كالذي يُنْفق مالَهُ رئآءَ الناسِ ، ولا يُؤْمِنُ بالله واليومِ

(١) سورة الإنسان الآية ٩.

الآخر ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ، فأصابَهُ وابلٌ فتركَهُ صَلْداً ، لا يقدرونَ على شيءٍ مّما كسَبوا ، والله لا يهدي القومَ الكافرينَ ، وَمَثَلُ الذين يُنفقونَ أموالَهم ابتغاءَ مرضاتِ الله ، وتثبيتاً مِنْ أنفسهِمْ : كَمَثَلِ جَنَّةٍ بربْوَةٍ أصابهَا وابلٌ ، فآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَينِ ، فإنْ لمْ يصبهَا وابلٌ فطَلٌّ ، والله بما تعلمونَ بصيرٌ ﴾[1] .

قال قتادة : « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم ، وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم ، على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطي محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بوعد الله له ، طلب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمنّ عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك ، لا سيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم بالإعطاء .

فصـــــل

(الذنب عقوبة على ترك الطاعة)

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كانت خلقاً لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له ، وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودلّه على الفطرة ، كما قال النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى : ﴿ فأَقِمْ وجْهَكَ للدينِ حنيفاً ، فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهـا ، لا تبديلَ لِخَلْق الله ، ذلكَ الدينُ القيِّم . ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾[2] .

فهو لمّا لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به ـ من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده ـ عوقب على ذلك ، بأن زين له ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان : ﴿ اذْهَبْ ، فَمَنْ تَبِعكَ مِنْهُمْ فإنَّ جَهَنَّمَ جزاءُكم جزاءً موفوراً ـ إلى قوله ـ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ إنهُ ليسَ لهُ سلطانٌ على الذينَ آمنوا وعلى ربِّهم يتوكّلونَ . إنما سلطانهُ على الذينَ يتولَّوْنَهُ ، والذينَ هم بهِ مُشركونَ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكّروا ، فإذا هم مُبصرونَ .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) سورة الإسراء الآيات (٦٣ ـ ٦٥) .

(٤) سورة النحل الآيات (٩٩ ـ ١٠٠) .

وإخوانُهُم يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثم لا يُقْصِرونَ ﴾[1] .

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاء ، إنه مِنْ عبادنا المُخْلصينَ ﴾[2] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين ، كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه ، عوقب على ذلك . وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ، لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودي .

وطائفة ـ منهم أبو هاشم ـ قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر في هذا الوجه هو أمر وسط . وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ، فإذا عصى الرسول استحق حينئذ العقوبة التامة ، وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ ، فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوده من فعل السيئات ، قد يكون سبباً لعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه ، ولكن العقوبة المعروفة ، إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات ، فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ـ ٢٠٢) .
(٢) سورة يوسف الآية ٢٤ .

وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه ، فإنه ـ وإن كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات ، نعمة ورحمة ، وخلقة للسيئات ، له فيه حكمة ورحمة ، وهو ـ مع هذا ـ عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان :

عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافاً إليه .

وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ . كذلكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ على الذين لا يُؤْمِنُون ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبَهُمْ ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وأما مَنْ بخِلَ واسْتَغْنَى وكَذَّبَ بالحسنى ، فسنُيَسِّرُهُ للعُسرى ﴾(٣) .

وهذا وأمثاله . بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات ، حركوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له ـ وهو القلب لا يكون إلا عاملاً ـ فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : «نفسك إن لم تشغلها شغلتك» .

(الرد على القدرية والمجبرة)

وهذا الوجه ـ إذا حقق ـ يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين يقولون إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم ، عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٢) سورة الصف الآية ٥ .

(٣) سورة الليل الآيات (٨ ـ ١٠) .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كِلتا الجَنّتَيْنِ آتَتْ أُكُلها وَلَمْ تُظْلمْ مِنْهُ شَيئاً ﴾[(١)] .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد ، لكن يقولون : ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون جزاء على ذلك ، فالله محدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذي ذكرناه يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء ، فما حدث شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية ، هو المخلوق . وذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته الى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا : « الله خالق كل شيء » وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم ، وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص لله العمل ؛ فلا يزال مشركاً ولا يزال الشيطان مسلطاً عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه . بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله ـ هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله : ﴿ والله يَختَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يشاءُ والله ذو الفضْلِ العظيمِ ﴾[(٢)] ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .

وبتحقق هذا يدفع شبهات هذا . والله أعلم بالصواب .

فصــــل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُ أَفْئدَتَهُمْ وأبصارَهُمْ كما لم

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٥.

يُؤ مِنوا بِهِ أوّل مَرَّةٍ ، ونَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعمهونَ ﴾[1] وهذا من تمام قوله : ﴿ وما يُشعرُكُمْ أنّها إذا جاءَتْ لا يُؤمِنونَ ، ونُقَلِّبُ أفئدَتَهُمْ وأبصارَهُمْ ـ الآية ﴾ فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لمّا لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان ، وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح ـ من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك ـ وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه ، وهو أمر وجودي لا ضد له إلا ذلك .

فصل

(الحسنة من الله والسيئة من النفس)

الفرق السابع : بين الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف الى النفس ، وتلك تضاف الى الله : ان السيئات التي تصيب الإنسان ـ وهي مصائب الدنيا والآخرة ـ ليس لها سبب الا ذنبه الذي هو من نفسه ، فانحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه ، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها الى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم ، فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن اليك من غيرهما ، فإنه «من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه ، أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً . قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وسخَّرَ لكُمْ ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً

---

(١) سورة الأنعام الآيات (١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) سورة النحل الآية ٥٣.

منه ﴾[1] وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنا الإِنسان بِوالديْهِ حُسْناً ، وإنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بي ما ليس لَكَ بِهِ عِلمٌ فلا تُطِعْهُما ﴾[2] وقال في الآية الأخرى : ﴿ وإنْ جاهداكَ على أنْ تُشْرِك بي ما ليسَ لَكَ بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ ﴾[3] .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «على المرء المسلم : السمع والطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[4] . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «إنما الطاعة في المعروف»[5] . وقال : «من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه »[6] وقال : «لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق »[7] .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

(النعم كلها من الله)

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ﴿ ما يَفْتَحُ الله للناسِ مِنْ رحمةٍ فلا مُمْسكَ لها ، وما يُمْسِكُ فلا مُرْسلَ لهُ مِنْ بعْدِهِ ﴾[8] . صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٨ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٤) ورد الحديث بألفاظ متقاربة في البخاري ٩/٧٨ (كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) . مسلم : ٢/١٣ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) . وانظر أيضاً الترمذي ٧/٢٠٢ (كتاب الجهاد . باب ما جاء في لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

(٥) ورد الحديث في البخاري ٩/٧٩ (كتاب الإمارة ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) والعبارة جزء من حديث طويل من رواية علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه . فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها ، فجمعوا حطباً فأوقدوا ، فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم الى بعض قال بعضهم : إنما تبعنا النبي ﷺ فرار من النار . أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف . وانظر مسلم ٢/١٣٠ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) .

(٦) جزء من حديث ذكره ابن ماجه في كتاب الجهاد ، ابن حنبل ٢/٦٧ .

(٧) ذكره ابن حنبل في المسند (ط الحلبي) ٥ ـ ٦٦ ولفظه : لا طاعة لمخلوق في معصية الله تبارك وتعالى ، وذكره الحاكم في المستدرك ٣/٤٤٣ وقال عنه الحاكم «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يزجه» ورواه التبريزي في مشكاة المصابيح ٢/٣٢٣ .

(٨) سورة فاطر الآية ٢ .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذي لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله . والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ، لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل ، وما كان لعمله فيه مدخل ، فإن الله هو المنعم به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ، فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : «لا يرجون عبد إلا ربه . ولا يخافن عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك الظاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل ، إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه »

فصل

(الله يهدي كل نفس إلى ما يناسبها من الحسنة أو السيئة)

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث في مثل قوله : ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ﴾[1] .

---

(١) سورة النور الآية ٢٦ .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين . ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مثلاً : كلمةً طيبةً ـ ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ ﴾[1] وقال الله : ﴿ إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يُرفَعُهُ ﴾[2] والأقوال والأفعال صفات القائل والفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يباشرون الناس كالسنانير : لم يصلح ومن أراد : أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب ، فمثل هذا يوجب الفساد في العالم ، وقد يكون غير ممكن ، مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد الى السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن المؤمنين إذا نجوا من النار ـ أي عبروا الصراط ـ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة [3] .

وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم اهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[4] .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٦ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

(٣) ورد الحديث في البخاري ١٦٧/٣ (كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم) وكذلك ورد الحديث في البخاري ١٣٨/٨ ـ ١٣٩ (كتاب الرقاق . باب القصاص يوم القيامة) والحديث من رواية أبي سعيد الخدري ولفظه : إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار . . . الحديث ، وانظر أيضاً : ابن حنبل ٣ ـ ١٣ .

(٤) ورد الحديث في البخاري ١٣٨/٨ ـ ١٣٩ (كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة) ، ابن حنبل ١٣/٣ .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة ، فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي ، الأول الآخر ، فسببها دائم ، فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بهِ ﴾[1]. وقوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[2] .

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع »[3] .

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء [في] مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد ﴿ أنه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ ﴾[4] .

ولهذا يقولون : لا ندري ما يفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم ، أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم ، أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات (٧، ٨).

(٣) ورد الحديث في البخاري ٦/٩٢ (كتاب التفسير ، تفسير سورة هود) وفيه : أيد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار . وقال أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فانه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع . . . وانظر مسلم ١/٣٩٩ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة) وهو من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وفيه : يمين الله ملأى . . ومن رواية وهب بن منبه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك . وقال رسول الله ﷺ : يمين الله ملأى . . . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه قال : وكان عرشه على الماء . وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض . وانظر ابن حنبل ٣/٣١٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[1] بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾[2] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر بن الباقلاني[3] وغيره . ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان[4] في القدر وفي الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : أن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وسلكوا مسلك نفاة القدر في هذا ، وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها ، بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته ـ عندهم ـ لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده في النار ، فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر ، وناقضهم جهم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم ، مع انتسابهم الى أهل السنة والحديث ، واتباع السلف ، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ،كجهم وأتباعه .

---

(١) سورة النساء الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٣) هو محمد بن الطيب (أبو بكر) الباقلاني أو ابن الباقلاني لم نعرف تاريخ مولده بالتحديد غير أنه ولد في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري وتوفي سنة ٤٠٣ هـ ، أعظم أئمة الأشاعرة بعد أبي الحسن ، ألف كثيراً في الكلام والفلسفة والمنطق ، ومن أهم كتبه (الدقائق) ويشير ابن تيمية الى أهمية هذا الكتاب في كثير من المواضع . انظر عن الباقلاني : شذرات الذهب ٣/١٦٠ ـ ١٧٠ ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢١٧ ـ ٢٢٦ هـ وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ ـ ٤٠١ تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ ـ ٣٨٢. الأعلام ٧/٤٦ .

(٤) هو أبو محرز (الجهم بن صفوان) مولى بني راسب ، من أهل خراسان ، تتلمذ على الجعد بن درهم ، اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وكان الجهم كاتباً للحارث بن سريج ، من زعماء خراسان ،خرج معه على الأمويين فقتل بمروسنه ١٢٨ هـ . واليه تنسب الجهمية التي يستعملها ابن تيمية أحياناً بمعنى عام ويقصد بهم نفاة الصفاة بعامة ، كما يطلقها أحياناً بمعنى خاص ويقصد بهم أتباع الجهم في الجبر وخلق القرآن .

انظر : مقالات الأشعري ١/١٣٢ ، ٢٧٩ ـ ٢٨٠ . الملل والنحل ١/١٣٥ ـ ١٣٧. الفرق بين الفرق ص ١٢٨ ، ١٢٩. التبصير في الدين ص ٦٣ ، ٦٤. وانظر ماذكره ابن تيمية عن الجهمية والجهم في الرسالة التسعينية ضمن الفتاوى الكبرى ٥/٣١ ـ ٣٥ (ط القاهرة) سنة ١٣٢٩ هـ . الخطط للمقريزي ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠. البدء والتاريخ ٥/١٤٦ ميزان الاعتدال ١/١٩٧، لسان الميزان ٢/١٤٢ ـ ١٤٣، الاعلام ٢/١٣٨ ـ ١٣٩ .

(اشتهر عن الجهم)

نفي الصفات ، نفي القدر

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات ، فغلا في نفي الأسماء والصفات ، ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم ، ووافقه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء.

(تأثر المتكلمين بالجهم)

والكلابية[1] ـ ومن وافقهم من السالمية[2] ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ـ وافقوه على نفى الصفات الاختيارية، دون نفي أصل الصفات .

والكرامية [3] ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام ما لا يتناهى ، وأنه

---

(١) الكلابية هم اتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد محمد بن كلاب (بضم الأولى وتشديد الثانية) القطان ، توفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل ، تأثر به أبو الحسن الأشعري إمام المذهب قال عنه ابن حزم : إنه شيخ قديم للأشعرية .

انظر عنه وعن مذهبه : لسان الميزان ٢/٢٩٠ ـ ٢٩١ ، طبقات الشافعية ٢/٥١، الفهرست لابن النديم ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، مقالات الأشعري ١/٢٩٨ ـ ٢٩٩ . الخطط للمقريزي ٣/٣٥٨/٣٥٩ . نهاية الأقدام للشهرستاني ص ١٨١ ـ ٢٠٣ ، الملل والنحل ١/١٤٨ ، أصول الدين للبغدادي ص ٨٩، ٩٠،٩٧، ١٠٤، الفصل لابن حزم ٢/١٢٣، ٤، ٢٠٨ . وانظر أيضاً درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

(٢) السالمية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ هـ وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى ٣٥٠ هـ ، وقد تتلمذ على سهل بن عبد الله التستري ، ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب ، ويجمع السالمية في مقالاتهم بين آراء أهل السنة والمعتزلة مع ميل الى التشبيه ونزعة صوفية فيها شيء من الاتحاد ، ولا يوجد عن هذه الفرقة دراسات كما لا يوجد لأحد منها كتب ولا مؤلفات إلا ما ينقل عنهم خلال كتب الفرق والطبقات .

أنظر عنهم : شذرات الذهب ٣/٣٦ ، اللمع للسراج ص ٤٧٢ ـ ٤٧٦ (ط القاهرة) طبقات الصوفية ص ٤١٤ ـ ٤١٦ . الطبقات الكبرى للشعراني ص ٩٩ ـ ١٠٠ الفرق بين الفرق ص ١٥٧ ، ٢٠٢ دائرة المعارف الإسلامية (مقالة السالمية) لماسينيون، وانظر درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

(٣) الكرامية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام (بتشديد الراء) بن عراق بن حزبة السجستاني توفي سنة ٢٥٥ هـ . وهم يجبون الصفات مع ميل الى التشبيه ويوافقون السلف في إثبات القدرة والقول بالحكمة ، ويوافقون المعتزلة في القول بوجوب معرفة الله بالعقل والقول بالحسن والقبح العقليين . وهم يعتبرون من المرجئة لقولهم أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون التصديق بالقلب .

أنظر عنهم : لسان الميزان ٥/٣٥٣ ـ ٣٥٦ . ميزان الاعتدال ٤/٢١ ـ ٢٢ الفصل لابن حزم ٤ ، ٤٥/٢٠٤ ـ ٢٠٥ . الملل والنحل ١/١٨٠ ـ ١٩٣ . الفرق بين الفرق ص ١٢٠ ـ ١٢٧ التبصير في الدين للاسفراييني ص ٦٦ ـ ٧٠ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٦٧ . البدء والتاريخ ٥/١٤١ . الخطط للمقريزي ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٧ . وانظر أيضاً درء تعارض العقل والنقل ١/١٣ .

يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلماً اذا شاء ، وفعالاً لما يشاء إذا شاء ، لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو ـ عن هذا الأصل ، الذي هو نفي وجود ما لا يتناهى في المستقبل ـ قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل[1] إمام المعتزلة على هذا ، لكن قال بتناهي الحركات .

فالمعتزلة في الصفات : مخانيث الجهمية .

وأما الكلابية : فيثبتون الصفات في الجملة ، وكذلك الأشعريون ، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري[2] ـ : الجهمية الإناث ، وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء الى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستاني[3] يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة ، لأن الشهرستاني إنما يرى مناظره أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة بخلاف أئمة السنة والحديث ، فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية ، وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها ، هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية . وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

---

(١) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبد المشهور بالعلاف والمكنى بأبي الهذيل من كبار شيوخ المعتزلة البصرين . ولد سنة ١٣٥ هـ . كف بصره في آخر عمره . اختلف في تاريخ وفاته فقيل أنه توفي سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٧ أو سنة ٢٣٥ هـ .

أنظر عنه : لسان الميزان ٤١٣/٥ ـ ٤١٤ . وفيات الأعيان ٣٩٦/٣ ـ ٣٩٨ . تاريخ بغداد ٣٦٩/٣ ـ ٣٧٠ . نكت الهميان ص ٢٧٧ . أمالي المرتضى ١٢٤/١ دائرة المعارف الإسلامية (مقال كارادي فو) . الاعلام ٧، ٣٥٥ .

(٢) هو شيخ الإسلام . إمام أهل السنة أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري ، كما يسمى خطيب العجم ، لكثرة علمه وفصاحته ، توفي سنة ٤٨١ هـ . انظر عنه : طبقات الحنابلة ٢٤٧/٢ ـ ٢٤٨ . الذيل لابن رجب ٥٠/١ ـ ٦٨ الأعلام ٢٦٧/٤ .

(٣) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني من كبار أئمة المذهب الأشعري ، ولد سنة ٤٧٩ وتوفي سنة ٥٤٨ هـ صاحب الملل والنحل ، نهاية الأقدام في علم الكلام ومصارعات الفلاسفة ، انظر عنه : طبقات الشافعية ٧٨/٤ ـ ٧٩ ، وفيات الأعيان ٤٠٣/١ ـ ٤٠٤ معجم البلدان لياقوت (شهرستان) .

(نشأة القول بالقدر)

وأما المعتزلة ، فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان وهو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره ، أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في اوائل المائة الثانية[1] .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته . وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة ـ بعد موت الحسن ، وتكلم في المنزلة بين المنزلتين وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب ـ ضموا الى ذلك القدر ، فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

(نشأة القول بنفس الصفات)

إلى أن ظهر الجعد بن درهم[2] ، وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال : «أيها الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

---

(١) المعروف أن الحسن البصري توفي سنة ١١٥ هـ .

(٢) الجعد بن درهم مولى من الموالي ، سكن جزيرة الفرات ، تأدب عليه مروان بن محمد ونسب إليه فقيل مروان الجعدي ، قيل عنه : مبتدع ضال له أخبار في الزندقة ، قال عنه الذهبي : إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، قال بخلق القرآن ونفي القدر ، قيل إنه كان زنديقاً شهد عليه ميمون بن مهران . قتل يوم النحر سنة ١١٨ هـ .

انظر عنه : ميزان الاعتدال ١/١٨٥. الكامل لابن الأثير ٥/١٦٠. التاج ١/٢٣١. لسان الميزان ٢/١٠٥ اللباب ١/٢٣٠. النجوم الزاهرة ١/١٢٢. الأعلام ٢/١١٤.

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك[1] ، وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم - وابن الماجشون[2] وغيرهما ، وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم .

وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ، فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا ، فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم ، ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، الى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام ، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة ، فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

وكان أحمد بن أبي داود[3] قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث[4] ، ومن أكابر النجارية أصحاب

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي ، مولى بني حنظلة الحافظ شيخ الإسلام ومن كبار رجال السلف المأخوذ برأيهم في الأصول والفروع ، ولد سنة ١١٨ هـ . وتوفي سنة ١٨١ هـ له مؤلفات كثيرة في الزهد وآداب النفس ، ومن أهم مؤلفاته (الدقائق) .

أنظر عنه : تذكرة الحفاظ ٥٢٣/١، تاريخ بغداد ١٥٢/١٠. طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧. وفيات الأعيان ٢٣٧/٢، حلية الأولياء ١٦٢/٨، شذارت الذهب ٢٩٥/١ BROCK, SI : 256، الأعلام ٢٥٦/٤ .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة ، أبو عبد الله الماجشون من أئمة المحدثين توفي ببغداد سنة ١٦٤ هـ . ومن أهم كتبه (الإبانة) ويقع في أربعة عشر جزءاً مخطوط بدار الكتب .

أنظر عنه تهذيب التهذيب ٣٤٣/٦ - ٣٤٤، تذكرة الحفاظ ٢٠٦/١ - ٢٠٧ . شذرات الذهب ٢٥٩/١ . تاريخ بغداد ٤٣٦/١٠ - ٤٣٩ . طبقات ابن سعد ٤١٤/٥ . الأعلام ١٤٥/٤ - ١٤٦ .

(٣) هو أحمد بن أبي داود بن جرير بن مالك الأيادي المكنى بأبي عبد الله من مشاهير القضاة في العصر العباسي ، وهو رأس فتنة القول بخلق القرآن ، ولد بالبصرة ١٦٠ هـ . وتوفي سنة ٢٤٠ هـ ببغداد ، قال عنه الذهبي : كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس في خلق القرآن .

أنظر عنه : وفيات الأعيان ٦٢/١ - ٧٥ . النجوم الزاهرة ٣٠٠/٢ - ٣٠٢ تاريخ بغداد ١٤١/٤ ، لسان الميزان ١٠١/١، البداية والنهاية ٣١٩/١٠، الأعلام ١٢٠/١ . وانظر أيضاً مناظرته للإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الحيدة» لعبد العزيز الكناني .

(٤) في الأصل : بن غوث ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه ، وهو أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث ، عاصر أحمد بن حنبل ، لم تذكر المراجع شيئاً عن تاريخ مولده أو وفاته ، وذكرت كتب الفرق والمقالات شيئاً عن آرائه ومذهبه ،=

حسين النجار[1] .

وأئمة السنة - كابن المبارك[2] ومحمد بن إسحاق[3] . والبخاري وغيرهم - يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين - من أصحاب أحمد وغيرهم - يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي[4] - وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن ابي داود ونحوهما - كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ، وكانت الجهمية أتباع جهم ،

= فالأشعري يذكر في مقالاته ١٠/٢٨٤ - ٢٨٥ أنه كان يزعم أن الفعل المتولد فعل الله بإيجاب الطبع ، وأخذ بقول المعتزلة في التوحيد وخالفهم في القدر وقال بالإرجاء.
أنظر عنه : الملل والنحل ١/١٤١، الفرق بين الفرق ص ١٢٦ - ١٢٧ . التبصير في الدين ص ٦٢. الفصل لابن حزم ٢/٢٢. الانتصار للخياط ص ٩٨. دائرة المعارف الإسلامية (مادة برغوثية). المنية والأمل لابن المرتضى ص ٤٦.

(١) هو الحسين بن محمد بن عبد الله النجار . إليه تنسب فرقة النجارية ، لم تذكر المراجع شيئاً عن تاريخ مولده أو وفاته ، قيل أنه مات بسبب علة اصابته عندما أفحمه النظام في مناظرة جرت بينهما ، وإذا صح ذلك فيكون معاصراً للنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ .
انظر عنه وعن آرائه : مقالات الأشعري ١/١٢٥ - ١٢٦، الملل والنحل ١/١٣٨ - ١٤١ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٦ - ١٢٧، اصول الدين ص ٢٣٤ اللباب لابن الأثير ٣/٢١٥. التبصير في الدين ص ٦١ - ٦٢ الأعلام ٢/٢٧٦.

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي تقدمت ترجمه ص ٢٢٣ ح (١).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة ، بن بكر السلمي النيسابوري وكنيته أبو بكر ، قال السبكي إنه إمام الأئمة ، حدث عنه البخاري ومسلم خارج الصحيحين ولد سنة ٢٢٣ وتوفي سنة ٣١١ هـ.
انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٢/٧٢٠، طبقات الشافعية ٢/١٣٠، الأعلام ٦/٥٢٣. وطبع له أخيراً كتاب «التوحيد وإثبات صفات الرب » بتحقيق المرحوم محمد خليل هراس .

(٤) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي بن أبي كريمة ، كان جده مولى لزيد بن الخطاب رضي الله عنه . قيل إن اباه كان يهودياً قصارا صباغا بالكوفة قال عنه ابن حجر : تفقه على أبي يوسف (من أصحاب أبي حنيفة) فبرع واتقن علم الكلام . ثم جرد القول بخلق القرآن وناظر عليه . لم يعاصر الجهم ولكن أخذ بمقالته ودعا إليه ويقول ابن تيمية في كثير من كتبه أن مقالة الجهم انتقلت الى كتب التفسير بسبب بشر بن غياث هذا . وإليه تنسب طائفة المريسية من المرجئة . وكانت تقول إن الإيمان هو التصديق وإن التصديق بالقلب واللسان جميعاً . وقال الشهرستاني أن مذهب المريسي يقترب من مذهب النجارية وأبي عيسى برغوث ، توفي بشر سنة ٢١٨ هـ وقيل سنة ٢١٩ هـ وقيل أن نسبته الى قرية مريس بصعيد مصر .
أنظر عنه : لسان الميزان ٢/٢٩ - ٣١، مقالات الأشعري ١/١٤٠ - ١٤١. وفيات الأعيان ١/٢٥١ - ٢٥٢. تاريخ بغداد ٧/٥٦ - ٢٥٧. الأعلام ٢/٢٧ الملل والنحل ١/١٤١. الفرق بين الفرق ص ١٢٤. الخطط للمقريزي ٢/٢٥٠.
وانظر كتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني ، الرد على بشر المريسي العنيد لعثمان بن سعيد الدارمي .

والنجارية أتباع حسن النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو[1] والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق : وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة أحدهما : نفي الصفات . والثاني : الغلو في القدر والإرجاء .فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية :

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات - لا الإرادة ولا غيرها - فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي ، فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات - كالإرادة - فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالي الجويني[2] أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم ، أشك في بعضهم .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية مشايخ المعرفة والحقيقة ، فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي صاحب كتاب «ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات وله كتاب «تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف الى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

---

(١) هو ضرار بن عمرو القاضي ، إليه تنسب طائفة الضرارية ، وهم يشبهون النجارية الى حد كبير في قولهم بنفي الصفات وخلق الأفعال ، ويبطلون القول بالتولد ، وينكرون القول بوجوب المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع ، ويقول ابن حجر : إن ضرار بن عمرو كان له مقالات خبيثة .
أنظر عنه : لسان الميزان ٢٠٢/٣ ، الملل والنحل ١٤٢/١ - ١٤٤ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٩ - ١٣٠ ، أصول الدين ص ٣٣٩ ، التبصير في الدين ص ٦٢ ، مقالات الأشعري ٢٨١/١ ، التنبيه والرد للملطي ص ٤٣ .

(٢) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد بنيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفي بها سنة ٤٧٨ هـ من كبار أئمة الأشاعرة تتلمذ عليه الغزالي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفقه من أهمها «الشامل» و«الإرشاد» واللمع والعقيدة النظامية وطبعت هذه الكتب محققة : انظر عنه : تبيين كذب المفتري ص ٢٧٨ - ٢٨٥ ، طبقات الشافعية ٢٤٩/٤ - ٢٨٢ ، شذرات الذهب ٣٥٨/٣ ، وفيات الأعيان ٣٤١/٢ ، الأعلام ٢٠٦/٤ .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك - أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية ، لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقي له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل الى مقام الفناء ، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له ، وهذا هو الحكم عنده و«الحسنة» و«السيئة» يفترقان في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات الى هذا هو (من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق) .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد (١) ، كما ذكر ذلك في غير موضع .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة - لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة : كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال . ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعري ، وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا - بالنسبة الى المخلوق كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل الى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا . وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوي عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعاً ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء ، أما الفناء عن جميعها : فممتنع ، فإنه لا بد أن

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد محمد بن الخراز (القواريري) من كبار شيوخ الصوفية يعتمد عليه ابن تيمية في تصحيح مواقف الصوفية في كثير من المسائل وخاصة مسألة الفناء والتوحيد والمشيئة الإلهية ، لزمه الحلاج فترة ونفر منه ،؛ يلقب بسيد الطائفة انظر عنه : طبقات الصوفية للسلمي ص ١٥٥ - ١٦٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/٨٢ - ٧٤، تاريخ بغداد ٧/٢٤١ ص ٢٤٩، الأعلام ٢/١٣٧ - ١٣٨ .

يفرق كل حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه ، فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الإيماني الرحماني الذي به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدري .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لا بد للعبد من أن يفرق ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعي - فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه ، فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير في المعاصي وآخرون في الفسوق ، وآخرون في الكفر ، حتى جوزوا عبادة الأصنام .

ثم كثير منهم من ينتقل الى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين في التوحيد ، فلم يفرقوا بين القديم والمحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي[1] ، وابن سبعين[2] ، والقونوي[3] والتلمساني[4] ،

---

(١) هو أبو بكر محي الدين بن علي بن محمد الحاتمي الطائي المعروف بابن عربي واحياناً بابن العربي ، ولد بمرسيه ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . وله مصنفات كثيرة أشهرها (الفتوحات المكية فصوص الحكم) بخلاف الرسائل العديدة في وحدة الوجود .

انظر ترجمته ومصنفاته في : نفخ الطيب ٣٠١/٢ - ٣٨٤، شذرات الذهب ١٠٩/٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١٦٢/١، ميزان الاعتدال ٦٥٩/٣ - ٦٦٠، لسان الميزان ٣١١/٥ - ٣٥١، فوات الوفيات ٤٧٨/٣ - ٨٤٢، الأعلام ١٧٠/٧ - ١٧١ .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين ويكنى بأبي محمد ، ولد سنة ٦١٣ وتوفي سنة ٦٦٩ هـ . له مجموعة رسائل في التصوف طبعت أخيراً بتحقيق عبد الرحمن بدوي (ط القاهرة) .

انظر ترجمته في شذرات الذهب ٣٢٩/٥ - ٣٣٠، الطبقات الكبرى للشعراني ١١٧/١، لسان الميزان ٣٩٢/٣، فوات الوفيات ٥١٦/١ - ٥١٨، نفح الطيب ٣٩٥/٢ - ٤٠١، الأعلام ٥١/٤ .

(٣) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي الملقب (بصدر الدين) صوفي من كبار تلامذة محي الدين بن عربي توفي سنة ٦٧٢ هـ . ولم يعرف تاريخ مولده ، تزوج ابن عربي بأم القونوي وقام بتربيته ، كان شافعي المذهب ، جرت مكاتبات بينه وبين نصير الدين الطوسي ، من أهم كتبه : النصوص في تحقيق الطور المخصوص ، ولد وتوفي بقونية .

أنظر عنه : مفتاح السعادة ٤٧١/١ ، طبقات السبكي ١٩/٦، جامع كرامات الأولياء ١٣٣/١، كشف الظنون ١٩٦٥/٢، معجم المطبوعات ١٥٣/٢، فهرس المؤلفين ٢٤٢، الضوء اللامع ١٣٣/٧ الأعلام ٢٥٤/٦ .

(٤) هو سليمان بن عبد الله بن علي الكوفي المعروف بعفيف الدين التلمساني كان كوفي الأصل ، ادعى شيئاً من العرفان ، نسب إليه جماعة رقة في الدين وميلاً الى مذهب النصيرية .

انظر ترجمته في : فوات الوفيات ٣٦٣/١ - ٣٦٦، البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣، النجوم الزاهرة ٢٩/٨ - ٣١، الأعلام ١٩٣/٣ .

والبلياني ، وابن الفارض[1] وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب في القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين أوقعوا جهماً في هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه[2] بخلاف الإرجاء ، فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم : غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة الى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته : أنه يسوق المقادير الى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعري ـ في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن والقبح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود الى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

فتارة : يقولون في امتثال الأمر والنهي : إنه من مقام التلبيس ، أو ما يشبه هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلكهم : غايته ـ إذا عظم الأمر والنهي ـ أن يقول ، كما نقل عن الشاذلي : يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مثل أن يدعو : أن يعطيه الله أذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا ، مما يوجب أنه

---

(١) هو ابو حفص عمر بن مرشد بن علي شرف الدين بن الفارض الحموي الأصل ، مصري المولد والوفاة ، لقب بسلطان العاشقين ، ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفي ٦٣٢ هـ له قصيدة «التائية» ضمنها مذهبه في وحدة الوجود .
انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١٢٦/٣ ـ ١٢٧ ميزان الاعتدال ٢٢٦/٢ شذرات الذهب ١٤٩/٥ ـ ١٥٣، لسان الميزان ٣١٧/٤ ـ ٣١٩، الأعلام ٢١٦/٥ ـ ٢١٧ . وانظر أيضاً : ابن الفارض والحب الإلهي ، محمد مصطفى حلمي (ط القاهرة) ١٩٤٥ م .

(٢) سبق حديث ابن تيمية عن بدعة جهم الأولى وهي نفي الأسماء والصفات انظر ص ٤٢٠ فيما سبق .

يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

(بين الكرامة والشعوذة)

ـ وآخرون ـ من عوام هؤلاء ، يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء . ما هي متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءَهُمْ رسولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ ، نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الذينَ أوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهورِهِمْ ، كَأَنَّهم لا يَعلمونَ واتَّبَعُوا ما تَتْلوا الشياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمانُ ولكنَّ الشياطينَ كَفَروا يُعَلِّمونَ الناسَ السحرَ . وما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هاروتَ وماروتَ ﴾[1] .

وقد قال النبي ﷺ : «لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »[2] .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم ـ ممن أضله الشيطان من المنتسبين الى الإسلام ـ إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين ، فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان بإعانة الشياطين ، وهي تحصل بما تتلو الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ألم تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً مِنَ الكتابِ ؟ يُؤمِنُونَ بالجِبْتِ والطاغوتِ ، ويَقولونَ للذينَ كفَروا : هَؤُلاء أَهْدى مِنَ الذينَ آمَنوا سبيلاً ، أولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ الله ، وَمَنْ يَلْعَنِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾[3] .

وهؤلاء ضاهؤوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٠١ ، ١٠٢).

(٢) سبق تخريج الحديث .

(٣) سورة النساء الآيات (٥١ ـ ٥٢).

مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ـ الآية ﴾ .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذه طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف ، حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام ، لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة ، التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ، إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ، لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك ، عملوه ، ودعوا اليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهؤوا به فارس والروم ، وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار والروم كانوا ـ قبل النصرانية ـ مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهؤوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ . وهؤلاء ضاهؤوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع الى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس :

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول ـ إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه ـ: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ ما أصابَكَ من حسنةٍ فَمِنَ الله وَمَا أصابَكَ مِنْ سيئةٍ

فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سُلطانٌ إلاّ مَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ ﴾[1] وقوله : ﴿ لأمْلأنَّ جهنم مِنْكَ وَمِمّنْ تبِعَك مِنْهُمْ أجمعِينَ ﴾[2].

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله ، كالمسيح وغيره .

(أول شرك وقع في قوم نوح)

وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم : ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بني آدم . وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم الى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وقَالوا لا تَذَرُنَّ آلهتَكُمْ. ولا تَذَرُنَّ ودّاً ولا سُواعاً . ولا يغوث ويَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضَلّوا كثيراً ﴾[3]. وهذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت الى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه «لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه . وأنه يجب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة الى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لا يشرك به شيئاً وبين من يعبد معه آلهة أخرى ، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ولا فرق بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكوا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكرة .

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٢ .

(٢) سورة ص الآية ٨٥ .

(٣) سورة نوح الآية ٢٣ .

فقال بعضهم : أن الولي يعطى قول «كن» . وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن ، كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم ما يقال إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك ، وزاد ابن عربي : إن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل الى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك الى أبي الحسن الشاذلي ، ثم الى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر اصحابهم .

وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود(١) ـ وأشار الى وسط الكعبة ـ هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فوقف شعري من هذا الكلام وانخنست ـ أو كما قال .

(الدعاء ، آدابه ، حدوده)

من الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله (٢) . أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل له في

---

(١) هو الحسن بن علي شقيق المتوكل على الله ملك الأندلس بن يوسف بن هود ، فيلسوف متصوف ولد سنة ٦٣٣ هـ ، تصوف واشتغل بالطب والحكمة ، حج وسكن دمشق وتوفي بها سنة ٦٩٩ ، كان يصيبه ذهول ، أقرأ اليهود كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون . وصفه الذهبي بالاتحاد والحلول والضلالة ، قال عنه المناوي «فاضل تفنن وزاهد تسنن ، ومن شعره :

علم قوم بي جهل إنّ شاني لأجلّ
أنا عبد أنا رب أنا عزّ أنا دلّ
أنا دنيا أنا أخرى أنا بعض أنا كلّ
أنا معشوق لذاتي لست عنه الدهر أسلو

أنظر عنه : شذرات الذهب ٥/٤٤٦، فوات الوفيات ١/١٢٧، الأعلام ٢/٢٢١.

(٢) هو سهل بن عبد الله التستري بن يونس أبو محمد ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ . أحد أئمة الصوفية الأعلام ، له رسائل في علم الإخلاص والرياضية وعيوب النفس وله تفسير القرآن الكريم طبع بعض رسائله د محمد كمال جعفر ، وله =

ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل وهو الذي نختار أن يكون حقاً - أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم يجبهم ، مثل اقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك . بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضي بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى - من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير - ما هو دون هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له :﴿ يا نوحُ ، إنَّهُ ليسَ من أهلكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالحٍ . فلا تَسْأَلْني ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[1] .

وأفضل الخلق محمد ﷺ ، قيل له في شأن عمه أبي طالب ، ﴿ ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِروا للمُشركينَ وَلَوْ كانوا أولي قُرْبَى ﴾[2] وقيل له في المنافقين : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لهُمْ لَنْ يَغفِرَ الله لَهُمْ ﴾[3] وقد قال تعالى عموماً : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفعُ عِنْدَهُ إلّا بإذْنِهِ ؟ ﴾[4] وقال : ﴿ ولا تَنفعُ الشفاعةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لهُ ﴾[5]. فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟!

= أيضاً رقائق المحبين .

انظر عنه : طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الوفيات ٢١٨/١ ، حلية الأولياء ١٨٩/١٠ طبقات الشعراني ٦٦/١ ، المناوي ٢٣٧/١ .

(١) سورة هود الآية ٤٦ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٣ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٥) سورة سبأ الآية ٧٢ .

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثني عليه . فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع . وسل تعط . واشفع تشفع . قال : فيجد لي حداً . فأدخلهم الجنة »[1] وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكم تَضَرُّعاً وخِفْيَةً . إِنَّهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ ﴾ .[2]

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : ﴿ وإِذَا سألَكَ عِبادي عني فإني قريبٌ . أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دَعَانِ ﴾[3] وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكم : ادْعوني أَسْتَجِبْ لكم . إنّ الذينَ يَسْتَكْبِرونَ عن عبادتي سَيَدْخُلونَ جهنمَ داخِرينَ ﴾[4] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم ؛ إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها »[5] .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله . وهذا غاية الإجابة ، فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً. أو مفسداً للداعي أو لغيره . والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره . ولله المثل الأعلى .

وكما فعل ﷺ - لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم - فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

---

(١) هذا جزء من حديث الشفاعة ، وهو حديث مطول أورده مسلم بتمامه ١/١٠٠ - ١٠١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) وفيه :
« . . . ثم يقال يا محمد قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال : فلا أدري أوفي الرابعة قال يا رب . فأقول ما بقي في النار : إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود ، وانظر أيضاً البخاري ٦/١٠٦ - (كتاب التفسير ، سورة الإسراء) مع اختلاف في اللفظ ، الترغيب والترهيب للمنذري ٥/٣٩٨ - ، تيسير الوصول ٤/١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) الأعراف : ٥٥ .

(٣) البقرة : ١٨٦ .

(٤) غافر : ٦٠ .

(٥) ورد هذا الحديث في كتب السنن والصحاح ، انظر : سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن حنبل ٣/١٨ ، ٦/١٢٥ ، انظر تحقيق الحديث في الجزء الأول

وقد روي في الحديث : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »[1] وهذا حق .

فصـــل

(الحسنة من الله يجب الشكر عليها)

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . ومـا أصابـك من سيئة فمن نفسك ﴾ أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات ـ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ـ إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] .

فهذا يوجب عـلى العبد شكـره وعبادتـه وحده . ثم قـال : ﴿ ثُمَّ إذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَـإلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر ، وأما في حال النعمة : فهو ساكن ، إما شـاكراً وإمـا كفوراً ﴿ ثم إذا مسّكم الضرُّ فـإليهِ تجـأرونَ . ثم إذا كَشَفَ الضرَّ عَنْكم إذا فـريقٌ مِنْكم بربهِم يُشرِكونَ ﴾[3] .

وهـذا المعنى قد ذكـره الله في غير مـوضع ، يـذم من يشرك بـه بعد كشف البـلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ، فيضيف العبد ـ بعد ذلك ـ الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إليهِ ثمّ إذا أذاقَهُمْ منهُ رحمـةً إذا فـريقٌ منهم بـربِّهِمْ يُشـرِكـونَ ، لِيَكفـروا بمـا آتَيْنـاهُمْ . فَتَمَتَّعـوا فَسَـوْفَ تَعلمونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ قلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ ، تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخِفْيَةً لَئِنْ أنجانا من هذه لَنَكونَنَّ مَنِ الشـاكِرينَ ؟ قـل : اللهُ يُنْجيكُمْ منها ومِنْ كـلِّ كَرْبٍ . ثم أنتم تُشرِكونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ دعا رَبَّهُ مُنيباً إليهِ . ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إليهِ منْ قبلُ : وَجَعَلَ للهِ أنداداً لِيُضَلَّ عن سبيلِهِ . قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قليـلاً . إنَّكَ مِنْ أصحابِ النارِ ﴾[5] .

وقوله :﴿ نسي ما كان يدعو اليه ﴾أي نسي الضر الذي كان يـدعو الله لـدفعه ، إليـه ،

---

(١) ورد الحديث في الترمذي (كتاب الدعوات) ، ابن ماجه (كتاب الدعاء) ، ابن حنبل ٢/٣٦٢ .

(٢) النحل : ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) الروم : ٣٣ ـ ٣٤ .

(٤) الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) الزمر : ٨ .

كما قال في سورة الأنعام : ﴿ قـل أرأيْتَكُمْ إنْ أتاكُمْ عـذابُ اللهِ ، أو أتَتْكُمُ الساعـةُ : أغيرَ اللهِ تَدْعُونَ ، إنْ كنتم صادقينَ ؟ بـل إياهُ تَـدْعُون فَيَكْشِفُ مـا تَدْعُـونَ إليهِ إنْ شـاءَ . وَتَنْسَوْنَ مـا تُشْرِكُونَ ﴾[1] .

فذم الله سبحانه حزبين : حزباً لا يدعونه في الضراء ، ولا يتوبون إليه . وحزباً يدعونـه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنـه ، وأشركـوا به مـا اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان ـ كـالمعطلة ، والمشـركة ـ حـزب إذا نزل بهم الضـر لم يدعـوا الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال : ﴿ ولقدْ أرْسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فأخَذْناهُمْ بالبَأْساءِ والضَّراءِ لَعَلَّهُمْ يَتضَرَّعُـونَ . فلولا إذْ جاءَهُمْ بـأسُنا تَضَـرَّعوا ؟ ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهُمْ، وَزَيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أخَذْناهم بالعذابِ فما اسْتَكانوا لِـرَبِّهِمْ وما يَتَضَرَّعُونَ ﴾[3] وقـال تعالى : ﴿ أَوَلا يَـرَوْنَ : أنَّهم يُفْتَنونَ في كـلِّ عامٍ مـرةً أوْ مَرَّتَـيْنِ ؟ ثم لا يَتوبونَ ولا هم يَذَّكَّرونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العذابِ الأدنى دونَ العـذابِ الأكبرِ لعلّهم يَرْجِعونَ ﴾[5] وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ويتـوبون اليـه . فإذا كشفهـا عنهم أعرضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ، أو قاعداً أوْ قائماً، فلمّا كَشَفْنا عنهُ ضُرَّهُ مَرَّ ، كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ . كذلكَ زُيِّنَ للمُسرِفينَ مـا كانـوا يَعْمَلونَ ﴾[6] وقال تعـالى : ﴿ وإذا أنْعَمْنـا عـلى الإنسـانِ أعـرضَ وَنـأى بجـانِبِـهِ . وإذا مَسَّـهُ الشرُّ فـذو دُعـاءٍ عَـريضٍ ﴾[7] وقال تعـالى : ﴿ وإذا مَسَّكم الضرُّ في البحـرِ ضَـلَّ مَنْ تَـدْعُـونَ إلا إيـاهُ . فلمّا نَجّاكُمْ إلى البَرِّ أعْرَضْتُمْ . وكانَ الإنسـانُ كَفُوراً ﴾[8] وقـال في المشركـين ما تقدم : ﴿ ثم إذا مَسَّكُمُ الضرُّ فإليهِ تَجأرونَ . ثم إذا كَشَفَ الضرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكونَ ﴾ .

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون اليه ويثبتون على عبادته ،

---

(١) الأنعام : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) الأنعام : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) المؤمنون ٧٦ .
(٤) التوبة : ١٢٦ .
(٥) السجدة : ٢١ .
(٦) يونس : ١٢ .
(٧) فصلت : ٥١ .
(٨) الإسراء : ٦٧ .

والتوبة إليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام .فقال تعالى :﴿ وذا النونِ إذْ ذهَبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادَى في الظُّلُماتِ أنْ لا إلهَ إلاَّ أنتَ ، سُبحانَكَ ! إني كنتُ مِنَ الظالمينَ . فاسْتَجَبْنا لهُ ونَجَّيْناه مِنَ الغَمِّ وكذلكَ نُنْجي المؤمنينَ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولَقَدْ فتَنّا سُلَيْمانَ ، وألْقَيْنا على كُرْسيِّهِ جَسَداً ثمّ أنابَ . قال : ربِّ اغفرْ لي ، وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدي . إنَّكَ أنتَ الوَهّابُ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أتاكَ نَبَأُ الخَصْمِ ، إذْ تَسَوَّروا المِحْرابَ ؟ إذْ دَخَلوا على داودَ . فَفَزِعَ مِنْهُمْ . قالوا : لا تَخَفْ . خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا على بَعْضٍ . فاحْكُمْ بَيْنَنا بالحقِّ ولا تُشْطِطْ . واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراطِ . إنّ هذا أخي لهُ تسعٌ وتِسْعونَ نَعْجَةً . ولي نعجةٌ واحدةٌ ، فقال : أكْفِلْنيها . وَعَزَّني في الخِطابِ. قالَ : لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ . وإنّ كثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغي بعضُهم على بعضٍ . إلّا الذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصّالحاتِ ـ وقليلٌ ما هُمْ ـ وَظَنَّ داودُ أنّما فَتَنّاهُ . فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ . وَخَرَّ راكِعاً وأنابَ . فَغَفَرْنا لهُ ذلكَ . وإنّ لهُ عندنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾(٣) وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿ فَدَلاّهُما بغُرورٍ : فلمّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجَنّةِ . وناداهُما ربُّهما : أَلَمْ أنهَكُما عَنْ تِلْكُما الشجرةِ ؟ وَأَقُلْ لَكُما : إنّ الشيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ ؟ قال رَبَّنا، ظَلَمْنا أنْفُسَنا وإن لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ﴾(٤) وقال : ﴿ فَتَلَقّى آدمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ . فتابَ عَلَيْهِ . إنّه هوَ التوابُ الرحيمُ ﴾(٥) .

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ . فَما وَهَنُوا لِما أصابَهُمْ في سبيلِ اللهِ . وَمَا ضَعُفُوا وما اسْتَكانوا واللهُ يُحِبُّ الصابِرينَ وما كانَ قَوْلَهُمْ ، إلّا أنْ قالوا : رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنوبَنا وإسْرافَنا في أَمْرِنا ، وَثَبِّتْ أقدامَنا ، وانْصُرْنا على القَومِ الكافِرين . فآتاهُمُ اللهُ ثوابَ الدنيا وَحُسْنَ ثوابِ الآخِرةِ . واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ ﴾(٦) .

وقوله ﴿ قاتل ﴾ أي النبي قتل ، وهذا أصح القولين .

---

(١) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) ص : ٣٤/٣٥ .

(٣) ص : ٢١ ـ ٢٥ .

(٤) الأعراف : ٢٢/٢٣ .

(٥) البقرة : ٣٧ .

(٦) آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨ ، يلاحظ أن ابن تيمية يرجح قراءة (قُتِلَ) بالبناء للمجهول ويكون نائب الفاعل ضميراً يعود إلى النبي ، وقراءة حفص « قاتل » والفاعل « ربيون » .

وقوله ﴿ معه ربيون كثير ﴾ جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي ـ صفة بعد صفة ـ أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة وأولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و« الربيون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى: هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسلُ . أَفإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ : انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً . وَسَيَجْزي اللهُ الشاكِرينَ ﴾ وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي ﷺ . وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت »(١) .

فإنه عند قتل النبي أو موته : تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إنّ هذا قد انقضى أمره ، وما بقي يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير ، فما وهن المؤمنون لما اصابهم بقتله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ، ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إنما المؤمِنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِهِ ، ثمّ لم يرتابُوا . وَجاهَدُوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيلِ الله . أولئكَ هُمُ الصادقونَ ﴾(٢) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ، سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبت ، وما يعطيهم من عنده من النصر ، فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ، قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وما جعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرى ولِتَطْمَئِنَّ بهِ قلوبُكُمْ . وما النصرُ إلاّ مِنْ عندِ الله . إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾(٣) وقال

(١) أنظر ما قاله أبو بكر في ذلك اليوم في البخاري ٨/٦ (فضائل الصحابة ـ فضل أبو بكر) .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٠ .

تعالى : ﴿ فآتاهُمُ الله ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرةِ . والله يحبُ المحسنين ﴾[1]. وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده . والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه في الصحيح : «أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد »[2] فهذا حمد ، وهو شكر الله تعالى : وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : «اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية ، هو المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الأهلية ـ شرعاً وأمراً ، ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة «فلا ينفع ذا الجد منك » أي لا ينجيه من لا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال : «لا ينفعه منك » ولم يقل : «لا ينفعه عندك» فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ، فقد يظن ذو الجد ـ الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده ـ أنه كذلك ، فقال «ولا ينفع ذا الجد منك » ضمن «ينفع» معنى «ينجي ويخلص» فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ، بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله : ﴿ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[3] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيبُ ﴾[4] وقوله : ﴿ واذْكُرْ اسْمَ

(١) آل عمران : ١٤٨ .

(٢) ورد هذا الحديث في : مسلم ١٩٨/١ (ط الحلبي) بروايات مختلفة وسبق تحقيق الحديث .

(٣) سورة هود الآية ١٢٣ .

(٤) سورة هود الآية ٨٨.

ربَّكَ وتبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً . ربُّ المشرقِ والمغربِ ، لا إله إلاّ هو . فاتَّخِذْهُ وَكيلاً ﴾[1] .

فقوله : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت » توحيد الربوبية الذي يقضي أنه سبحانه : هو الذي يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه . كما يحتج به في القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى : ﴿ ويَعْبُدونَ من دونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ . ويقولون : هؤلاء شُفَعاؤنا عِنْدَ الله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ والذينَ اتَّخذوا من دونِ الله أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ القُرى ، وَصَرَّفْنا الآياتِ لعلّهم يَرْجِعُونَ . فَلَوْلاَ نَصَرَهُمْ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونِ الله قُرْباناً آلهَةً ؟ بلْ ضَلّوا عَنْهُمْ . وَذَلِكَ إفكُهُمْ وَمَا كانوا يَفْتَرونَ ﴾[4] .

وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقضي أن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال : «يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذي بعثك بالحق ، إنك لأحب إلي من نفسي ، قال : الآن يا عمر »[5] .

---

(١) سورة المزمل الآيات (٨، ٩).

(٢) سورة يونس الآية ١٨ .

(٣) سورة الزمر الآية ٣ .

(٤) سورة الأحقاف الآيات (٢٧، ٢٨).

(٥) ورد الحديث أيضاً في : أبو داود (كتاب الوتر)، الترمذي (كتاب الزهد) ابن حنبل ١٤١/٣ .

وقد قال تعالى: ﴿ النبيُّ أولَى بالمؤمنينَ من أنفسِهِمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قلْ إنْ كانَ آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانُكم ، وأزواجُكم ، وعشيرتُكم ، وأموالٌ اقترَفْتُمُوها ، وتجارةٌ تخْشَونَ كَسَادها ، ومساكِنَ تَرْضَوْنَها : أحبَّ إليكم مِنْ الله ورسولِهِ وجهادٍ في سبيلِهِ ، فتَربَّصوا حتى يأْتِيَ الله بأمرِهِ والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ ﴾[2] .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد في سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال ـ على اختلاف أنواعه ـ فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

فهذا التوحيد ـ توحيد الإلهية ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقضي : أن يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[3] .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ويحبونهم كما يحبونه ، فكان ذلك التوحيد ـ الذي هو توحيد الربوبية ـ حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

(الشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضى)

فإن قالوا «ليشفع» فقد قال الله : ﴿ مَنْ ذا الذين يَشْفَعُ عِنْدَهُ الا بإذنه ؟ ﴾[4] فلا يشفع من له شفاعة ـ من الملائكة والنبيين ـ إلا بإذنه ، وأما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم ـ التي مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة ـ فجعل الاستشفاع بها

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٣) سورة هود الآية ١٢٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

استشفاعاً بهم ، فهذا باطل عقلاً وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى فما بقي الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فان المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه ، أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع هي التي حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم مريداً لها ، كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركاً له الى فعل ما سأله .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع فاعلاً للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه ، ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد . فقال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾[1] .

وسيد الشفعاء ﷺ يوم القيامة ، أذا سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة »[2] فالأمر كله لله كما قال : ﴿ قلْ : إنّ الأمرَ كلَّه لله ﴾[3] وقال لرسوله ﴿ ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ ﴾[4] وقال : ﴿ ألَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾[5] .

فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) ورد الحديث في مسلم ١/١٠٠ - ١٠١ (كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة) . وفي البخاري ١٠٦/٦ (كتاب التفسير . سورة الإسراء) وسبق تخريج الحديث تفصيلاً .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

الشفاعة . كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء »[1] .

وإذا دعا الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فإنه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعل سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فانهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة ، وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

(الإذن بالشفاعة نوعان)

فإن الإذن نوعان :

(الأول)

إذن بمعنى المشيئة والخلق، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة ، فمن الأول : قوله في السحر : ﴿ وَمَا هُمْ بضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاّ بإذنِ الله ﴾[2] فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هذا «الإذن » . وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعانِ فبإذنِ الله ﴾[3] فإن الذي أصابهم من القتل

---

(١) ورد الحديث في : البخاري ٢/١٤٠ (كتاب الزكاة ، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها) وأورده البخاري أيضاً في كتاب الأدب ، كتاب التوحيد . وجاء في مسلم ٢/٤٤٦ (كتاب البر، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام)، وأنظر أيضاً : أبو داود (كتاب الأدب).

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٦ .

والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

(الثاني)

والنوع الثاني : قوله : ﴿ إنا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً . وداعياً الى الله بـاذنهِ ﴾[1] وقوله : ﴿ ما قطَعْتُمْ من لينةٍ أو تَرَكْتُمُوها قائمةً على أُصُولها فبإذنِ الله ﴾[2]. فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟﴾ هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ، فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ، ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم : أنه لم يشأه ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدري وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر ـ مثل كثير من النصارى ـ يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير اذن ، لا قدري ولا شرعي .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدري .

(الشفاعة بدون إذن شرعي غير مقبولة)

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي : فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي .

فالداعي المأذون له في الدعاء : مؤثر في الله عندهم ، ولكن بإباحته .

والداعي غير المأذون له : إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره ، والله تعالى يقول : ﴿من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه؟﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ ـ ٤٦).

(٢) سورة الحشر الآية ٥ .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي ، وإن كان خالقاً لفعله .

كشفاعة نوح لابنه .

وشفاعة إبراهيم لابيه .

وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته وقوله :﴿من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه؟﴾ قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدري : لكان كل شفاعة داخلة في ذلك ، كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعي فقط لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي؟ .

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن : هي الشفاهة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي «سمع الله لمن حمده » أي استجاب له . وكما في قوله تعالى : ﴿ هدىً للمتّقين ﴾[1] وقوله : ﴿ إنما أنتَ منذرُ مَنْ يخْشَاهَا ﴾[2] وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ وعيدِ ﴾[3] . ونحو ذلك .

فإن الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل : ﴿ وأما ثمودُ : فهَدَيْنَاهُمْ ، فاستَحَبّوا العَمَى على الهُدى ﴾[4] . فكذلك الشفاعة .

(مقصود الشفاعة)

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع اليه . وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته ، كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ ربِّ إني أعوذُ بكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بهِ عِلْمٌ ، وإلّا تَغْفرْ لي وتَرْحمني أَكُنْ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[5] وكما نهى الله النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً . ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ . إنّهم كفَروا بالله ورسولِهِ . ومَاتوا وهُمْ فاسقونَ ﴾[6] وقال له : ﴿ سواءٌ عليهم أستغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢ .

(٢) سورة النازعات الآية ٤٥ .

(٣) سورة ق الآية ٤٥ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٥) سورة هود الآية ٤٧ .

(٦) سورة التوبة الآية ٨٤ .

لهم . لنْ يغفر الله لهم ﴾[1] ولهذا قال على لسان المشركين :﴿فما لنا مِنْ شافعين . ولا صدِيقٍ حميمٍ ﴾[2] .

(الشفاعة المطلوبة)

فالشفاعة المطلوبة هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً ، فلا بد أن يأذن فيها ، ولا بد أن يجعل للعبد شافعاً ، فهو الخالق لفعله ، والمبيح له، كما في الداعي : هو الذي أمره بالدعاء ، وهو الذي يجعل الداعي داعياً ، فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً . كما قال : ﴿ألا له الخلق والأمر ﴾[3] وقد روي في حديث ـ ذكره ابن أبي حاتم وغيره ـ أنه قال : «فمن يثق به ، فليدعه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

(الشفاعة المنفية)

ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هي الشفاعة المطلقة ، وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة ، بخلاف المردودة : فإن أحداً لا يريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع اليه ، ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها ، والشفاعة المقبولة : هي النافعة . بين ذلك في مثل قوله : ﴿ ولا تَنْفَعُ الشفاعَةُ عندَهُ إلاّ لِمَنْ أذِنَ له ﴾[4] وقوله : ﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلاّ من أَذِنَ لهُ الرحمنُ ورضي لهُ قَوْلاً ﴾[5] فنفى الشفاعة المطلقة ، وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعي ، بمعنى . أباح له ذلك ، وأجازه . كما قال تعالى : ﴿ أُذِنَ للذينَ يُقاتلونَ بأنّهم ظُلموا ﴾[6] وقوله : ﴿ لا تَدْخِلوا بيوتَ النبيِّ إلاّ أنْ يُؤْذَنَ لكم ﴾[7] وقوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الذينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾[8] ونحو ذلك .

وقوله ﴿إلا لمن أذن له﴾ هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿ يومئذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي لا عِوَجَ لهُ . وخَشَعَتِ الأصْواتُ للرحمن فلا تَسْمَعُ إلا هَمْساً ، يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أَذِنَ لهُ

---

(١) سورة المنافقون الآية ٦ .

(٢) سورة الشعراء الآيات (١٠٠ ـ ١٠١).

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤.

(٤) سورة سبأ الآية ٢٣ .

(٥) سورة طه الآية ١٠٩ .

(٦) سورة الحج الآية ٣٩.

(٧) سورة الأحزاب الآية ٥٣.

(٨) سورة النور الآية ٥٨.

الرحمنُ ورضيَ لهُ قَوْلاً ﴾[1] . وفيها قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذي تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين ، لا يذكرون غيره ، لأنه لم يقل «لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال : «لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له» بل قال : «لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له» فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[2] .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقيل لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال : ﴿لمن أذن له﴾ وهو المشفوع له ، الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ لم يعد إلى «الشفعاء» بل عاد إلى المذكورين في قوله ﴿وماهم فيهما من شرك . وما له منهم من ظهير﴾ ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ ثم بين أن هذا منتف ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق﴾ فلا يعلمون ماذا قال : حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فأنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

(اقوال المفسرين في معنى الإذن)

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا للمؤمنين ، وكذلك قال السلف في هذه الآية .

قال قتادة في قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾[3] قال : كان أهل العلم يقولون: إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ ربُّكَ مقاماً محموداً ﴾[4] هو شفاعته يوم القيامة وقوله : ﴿ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لهُ الرحمنُ ورضيَ لهُ قولاً ﴾ إن الله

---

(١) سورة طه الآيات (١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) سورة سبأ الآية ٢٣ .

(٣) سورة طه الآية ١٠٩ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٧٩ .

يشفع المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي : « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله لـه أن يشفع لـه «ورضي له قـولاً » أي ورضي قوله . قال ابن عباس : يعني قال «لا إله إلا الله » قال البغوي . فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القـولين في قـوله تعـالى : ﴿ ولا تنفع الشفـاعة عنـده إلا لمن أذن له ﴾ وقـدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا .

منهم البغوي . فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع لـه . وقال هنـاك : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا: ﴿ هؤلاء شفعاؤ نا عند الله ﴾[1] قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله : ﴿ ولا يملكُ الذين يَدْعُونَ مِنْ دونِـهِ الشفاعـة ، إلا مَنْ شَهِـدَ بالحقِّ ﴾[2] وسنتكلم عـلى هذه الآيـة إن شاء الله تعـالى ، ونبين أن الاستثنـاء فيهـا يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحـانه قـال : ﴿يومئذ لا تنفع الشفـاعة إلا من أذن لـه الرحمن ورضي لـه قولاً﴾ .

و«الشفاعة» مصدر شفع شفاعة . والمصـدر يضاف الى الفـاعل تـارة ، وإلى محل الفعـل تـارة . ويماثله الـذي يسمى لفظه «المفعـول بـه » تـارة ، كـما يقـال : أعجبني دق الثـوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ «العلم» يضاف تارة الى العلم ، وتارة الى المعلوم . فـالأول كقولـه : ﴿ ولا يُحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ ﴾[3] وقوله : ﴿ أنـزلهُ بِعِلْمِـهِ ﴾[4] وقولـه : ﴿ إنما أُنْـزِلَ بعلمِ الله ﴾[5] ونحو ذلك .

والثاني : كقوله : ﴿ إنّ الله عندَهُ عِلْمُ الساعةِ ﴾[6] فـالساعـة هنا معلومـة ، لا عالمـة . وقوله حين قال فرعون : ﴿ فما بال القرونِ الأولى ؟﴾ قال موسى : ﴿ عِلْمُها عندَ ربي في كتابٍ

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة النساء الآية ١٦٦ .

(٥) سورة هود الآية ١٤ .

(٦) سورة لقمان الآية ٣٤ .

لا يضِلُّ ربّي ولا يَنْسَى ﴾[1] ومثل هذا كثير .
فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له .
والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للمذنبين . فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين . من أذن له الرحمن ورضي له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضي له قولاً من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له: ﴿ إلّا من أَذَنَ لَهُ الرحمنُ وقالَ صواباً ﴾[2] فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضي قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه : كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ثم قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

(شرط الشفاعة المقبولة)
إذن الله ، أن تكون حقاً

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال :﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال : ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ﴾ فإذا لم يكن في الكلام حذف كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف ـ تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـ كان المصدر مضافاً الى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف الى بعضهم ، لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله : ﴿ ولكنّ البرّ مَنْ آمَنَ بالله ﴾[3] أي من

---

(١) سورة طه الآيات (٥١ ، ٥٢).
(٢) سورة النبأ الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧.

يؤمن . و﴿ مثَلُ الذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الذي يَنْعَقُ ﴾[1] أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أي الذي ينعق له . والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم . فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفي الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه ، فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولا تشفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين ، فالشافع ينتفع بالشفاعة وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً ﷺ : هو الشفاعة التي يختص بها ، وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية الى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي ﷺ قال : «يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله من شيء يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء» .

وفي الصحيح أيضاً : «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاة أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق . فيقول : أغثني ، أغثني . فأقول : قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء»[2] .

فيعلم من هذا : أن قوله : ﴿ ولا يملكون من دونه الشفاعة ﴾ و﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ على مقتضاه . وأن قوله في الآية : ﴿لا يملكون منه ﴾ كقوله ﷺ : «لا أملك لكم من الله من شيءٍ» وهو كقول إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك لك من الله من شيءٍ ﴾[3] .

---

(1) سورة البقرة الآية ١٧١ .

(2) ورد الحديث في البخاري ١٣٢/٢ (كتاب الزكاة ، باب البيعة على إيتاء الزكاة)، مسلم ١٢٦/٢ (كتاب الإمارة ، باب غلظ تحريم الغلول) والحديث برواية أبي زرعة عن أبي هريرة عن الرسول ، وانظر أيضاً : أبو داود (كتاب الإمارة)، النسائي (كتاب الزكاة).

(3) سورة الممتحنة الآية ٤ .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما الرحمن . لا يَمْلِكونَ منهُ خِطاباً : يَوْمَ يَقُومُ الروحُ والملائكةُ صفّاً . لا يتكلمون إلّا مَنْ أَذِنَ لهُ الرحمنُ، وقال صوابا ﴾[1] . فأن هذا مثل قوله : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة﴾ألا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ ففي الموضعين : اشترط إذنه ، فهناك ذكر «القول الصواب» وهنا ذكر «أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضي الله قوله ، فإن الله إنما يرضى بالصواب .

(أقوال السلف في معنى : لا يملكون منه خطاباً)

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد «لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم ـ أو أعلم ـ التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول «الشفاعة» أيضاً .

وفي قوله﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذا المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أن هذا عام مطلق . فإن أحداً ـ ممن يدعى من دونه ـ لا يملك الشفاعة بحال ، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم .

قال ابن عطية : قوله «لا يملكون» الضمير للكفار . أي لا يملكون من إفضاله وإكماله ـ أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرّحمنِ . فلا تَسْمَعُ إلا همساً ﴾[2] وفي حديث التجلي الذي في الصحيح ـ لما ذكر

---

(١) سورة النبأ الآيات (٣٧، ٣٨).

(٢) سورة طه الآية ١٠٨.

مرورهم على الصراط ـ قال ﷺ : «ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم » فهذا في وقت المرور على الصراط ، وهو بعد الحساب والميزان(١) فكيف بما قبل ذلك ؟

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولي العزم ، وكل يقول «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي » فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون الى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟(٢) .

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال : ﴿ إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغْواً ولا كِذّاباً . جزاءً مِنْ ربِّكَ عطاءً حِساباً . ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكونَ منهُ خطاباً ﴾(٣) .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يقومُ الرُوحُ والملائكة صفًّاً . لا يتكلمونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمنُ ، وقالَ : صَوَاباً ﴾ فقد أخبر : أن «الروح والملائكة» يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله : ﴿لا يملكون منه خطاباً ﴾ والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أي لا أقدر من أمره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه، ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً . ولا الخطاب فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً قال تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيمَ لأبيهِ : لأستغفرنَّ لكَ. وما أمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ ﴾(٤) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله شيئاً . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً «إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً في الدنيا وعمل به . رواه ـ والذي قبله ـ عبد بن حميد . وروي عن عكرمة : «وقال صواباً » قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

---

(١) انظر ما ذكره البخاري في هذا الشأن ١٥٦/٩ ـ ١٥٨ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) وانظر أيضاً : مسلم (كتاب الإيمان حديث الشفاعة).

(٢) انظر في ذلك حديث الشفاعة الذي رواه مسلم (في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة) البخاري ١٠٦/٦ ـ ١٠٧ (كتاب التفسير ، سورة الإسراء) وانظر أيضاً الترغيب والترهيب للمنذري ٣٩٨/٥ ـ ٤٠٦ ، تيسير الوصول ١٠٣/٤ ـ ١٠٥ .

(٣) سورة النبأ الآيات (٣١ ـ ٣٨).

(٤) سورة الممتحنة الآية ٤ .

وقوله في سورة طه :﴿لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة . وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين :«أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟»(١) فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم.

وفي حديث الشفاعة «أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذهشفاعة أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ . ويشفع غيره في العصاة .

فقوله : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب . وهو سبحانه في هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال : ﴿ وقال صواباً﴾ وقال : ﴿ ورضي له قولاً﴾ لكن قد دل الدليل على أن «القول الصواب المرضي» لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ، لكن نفس القول مرضي فقد قال الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب﴾(٢).

وذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع . ومحل «من» الرفع .

والثاني : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان: أحدهما : أنه أراد بـ«الذين يدعون من دونه» آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال : ﴿ إلا من شهد بالحق﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله﴿وهم يعلمون﴾بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بـ﴿الذين يدعون﴾عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد﴿إلا من شهد بالحق﴾ وهي كلمة الإخلاص﴿وهم يعلمون﴾أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي :﴿لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق﴾هم عيسى

---

(١) انظر ما سبق . وقد ورد هذا الحديث في مسلم ١ / ١٠٠ ـ ١٠١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) والحديث برواية قتادة عن أنس عن النبي ﷺ ، وفيه « . . . يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك) وقال ابن عبيد : فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيأتون آدم فيقولون . . .) الحديث .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

وعزير والملائكة . فإنهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون «من» في محل رفع وقيل «من» في محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم. روى بإسناده المعروف عن مجاهد - على شرط الصحيح - عن مجاهد قوله ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿إلا من شهد بالحق﴾ يعلم الحق . هذا لفظه . جعل «شفع» متعدياً بنفسه وكذلك لفظ «شهد»[1] .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و«شفع» أي صار شفيعاً للطالب . أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ أن الله ربهم .

وروى بإسناده عن قتادة : ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ الملائكة وعيسى وعزير ، أي إنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

(رأي ابن تيمية)

قلت : كلا القولين معناه صحيح . لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله : فإنه لم يقل . ولا يشفع لأحد ، ولا قال ، لا يشفع لأحد ، بل قال :﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ وكل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة البتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء ﷺ لم يعبد كما عبد المسيح ، وهو - مع هذا - له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن نثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه . أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

---

(١) مابين المعقوفتين مكانة بياض ف (ط السعودية) و(مجموعة شذرات البلاتين) والسياق العام لرأي مجاهد وتفسير ابن تيمية له يدل على أن الكلمة الناقصة هي التي أضفناها لتوضيح المعنى .

وأيضاً فقوله : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ يتناول كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال تعالى : ﴿ ويَعْبُدونَ مِنْ دونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ . ويَقولونَ : هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ الله ؟ قلْ : أَتُنَبِّئُونَ الله بما لا يَعلمُ في السموات ولا في الأرض ؟﴾(١) .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا أثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالوا : اتَّخَذَ الرحمنُ ولداً . سُبحانَهُ ! بلْ عِبادٌ مُكْرمونَ ، لا يَسْبِقونَهُ بالقولِ ، وَهُمْ بأَمْرِهِ يَعملونَ . يَعلم ما بينَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ . ولا يَشْفَعُونَ لِمَنْ ارْتَضَى . وهم مِنْ خشيته مُشفقونَ ﴾(٣) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه ، نفاها مطلقاً ، فإن قوله: ﴿من دونه﴾ إما أن يكون متصلاً بقوله : ﴿يملكون﴾ أو بقوله : ﴿يدعون﴾ أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر ، لأنه قال : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ فأخر﴿الشفاعة﴾ وقدم ﴿من دونه﴾ .

ومثل هذا كثير في القرآن ﴿يدعون من دون الله﴾ و﴿يعبدون من دون الله﴾ كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾(٤) وقوله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾(٥) .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو

---

(١) سورة يونس الآية ١٨ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ ـ ٢٨) .

(٤) سورة يونس الآية ١٨ .

(٥) سورة يونس الآية ١٠٦ .

لمن ارتضى ، ونحو ذلك . لا يقال في هذا المعنى ﴿من دونه﴾ فإن الشفاعة هي من عنده . فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل ﴿الذين يدعون﴾ مطلقاً . دخل فيه الرب تعالى . فإنهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره ، ولهذا قال : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾[1] .

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذي قبله ، ولكن يرد عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفها : أن ﴿الشفاعة﴾ لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال : ﴿لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشيء : هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ، ولا يقال في هذا ﴿إلا بإذنه﴾ إنما يقال ذلك في الفعل ، فيقال : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ .

وأما في الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها ، فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع ان يكون خالقاً ورباً ، وهذا كما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ الله لا يَمْلِكون مِثْقَال ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرض ، وما لَهُمْ فيهما مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ من ظهير ﴾[2] فنفى الملك مطلقاً ، ثم قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له في الملك ، قال تعالى : ﴿ تباركَ الذي نَزَّل الفُرْقان على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً . الذي لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرض . ولَمْ يتَّخِذْ وَلَداً . ولم يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في الملك . وخَلَق كُلَّ شيءٍ فقَدَّرَه تقديراً ﴾[3] .

ولهذا لما نفى الشفعاء من دونه ـ نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء وإنما يقع الاستثناء : إذا لم يقيدهم من دونه . كما قال تعالى : ﴿ وانذِرْ بِهِ الذينَ يَخافونَ أنْ يُحْشروا الى ربهِمْ ، ليسَ لَهُمْ مِنْ دونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[4] وكما قال تعالى : ﴿ وذَكِّر بِهِ أَنْ تُبْسَل نَفْسٌ بما كَسَبَتْ . ليسَ لها

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان الآيات (١ - ٣) .

(٤) سورة الأنعام الآية ٥١ .

مِنْ دونِ الله وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ ما لَكُمْ مِنْ دونهِ مِنْ وليٍّ ولا شفيعٍ ﴾[2] فلما قال : ﴿من دونه﴾ نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر ﴿بإذنه﴾ لم يقل «من دونه» كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ وقوله : ﴿ ما مِنْ شفيعٍ إلاّ مِنْ بعْدِ إذْنِهِ ﴾[3] .

فمن تدبر القرآن : تبين له كما قال تعالى : ﴿ الله نزَّل احْسَنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابهاً ، مَثَانِي ﴾[4] يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً . ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ ولَوْ كانَ مِنْ عندِ غيْرِ الله : لوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً ﴾[5] .

وهو «مثاني » يثني الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة ، وهو «المتشابه» .

وإما مماثلة ، وهي : الأصناف والأقسام والأنواع ، وهي «المثاني » .

و«التثنية» يراد بها . جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط كما في قوله تعالى ﴿ أرْجِع البصَرَ كرّتَيْنِ ﴾[6] يراد به : مطلق العدد ، كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا : وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه : «جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لي . رب اغفر لي » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثني هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثني لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : «إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول في ركوعه : «سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم » وذكر : «أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول في سجوده : رب اغفر لي . رب اغفر لي » .

وقد صرح في الحديث الصحيح : «أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران »، فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر «أنه كان يقول : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم . سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى ».

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاقتصار على مرتين فإن

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٠.

(٢) سورة السجدة الآية ٤ .

(٣) سورة يونس الآية ٣.

(٤) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٢.

(٦) سورة الملك الآية ٤.

«الاثنين» أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعني أنه عدد هذا اللفظ ، لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد : يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد في كل حساب .

و«بالمتشابه» في النظائر المتماثلة . و«المثاني» في الأنواع . وتكون التثنية في المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثني في القرآن لفوائد أخر.

و«المثاني» تعم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب: هي (السبع المثاني) لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

(الشفاعة لمن شهد بالحق)

والمقصود هنا : أن قوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة البتة . ثم استثنى ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين. فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون في أحد ؟ فقال : نعم ﴿من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا . وهم لا يؤذن لهم في الشفاعة إلا للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون أنه قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل في قبره ؟ « ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله ، جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته» [1] فلهذا قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وقد تقدم قول ابن عباس : يعني من قال: «إلا إله إلا الله» يعني : خالصاً من قلبه .

---

(١) ورد الحديث في البخاري ٢/١٢٢ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر).

الحديث برواية أنس عن الرسول ﷺ أنه قال : أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيعقدانه فيقولون ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد) ﷺ ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة . . . قال وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول : لا أدري : كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لادريت ولا تليت . . » وأنظر مسلم : كتاب الجنائز .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون في أهل «لا إله إلا الله» .

وقد ثبت في صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ : «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة . من قال : «لا إله إلا الله» خالصاً من قبل نفسه» [١] .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا أن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

فإذا شهدوا ـ وهم يعلمون ـ كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعاً لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ـ في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة : ﴿ حتى إذا خلص المؤمنون من النار : فوالذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ـ وذكر تمام الحديث» .

(سبب نزول الآية)

وسبب نزول الآية ـ على ما ذكروه ـ مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج بن الجوزي : سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا : «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

---

(١) ورد الحديث في البخاري ١٤٦/٨ (كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار) وكذا أورده البخاري في كتاب العلم ، ابن حنبل ٣٧٢/٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم ، بالذي يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن : ﴿ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فان الله يشفع فيه .

فالذي تنال به الشفاعة : هي الشهادة بالحق وهي شهادة أن لا إله إلا الله لا تنال بتولي غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له ، لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ـ ليشفعوا لهم ـ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم ، به حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم . لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون ، وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام ، الذي يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانة ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿ قل ادْعوا الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ الله ، فلا يملكونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكم ولا تحويلاً . أولئكَ الذينَ يدْعُونَ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهمُ الوسيلة أيُّهم أقربُ ، ويرْجُونَ رَحْمَتَهُ ، ويخافونَ عذَابَهُ ، إنّ عذاب ربِّكَ كانَ مَحْذوراً ﴾[1] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة ، فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ، ثم قال : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ فبين : أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾[2] .

---

(١) سورة الإسراء الآيات (٥٦ ـ ٥٧).

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٠.

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضع .

فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي ﷺ ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط ، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه كان ذلك سبباً لشفاعته له ، وليس الأمر كذلك .

(رأي ابن تيمية)

بل الشفاعة ، سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ، فإن الشفاعة من الله مبدؤها وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه . وهو الذي يأذن للشافع ، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له .

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل في تحقيق أخلاص «لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون ـ الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم فاستحقوا النار ـ، من كان منهم من أهل «لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله في النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود ، ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله،على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهي «لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون .

(دعاء الرسول يجمع بين الحمد الشكر)

والمقصود هنا : أن النبي ﷺ كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر، وبين « التوحيد والاستغفار » ، إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ : لا مانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت . ولا ينفع ذا

الجد منك الجد » ثم يقول : (اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس) كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ ـ إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)(١) .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ ـ إذا رفع رأسه من الركوع ـ قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ)(٢) .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي ﷺ : أنه كان يقول : (اللهم لك الحمد) وقال (ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما) .

ولم يذكر في بعض الروايات. لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال في القرآن : ﴿ هوَ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في سِتّةِ أيامٍ ثمّ اسْتَوَى على العرشِ ﴾(٣) ولم يقل ﴿ وما بينهما ﴾ كما يقول : ﴿ اللّهُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستةِ أيامٍ ، ثمْ اسْتَوَى على العرشِ ما لَكُمْ من دونِهِ مِنْ وليٍّ شفيعٍ ﴾(٤) .

فتارة يذكر قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ فيما خلقه في ستة أيام، وتارة لا يذكره . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل في لفظ ﴿ السموات والأرض ﴾ . ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول : (ملء السموات وملء الأرض) ولا يقول : (وما بينهما) وتارة يقول : (وما بينهما) وفيها كلها (وملء ما شئت من شيء بعد) وفي رواية أبي سعيد (أحق ما قال العبد) إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد بإزاء النعمة ، والاستغفار : بإزاء الذنوب .

---

(١) انظر هذا الحديث في مسلم ١/١٩٨ ـ ١٩٩ (كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) .

(٢) نفس المرجع وانظر تخريج هذه الأحاديث تفصيلاً

(٣) سورة الحديد الآية ٤ .

(٤) سورة السجدة الآية ٤ .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[1] .

ففي سيد الاستغفار : (أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي)[2] وفي حديث أبي سعيد : (الحمد رأس الشكر ، والتوحيد) كما جمع بينهما في أم القرآن[3] ، فأولها : تحميد وأوسطها : توحيد . وآخرها دعاء . وكما في قوله : ﴿هو الحيُّ لا إله إلا هوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ ، الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمينَ﴾[4] .

وفي حديث الموطأ : (أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلي : لا إلـه إلا الله ، وحده لا شريك لـه ، له الملك ولـه الحمد . وهـو على كـل شيء قديـر . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة . وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه . ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر) .

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة ؛ وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله : (لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له) توحيد . وقولـه (له الملك ولـه الحمد) تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : (سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً . (إن هذا يقال عقب الوضوء) .

ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول أشهد

---

(١) سورة النساء الآية ٨٩ .

(٢) حديث سيد الاستغفار رواه البخاري في (كتاب الدعوات . باب ما يقول إذا أصبح) وهو عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي . . . إلخ) .

(٣) انظر تفسير سورة الفاتحة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وانظر كتاب التوحيد لابن تيمية تحقيق محمد السيد الجليند ط دار الفكر الحديث . سنة ١٩٧٣م ففيه تفصيل رأي ابن تيمية في الجمع بين الحمد والشكر ، وانظر رسالة « الشكر » لابن تيمية ضمن جامع الرسائل تحقيق د . محمد وشاد سالم .

(٤) سورة غافر الآية ٦٥ .

أن لا إلٓه إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء)[١] وفي حديث آخر أنه يقول : (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إلٓه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) .

وقد روي عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي . إنك خير الغافرين » «اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خيرالراحمين » ﴿ لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب علي ، إنك انت التواب الرحيم ﴾ .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار.

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو .

والإستغفار : من ذنوب النفس ، التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد ، والاستغفار في غير موضع كقوله : ﴿ فاعْلَمْ أنه لا إلهَ إلا الله ، واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وللمؤْمِنِينَ والمؤمناتِ ﴾[٢]، وفي قوله : ﴿ أَنْ لا تَعْبُدوا إلا الله . إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ . وأنُ اسْتغْفِروا ربَّكم ثمّ توبوا اليه ﴾[٣] . وفي قوله : ﴿ قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحي إلى أنما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ ، فاسْتَقِيموا إليه ، واسْتَغْفِرُوهُ ﴾[٤] .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رايت ذلك بثثت فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[٥] .

ولا «لا إله إلا الله » تقتضي الإخلاص والتوكل . والإخلاص الشكر ، فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الإيمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الإيمان

(١) ورد هذا الحديث في مسلم ١١٨/١ (كتاب الطهارة ، باب ذكر المستحب عقب الوضوء) .

(٢) سورة محمد الآية ١٩ .

(٣) سورة هود الآية ٢ .

(٤) سورة فصلت الآية ٦ .

(٥) وانظر في فضل الجمع بين الحمد والاستغفار : صحيح مسلم ٤٤٦/٢ ـ ٤٨٧ (كتاب الذكر والدعاء ، أبواب فضل التهليل والتسبيح ، استحباب الاستغفار ، باب سبحان الله وبحمده) .

بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة ، أعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[1] .

فـ«لا إله إلا الله » هي قطب رحى الإيمان ، واليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة في قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهي معنى : «لا إله إلا الله » و«لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى : «لا إله إلا الله » و«الحمد لله » في معناها ، و«سبحان الله ، والله اكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصل

(رأى ابن فورك)

وقد ظن بعض المتأخرين ان معنى قوله : «فمن نفسك» أي أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ، فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان أي بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشارع :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

(الرد عليه)

قلت : وإضمار الاستفهام ـ إذا دل عليه الكلام ـ لا يقتضي جواز إضماره في الخبر المخصوص من غير دلالة ، فإن هذا يناقض المقصود ، ويستلزم أن كل من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر في خبره استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ هذا

---

(١) انظر في هذا الحديث : البخاري ١/ ١٢ (كتاب الإيمان ، باب الحياء من الإيمان) وفيه « . . فإن الحياء من الإيمان» مسلم ١/ ٣٦ (كتاب الإيمان ، باب شعب الإيمان) والحديث من رواية أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال : الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ، وانظر أيضاً : أبو داود (السنة)، الترمذي (كتاب البر). والنسائي (الإيمان)، ابن حنبل ٣/ ٥٦ .

ربي ﴾[1] أهذا ربي ؟

قال ابن الأنباري : هذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالدون ؟﴾[2] .

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الإستفهام في أول الجملة ، في الجملة الشرطية ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشرٍ قَبْلَكَ الخُلْد﴾ فلم يحتج الى ذكره ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أعقابِكُمْ ؟ ﴾[3] وقوله : ﴿ أفكُلَّما جاءَكُمْ رسولٌ بما لا تَهْوَى أنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟﴾[4] وقوله : ﴿ أَوَ كُلَّما عاهَدوا عهْداً نَبَذَهُ فريقٌ مِنْهُمْ ؟﴾[5] وهذا من فصيح الكلام وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدري ، وإن كنت دارياً ... بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالاً ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه ، لأن قوله فيما بعد «أم بثمان» و«أم رأيت» يدل على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني : فإن كانت «أم» هي المتصلة فكذلك . وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : أن المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

(الله لا يهلك احداً ولا يعذبه إلا بذنب)

والقرآن يبين في غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هناك : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ وقال لهم في شأن أحد : ﴿ أو لما أصابتْكُمْ مصيبةٌ قد

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٨٧ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٠٠ .

أصبْتُمْ مِثْليها . قلتم : أنّى هذا ؟ قلْ : هُوَ مِنْ عندِ أنْفُسكم ﴾[1] وقال : ﴿ وما أصابتْكم مِنْ مُصيبةٍ فبما كَسبَتْ أيْديكم . ويعفو عَنْ كثيرٍ ﴾[2] وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً : ﴿ وإنْ تُصِبهم سيئةٌ بما قدَّمتْ أيديهم فإنّ الإنسانَ كفورٌ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أتاكُمْ عَذابهُ بياتاً أو نهاراً ماذا يستَعْجِل مِنْهُ المجرمونَ ؟﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وما أَهْلكْنا من قريةٍ إلا لها مُنذرونَ . ذِكْرَى وما كُنّا ظالمينَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وما كانَ ربُّكَ مُهْلكَ القُرى حتى يبعثَ في أُمِّها رسولاً يَتْلُوا عليهم آياتنا . وما كنا مُهْلكي القرى إلا وأهلُها ظالمونَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبَتْ أيدي الناس ، ليذِيقهُمْ بعضَ الذي عَمِلوا . لعلهم يَرْجِعونَ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم مِنَ العذابِ الأدنى دون العذابِ الأكبرِ . لعلهم يَرْجِعونَ ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بما كَسبوا . ويَعْفُ عَنْ كثيرٍ ﴾[9] وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب : ﴿ ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لَوْ كانوا يعلمونَ ﴾[10]وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ ما يُنْفقونَ في هذه الحياةِ الدنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قوم ظَلموا أنفُسهَم فأهلكَتْهُ . وما ظلَمَهُم الله . ولكنْ أَنْفسهم يظلمون ﴾[11] وقال تعالى : عن أهلِ سبأ : ﴿ فأعْرَضوا فأرسلْنَا عليهم سَيْلَ العرِمِ - إلى قوله - ذلكَ جَزَيْناهم بما كفروا . وَهَلْ نُجازي إلا الكفورَ ؟ ﴾[12]وقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أخذُ ربِّكَ إذا أَخَذ القرى وهي ظالمةٌ . إنّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ ﴾[13]. وقال تعالى : ﴿ وما كُنّا مُعَذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً ﴾[14].

وفي الحديث الصحيحِ الإلهي : «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله ومن وجد غير ذلك : فلا يلومنّ إلا نفسه » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٨ .

(٤) سورة يونس الآية ٥٠ .

(٥) سورة الشعراء الآيات (٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٦) سورة القصص الآية ٥٩ .

(٧) سورة الروم الآية ٤١ .

(٨) سورة السجدة الآية ٢١ .

(٩) سورة الشورى الآية ٣٤ .

(١٠) سورة القلم الآية ٣٣ .

(١١) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(١٢) سورة سبأ الآيات (١٦ ، ١٧) .

(١٣) سورة هود الآية ١٠٢ .

(١٤) سورة الإسراء الآية ١٥ .

وفي سيد الاستغفار : «أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى : ﴿ وإنّ للذينَ ظلموا عذاباً دونَ ذلكَ . ولكنّ أكثرهم لا يعلمونَ ﴾[1] .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسولـه محمد وآلـه وصحبه وسلم : ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــل

قـال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أحسنُ دينـاً ممّن أسلم وجهَهُ لله وهـوَ محسنٌ واتّبـعَ مِلّةَ إبـراهيمَ حنيفاً ، واتّخَذَ الله إبراهيم خليلاً ﴾ فنفى أن يكون دين أحسن من هذا الدين ، وأنكر على من أثبت ديناً أحسن منه ، لأن هذا استفهام إنكار ، وهو إنكار نهي وذم لمن جعل ديناً أحسن من هذا .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : إن المسلمين وأهل الكتاب افتخـروا فقال أهـل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتـابنا قبـل كتابكم ، ونحن أولى بـالله منكم ، وقـال المسلمون : نحن أولى بالله تعالى منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنـزل الله تعالى : ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ﴾ الآية[2] .

وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال . لما نزلت هـذه الآية : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب مَنْ يعملْ سوءاً يُجْزَ بـهِ ﴾[3] قال أهـل الكتاب : نحن وأنتم سـواء ، حتى نزلت ﴿ ومَنْ يعْمَـلْ من الصالحـات من ذكرٍ أو أنثى وهـو مؤمنٌ ﴾ الآية . ونزلت فيهم أيضاً ﴿ وَمَنْ أحسن ديناً ﴾ الآية .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٧ .

(٢) ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره هذه الروايات التي أوردها ابن تيمية في سبب نزول الآية . فذكـر رواية أبي الضحى عن مسروق ، ورواية الأعمش عن مسروق أيضاً ثم ذكر رواية قتـادة والسدى والضحـاك وابن عباس . وهـذه الروايـات على اختلافها في اللفظ إلا أنها تجمع على أن الآية نزلت في حوار وقع بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود أو النصارى .
فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين ابراهيم ولن يـدخل الجنـة إلا من كان هـوداً ، وقالت النصـارى مثل ذلـك . فقال المسلمـون : كتابنـا بعد كتـابكم ، ونبينا بعـد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم ، نحن عـلى دين إبراهيم وإسمـاعيل وإسحـاق ولن يدخـل الجنة إلا من كان على ديننا ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ ليس بأمـانيكم . . ﴾ الآية ثم فضـل الله المؤمنين عليهم بقـوله ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ .
انظر تفسير الطبري ٥/ ١٧٠ ـ ١٧٢ . ط الميمنية بالقاهرة .

(٣) سورة النساء الآية ١٢٢ .

وقد روي عن مجاهد قال قالت قريش : لا نبعث أو لا نحاسب ، وقال أهل الكتاب : ﴿ لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة ﴾ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليسَ بأمانيكم ولا أماني أهل الكتابِ ﴾ وهذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأميين وأهل الكتاب ، لاعتقادهم أنهم لا يعذبون العذاب الدائم ، والأول أشهر في النقل وأظهر في الدليل ، لأن السورة مدنية بالاتفاق ، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية .

وأيضاً : فإنه قد استفاض من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ بهِ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، حتى يبين لهم النبي ﷺ أن مصائب الدنيا من الجزاء ، وبها يجزى المؤمن ، فعلم أنهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار .

وأيضاً قوله بعد هذا : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾[(1)] وقوله : ﴿ ومن أحسن دينا ﴾ يدل على أن هناك تنازعاً في تفضيل الأديان ، لا مجرد إنكار عقوبة بعد الموت .

وأيضاً فما قبلها وما بعدها خطاب مع المؤمنين وجواب لهم ، فكان المخاطب في هذه الآية هو المخاطب في بقية الآيات .

فإن قيل : الآية نص في نفي دين أحسن من دين هذا المسلم ، لكن من أين أنه ليس دين مثله ؟ فإن الأقسام ثلاثة : إما أن يكون ثم دين أحسن منه ، أو دونه أو مثله وقد ثبت أنه لا أحسن منه فمن أين في الآية أنه لا دين مثله ؟ ونظيرها قوله : ﴿ وَمَنْ أحسنُ قولاً مِّمن دَعا الى الله ، وعَمِلَ صالحاً ، وقال إنني من المسلمين ﴾[(2)] .

قيل : لو قلنا في هذا المقام : إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا ، فإن الخطاب له مقامات .

وقد يكون الخطاب تارة بإثبات صلاح الدين ، إذا كان المخاطب يدعي أو يظن فساده .

ثم في مقام ، بأن يقع النزاع في التفاصيل ، فيبين أن غيره ليس أفضل منه .

ثم في مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره .

وهكذا إذا تكلمنا في أمر الرسول ، ففي مقام نبين صدقه وصحة رسالته وفي مقام بأن

---

(1) سورة النساء الآية ١٢٤ .

(2) سورة فصلت الآية ٣٣ .

نبين أن غيره ليس أفضل منه ، وفي مقام ثالث نبين أنه سيد ولد آدم ، وذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب .

ثم نقول : يدل على أن هذا الدين احسن وجوه :

« أحدها » أن هذه الصيغة وإن كانت في أصل اللغة لنفي الأفضل لدخول النفي على أفعل ، فإنه كثيراً ما يضمر بعرف الخطاب . يفضل المذكور المجرور بمن مفضلاً عليه في الإثبات ، فإنك إذا قلت : هذا الدين أحسن من هذا كان المجرور بمن مفضلاً عليه ، والأول مفضلاً ، فإذا قلت لا أحسن من هذا ، أو من أحسن من هذا ؟ أو ليس فيهم أفضل من هذا ، أو ما عندي أعلم من زيد. أو ما في القوم أصدق من عمرو ، أو مافيهم خير منه ، فإن هذا التأليف يدل على أنه أفضلهم وأعلمهم وخيرهم ، بل قد صارت حقيقة عرفية في نفي فضل الداخل في أفعل ، وتفضيل المجرور على الباقين ، وأنها تقتضي نفي فضلهم وإثبات فضله عليهم ، وضمنت معنى الاستثناء . كأنك قلت : ما فيهم أفضل إلا هذا ، أو ما فيهم المفضل إلا هذا ، كما أن [إن] إذا كفّت بما النافية صارت متضمنة للنفي والإثبات .

وكذلك الإستثناء ، وإن كان في الأصل للإخراج من الحكم ، فإنه صار حقيقة عرفية في مناقضة المستثنى منه ، فالاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي ، واللفظ يصير بالاستعمال له معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع .

وكذلك يكون في الأسماء المفردة تارة ، ويكون في تركيب الكلام أخرى ، ويكون في الجمل المنقولة كالأمثال السائرة جملة ، فيتغير الاسم المفرد بعرف الاستعمال عما كان عليه في الأصل ، إما بالتعميم وإما بالتخصيص وإما بالتحويل كلفظ الدابة والغائط والرأس . ويتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره . كما في زيادة حرف النفي في الجمل المتمثل بها ، كما في قولهم : ﴿ يداك أوكتا وفوك نفخ ﴾ و«عسى الغوير بؤساً » .

«الوجه الثاني» إنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير إما أن يكون مثله أو دونه ، ولا يجوز أن يكون مثله ، لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه في جميع الوجوه كان هو إياه ، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين ، فإن اختلافهما اختلاف ضد التماثل ، فكيف يكونان مختلفين متماثلين ؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع ، فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب ، والآخر يقول أنها باطل محرم فمن المحال استواء هذين الاعتقادين .

وكذلك الاقتصادان ، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه ، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم ، فإن دينهم واحد ، كل

منهم يعتقد ما يعتقده الآخر ، ويعبده بالدين الذي يعبده ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لا بد أن يكون أحدهما أحسن عند الله ، فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل ، فذاك الصواب هو أحسن عند الله ، وإن كان أحدهما يقر الآخرة فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحاً ، وإنما يمنع أن يكون محرماً .

وإذا كان هذا في دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول ؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد ، وإنما تنازعوا في المخطىء هل يغفر له أو لا يغفر ، وهل يكون مصيباً بمعنى أداء الواجب ؟ وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد ؟ فإن هذا لا يقوله عاقل : إن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صواباً .

فتلخيص الأمر أن هذا المقام إنما فيه تفضيل قول وعمل على قول وعمل ، فالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة ، بل ومن قال بأن كل مجتهد مصيب قد لا ينازع أن أحدهما أحسن وأصوب ، ولا يدعي تماثلهما . وإن ادعاه فلم يدّعه الا في دق الفروع ، مع أن قوله ضعيف مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف .

وأما الحل فلم يدّع مدّع تساوي الأقسام فيه ، وهذا بخلاف التنوع المحض مثل قراءة سورة وقراءة سورة أخرى ، وصدقة بنوع وصدقة بنوع آخر . فإن هذا قد يتماثل ، لأن الدين واحد في ذلك من كل وجه ، وإنما كلامنا في الأديان المختلفة ، وليس هنا خلاف بحال .

وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج الى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل . وكذلك لما سمعوا قوله : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ كان في هذا ما يخاف انتقاصهم إياه .

هذا مع أن نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة شاهدة بتفضيل النبيين على بعض ، الرسل على بعض ، قاضية لأولي العزم بالرجحان ، شاهدة بأن محمداً ﷺ سيد ولد آدم ، وأكرم الخلق على ربه ، لكن تفضيل الدين الحق امر لا بد من اعتقاده ، ولهذا ذكره الله في الآية .

وأما تفضيل الأشخاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت ، فالدين الواجب لا بد من تفضيله ، إذ الفضل يدخل في الوجوب ، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى .

وأما الدين المستحب : فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب ، وإلا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلاً من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره

أفضل منها ، لأنه يتشوف الى الأفضل فلا يقدر عليه ، والمفضول يعرض عنه .

وكما أنه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته إذا كان يترك طريقته ، ولا يسلك تلك ، فليس أيضاً من الحق أن يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها ، بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به الى رحمة الله تعالى ، فإن بعض المتفقهة يدعون الرجل إلى ما هو أفضل من طريقته عندهم ، وقد يكونون مخطئين فلا سلك الأول ولا الثاني . وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض ، وطريقته أفضل الطرق . وكلاهما انحراف ، بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه ، ولا ينقل من طاعة الله ورسوله بطريقته ، وإن كان فيها نوع نقص أو خطأ ، ولا يبين له نقصها إلا إذا نقل الى ما هو أفضل منها ، وإلا فقد ينفر قلبه عن الأول بالكلية حتى يترك الحق الذي لا يجوز تركه ، ولا يتمسك بشيء آخر . وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استقصاءه ، وهو مبني على أربعة أصول :

« أحدها » : معرفة مراتب الحق والباطل ، والحسنات والسيئات ، والخير والشر ، ليعرف خير الخيرين وشر الشرين .

« الثاني » : معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب ، وما يستحب من ذلك وما لا يستحب .

« الثالث » : معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الإمكان والعجز ، وأن الوجوب والاستحباب قد يكون شروطاً بإمكان العلم والقدرة .

« الرابع » : معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم ، ليؤمر كل شخص بما يصلحه ، أو بما هو الأصلح له من طاعة الله ورسوله ، وينهى عما ينفع نهيه عنه ولا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شر من المنهي عنه مع الاستغناء عنه .

وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية ـ من أن دين من أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم ، هو أحسن الأديان ، أمر متفق عليه بين المسلمين ـ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل من يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ، ومبين وجه الحكم ، فإنه بيّن بهذه الآية وجه التفضيل بقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ وبقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ فإن الأول بيان نيته وقصده ، ومعبوده وإلهه ، وقوله : ﴿ وهو محسن ﴾ فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه ، وبالعقل ما هو مثله ، فثبت أنه أحسن الأديان .

« الوجه الثالث » : أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل ؟ فلم يقل لهما : أن الدينين سواء ، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما ، لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفضيل أحد الدينين ، فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك الى الكبر والخيلاء والفخر ، فقيل للجميع : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ سواء كان دينه فاضلاً أو مفضولاً ، فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة (قال تعالى) : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ إلى قوله : ﴿ لواقع ﴾ .

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي ﷺ أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب ، بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ﴾ الآية . فبيّن أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان ، وإن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان ، فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات ، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان ، ثم بيّن بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله : ﴿ ومن أحسن ديناً ﴾ فجاء الكلام في غاية الإحكام .

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نهي النبي ﷺ أن يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول والغض منه ، كما قال ﷺ : «لا تفضلوا بين الأنبياء » وقال : « لا تفضلوني على موسى» بيان لفضله ، وبهذين يتم الدين .

فإذا كان الله هو المعبود وصاحبه قد أخلص له وانقاد ، وعمله فعل الحسنات فالعقل يعلم أنه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا ، بخلاف دين من عند غير الله وأسلم وجهه له ، أو زعم أنه يعبد الله لا بإسلام وجهه ، بل يتكبر كاليهود ، ويشرك كالنصارى ، أو لم يكن محسناً بل فاعلاً للسيئات دون الحسنات ، وهذا الحكم عدل محض ، وقياس وقسط ، دل القرآن العقلاء على وجه البرهان فيه .

وهكذا غالب ما بيّنه القرآن فإنه يبيّن الحق والصدق ، ويذكر أدلته وبراهينه ، ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة ، إن دلالته سمعية خبرية ، وأنها واجبة لصدق المخبر ، بل دلالته أيضاً عقلية برهانية ، وهو مشتمل من الأدلة والبراهين على أحسنها . وأتمها بأحسن بيان ، لمن كان له فهم وعقل ، بحيث إذا أخذ ما في القرآن من ذلك ، وبيّن لمن لم يعلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول ، و يظن فيه (ظناً) مجرداً عن ما يجب من قبول قول المخبر ، كان فيه ما يبيّن صدقه ، ويبرهن عن صحته .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

فصل

في قوله تعالى : ﴿ ولا تُجادِلْ عَنِ الذينَ يَخْتانونَ أَنْفُسَهم إنّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً [1] ﴾ فقوله : ﴿ يختانون أنفسهم ﴾ مثل قوله في سورة البقرة ﴿ عَلِمَ اللهُ أنّكم كنتم تَخْتانونَ أنفُسَكم ﴾ [2] قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين : معناه تخونون أنفسكم ، زاد بعضهم : تظلمونها . فجعلوا الأنفس مفعول (تخونون) وجعلوا الإنسان قد خان نفسه أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيرق - أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة - وهذا القول فيه نظر . فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه ، سواء فعله سراً أو علانية .

وإذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتكاب ما حرم عليها كان كل مذنب مختاناً لنفسه ، وإن جهر بالذنوب ، وكان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء وللمؤمنين اختياناً لأنفسهم ، وكذلك قطع الطريق والمحاربة ، وكذلك الظلم الظاهر ، وكان ما فعله قوم نوح وهود وصالح وشعيب اختياناً لأنفسهم .

ومعلوم أن هذا اللفظ لم يستعمل في هذه المعاني كلها ، وإنما استعمل في خاص من الذنوب مما يفعل سراً ، وحتى قال ابن عباس في قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ عنى بذلك فعل عمر ، فإنه روى أنه لما جاء الأنصاري فشكى أنه بات الليلة ولم يتعش لما نام قبل العشاء ، وكان من نام قبل الأكل حرم عليه الأكل ، فيستمر صائماً ، فأصبح يتقلب ظهراً لبطن ، فلما شكا حاله إلى النبي ﷺ قال عمر : يا رسول الله اني أردت أهلي الليلة فقالت أنها قد نامت فظننتها لم تنم فواقعتها . فأخبرتني أنها كانت قد نامت ، قالوا : فأنزل الله في عمر : ﴿ أُحِلَّ لكم ليلةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكم ﴾ .

وقد قيل : إن الجماع ليلة الصيام كانوا منهيين عنه مطلقاً ، بخلاف الأكل ، فإنه كان مباحاً قبل النوم . وقد روي أن عمر جامع امرأته بعد العشاء قبل النوم ، وأنه لما فعل أخذ يلوم نفسه . فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أعتذر الى الله ! أعتذر إلى الله من نفسي هذه الخائنة ، إني رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسوّلت لي نفسي فجامعت أهلي . فقال النبي ﷺ : « ما كنت جديراً بذلك يا عمر » وجاء طائفة من الصحابة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) انظر ما ذكره الطبري في تفسير هذه الآية في ٥/١٦٠ - ١٦١ ط الميمنية بالقاهرة .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك ، ودعته إليه ، وأنه أخذ يلومها بعد الفعل ، فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة ، والإنسان تدعوه نفسه في السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لا تدعو إليها علانية ، وعقله ينهاه عن تلك الأفعال ، ونفسه تغلبه عليها .

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل الا فيما خفي عن المخون ، كالذي يخون أمانته فيخون من إئتمنه إذا كان لا يشاهده ، ولو شاهده لما خانه .

قال تعالى : ﴿ يَا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تخونوا الله والرسولَ ، وتَخونوا أمانَاتِكم وأنتم تَعلمونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم ﴾ (٢) وقالت امرأة العزيز : ﴿ ذلكَ لِيَعلَم أني لم أخُنْهُ بالغيبِ ، وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنينَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ يَعلمُ خائنةَ الأعْينِ وما تُخفي الصدورُ ﴾ (٤) .

وقال النبي ﷺ لما قام : « أما فيكم رجل يقوم إلى هذا فيضرب عنقه ؟ » فقال له رجل : هلا أومضت إلي ؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » قال تعالى : ﴿ ولا تُجادِلْ عَنِ الذينَ يَختانونَ أنْفُسَهم إنّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً ، يَسْتَخفونَ مِنَ الناسِ ولا يَسْتَخفونَ مِنَ الله وَهوَ مَعَهُمْ ؛ إذْ يُبَيِّتونَ ما لا يَرضى مِنَ القَوْلِ ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (٥) وفي حديث آخر « على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة والكذب » ومثل هذا كثير .

وإذا كان كذلك فالإنسان كيف يخون نفسه . وهو لا يكتمها ما يقوله ويفعله سراً عنها ؟ كما يخون من لا يشهده من الناس ؟ كما يخون الله والرسول إذا لم يشاهده . فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب . ولم خصت هذه الأفعال بأنها خيانة للنفس دون غيرها ؟ فالأشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله : ﴿ أتختانون أنفسكم ﴾ مثل قوله : ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ .

والبصريون يقولون في مثل هذا : أنه منصوب على أنه مفعول له ، ويخرجون قوله : ﴿ سفه ﴾ عن معناه في اللغة ، فإنه فعل لازم : فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم إلى التعدية بلا حجة .

وأما الكوفيون ـ كالفراء وغيره ومن تبعهم ـ فعندهم أن هذا منصوب على التمييز ، وعندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة ، وذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٣ .

(٣) سورة يوسف الآية ٣٦ .

(٤) سورة غافر الآية ١٩ .

(٥) ورد الحديث في مسلم ١ / ٤٤ ط الحلبي (كتاب الإيمان ، باب خصال المنافق) .

العرب ، مثل قولهم : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه ، ورشد أمره . وكان الأصل سفهت نفسه ، ورشد أمره : ومنه قولهم : غبن رأيه ، وبطرت نفسه ، فقوله تعالى : ﴿ بطرت معيشتها ﴾[(١)] من هذا الباب ، فالمعيشة نفسها بطرت ، فلما كان الفعل نصبه على التمييز قال تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذينَ خَرَجوا مِنْ ديارِهِمْ بَطراً ورِئاءَ الناسِ ﴾[(٢)] فقوله : ﴿ سفه نفسه ﴾ معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة ، فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز ما في قوله : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾[(٣)] ونحو ذلك. وهذا اختيار ابن قتيبة وغيره ، لكن ذاك نكرة وهذا معرفة .

وهذا الذي قاله الكوفيون أصح في اللغة والمعنى ، فإن الانسان هو السفيه نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ سيقولُ السفهاءُ مِنَ الناسِ ﴾[(٤)] ﴿ ولا تُؤتوا السفهاء ﴾[(٥)] فكذلك قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي تختان أنفسكم ، فالأنفس هي التي اختانت ، كما أنها هي السفيهة ، وقال : اختانت ولم يقل خانت ، لأن الافتعال فيه زيادة فعل على ما في مجرد الخيانة ، قال عكرمة : والمراد بالذين يختانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام والقماش، وجعل هو وقومه يقولون : إنما سرق فلان ، الرجل آخر .

فهؤلاء اجتهدوا في كتمان سرقة السارق ورمي غيره بالسرقة ، كما قال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم : إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ فكانوا خائنين للصاحب والرسول وقد اكتسبوا الخيانة .

وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل وهم يجتهدون في أن ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه ، وإن أظهروه فيما بعد عند التوبة ، أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك وإخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله : ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ أي يخون بعضكم بعضاً ، كقوله : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ وقوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ وقوله : ﴿ ولو لا إذ سمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفُسِهُمْ خَيْراً ﴾[(٦)] فإن السارق وأقواماً خانوا إخوانهم المؤمنين .

والمجامع إن كان جامع امرأته وهي لا تعلم أنه حرام فقد خانها ، والأول أشبه . والصيام مبناه على الأمانة ، فإن الصائم يمكنه الفطر ولا يدري به أحد ، فإذا أفطر سراً فقد خان أمانته ، والفطر بالجماع المستور خيانة ، كما أن أخذ المال سراً وإخبار الرسول والمظلوم ببراءة السقيم وسقم البريء خيانة ، فهذا كله خيانة ، والنفس هي التي خانت ، فإنها تحب الشهوة والمال والرئاسة ، وخان واختان مثل كسب واكتسب فجعل الإنسان مختاناً .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٨ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٧ .
(٣) سورة مريم الآية ٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٤٢ .
(٥) سورة النساء الآية ٥.
(٦) سورة النور الآية ١٢ .

ثم بين أن نفسه هي التي تختان ، كما أنها هي التي تضر : لأن مبدأ ذلك من شهوتها ، ليس هو مما يأمر به العقل والرأي ، ومبدأ السفه منها لخفتها وطيشها والإنسان تأمره نفسه في السر بأمور ينهاها عنه العقل والدين فتكون نفسه اختانته وغلبته ، وهذا يوجد كثيراً في أمر الجماع والمال ولهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس ، ويقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه إلى الخيانة في ذلك . قال سعيد بن المسيب : لو ائتمنت على بيت مال لأديت الأمانة ، ولو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها . وكذلك المال لا يؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق .

وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها ، وإن كان الرجل ابتداء لا يقصد الخيانة ، فتحمله على الخيانة بغير أمره ، وتغلبه على رأيه ، ولهذا يلوم المرء نفسه على ذلك ويذمها ، ويقول هذه النفس الفاعلة الصانعة ، فإنها هي التي أختانت .

فصل

ودل قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أنه لا يجوز الجدال عن الخائن ، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة ، لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها ، قال تعالى : ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصدورُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وذَروا ظاهرَ الإثمِ وباطنهُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قلْ إنما حرَّمَ ربيَ الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطنَ ﴾[3] وقد قال تعالى : ﴿ بلِ الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ ، ولو ألقى معاذيرَهُ ﴾[4] فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها ، وهو يبصرها بخلاف ذلك ، وقال تعالى : ﴿ كفى بنفسِكَ اليومَ عليْكَ حسيباً ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبَك قَوْلَهُ في الحياةِ الدنيا ويُشْهِدُ الله على ما في قَلْبِهِ وهو ألدُّ الخِصامِ ﴾[6] .

وقد قال النبي ﷺ : «أبغض الرجال الى الله الألدّ الخصّيم » فهو يجادل عن نفسه بالباطل، وفيه لدد : أي ميل واعوجاج عن الحق ، وهذا على نوعين :

أحدهما أن تكون مجادلته وذبة عن نفسه مع الناس .

«والثاني» فيما بينه وبين ربه ، بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسناً ، وهي خائنة ظالمة ولها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر ، قال شداد بن

(١) سورة غافر الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٤) سورة القيامة الآية ١٤ .

(٥) سورة الإسراء الآية ١٤ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .

أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية ، قال أبو داود : هي حب الرياسة .

• وهذا من شأن النفس حتى أنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جميعاً فَيَحْلِفونَ لهُ كما يَحْلِفونَ لكم ، ويَحْسبونَ أنهم على شيءٍ ، ألا إنهم هُمُ الكاذبونَ، اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فأنساهُمْ ذكرَ الله ، أولئكَ حِزْبُ الشيطان ألا إنّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخاسرونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ويومَ نَحْشُرُهُم جميعاً ثمّ نقولُ للذينَ أشركوا أينَ شُركاؤكم الذينَ كنتم تَزْعمونَ ، ثم لم تكنِ فِتْنَتُهم إلا أن قالوا : والله ربِّنا ما كنّا مُشركينَ ، انْظُرْ كيف كَذَبوا على أنْفُسهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْترونَ ﴾[2] .

وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة ، حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه . وقال تعالى : ﴿ وما كُنْتم تَسْتَتِرون أَنْ يشهَدَ عليكم سمعُكم ، ولا أبصارُكم ، ولا جلودُكم ، ولكنْ ظَنَنْتُمْ أنّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون ﴾[3] .

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والأيمان الفاجرة ، وصفهم الله بذلك في غير موضع . وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ ، وجاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله . فلما جاء كعب قال : والله يا رسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه ،إني أوتيت جدلاً ، ولكن أخاف ان حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال النبي ﷺ : أما هذا فقد صدق ، يعني والباقي يكذبون ، ثم إنه هجره مدة ، ثم تاب الله عليه ببركة صدقه[4] .

فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز : بل إن أذنب سراً بينه و بين الله اعترف لربه بذنبه ، وخضع له بقلبه ، وسأله مغفرته وتاب إليه فإنه غفور رحيم تواب ، وإن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهراً ، وإن أظهر جميلاً وأبطن قبيحاً تاب في الباطن من القبيح ، فمن أساء سراً أحسن سراً ومن أساء علانية أحسن علانية ، ﴿ فإنّ الحسناتِ يُذْهبنَ السيئاتِ ذلك ذِكرى للذاكرين ﴾ .

---

(١) سورة المجادلة الآيات (١٨ ، ١٩) .

(٢) سورة الأنعام الآيات (٢٣ ، ٢٤) .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٢ .

(٤) ذكر ابن إسحاق في تاريخه هذه القصة كاملة خلال حديثه عن غزوة تبوك ، انظر تاريخ ابن اسحاق ٤/٩٤٣ - ٩٦٤ .
وانظر خاصة موقف كعب بن مالك في صفحات ٩٥٨ - ٩٦٠ . ط الحلبي بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .

الفهرس

الجزء الاول :

مقدمة الطبعة الثانية ٧
المقدمة ١١
وصف المخطوطات ١٨
الإمام ابن تيمية (سيرة وتاريخ) ٢١
منهاج ابن تيمية في الالهيات ٣١
منهج ابن تيمية في اثبات وجود الله ٤٧
مذهبه في التوحيد ٥٥
ابن تيمية بين التشبيه والتنزيه ٦٠
مقدمات فهم القرآن
مقدمة أولى (انزل القرآن على سبعة أحرف) ٦٧
مقدمة ثانية (في تحزيب القرآن) وفي (كم يقرأ)
وفي (مقدار الصيام والقيام المشروع) ٧٨
مقدمة ثالثة (في اصح التفاسير) ٨٥
مقدمة رابعة (قواعد كلية في التفسير) فصل في قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول . ٨٩
ولا نبي إلا إذا تمنىٰ ألقىٰ الشيطان في امنيته ﴾ ١٢٠
المقدمة السادسة (في معجزات القرآن) ١٤٥
المقدمة السابعة في ترجمة القرآن ١٦٥
فصل في اسماء القرآن وصفاته ١٦٩
تفسير سورة الفاتحة ١٧١
تفسير سورة البقرة
أولاً (عرض لما تضمنته السورة من معاني) ١٩٥
ثانياً (دقائق تضمنتها السورة) ٢٠٠
دقائق من خواتيم سورة البقرة ٢٤٩

الجزء الثاني :

مقدمة ٢٧٥
سورة آل عمران ٢٧٨
موقف الامم من الرسل ٣١٣
سورة النساء ٣٤٢